العتبة الحسينية المقدسة
قسم الشؤون الدينية
شعبة النشاطات الدينية

الحضور في الغياب

دراسة مقارنة

لمدتي حضور الإمامين علي والمهدي عليهما السلام وغيابهما عن الحكم الظاهري

تأليف
الدكتور امجد حميد الفاضل

إصدارات الشعبة ٤

الحضور في الغياب

دراسة مقارنة

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ

وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾

صدق الله العلي العظيم

الشورى/٢٣

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق - وزارة الثقافة العراقية - ١٨٢٧ لسنة ٢٠١٦

مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda

رقم استدعاء مكتبة الكونجرس: BP38 .09 .H8 .F3 2016

المؤلف الشخصي: الفاضل، أمجد

العنوان: الحضور في الغياب: دراسة مقارنة لمدتي غياب الإمام علي والإمام الحجة المهدي (عليهما السلام) عن الحكم الظاهر

بيان المسؤولية: تأليف: أمجد الفاضل

بيانات الطبعة: الطبعة الأولى

بيانات النشر: كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة - قسم الشؤون الدينية. شعبة النشاطات الدينية. ١٤٣٧هـ = ٢٠١٥م.

الوصف المادي: [٥٨٠] صفحة

سلسلة النشر: (قسم الشؤون الدينية. شعبة النشاطات الدينية؛)

تبصرة ببليوغرافية: يحتوي على هوامش. لائحة المصادر (الصفحات: ٥٦١-٥٧١)

موضوع شخصي: علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الإمام الأول، ٢٣ قبل الهجرة - ٤٠ هجرياً - نظرته حول الحكم.

موضوع شخصي: علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الإمام الأول، ٢٣ قبل الهجرة - ٤٠ هجرياً - الخلافة.

موضوع شخصي: محمد بن الحسن (عجل الله فرجه)، الإمام الثاني عشر، ٢٥٦ - هجرياً - الغيبة.

مصطلح موضوعي: المهدي المنتظر - انتظار.

مصطلح موضوعي: الغيبة - الجوانب النفسية.

مصطلح موضوعي: الغيبة - دراسة مقارنة.

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة الفهرسة والتصنيف

الحضور في الغياب

دراسة مقارنة

لمدتي حضور الإمامين علي والمهدي عليهما السلام وغيابهما عن الحكم الظاهري

تأليف

الدكتور علي رحيم أبو الهيل الجابري

العتبة الحسينية المقدسة
قسم الشؤون الدينية
شعبة النشاطات الدينية

طبع برعاية

العتبة الحسينية المقدسة

العراق: كربلاء المقدسة ـ العتبة الحسينية المقدسة

تنويه: إن الأفكار والآراء المذكورة في هذا الكتاب تعبّر عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر العتبة الحسينية المقدسة

الإهداء

إلى...

ثمرة جهد الأنبياء والمرسلين..

وقرة عين أمير المؤمنين..

وفرحة الزهراء..

وبشارة المعصومين..

والآخذ بثأر الله..

الذي تنتظر القلوب فرحة ظهوره المبين..

سيدي وقرة عيني وملاذ صمتي ونور قلبي وسرّ أملي..

الحجة ابن الحسن المهديّ عليه السلام..

أرواحنا وأرواح العالمين له الفداء والوقاء..

أهدي هذا العمل القليل المتواضع. والطائفية..

إلى شهداء مجزرة سبايكر كي لا يُنسَوا..

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى شأنه في كتابه الكريم: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[1]، صدق الله العلي العظيم وصدق رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين، وبعد:

فإن الله سبحانه قد أفاض علينا من نعمه ظاهرة وباطنة، وكان من نعمه أن عرّفنا إمام زماننا وجعلنا من الشاهدين على كونه القائم بالحق، فبعد أن بلّغ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله خير البلاغ فبشّر وأنذر، جعل الله سبحانه من بعده لكل قوم هاديا من ذريته أولي العصمة الأئمة الأطهار عليهم السلام أجمعين، وجعل معرفتهم حقا واجبا على العالمين، وقرن قبول طاعته من كل مكلف بمعرفة إمام زمانه، ومن لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية.

فكم هي نعمة عظيمة أن عرّفنا الله سبحانه إمام زماننا؟، ولكنها نعمة لابد من أن تقرن بالشكر، فبالشكر تدوم النعم، ولمّا منحنا سبحانه القدرة على البحث

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٧.

والتأليف، كان من الواجب تقديم المستطاع خدمة لقضية الإمام المهدي عليه السلام، الآخذ بالثأر من طواغيت العصر، الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا.

وكان مما وجدت وانا أقرأ السيرة الشريفة للناحية المقدسة، أن هناك تشابها بين إمامة كل من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والحجة المهدي عليه السلام، من حيث الغياب عن الحكم الظاهر رغم الاستحقاق، والعمل بالإمامة زمن الغيبة، وأحوال الناس وحركتهم اتجاه الإمام، وتسلم زمام الحكومة والرئاسة وما مهد له من ظروف، ولعل زمن تسلم الحكم هو أيضا مما يظهر متناغما متشابها بين الإمامين المعصومين عليهما السلام.

ولكني أفردت هذا البحث لمعنى حضورهما إمامين زمن غيابهما رئيسين قائدين، وأسميته (الحضور في الغياب)، مقارنا بين مدتي غيابهما عليهما السلام عن الحكم الظاهر، لعلنا نجد في مدتي الغياب لكل من الإمامين عليهما السلام ما يقودنا إلى معرفة السبل الكفيلة بتعجيل الفرج وإتمام ما على الناس من مهمة ما زالت عالقة ينبغي إنجازها تمهيدا للظهور المبارك، إذ ما دامت أسباب الغياب هي نفسها للإمامين عليهما السلام، فأرجو أن تكون أسباب القيام عندهما نفسها أيضا.

وما أعظم اشتياقي ولهفتي إلى لحظة القيام التي لا يحيط بوصف سرورها وانشراح الصدر لها والتوق إليها مثلُ أمير المؤمنين عليه السلام بقوله متحدثا عن لحظة بيعته، تلك اللحظة التاريخية الكونية العظيمة، التي آمل أن تتكرر عند القيام المقدس لإمامنا المهدي عليه السلام.

يقول أمير المؤمنين: «**وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداككتم علي تداكّ الإبل الهِيم على حِياضها يوم وِردها، حتى انقطع النعلُ، وسَقط الرداءُ، ووُطئ الضعيفُ، وبلغَ من سرور الناس ببيعتهم إيَّايَ أن أبتهج بها الصغيرُ، وهَدجَ إليها الكبير، وتحاملَ نحوَها العليلُ، وحَسِرت إليها الكعاب**»[(١)].

هذه الدراسة جعلتها على بابين، الأول أسميته: جدلية الحضور والغياب، وكان على ستة مباحث، وفيه تناولت حركة الإمامين عليهما السلام، وما كان من فعلهما مما يشكل اتجاه حركة معينة لها خطوطها العريضة الواضحة ولها مراميها في إطار وجهة الحضور والغياب، وكان ذلك في مباحث ثلاثة، رصدت في الأول دواعي الحضور، وفي الثاني أسباب الغياب، وفي الثالث مظاهر الحضور في الغياب، وتناولت حركة المجتمع، وقصدت بها حركة المجتمع في زمانهما في مقابل حركتهما عليهما السلام، وكان ذلك في مباحث ثلاثة أيضا، رصدت فيها الحركة الإيجابية، والحركة السلبية، والانتظار والمبادرة، للتقرب من نشاط الانتظار الذي قام به المجتمع وتحليل نتائجه.

وأما الباب الثاني فأسميته: لوازم القيام، وكان على ستة مباحث أيضا، وقد استنتجت بالاستقراء أنها تتحدد في مباحث تشمل: الحاجة الواعية، وهو مبحث عقدته لدراسة ما يجب على المجتمع الوصول إليه من حاجة إلى الإمام عليه السلام مقترنة بالوعي، والحضور الفاعل، وفيه عرض لأربعة مباحث لمعرفة ما يجعل حضور المجتمع حضورا ذا أثر دافع باتجاه حضور الإمام عليه السلام، وهي مباحث: الحضور النفسي، والحضور العقلي، والحضور القلبي، ومبحث خامس يتناول عددا من أحوال

---

(١) نهج البلاغة:

القلب، والمبحث السادس: النصرة، وفيه تبيان لمعنى نصرة الإمام عليه السلام ومستوياتها وأبعادها الفكرية والتطبيقية، والتي أجملتها في التسليم مقترنا بالرضا والطاعة، والولاية، والبراءة.

وقد وجدت عددا من الباحثين والكتاب يميلون إلى اصطلاح (الموازنة) حين يقايسون بين شخصيتين هما أو بعض ما أنتجا من فكر أو أدب أو فن، وحين تكون الشخصيتان في إطار لغة واحدة، وبيئة ثقافية واحدة، ولكني هنا لم أقصد المقايسة بموازنة أم بغيرها، فغرض ذلك تبيان فضل أحدى الشخصيتين على الأخرى في مضمار معين كالأدب أو الفن، ولست في مقام يسمح لي بالمقايسة بين الإمامين عليهما السلام ولا ذلك من شأني ولا أنا بالقادر عليه.

ولكني هنا قصدت عقد مقارنة بين ما صدر عنهما من حراك ووصلتنا أخباره، لأجد ما اقترن ببعضه من أفعال وأقوال تساوقا وتماثلا من حركتي الإمامين عليهما السلام ومجتمعيهما في مضمار الحضور والغياب، راجيا أن تكون تلك المقترنات المتماثلة مثاباتٍ تدل على طريق الظهور، وبها يعرف سبيل النجاة بالقيام المقدس، معرفة تكون علمية تحليلية، متشحة بإيمان غيبيّ ناصع الإخلاص.

إن مما يلفت في هذه الدراسة أني ابتدأت العمل بها سنة ٢٠٠٨م في كربلاء المقدسة، ولم أنهِ آخر صفحاتها إلا في كربلاء المقدسة متشرفا بهذه البقعة المباركة، وكان الفراغ من التأليف فجر يوم العاشر من رجب عام ١٤٣٦ للهجرة الموافق ليوم الأربعاء ٢٩ / ٤ / ٢٠١٥م ،ببركة مولد الإمام الجواد عليه السلام.

وإنّي لأرجو بهذا العمل أن يوفقني الباري سبحانه لنصرة إمامي الحجة بن الحسن

المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه ولعن عدوه، ونفعنا به، وجعلنا من أنصاره والمستشهدين بين يديه، إن الله بالغ أمره، وهو ولي التوفيق، وأسأله سبحانه أن يحفظ القائمين على خدمة قضية المظلومين والمستضعفين في الأرض، قضية الإمام المهدي سلام الله عليه، ويرفع شأنهم ويمكنهم وينصرهم ويسددهم لما فيه مرضاته وصلاح المسلمين، إنه نعم المولى ونعم النصير، ولله الحمد من قبل ومن بعد.

الدكتور أمجد الفاضل

كربلاء المقدسة / ببركة مولد الإمام الجواد

في العاشر من رجب ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الباب الأول: جدلية الحضور والغياب

المبحث الأول: دواعي الحضور

المبحث الثاني: أسباب الغياب

المبحث الثالث: مظاهر الحضور في الغياب حركة المجتمع

المبحث الرابع: الحركة الإيجابية

المبحث الخامس: الحركة السلبية

المبحث السادس: الانتظار والمبادرة

المبحث الأول: دواعي الحضور

أولا: تصديق النّص.

ثانياً: ضرورة إقامة العدل.

ثالثاً: ضرورة الهداية لإتمام الحجة على الناس.

لكل أمة من الأمم تاريخها الذي لا تجد مناصا منه، لأنه جزء من هويتها، ومصدر من مصادر ثقافتها وعلومها، فالتاريخ ليس تراثا فحسب، بل هو جزء حي تمتد في أعماقه عروق الحاضر، وهو يضرب بنسغه الصاعد إلى أعالي غصون المستقبل، وحين تكون بعض الفروض التاريخية قيد الإنجاز لأنها مازالت عالقة تنتظر المباشرة بإتمامها، فإن التاريخ هنا يمثل سببا متينا لصناعة المستقبل بحركة الحاضر.

لقد أرسل الباري سبحانه رسوله بالحق من عنده، وجعله منذرا، وجعل من أهل بيته من يتولى الهداية: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[1].

وقد نصب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أخاه وابن عمه وصهره الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام هاديا خليفة من بعده وأخذ له البيعة من آلاف

(١) سورة الرعد، الآية: ٧.

المسلمين الحاضرين في حجة الوداع عند غدير خم، على أنه أمير المؤمنين لا تنبغي لأحد غيره من بعده، حتى أن الباري سبحانه تعهد لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بأن يعصمه من الناس المعاندين لإرادة الله ورسوله لأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أشفق منهم خيفة على مشروع الهداية العلوية.

ولكن الباري سبحانه قد ربط بين تبليغ وجوب أمرة المؤمنين لعلي بن أبي طالب عليه السلام وبين تبليغ رسالة الإسلام السماوية وهذا يوضح جلالة قدر أمير المؤمنين عليه السلام من جهة، وعظمة دوره وخطره في تكوين العالم الإسلامي، وجلالة قدر الإمامة هذا المنصب الإلهي وأثره في كينونة الرسالة من جهة أخرى.

وهذا ما وضحته الآية الكريمة التي نزلت لتأمر الرسول صلى الله عليه وآله بالتبليغ في حجة الوداع: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

ونجد أن نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم قد تعهد تبليغ رسالة أخرى لا تقل خطورة عن هذه، إنها بشارة الأنبياء والرسل، بشارة آل محمد، بشارة الصالحين والمظلومين والفقراء والمستضعفين، وأعني بذلك دولة قائم آل محمد صلى الله عليهم وسلم، الذي يملؤها قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا.

روى أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

وآله وسلم: «**لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلما وعدوانا، قال ثم يخرج رجل من عترتي أو من أهل بيتي، يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا**»[(١)].

وهناك أحاديث مستفيضة بشأن البشارة بظهور القائم بالأمر عليه السلام، وفي ذلك مصداق لآي الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[(٢)].

هذا ما ترتب عليه أن يكون حضور أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وحضور ولده الداعي بالحق الآخذ بالثأر أمرا واجبا لدواعي مهمة وملحة نذكر منها:

---

(١) ينظر: مسند أحمد: ٣ / ٣٦، ومثله أبو يعلى: ٢ / ٢٧٤، وابن حبان: ٨ / ٢٩٠ - ٢٩١، والحاكم: ٤ / ٥٥٧، يراجع: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، علي الكوراني العاملي، ط١، قم، ٢٠٠٦م: ١٧٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥.

أوّلاً: تصديق النصّ

لقد نصّ القرآن الكريم على ضرورة عقد إمرة المؤمنين لعلي عليه السلام وأخذ البيعة له من المسلمين عامة في حياة النبي عليه وآله الصلاة والسلام، ومعلوم أن النص القرآني المقدس يمثل أعلى نص تشريعي في الإسلام وهو ملزم بأحكامه للمسلمين جميعا.

وقد كان النص على أمير المؤمنين سلام الله عليه مجملا ومفصلا، فمن حيث الإجمال نجد النصوص الدالة على جليل قدره وضرورة توليه شؤون المسلمين من أجل حفظ بيضة الإسلام، ونسبة الكفر إلى من يمتنع عن الاهتداء بهديه عليه السلام ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

كما نجد ذلك في الآيات التي تخص ذكر المؤمنين بالتقديم، وإذا كان المؤمنون

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

مقدمين في هذه الآيات فإن أولاهم بالتقديم هو إمامهم وسيدهم وأميرهم علي بن أبي طالب عليه السلام، لذلك فإن كل آية تتحدث عن المؤمنين هي تشير أول ما تشير إلى الإمام علي عليه السلام أمير المؤمنين وقائدهم وسيدهم، وبذلك فهو أولى الناس بإبراهيم عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وإن جهنم مصير من يتبع سبيلا غير سبيله عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(٢).

وهو موكل من الله سبحانه لنصرة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وتأييده بقول الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

والله سبحانه يدعو رسوله الأعظم إلى عدم الحرج أو الضيق أو الحزن لقلة المؤمنين، ويخبره أن في الله وفي علي كفاية فلا حاجة إلى الآخرين بقوله تعالى: ﴿يَا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٢.

أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

وهو من الرسول والرسول منه فحين يتطلب من الله سبحانه إنزال السكينة تثبيتا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فإن عليا حاضر مشارك فيها بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴾(٢).

وقد اشترى منه الله سبحانه كل ما لديه مقابل الجنة فهو مخلص لله بأمر الله وتقديره ومشيئته بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٣).

وهو ظهير من الله للرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى على أزواجه فهو صالح المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٤) سورة التحريم، الآية: ٤.

إن النص على إمامة علي عليه السلام قد أتى مفصلا أيضا من قبيل بسط الحديث في القرآن الكريم بشأن صفاته وفضائله وأخلاقه ومكانته وهمته، مما يدلل على ضرورة حضوره إماما في العالم الإسلامي من أجل حل المشكلات الكبرى التي يواجهها، والتي لا تحل إلا بمثل تلك الفضائل، وتلك الصفات والأخلاق، وتلك المكانة الرفيعة والهمة العالية، وما أحوجنا اليوم إلى إمامنا علي عليه السلام ليشع نوره على ظلمات الواقع المرير.

ومن تلك النصوص القرآنية المباركة نجد قوله تعالى الدال على كرم هذا الإمام العظيم، وإخلاص عمله لوجه الله: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾[١].

ونجد جرأته في الحق وثباته شجاعته الباسلة التي جعلت الباري سبحانه يكفي بها المؤمنين القتال يوم الأحزاب: ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[٢].

وهو عند الله عزيز مقرّب له مكانته العليا السامية، حتى أنه موصوف بأنه (نفس النبي) في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ

(١) سورة الإنسان، الآيتان: ٨-٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾[١].

وهذا القرب من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يدل على قربه من الله سبحانه، ومن الآيات الدالة عليه بصفة الهداية للارتباط بالله سبحانه، وفيها توبيخ شديد اللهجة لمن يعدل إلى غيره، أو يتخذ إماما هاديا غيره في زمنه، وهو الهادي بهدى الله، قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[٢].

وهذا التفصيل في الذكر المباشر لبعض الجوانب التي اختصت بها شخصية الإمام عليه السلام – مع التنويه إلى وجود عدد آخر من الآيات التي جاءت مباشرة، ووجود عدد كبير منها جاءت تذكر صفات الإمام بصورة غير مباشرة – إنما هو من أجل إبلاغ الحجة على الناس أن الله سبحانه قد اختار لكم إماما هذه صفاته، وفيها كل ما يلزم لسعادتكم ونجاتكم وفوزكم، في هذه الحياة الدنيا، وفي منازل الآخرة وصولا إلى حيث المستقر في جنة الخلد التي وعد المتقون.

أما فيما يتعلق بنص الحديث النبوي على إمامة علي عليه السلام وضرورة حضوره في الساحة العالمية للإسلام، فهي كثيرة أكثر من أن تحصى، أهمها وأشهرها وأكثرها خطورة كان حديث الغدير الذي سمي بذلك نسبة إلى مكان غدير اسمه (خم)

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٥.

حضره عشرات الآلاف من الحجيج في حجة وداع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أوصى إلى ابن عمه وصهره أمير المؤمنين علي عليه السلام بالخلافة من بعده، وأخذ له البيعة في حياته من عشرات الآلاف من المسلمين الحاضرين[1].

وكان يوم الغدير عيد الله الأكبر، إذ لم يبق مجال للفرقة والاختلاف بين المسلمين، وعنده نزلت آية التبليغ المعروفة ثم بعدها نزلت آية إكمال الدين: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وهكذا يكون حضور الإمام عليه السلام بداعي تصديق النصّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو الصادر عن الحقّ جلّ وعلا.

وفيما يتعلق بالنص الوارد بشأن الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه، فقد روي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام وروي عن النعماني عنه عليه السلام أن آية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ

(١) ينظر: الكافي: ١: ٥٢٩. وتراجع موسوعة الغدير للعلامة الأميني رحمه الله ففيها ما يستغنى به من الشواهد والحجج قوة وكثرة.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[١].

نزلت في عليّ وأولاده عليهم السلام، وأنها في ظهور القائم عليه السلام[٢].

وكذلك الآية الكريمة: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾[٣].

هي في المهدي عليه السلام وأصحابه، يملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها ويظهر الدين ويميت البدع ولا يبقي أثرا للظلم، كما روي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام[٤]، وكذلك الآية الكريمة: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾[٥].

فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في معنى الذين استضعفوا: **«هم آل محمد يبعث الله مهديهم بعد جهدهم فيعزهم ويذل عدوهم»**[٦]، وهناك عدد آخر من الآيات الأخرى الدالة على ضرورة خروجه عليه السلام لإحياء الدين ونصرة المؤمنين، ولابد من حضوره سلام الله عليه تصديقا للنص القرآني المقدس.

وأما أهم نصوص الأحاديث الواردة في ضرورة إمامة المهدي عليه السلام فمما

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٥.

(٢) ينظر: الكافي: ١: ١٩٣. وإثبات الهداة: ١: ٨١. وتأويل الآيات: ١: ٣٦٨.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٤) ينظر: بحار الأنوار: ٢٤: ١٦٥. والمحجة: ١٤٣، وتفسير القمي: ٤٧: ٥١.

(٥) سورة القصص، ألآية: ٥.

(٦) ينظر: بحار الأنوار: ٥١: ٥٤. وغيبة الطوسي: ١١٣.

روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم في مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري: **«لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلما وعدوانا»**، قال: **«ثم يخرج رجل من عترتي أو من أهل بيتي يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا»**[١]، والأحاديث بهذا الشأن كثيرة ومنقولة في كتب الفريقين من رواة الحديث[٢]، ولاسيما ما ترويه كتب الخاصة، ومما نقلته كتب العامة نذكره للفائدة رغم الإطالة:

في غاية المرام عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«يكون في أمتي المهدي عليه السلام إن قصر عمره فسبع وإلا فثمان وإلا فتسع، تتنعم أمتي في زمانه نعيما لم يتنعم مثله قط البر والفاجر، ترسل السماء مدرارا ولا تدخر الأرض شيئا من نبات»**.

وفي الفصول المهمة لابن صباغ عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: **«يخرج المهدي عليه السلام وعلى رأسه غمامة فيها ملك ينادي هذا خليفة الله المهدي فاتبعوه»**.

وعن أبي أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«بينكم وبين الروم أربع هدن، تتم الرابعة على يد رجل من أهل هرقل، تدوم سبع سنين»**، فقال له رجل من عبد القيس يقال له المستور بن غيلان: يا رسول الله من إمام الناس يومئذ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«المهدي من ولدي، ابن أربعين سنة، كأن وجهه كوكب دري، في خده الأيمن خال أسود، عليه عباءتان قطويتان، كأنه من رجال بني**

---

(١) مسند أحمد: ٣: ٣٦. وينظر: أبو يعلى: ٢: ٢٧٤. والحاكم: ٤: ٥٥٧.

(٢) ينظر لمزيد من التوسع في البحث: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي، علي الكوراني العاملي: ١٧٥ وما بعدها.

إسرائيل، يستخرج الكنوز ويفتح مدائن الشرك».

وفيه عنه عليه السلام قال: «**لا تقوم الساعة حتى يملك رجل من أهل بيتي القسطنطينية وجبل الديلم، ولو لم يبق إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يفتحها**».

وفيه عنه عليه السلام قال: «**سيكون بعدي الخلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك جبابرة، ثم يخرج المهدي عليه السلام من أهل بيتي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا**».

وفيه عنه صلى الله عليه وآله قال: «**تتنعم أمتي في زمن المهدي عليه السلام نعمة لم تتنعم مثلها قط، يرسل السماء عليهم مدرارا، ولا تدع الأرض شيئا من نباتها إلا أخرجته**».

وفيه عن هارون العبدي قال: أتيت أبا سعيد الخدري فقلت له: هل شهدت بدرا؟ قال: نعم، قلت: أفلا تحدثني بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام وفضله؟ قال: بلى أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وآله مرض مرضه الذي فقد منها، فدخلت عليه فاطمة عليها السلام وأنا جالس عن يمين النبي صلى الله عليه وآله، فلما رأت فاطمة عليها السلام ما برسول الله من الضعف خنقتها العبرة حتى بدت دموعها على خدها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما يبكيك يا فاطمة؟**»، قالت: «**أخشى الضيعة يا رسول الله**»؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا فاطمة إن الله اطلع على الأرض اطلاعة على خلقه فاختار منهم أباك فبعثه نبيا، ثم اطلع ثانية فاختار منهم بعلك فأوحى إلي أن أنكحه فاطمة فأنكحته إياك واتخذته وصيا، أما علمت أنك بكرامة الله إياك زوجك أغزرهم علما وأكثرهم حلما**

وأقومهم سلما»؛ فاستبشرت، فأراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يزيدها عن مزيد الخير الذي قسمه الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله فقال لها: **«يا فاطمة، ولعلي ثمانية أضراس»** - يعني مناقب - **«إيمانه بالله ورسوله وحكمته وزوجته وسبطاه الحسن والحسين وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، يا فاطمة إنا أهل بيت أعطينا ست خصال لم يعطها أحد من الأولين، ولم يدركها أحد من الآخرين غيرنا، نبينا خير الأنبياء ووصينا خير الأوصياء وهو بعلك، وشهيدنا خير الشهداء وهو عم أبيك، ومنا من له جناحان يطير بهما في الجنة حيث يشاء وهو جعفر، ومنا سبطا هذه الأمة وهما ابناك، ومنا مهدي [هذه] الأمة الذي يصلي خلفه عيسى ابن مريم عليه السلام»**، ثم ضرب على منكب الحسين وقال: **«من هذا مهدي هذه الأمة»**.

وفي عمدة ابن بطريق عن صحيح مسلم وغيره عن أبي نضرة قال: كنا عند جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يوشك أهل العراق أن لا يجبى إليهم قفيز ولا درهم، قلنا: من أين؟ قال: من قبل العجم، يمنعون ذلك، ثم قال: يوشك أهل الشام أن لا يجبى إليهم دينار ولا مد؛ قلنا: من أين؟ قال: من قبل الروم، ثم سكت هنيئة، ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«يكون في آخر أمتي خليفة يحثو المال حثوا لا يعده عدا»**.

وعنه صلى الله عليه وآله: **«يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده»**.

وفيه عن تفسير الثعلبي في تفسير ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ قال: (سين سناء المهدي عليه السلام، قاف قوة عيسى حين ينزل فيقتل النصارى ويخرب البيع).

وفيه أيضا عن الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ

فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾[١].

وذكر حديث البساط ومسيرهم إلى الكهف ويقظتهم ثم قال: قال: وأخذوا مضاجعهم فصاروا إلى رقدهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي عليه السلام فقال: إن المهدي يسلم عليهم فيحييهم الله عز وجل، ثم يرجعون إلى رقدهم ولا يقومون إلى يوم القيامة.

وفيه عن أم سلمة عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **«المهدي من عترتي من ولد فاطمة»**.

وفيه عنه صلى الله عليه وآله قال: **«المهدي مني وهو أجلى الجبهة، أقنى الأنف يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، يملك سبع سنين»**.

وفيه عنه عليه السلام قال: **«يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليهم بعثا إلى الشام، فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال [الشام] وعصائب أهل العراق فيبايعونه، ثم ينشأ رجل أخواله كلب فيبعث إليه بعثا فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب، والخيبة لمن يشهد غنيمة كلب، فيقسم المال ويعمل بسنتي أو قال بسنة نبيهم، ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض فيثبت سبع سنين، وعن بعض الرواة تسع سنين»**.

وفيه عن النبي صلى الله عليه وآله في قصة المهدي قال: **«فيجئ إليه الرجل فيقول يا مهدي أعطني، فيجي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله»**.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠.

وفيه عنه صلى الله عليه وآله قال: **«المهدي طاووس أهل الجنة»**.

وفيه عنه صلى الله عليه وآله قال: **«المهدي من ولدي، وجهه كالقمر الدري، اللون لون عربي، والجسم جسم إسرائيلي، يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، يرضى بخلافته أهل السماوات والأرض والطير في الجو، يملك عشرين سنة»**.

وفيه عنه صلى الله عليه وآله قال: **«يصيب هذه الأمة بلاء حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم، فيبعث إليه رجلا من عترتي فيملأ به الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، يرضى عنه ساكن السماوات والأرض، لا تدع السماء من قطرها شيئا إلا صبته مدرارا ولا تدع الأرض من نباها شيئا إلا أخرجته حتى يتمنى الأحياء للأموات، تعيش في ذلك سبع سنين أو تسع سنين»**.

وفيه عن الصحاح من قول النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: **«كيف هلك أمة أنا أولها والمهدي أوسطها والمسيح آخرها»**.

ولا يتوهم أن عيسى يبقى بعد المهدي، وذلك لا يجوز، لأن المهدي إذا كان إمام آخر الزمان ومات فلا إمام بعده.

مذكور في رواية أحد من الأئمة، فقد بقيت الأمة بغير إمام، وهذا ما لا يمكن أن الخلق تبقى بغير إمام، فإن قيل: إن عيسى عليه السلام يبقى بعده وتقتدي الأمة به، فغير ممكن أيضا لأن عيسى لا يجوز أن يكون إماما لأمة محمد صلى الله عليه وآله، ولو كان ذلك جايزا لانتقلت الملة المحمدية إلى ملة عيسى، فلا يمكن أن يكون ذلك.

وذلك لا يقوله عاقل ولا محصل، بل للخبر معنى صحيح يحمل عليه وهو أنه قد

تقدم معنى من الأخبار في هذا الباب أن عيسى ينزل وقد صلى الإمام - وهو المهدي - بالناس العصر وقيل: الصبح، فيتأخر فيقدّمه عيسى ويصلي عيسى خلفه.

وما نزل عيسى على مقتضى هذه الأخبار إلا بعد نفوذ دعوة الإمام واجتماع الناس عليه، فيكون مصدقا لدعوة الإمام دعواه، وقوة له وعونا إلا أنه لا يغير شيئا مما جاء به النبي صلى الله عليه وآله، فيكون فائدة الخبر أن النبي أولها لأنه هو الداعي إلى الإسلام، والمهدي أوسطها وإن كان آخر الأئمة فجعله وسطا إذ ظهوره قبل نزول عيسى فيكون في نزوله آخر المصدقين بهذه الملة، والمهدي عليه السلام قبله صدق بهذه الملة قبل نزوله، والنبي فهو صاحب الملة لا بد أن يكون أولا، فعلى هذا يكون آخر المصدقين والمعتنين لأنه آخر الأمة.

يشهد بصحة هذا التأويل لفظ الخبر لأنه قال: كيف تهلك أمة أنا أولها والمهدي أوسطها والمسيح آخرها، والمسيح ليس من أمتنا هذه وإنما نبيها منها بلا خلاف لأنه إمام آخر الزمان، ومن ولد رسول الله، ومن ولد علي وفاطمة، والمسيح ليس من النبي صلى الله عليه وآله ولا من علي وفاطمة، ولا من أمة محمد صلى الله عليه وآله، بل هو آخر من ينزل لنصرة ملة محمد وآخر من يدعو إليها، لأن المهدي يكون قبل نزوله وقد تبعت الأمة وقد دخلت تحت أمره ونهيه، بدليل ما ورد في هذه الأخبار الصحاح أن المسيح يصلي خلفه، إما صلاة الصبح أو صلاة العصر كما تقدمت الرواية، فصار آخر هذه الأمة داعيا ومصدقا، لأنه منفرد ببقاء الدولة، والنبي أول داع إلى ملة الإسلام والمهدي أوسط داع والمسيح آخر داع، فهذا معنى هذا الخبر، فلله الحمد والمنة.

وفيه عنه صلى الله عليه وآله قال: «**لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت**

جورا وظلما».

أقول: أورد أن بعض هذه الصفات لا ينطبق عليه (عليه السلام)، فإن اسم أبيه عليه السلام لا يوافق اسم والد النبي صلى الله عليه وآله، ويمكن أن يجاب شيوع إطلاق لفظ الأب على الجد الأعلى كقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[1].

وفي حديث الإسراء أن جبرئيل قال: **«هذا أبوك إبراهيم»**.

ويمكن أن يجاب: إطلاق الاسم على الكنية واللقب كما سمي علي أبو تراب فكان كنية أبيه أبو محمد كما كان كنية أبا النبي صلى الله عليه وآله أبو محمد، ويمكن أن يكون أبي مصحف ابني كما هو الظاهر.

وفيه عنه صلى الله عليه وآله قال: **«المهدي من عترتي ومن ولد فاطمة»**.

وقال صلى الله عليه وآله: **«المهدي منّا أهل البيت، يصلحه الله عز وجل في ليلة»**.

وعن الحمويني عن ابن عباس قال: (قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ: **«إن علي بن أبي طالب إمام أمتي وخليفتي عليها بعدي، ومن ولده القائم المنتظر الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، والذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا الثابتون على القول بإمامته في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر»**. فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يا رسول الله وللقائم من ولدك غيبة؟ قال ـ صلى الله عليه وآله ـ: **«إي وربي ليمحص الذين آمنوا ويمحق الكافرين، يا جابر إن هذا الأمر من أمر الله وسرّ من سرّ الله علته مطوية عن عباده فإياك والشك، فإن الشك في أمر الله**

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

عز وجل كفر»).

وعنه أيضا عن حسن بن خالد (عن علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «**لا دين لمن لا ورع له، ولا إيمان لمن لا تقية له، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، أي أعملكم بالتقية**». فقيل: إلى متى يا بن رسول الله؟ قال - عليه السلام -: «**إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم خروج قائمنا، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا**». فقيل له: يا بن رسول الله ومن القائم منكم أهل البيت؟ قال - عليه السلام -: «**الرابع من ولدي، ابن سيدة الإماء، يطهر الله به الأرض من كل جور ويقدسها من كل ظلم، وهو الذي يشك الناس في ولادته، وهو صاحب الغيبة قبل خروجه، فإذا خرج أشرقت الأرض بنوره ووضع ميزان العدل بين الناس فلا يظلم أحد أحدا، وهو الذي تطوى له الأرض ولا يكون له ظل، وهو الذي ينادي مناد من السماء يسمعه جميع أهل الأرض للدعاء إليه يقول: ألا إن حجة الله قد ظهر عند بيت الله فاتبعوه فإن الحق فيه ومعه، وهو قول الله**: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[1]»).

وعن تفسير الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[2]، قال: «**ذاك عيسى ابن مريم**»، وروى ذلك جماعة.

قال: وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار وضحاك: وإنه لعلم للساعة، أي أمارة وعلامة.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٦١.

في الحديث: أن عيسى ينزل بثوبين مهرودين أو مصبوغين بالهرد وهو الزعفران.

وفي الحديث أيضاً: ينزل عيسى في ثنية من الأرض المقدسة يقال لها: اثبني وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين وبيده حربة وهي التي يقتل بها الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وآله، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنايس ويقتل النصارى إلا من آمن به.

وبرواية: يقبض أموال القائم ويمشي خلفه أهل الكهف، وهو الوزير الأيمن للقائم وحاجبه ونائبه ويبسط في المشرق والمغرب الأمن كرامة الحجة بن الحسن عليه السلام.

أقول: فإن قال معترض: هذه الأحاديث النبوية متفق على صحتها ومجمع على نقلها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي صحيحة صريحة في كون المهدي عليه السلام من ولد فاطمة عليها السلام وأنه من رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه من عترته وأنه من أهل بيته وأن اسمه يواطئ اسمه وأنه يملأ الأرض قسطا وعدلا وأنه من ولد عبد المطلب وأنه من سادات الجنة وذلك مما لا نزاع فيه، غير أن ذلك لا يدل على أن المهدي الموصوف بما ذكر من الصفات والعلامات هو هذا أبو القاسم محمد بن الحسن الحجة الخلف الصالح، فإن ولد فاطمة كثيرة، وكل من يولد من ذريتها إلى يوم القيامة يصدق عليه أنه من ولد فاطمة وأنه من العترة الطاهرة وأنه من أهل البيت، فيحتاجون مع هذه الأحاديث المذكورة إلى زيادة دليل يدل على أن المهدي المراد هو الحجة المذكور ليتم مرامكم.

فجوابه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما وصف المهدي عليه السلام

بصفات متعددة من ذكر اسمه ونسبه ومرجعه إلى فاطمة وإلى عبد المطلب، وأنه أجلى الجبهة أقنى الأنف، وعدد من الأوصاف الكثيرة التي جمعتها الأحاديث المذكورة آنفا، وجعلها علامة ودلالة على أن الشخص الذي يسمى بالمهدي وثبتت له الأحكام المذكورة هو الشخص الذي اجتمعت تلك الصفات فيه، ثم وجدنا تلك الصفات المجعولة علامة ودلالة مجتمعة في أبي القاسم محمد الخلف الصالح دون غيره فيلزم القول بثبوت تلك الأحكام وأنه صاحبها، وإلا فلو جاز وجود ما هو علامة ودليل ولا يثبت ما هو مدلوله قدح ذلك في تعينها علامة ودلالة من رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك ممتنع.

ثم أقول: سلمنا لكن مع انضمام الأخبار الآتية عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بأعيان الأئمة في الفرع الرابع من طرق أهل السنة والجماعة يثبت المدعى والمطلوب[1].

إن تضافر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على ضرورة إمامة كل من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحجة المهدي المنتظر عليهما السلام يؤكد دون أدنى شك عظمة الدور الموكول إلى كل منهما، فأمير المؤمنين هو المؤسس لدولة الهدى، والمهدي هو القائم بأمر هذه الدولة، وكثيراً ما قرنت بينهما الأحاديث النبوية الشريفة، مما يستدعي العناية بهذه النصوص باعتبار أنها نصوص مقدسة تنقل إلينا الحقائق التي لا تعتورها الشكوك مما يوجب التعبد بهذه النصوص، وأعني بالتعبد بها أي جعلها موضع طاعة وامتثال لما جاء فيها من حقائق وأوامر ونواهي، ومن ذلك أنها نصوص توجب على كل من الإمامين والمجتمع المسلم في عصريهما الحضور الفاعل لإتمام دولة

(١) يراجع: إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب، الشيخ علي اليزدي الحائري، قم: ١٤٩ وما بعدها.

الإسلام، دولة الوعد الإلهي بالقسط والعدل.

فضلا عن أن وجود مثل هذه النصوص المؤكدة لحقيقة الإمامة لعلي عليه السلام وأولاده المعصومين من بعده هي أمر عقلائي لازم لنفي العبث عن الواجب المقدس، فشريعة تمنى بكل هذه الأمثلة الفاشلة للدول التي أخرجتها، والقيادات التي أنتجتها هي بالتأكيد شريعة منحرفة عن الخط الإلهي، وإلا لكانت حققت مراميها في العدل والنجاة والفوز لكل الناس في الدنيا والآخرة، وهذا ما لم يتحقق بعد، فيستلزم ذلك وجود خط الإمامة، ووجود القائم بالحق ضرورة لإقامة العدل، تعالى الله عن الظلم وأهله علوا كبيرا.

ثانياً: ضرورة إقامة العدل

إن من أهم الدواعي إلى حضور الإمامين في ساحة العمل المجتمعي هو داعي إقامة العدل، بل لعله أكثر الأسباب الموجبة للحضور، وأشهرها وأوسعها انتشارا واشتهارا، لأنه منصوص عليه بالذات.

إذ يروى عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قوله: **«لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي، يملؤها عدلا كما ملئت جورا»**[1].

ومعظم الأحاديث المروية عنه وعن آل بيته صلى الله عليه وعليهم تنص على مهمة نشر العدل ومحق الظلم، ففيما يتعلق بزمن أمير المؤمنين عليه السلام فقد بلغ الظلم في الناس بعد الرسول الأعظم أنهم اختلطت عليهم سنن الله بسنن البشر، وبلغت بهم الفتنة قتل رؤسائهم وقتل بعضهم بعضا.

حتى إذا جاء معاوية بن أبي سفيان ففعل ما فعل من فضائع الأمور وكبريات الجرائم المنافية للإسلام وباسم الإسلام!

(١) ابن أبي شيبة: ١٥: ١٩٨. وينظر: مسند أحمد: ١: ٩٩.

فقد اغتال الإمام الحسن عليه السلام مستعملا السم، بوساطة جعدة بنت الأشعث بن قيس التي كانت زوجة الإمام الحسن عليه السلام[١]، على الرغم من علمه أنه سيد شباب أهل الجنة بنص الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

كما عمد معاوية بن أبي سفيان إلى قتل كل محب لعلي بن أبي طالب عليه السلام، إذ (دعا بسر بن أبي أرطأة وكان قاسي القلب فظا سفاكا للدماء لا رأفة عنده ولا رحمة، فأمره أن يأخذ طريق الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهي إلى اليمن، وقال له: لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاء لهم وأنك محيط بهم، ثم اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبى فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا)[٢].

ثم أنه أحرق دار أبي أيوب الأنصاري[٣]، وقتل الصحابي الجليل عمرو بن الحمق[٤]، وقد جمع بين قبور المسلمين واليهود في مقبرة واحدة[٥]، وقد مارس سياسة التجويع ضد المسلمين عامة والصحابة المؤمنين خاصة فيما يشبه بالإبادة الجماعية عبر الحصار الاقتصادي الشديد[٦].

---

(١) ينظر: النزاع والتخاصم، المقريزي: ٣٦، وينظر لابن كثير: البداية والنهاية: ٨: ٤٧، والكامل: ٣ ٣١٥، والمنتظم لابن الجوزي: ٥: ٢٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي: ٢: ٦.

(٣) م. ن.: ٢: ١٠.

(٤) ينظر: الاشتقاق للزجاج: ٤٧٤، والنزاع والتخاصم للمقريزي: ٥٦.

(٥) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٧: ٢١٤.

(٦) ينظر: معاوية، عبد الباقي الجزائري: ٢٣٨.

ومن قتلهم معاوية بغير السم ظلما وعدوانا وهم من الصحابة مما يظهر حجم الظلم والفساد الذي انتشر في زمنه: عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة، ومحمد بن أبي بكر بن أبي قحافة، ومحمد بن أبي حذيفة، وعبد الرحمن بن عديس البلوي(١).

وتترى الجرائم الكبرى التي ارتكبها معاوية ضد الأئمة من أهل بيت النبوة عليهم السلام وأصحابهم وتابعيهم، وتتوالى الجرائم ضد الإنسانية وجرائم الإبادة الجماعية التي أمر بها وأوقعها بالمسلمين عامة، من أجل أن يحتفظ هو ومن معه من عقبه بالرئاسة ظلما وعدوانا، ومن أجل أن يحقق رغباته راح يسعى فسادا في الأرض، فهذا ديدنه وديدن آبائه، وهكذا فقد وضع معاوية ومن أعانه على الرئاسة عددا من السنن الظالمة التي أسست للظلم والعدوان والفساد في الأرض، وأصبح قتل المؤمنين من محبي الرسول الأعظم وآله صلى الله عليهم وسلم أجمعين سنة متبعة لطواغيت الأرض في كل العصور إلى يومنا هذا.

وليس أدل على ذلك من جرائم الذبح التي يمارسها خوارج هذا العصر بحق زوار أبي عبد الله الحسين عليه السلام، أفليس من الضروري بعد كل هذا أن يقوم الإمام بالأمر؟ أليس حضور الإمامة واجبا في مثل هذه الأحوال من أجل إبطال الفساد وأهله ونصرة الحق وأهله؟ ولذلك فقد وجب حضور كل من أمير المؤمنين والمهدي عليهما السلام لنشر القسط والعدل، بعد أن انتشر الظلم والجور.

---

(١) للتوسع ينظر: معاوية، عبد الباقي الجزائري: وما بعدها ٢٣٩.

ثالثاً: ضرورة الهداية لإتمام الحجة على الناس

إن داعي الهداية من الدواعي المهمة لحضور الإمامين في ساحة العمل الإسلامي لاسيما بعد تكاثر الفتن وتواترها، وقد وردت آيات قرآنية عديدة تحذر من الفتنة والانقلاب على الأعقاب، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(1). وهذا يقتضي أن يخلف الرسول الأعظم من يكون أمينا على الرسالة الإسلامية عالما مقتدرا مسددا، فالفتن قادمة ليس من داخل الأمة الإسلامية فقط بل من خارجها أيضا، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(2).

والهداية تقتضي من الأئمة حضورهم وتقتضي من المسلمين اتباعهم وجوبا،

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾(١). وليس هنالك هدى إلا هدى الله ومن نصبه للهداية، وأما من يدعوها كذبا وزورا فليس لهم طاعة على الناس بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢).

ونحن نلاحظ أن دين الله لم ينتشر بعد في الأرض كلها، بل إن أديانا كثيرة منتشرة أكثر منه، ومنها ديانات شرك وضلالة، على الرغم من قوله تعالى - وقوله الحق -: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾(٣). ونجد أن الوعد بإحباط أعمال الذين كفروا مقيد بسين الاستقبال في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾(٤).

وحين نعود إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٤) سورة محمد، الآية: ٣٢.

رَبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾[١].

نجد أن الآية الكريمة تؤكد مهمة الإنذار للرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومهمة الهداية موكولة للهداة الذين توضح الآية ارتباطهم بكل قوم مما يعني تعدد أدوار ووحدة هدف، وهذا ما نجده حين نتمعن في إمامة أهل البيت عليهم السلام وحضورهم امتدادا لحضور الإمام علي عليه السلام امتثالا لأمر نبي الرحمة عليه وآله الصلاة والسلام. هذه أهم دواعي الحضور التي لا يمكن إغفالها، وهي كما رأينا تجعل من حضور الإمام ضرورة لابد منها.

إن دواعي الحضور تجعلنا نطمئن إلى الحضور الكامل الفعال للإمامين عليهما السلام، ولكن الحقيقة التاريخية التي نعيش تداعياهّا تؤكد أن كلا من أمير المؤمنين والمهدي عليهما السلام غاب عن الحضور الفعلي في رأس السلطة ابتداء، ولكل منهما مدة غياب، الأولى معروفة والثانية مجهولة، ويمكن التعرف على النتائج الناجمة عن غيابهما بوساطة النظر العميق والتحليل الدقيق، سواء من خلال النظر إلى دواعي الحضور، أو إلى أحداث التاريخ المؤلمة وما حفلت به من فجائع مدمرة وفتن مهلكة ومؤامرات مضلة، وهذا يجعلنا نبحث في دواعي الغياب وأسبابه على الرغم من أهمية الحضور للتعرف على الحكمة من وراء ذلك.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٧.

المبحث الثاني: أسباب الغياب

أولاً: غلبة أهل الباطل.

ثانياً: مظلات الفتن.

إنّ الله سبحانه خلق الإنسان ليعمّر الأرض وينشر الصلاح، وبذلك يحقق عبادته التي تقتضي الخير كل الخير لبني الإنسان، ولأن هناك من بني الإنسان من جحدوا ولاية الله وأبوا أن يطيعوه في تحقيق العدالة وتنفيذ حقوق الإنسان، وواجباته التي شرعها الباري سبحانه لمنفعة الإنسان، فقد أوجب تعالى شأنه إمامة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، للقيام بمهمة قيادة الأمة نحو الصلاح والإصلاح، (لأن طبيعة البشر تهوي به إلى أسفل ولا يكفيها وجود شريعة محفوظة في الأسفار، بل لابد من تجسيد تلك الشريعة في إنسان يتمتع بتفوق تشريعي يعطيه صلاحية تطبيق الشريعة على الناس، إذ لابد لكل قانون من مطبّق نافذ الكلمة وإلا عاد القانون حبرا على ورق)[1].

ولكن عددا من الأسباب دعت إلى غياب الأئمة عن القيام بأعباء الإدارة المباشرة لشؤون الحياة، متمثلا بالغياب عن الحكم الظاهر، أما من حيث الإجمال فيمكن القول: (إن كل عملية تغيير اجتماعي يرتبط نجاحها بشروط وظروف موضوعية لا يتأتى لها أن تحقق هدفها إلا عندما تتوفر تلك الشروط والظروف، وتتميز عمليات

(١) الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، محمد تقي المدرسي: ٢٦٧.

التغيير الاجتماعي التي تفجرها السماء على الأرض بأنها لا ترتبط في جانبها الرسالي بالظروف الموضوعية، لأن الرسالة التي تعتمدها عملية التغيير هنا ربانية، ومن صنع السماء، لا من صنع الظروف الموضوعية، ولكنها في جانبها التنفيذي تعتمد الظروف الموضوعية ويرتبط نجاحها وتوقيتها بتلك الظروف.

ومن أجل ذلك انتظرت السماء مرور خمسة قرون من الجاهلية حتى أنزلت آخر رسالاتها على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأن الارتباط بالظروف الموضوعية للتنفيذ كان يفرض تأخرها على الرغم من حاجة العالم إليها منذ فترة طويلة قبل ذلك.

والظروف الموضوعية التي لها أثر في الجانب التنفيذي من عملية التغيير منها ما يشكل المناخ المناسب والجو العام للتغيير المستهدف، ومنها ما يشكل بعض التفاصيل التي تتطلبها حركة التغيير من خلال منعطفاتها التفصيلية)[١].

ولذا فإن عدم تحقق تلك الظروف الموضوعية يكون مدعاة لتأخر الظهور وسببا في استمرار غياب الإمام عليه السلام.

ومن هذه الأسباب التي تمثل الواقع الإنساني المعيش، والتي تؤثر باتجاه الغياب: غلبة أهل الباطل، ومضلات الفتن، والغربلة التي بها يسعد المؤمنون ويشقى المبطلون، وتمحيص الحق ونزعه عن الباطل الذي تشبه به والتبس فيه، وترك الناس ليجربوا كل طاقاتهم وأفكارهم وطرقهم في إدارة شؤون الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ثم ليبدأ مشروع السماء، مشروع دولة العدل الإلهي، ولنتحدث عن سببين رئيسين للغياب نرى أنهما يضمان تحتهما أغلب الأسباب المتفرعة الأخرى.

---

(١) البحث حول المهدي عج، السيد الشهيد محمد باقر الصدر، تحقيق د. عبد الجبار شرارة، ط١، ١٩٩٦م: ١٥- ١٦.

أوّلاً: غلبة أهل الباطل

لم تكن الإمامة منصبا رئاسيا، وهي ليست ملكا ولا عطاء دنيويا يراد منه إغناء المنصَّب ملكا، ولذلك لم تكن الإمامة مفروضة بالقهر ابتداء، إذ (كما لم يشأ الله أن يكره الناس على الهدى في عهد الرسول إبقاء لهم على النعمة الكبرى الموهوبة لهم وهي نعمة الحرية، فكذلك لم يشأ أن يجبرهم على إتّباع الإمام جبرا؛ وهكذا أبقى على الإمام الأخير صاحب الزمان عجل الله فرجه، إتماما لحجته على خلقه وتوفيرا لمنتهى ما يمكنهم أن يبلغوه من سعادة الدنيا والآخرة، غير أن الحكام شرّدوا الأئمة عليهم السلام وقتلوهم وأزالوهم عن مراتبهم ولم يستفيدوا من علومهم وكفاءاتهم، فكان مثل الأئمة بينهم كمثل سراج يطفئه طاغية فلا يستفيد منه الناس)[1].

وقد شاء الباري سبحانه أن تكون الدنيا دار بلاء يعمل فيها الناس بحريتهم تماما كما أن كثيرا من الأنبياء عليهم السلام لم يرد الله إجبار أممهم على إتباعهم، فكان أن غلب أهل الباطل بكثرة عددهم وكثرة أموالهم على أهل الحق، ثم إن في أهل الباطل

---

(١) م. ن.: ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

جرأة على الله ورسوله بحيث هم مستعدون لفعل أية جريمة مهما كانت بشعة في سبيل الرئاسة والملك، في حين أن أهل الحق ينأون بأنفسهم عن الشبهات، ولا يقربون الحرمات، ويمتنعون عن خوض الفتن، بل إن من صفات الإمام الحق قطع دابر الفتنة، وتوضيح الشبهات، وتبيان سبيل الحق.

وهذا ما يجعل الإمام مبتعدا عن سفك الدماء مثلا للحصول على القيادة، وإن حقن دماء المسلمين لما يسرّ أهل الحق ولو كانت دونه الظلامة المؤلمة، وهذا ما شهده التاريخ فيما سجله من حوادث بدءا بأحوال المسلمين ساعة رحيل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إلى بارئه سبحانه، وما تلا ذلك.

فلولا رغبة الإمام علي عليه السلام في حقن دماء المسلمين، ولولا تكالب أهل الدنيا عليها واستعدادهم لسفك الدماء من أجلها، لما غاب سلام الله عليه عن الحكم الظاهر بعد الرسول صلى الله عليه وآله مباشرة، وهو خير من يعبّر عن هذه القضية بقوله واصفا ضعف أنصاره وقلتهم وكثرة أهل الباطل وقوتهم وإيثاره للصبر ابتغاء مرضاة الله.

من خطبة له تسمى الشقشقية إذ يقول سلام الله عليه: **«فَطَفِقْتُ أَرتئي بين أَنْ أَصُولَ بِيدٍ جَذّاءَ أَو أَصبرَ على طَخْيَةٍ عَمياءَ يَشيبُ فيها الصغيرُ ويَهرمُ فيها الكبيرُ ويَكدحُ فيها مُؤمنٌ حتّى يلقى ربَّه، فرَأَيتُ أَنّ الصَّبرَ على هَاتا أَحجَى، فَصَبرتُ وفي العين قَذًى وفي الحلق شجاً، أَرى تُراثي نَهبا»**[(١)].

فقد مثّل عليه السلام قلة أنصار الحق باليد الجذّاء (المقطوعة) التي لا تمكن

(١) نهج البلاغة: ج١: الخطبة المعروفة بالشقشقية: ١٠.

صاحبها من الصولة، أو إذا صال فإنه لا يحقق مراده، ومثل خياره الآخر بالصبر على داهية عظيمة تصيب الناس وتعميهم عن سبيل الحق، حتى أنها ليشيب فيها الصغير ويهرم الكبير من هولها وخطر أمرها، ويكدح فيها مؤمن - ولعله أشار إلى نفسه - عليه السلام، حتى يلقى ربه، والكدح العمل المنهك شديد الوطأة، فكان خياره عليه السلام الصبر ولكنه صبر يرافقه قذى العين، وتوسط الشجا (عظمة طائر دقيقة مدببة الطرفين) في الحلق، وهي صورة صعبة الاحتمال، شديدة الألم، ولكنه اختار هذا المنحى لأنه أحجى، أي أقرب إلى الحجى (وهو العقل والحكمة)، وهذا من مقتضيات العدالة التي يتمتع بها سلام الله عليه، ولعلنا اهتدينا إلى نور هذه الحكمة فنوجزه بهذه الفائدة:

لقد جنّب أمير المؤمنين عليه السلام أبناء الأمة اختبارا كانوا لاشكّ من الخاسرين فيه، وهو اختبار المواجهة مع الحق، ومحكّ الاختيار بين عليّ الذي يدور معه الحق حيث دار، وبين سواه، وهل سوى الحق إلا الباطل؟ وهل بعد الهدى سوى الضلال؟!، ولم يشأ سلام الله عليه أن يعرّض الناس للمواجهة معه، ويقينا لو شاء ذلك لأرغم الأنوف بسيفه، ولكسّر أصنام البشر كما كسّر أصنام الحجارة بعزمه، ولبسط يده على طول الدولة وعرضها بحنكته وحكمته وخبرته وعلمه، ولما استطاع أن ينجو أحد من حد سيفه إلا بالرضوخ له والإذعان بين يديه، ولكن حكمته اقتضت أن يتحمّل الظلامة هو وزوجه ووِلدُه من بعده، بدلا من أن يشقى الناس بما لا يقدرون عليه من الصبر على البلاء ومكاره أنواع الابتلاء، فأية رحمة اتسع لها قلبك سيدي يا أمير المؤمنين؟..، وبأي ظلم جازتك الأمة بجهلها وشقائها!

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يتمكن من تحشيد من يعينه لينهض بأمر القيادة

والحكم الظاهر، ولم تكن الغاية أن يتولى الأمر فحسب، ولكن الأهم هو أن تعي الناس أهمية هذا التولي، والاعتقاد الثابت الراسخ بهذه الولاية، ومن ثم السير بهدى هذا الإمام، وهذا ما لم يتحقق، فكانت النتيجة أن تولي الحكم الظاهر لم يتحقق أيضا، فحركة المجتمع امتثالا لأوامر الله سبحانه الصادرة مع حججه الباهرة ودلائله الواضحة هي التي تستوجب الرحمة وتحققها، وعصيانهم مع علمهم هو الذي يجلب لهم النقمة، ويخطأ من يظن أن سنة الله سبحانه وتعالى غير ذلك، إذ يقول جلّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[1].

فغاب أمير المؤمنين عن الحكم الظاهر والقيادة المباشرة بسبب قلة الناصر، ولم تجدِ كلُّ محاولاته لتجديد ما طمس من معالم الدين الإسلامي بسبب جهل القيادات وطغيانها، تلك التي تسلمت الحكم بالقوة والمكر بعد الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله، وابتعاد الناس عن الهمّة في تنفيذ أمر الله، وهذا أيضا ما كان من سبب رئيس في غياب الحجة المهدي سلام الله عليه إذ لابد للحق من أنصار، عملا بسنة الله سبحانه وتعالى في التغيير، التي تعرضها الآية الكريمة.

لقد عانى الإمام المهدي سلام الله عليه من غلبة أهل الباطل على أهل الحق، فقد كان الطاغوت متحكما في أهواء الناس وتصرفاتهم، فقد تبنى الطاغوت تسمية الإسلام، ولكنه طرح مفاهيمه الخاصة تحت هذه التسمية، ولا أعتقد أن أحدا سيجد

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

شيئا ذا بال إذا نحينا عن الطرح الطاغوتي لمعنى الإسلام نوازع الجاهلية وعداوة أهل بيت النبي عليهم صلوات الله وسلامه، فهما ركيزتان أساسيتان اعتمدتا لجعل الناس يؤمنون بالطاغوت على أنه الممثل الشرعي لحكم الله في الأرض، ثم بعد ذلك حصلت للناس الولاية للطاغوت متمثلة بالانصياع التام لأوامره، بل لقد بلغ الطاغوت الحاكم لدى بعض الناس مراحل متسافلة في الضلالة مثل الاحتكام إلى الطاغوت بشأن أولياء الله!، أو حتى عبادة الطاغوت حتى قتال أولياء الله من أجله!..»[1].

وإذا كان الطاغوت قد بلغ هذه المرحلة من الناس الذين ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2].

زمن أمير المؤمنين عليه السلام فإن ذلك مازال جاريا زمن الإمام المهدي سلام الله عليه، فقد تكالب الأعداء على الأئمة وشددوا الخناق والتضييق عليهم وعلى أتباعهم، وأصبحت قضية الإمام الحسين عليه السلام قضية المظلومين والمضطهدين، وأصبح كل من يذكرها يعد عدوا للسلطان أمويا كان أم عباسيا أم غير ذلك ممن تبعهم، و(عندما اقترب تسلسل أئمة العترة عليهم السلام من الثاني عشر، تفاقم خوف السلطة العباسية ولهذا أجبروا الإمام علي الهادي وولده الإمام الحسن عليهما السلام على الإقامة في العاصمة سامراء (سرّ من رأى) التي كانت تسمى العسكر، فعرفا بلقب العسكريين، ثم

---

(١) ينظر: مراحل الطاغوت، حاتم الحسني، مجلة سبيل: عدد ٩، ٢٠٠٨ م.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

بدا للخليفة العباسي أن يقتل الإمام الهادي عليه السلام وشدد الرقابة على ولده الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ثم قرر الخليفة بعده أن يقتله ليستريح منه ويمنع ولادة الإمام الثاني عشر الموعود حتى لا يكون زوال ملكهم على يده!، وليس بعيدا أن تكون السلطة هددت الإمام العسكري عليه السلام بالقتل إن هو تزوج، وكانوا يتصورون أنه سيتزوج إمرأة قرشية ليكون أولاده منها كما يفعل شخصيات قريش، لأن ابن الجارية ليس له تلك المكانة، لكن الإمام عليه السلام أعتق جاريته نرجس الرومية وتزوجها، وشاء الله أن يكون ولده المهدي عليه السلام منها)[1].

وهذه صورة من صور التضييق السلطوي، وهي كفيلة بأن تظهر لنا غلبة أهل الباطل التي تستمر في تصاعد زمن الإمام المهدي عليه السلام، لتصل إلى حد تجييش الجيوش من كل الأعراق والجنسيات ومن كل حدب وصوب لقتال كل من ينتمي إلى خط الإمام الحجة عليه السلام، ومحو كل ما يتصل به من ثقافة، وإبادة كل من يمكن أن ينصره حال ظهوره المقدس، وهي أوضاع نعيشها هذه الأيام، وهي توضح بلا شك غلبة أهل الباطل وطغيانهم، مما أوجب عليه الغياب عن الحكم الظاهر ومازال حتى كتابة هذه السطور ينتظر الفرج ونحن معه من المنتظرين نرجو الله له بالتعجيل والنصرة، ونسأل الله سبحانه أن يوفقنا لامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه، والالتحاق بركب سفينة النجاة.

إن غلبة أهل الباطل على أهل الحق، جعلت الغياب ضرورة عن الحكم الظاهر، من أجل أن يتم وعد الله سبحانه، بوجوب أن يكون التغيير نابعا من الناس أنفسهم بهمة تحركها القناعة التامة والإيمان الراسخ، فليس من العدالة في شيء قيادة الناس إلى

---

(١) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عليه السلام: ٧٨٨-٧٨٩.

الحق قسرا، لاسيما أنهم سيحاسبون على أعمالهم فيثابون ويعاقبون، وهذا يتطلب أن يكون عملهم حرا من دون إجبار الجهة التي ستحاسبهم فيما بعد، وهي جهة الله سبحانه وتعالى، ولابد أن يرى الناس عواقب أعمالهم في الدنيا قبل الآخرة، حتى إذا أيقنوا أن لا نجاة إلا مع آل محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين، توجهوا بأنفسهم وأموالهم لنصرة القائم بالحق، وتكون حينئذ دولة الحق استحقاقا واجبا للناس، وبذلك يتم الوعد الإلهي.

ثانياً: مضلات الفتن

لقد كانت صورة الحال واضحة للمسلمين بعد أن أتم الله نعمته وأكمل دينه بتولية أمير المؤمنين وأخذ البيعة له من المسلمين عقيب حجة الوداع.

ولكن الدسائس والمكائد التي بيتها الحزب القرشي، كانت كفيلة بحرف الناس عن جادة الحق واستمالتهم إلى أولئك الذين أسلموا لما لم يجدوا بدا من الإسلام وسيلة للعودة إلى السلطة مجددا، والإفادة مما قد توفره عقيدة الإسلام من تنظيم للناس وانتشار وتوسع، وسيطرة على الخلق، فقد (عرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو على فراش المرض على أمته كنزا لم يعرضه نبي على أمته أبدا! : أن تطيعه فيكتب لها عهدا وبرنامجا، ويضمن لها أن تكون على الهدى ولا تضل أبدا، وأن تكون سيدة الأمم إلى يوم القيامة! فواجهه عمر بن الخطاب ورفض ذلك، وأيده طلقاء قريش وكانوا قد كثروا في المدينة وصاحوا القول ما قاله عمر! لا تقرّبوا له دواة ولا قرطاسا، حسبنا كتاب الله، أي نرفض سنته ولا نريد أن يكتب لنا عهدا!

وقد دافع أتباع الخلافة عن موقف عمر ضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما زالوا إلى اليوم! وقد رواه البخاري في ست مواضع من كتابه!

ومع أن الأمة رفضت أن تدخل في التأمين الإلهي لمستقبلها ووضعت نفسها عن علم وعمد وسبق إصرار في وسط رياح الضلال والفتن، فقد حرص النبي الرؤوف بأمته صلى الله عليه وآله وسلم على تحذيرها من الصراع وسفك الدماء على السلطة، كالحديث الذي رواه الطبراني في الكبير، ومسند الشاميين، عن واثلة ابن الأسقع قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«تزعمون أني آخركم موتا! وإني أولكم ذهابا، ثم تأتون من بعدي أفنادا! يقتل بعضكم بعضا»**(١).

ونجد أن أمير المؤمنين سلام الله عليه يعبر عن هذه الفتن المضلة بقوله: **«لقد تقمصها مني ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير، فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا، وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء يشيب فيها الصغير ويهرم فيها الكبير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه»**(٢).

ويقول عليه السلام واصفا ما مني الناس به من مضلات الفتن أيام ثاني خلفاء قريش: **«فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس تقحم، حتى لقد مني الناس بتلون واعتراض وتخبط وشماس»**(٣).

---

(١) المعجم الكبير: ٦٩/٢٢، مسند الشاميين: ١٢٤/٣، المعجم الموضوعي لأحاديث المهدي عليه السلام: ١٣١ - ١٣٢.

(٢) نهج البلاغة: من الخطبة الشقشقية.

(٣) المصدر السابق.

ثم إنه يُسأل عن قتل ثالث خلفاء قريش بعد ثورة الصحابة عليه ودفنه في مقبرة لليهود فيقول: «**لو أمرت به لكنت قاتلا، ولو نهيت عنه لكنت ناصرا، غير أن من خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير مني، ومن نصره لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ولكني جامع لكم أمره: استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع**»[1].

وهذا يؤكد أن قتلة عثمان والمتخاذلين عنه خير من أنصاره، ويوضح حجم الفتن والضلالات التي محقت الأمة وأزلتها عن مكانتها السامية التي أرادها لها الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله.

فكانت تلك الفتن المضلة سببا في ابتعاد الإمام علي عليه السلام عن القيادة وغيابه عن الحكم الظاهر، حتى أنه بقي كذلك إلى أن أيقن الناس بخلاصهم معه، ونجاتهم باتباعه، فتوجهوا إليه باختيارهم ومحض إرادتهم، وقد وصف حركتهم تلك بقوله: «**فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون**»[2].

فكم كانت الفتن عاصفة بأهواء الناس !، وما على الإمام قيام إلا بشروط ومقدمات سيأتي ذكرها إن شاء الله في متن هذا البحث.

أما حين نأتي إلى زمن غياب الإمام المهدي سلام الله عليه، فنجد أن الفتن قد تناسلت وازدادت وضجت بالناس، حتى لقد ملئت الأرض ظلما وجورا لفرط البعد

---

(١) نهج البلاغة: الشقشقية.

(٢) نهج البلاغة: الشقشقية.

عن الرسالة السماوية المتعلقة بالقرآن الكريم من جهة وبالعترة النبوية الطاهرة من جهة أخرى، وقد (اتفقت مصادر المسلمين كلها على أن مهمة الإمام المهدي عليه السلام أن يملأ الأرض قسطا وعدلا بعد أن تكون ملئت ظلما وجورا، وهذا بنفسه دليل على أن ظهوره عليه السلام يكون بعد فتنة عامة وأن الجبابرة قبله يملؤون الأرض ظلما وجورا.

وامتلاء الأرض بالظلم مفهوم عرفي يصدق على أكثر عصور الأرض، فقد قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١]، أما في عصرنا فقد ظهر الفساد في البر والبحر والجو وامتلأت الأرض بالجور حتى غصت)[٢].

ومن الروايات الثابتة بشأن الفتن آخر الزمان – وهي كثيرة – نجد كما أورده السيد ابن طاووس في الملاحم والفتن: (ذكر رسول الله صلى الله عليه – وآله – وسلم هرجا بين يدي الساعة حتى يقتل الرجل جاره وأخاه وابن عمه، قالوا: ومعنا عقولنا؟، قال: تنزع عقول أكثر أهل ذلك الزمان ويخلف لهم هباء من الناس يحسب أنه على شيء وليس على شيء)[٣].

فلاحظ كيف أن الفتن تنزع من الناس عقولهم لشدة ظلمتها وتخبط الناس فيها!.

وإذا أردنا تخصيص القول بالفتن السابقة للظهور الشريف نجد: عن أبي سعيد

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٢) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عليه السلام: ١٣٤.

(٣) الملاحم والفتن، السيد ابن طاووس، مؤسسة صاحب الأمر، أصفهان، ١٩٩٥م.

الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أبشركم بالمهدي يبعث في أمتي على اختلاف من الناس وزلازل فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما»[1].

وهنا نلفت إلى واحدة من الفتن التي أفاد منها بعض الصحابة لتحقيق مآربهم، وصارت فيما بعد ملجأ للطواغيت إذ يرومون تسيير أهواء الناس حيث شاؤوا، إذ (لاشك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حذّر أمته من الفتن الآتية بعده، فقد أجمع المسلمون على ذلك ورووا أحاديثها، لكن جاء بعض الصحابة والرواة وطبقوها على رأيهم، وبذلك صارت أحاديث الفتن من الفتن!

وصار علينا أن نبحث عن رأي أهل البيت عليهم السلام للنجاة منها! فأبو موسى الأشعري أخذ يثبط أهل الكوفة عن الانضمام إلى أمير المؤمنين عليه السلام في حرب الجمل مع طلحة والزبير وعائشة.

والنعمان بن بشير الأنصاري والضحاك بن قيس الفهري وهما وزيرا معاوية، اختلفا مع بني أمية بعد موت يزيد بن معاوية، وبايعا ابن الزبير وحشدا جيشا لمحاربة الأمويين، وكان الضحاك واليا على دمشق والنعمان على حمص، فحاربهما مروان وقبائل كلب الشامية وقتلوهما واستعادوا السيطرة على الشام!

وأبو هريرة الذي كان مع معاوية ضد علي عليه السلام ثم مع بني مروان حتى غضبوا عليه في آخر عمره فكان يروي لعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم وتحذيره

---

(١) مسند أحمد: ٣: ٣٧.

من فتنة أغيلمة قريش وحكم الصبيان[١].

وقد استمرت الفتن المضلة تعصف بالمسلمين حتى لقد استغل كثيرون أحاديث الإمام المهدي، وادعوا المهدوية ومازالوا يفعلون، مما يؤكد أن الناس ليسوا على هدى، وليس عندهم إيمان بالحق الذي أفاض في توضيحه الله ورسوله وأهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وأنهم مازالوا مولعين بالسلطة، ومستعدين لسفك الدماء من أجلها، وتتصل الفتن المضلة بزمن الإمام المهدي عليه السلام.

ويروى في ذلك (عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلاء يصيب هذه الأمة حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم، فيبعث الله رجلا من عترتي من أهل بيتي فيملأ به الأرض قسطا كما ملئت ظلما وجورا، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض)[٢].

إذن لابد من الغربلة!، ... **«لتغربلن»**.. وليس أفضل من الفتن لقوم قل تمسكهم بإمام زمانهم لغربلتهم وإسقاط الفاسد منهم وثبات الصالح، وإن سلسلة الفتن والاضطرابات كفيلة بجعل الناس يؤمنون بأنهم غير قادرين على النجاة إن هم اعتمدوا على غير الهداة المهديين من أهل البيت عليهم السلام، ولن تنتهي تلك الفتن ولن تهدأ الاضطرابات ولن تتبدد الضلالات إلا بتوجه الناس إلى إمامهم المنتظر بقلوب صادقة وبأعمال صالحة، فإنه ينتظر كما هم منتظرون، هو ينتظر الإذن الإلهي بالقيام، وهم ينتظرون طلعته البهية.

---

(١) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عليه السلام: ١٣٥ـ ١٣٦.

(٢) م. ن.: ١٥٣.

ولكن سنن التاريخ تستوجب حصول الحراك الواعي اللازم من جهة المنتظرين لإنجاز الأمر، وإن آخر الفتن هي التي تسبق عصر الظهور وتكون قريبة منه، فهي (فتنة عامة شاملة لكل أوضاع المسلمين الأمنية والثقافية والاقتصادية، حيث تستحل فيها المحارم كلها... وحيث أنها صماء عمياء... تشمل الجميع وتطبق عليهم وتدخل كل بيت، وتصك بضربتها شخصية كل مسلم، وتموج بمجتمع المسلمين موجا شديدا كمور السفينة في البحر المضطرب، ولا يجد أحد ملجأ من خطرها على دينه ودين أسرته)[1].

ولكن الانتظار الفاعل الواعي للإمام الحجة عليه السلام هو الذي يكفل حفظ الدين فهو يتيح مراقبة النفس وتهذيبها وحسن اتصالها بالله سبحانه والعمل الخالص لوجهه الكريم، ومن ثم النجاة الحقيقية ببلوغ رضاه عزّ وجلّ، إنه سريع الرضا قابل التوب غافر الذنب سبحانه وتعالى له الحمد وله الشكر.

---

(١) عصر الظهور، الشيخ علي الكوراني العاملي، مكتب الاعلام الإسلامي، ط١، ١٩٨٩م: ٣٥-٣٦.

المبحث الثالث

مظاهر الحضور في الغياب

أولاً: الهداية وإسداء النصيحة.

ثانياً: قضاء حوائج الناس وحفظ حقوقهم.

ثالثاً: تربية الناس ودفعهم نحو التكامل.

إن غياب كل من الإمام علي عليه السلام أكثر من عقدين ونصف، والإمام المهدي عليه السلام أكثر من أحد عشر قرنا من الزمان عن الحكم الظاهر لم يمنعهما من مزاولة نشاطات الإمامة ومهمات الهداية، وفعل الخيرات، ومساعدة الناس، على الرغم من ظلامة ضياع الحق وغصب الحكم، وقلة الناصر، وضيق الحال، واشتداد العداوات، وقد كثرت الروايات بإجماع المسلمين على أن عليا عليه السلام كان أيام غيابه عن الحكم الظاهر علما هاديا، وعالما قاضيا، وحكيما ناصحا ووليا مرشدا، ولرب قائل مبطل يزعم بعد الإمامين عليهما السلام عن القيام بأي نشاط مع بعدهما عن الرئاسة والحكم الظاهر، فنرد عليه:

على الرغم من تواتر الأخبار التي ينقلها الصحابة والتابعون والمحدثون عن أنشطة أمير المؤمنين عليه السلام المختلفة، وتواتر الأخبار كذلك نقلا عن النبي الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وآله محدثا عن أخبار الإمام المهدي عليه السلام في آخر الزمان، ونقلا عمّن عاصر زمن الإمام العسكريّ الحسن وولده الحجة المهدي زمن غيبته الصغرى عليهما السلام، أقول فضلا عن الأدلة النقلية المتواترة، على تلك

الأنشطة والحركات الفاعلة للإمامين عليهما السلام، فإن في دواعي الحضور التي ذكرناها أسبابا عقلية مهمة توجب قيامهما بكثير من الأعمال الضرورية وإن لم تكن السلطة والحكم تحت تصرفهما.

ولربما يكون قول المضللين في إمامة المهدي المنتظر عليه السلام أشد، فقد بلغ القول بالمرجفين حدّ أنهم جعلوا وجوده كعدمه بسبب طول غيبته، مع أن (الأمر بخلاف ما ظنوه، وذلك أن غيبته لا تخلّ بما صدقت الحاجة إليه من حفظ الشرع والملة، واستيداعها له وتكليفها التعرف في كل وقت لأحوال الأمة، وتمسكها بالديانة أو فراقها لذلك إن فارقته، وهو الشيء الذي ينفرد به دون غيره كافة رعيته، ألا ترى أن الدعوة إليه إنما يتولاها شيعته وتقوم الحجة بهم في ذلك ولا يحتاج هو إلى تولي ذلك بنفسه، كما كانت دعوة الأنبياء عليهم السلام تظهر نايبا عنهم والمقرين بحقهم... ولا يحتاجون إلى قطع المسافات لذلك بأنفسهم، وقد قامت أيضا نايبا عنهم بعد وفاتهم وتثبت الحجة لهم في ثبوتهم بامتحانهم في حياتهم وبعد موتهم، وكذلك إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام، وقد يتولاها أمراء الأئمة وعمالهم دونهم، كما كان يتولى ذلك أمراء الأنبياء عليهم السلام وولاتهم... فمن وجد منهم قائما بذلك فهو في سعة من الاستتار والصموت، ومتى وجدهم قد أطبقوا على تركه وضلوا عن طريق الحق فيما كلفوه من نقله ظهر لتولي ذلك بنفسه ولم يسعه إهمال القيام به.

وشيء آخر وهو: أنه إذا غاب الإمام للخوف على نفسه من القوم الظالمين فضاعت لذلك الحدود واهملت به الأحكام ووقع به في الأرض الفساد فكان السبب

لذلك فعل الظالمين دون الله عز اسمه، وكانوا المأخوذين بذلك المطالبين به دونه)[١].

ولذا فقد قام الإمامان أمير المؤمنين والحجة بن الحسن عليهما السلام بما استطاعا القيام به بأنفسهما وبمن أطاعهما، وتركا ما لم يطاعا فيه ولم يكن لهما سبيل إلى تحقيقه، مع الالتفات إلى مسألة في غاية الدقة هنا وهي أن موضوع عمل الإمام وساحة فعله هي الناس أنفسهم فإن لم يمكنوه من أنفسهم فليس له سبيل إلى فعل الخير لهم فلاحظ!

ومن تلك النشاطات التي أوجبتها مسؤولية الإمامة ويمكن عدّها من مظاهر الحضور في الغياب الأمور التالية.

(١) المسائل العشر في الغيبة، الشيخ المفيد، تحقيق: فارس الحسون، مركز الابحاث العقائدية، قم، ١٩٩٣م: ١٠٥ ـ ١٠٧.

أولاً: الهداية وإسداء النصيحة

ليس من عادة أهل البيت عليهم السلام وهم الكرماء أن يبخلوا على محتاج بما عندهم، فكيف بهم والعطاء الذي تحتاجه الأمة هو ما عندهم من العلم والحكمة، والنصح والهدى؟

لذلك فقد عمل كل من الإمامين عليهما السلام في سنوات غيابهما عن الحكم الظاهر على هداية الناس وإسداء النصيحة، وممارسة القيادة الروحية والأخلاقية للأمة حتى لا تتعطل حدود الله، وحتى لا ينتشر الفساد، وذلك بقدر ما أتيح من فرصة، لأن السلطان الحاكم لم يكن يسمح بذلك إلا في حدود ضيّقة، لئلا يفتضح أمره وينكشف عجزه، ومن ذلك أنه في زمن ثاني خلفاء قريش: (أُتِيَ بِحَامِلٍ قَدْ زَنَتْ فَأَمَرَ بِرَجْمِهَا فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **«هَبْ لَكَ سَبِيلٌ عَلَيْهَا أَيُّ سَبِيلٍ لَكَ عَلَى مَا فِي بَطْنِهَا؟! وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾[1]**؛ فَقَالَ عُمَرُ لاَ عِشْتُ لِمُعْضِلَةٍ لاَ يَكُونُ لَهَا أَبُو حَسَنٍ، ثُمَّ قَالَ: فَمَا أَصْنَعُ بِهَا؟ قَالَ ـ عليه السلام ـ:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

«احْتَطْ عَلَيْهَا حَتَّى تَلِدَ فَإِذَا وَلَدَتْ وَوَجَدْتَ لِوَلَدِهَا مَنْ يَكْفُلُهُ فَأَقِمِ الْحَدَّ عَلَيْهَا»(١).

ولم يتردد أمير المؤمنين في إسداء النصيحة حتى لأعدائه من أجل أن ينتفع بالنصيحة الناس وتقام العدالة، ومن ذلك (أن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى أبي موسى الأشعري أن ابن أبي الجسري وجد على بطن امرأته رجلا فقتله، وقد أشكل حكم ذلك على القضاة، فسأل أبو موسى عليا عليه السلام، فقال: **«والله ما هذا في هذه البلاد – يعني الكوفة وما يليها – وما هذا بحضرتي، فمن أين جاء هذا؟»**، قال: كتب إليّ معاوية أن ابن أبي الجسري وجد مع امرأته رجلا فقتله، وقد أشكل ذلك على القضاة... فقال علي عليه السلام: **«إن جاء بأربعة يشهدون على ما شهد وإلا دفع برمته»**)(٢).

وهذا يؤكد – وأخبار كثيرة أخرى تروى – أن الهداية الحقيقية إلى النجاة، إلى العدالة، إلى الحق، هي مع الإمام المنصب من الله سبحانه، المفترض الطاعة، المعصوم عن الزلل والخطأ، وأنه يؤدي دوره حاضرا بإمامته، وإن كان غائبا عن منصب الرئاسة.

أما عن الإمام المهدي سلام الله عليه، فقد كان التضييق عليه أشد وطأة، ولم يكن الناس حديثي عهد برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما جعل التأريخ المحرف والأحاديث الموضوعة، والسنن الضالة المبدعة، تعمل عملها في حرف المسير عن الصراط المستقيم وإخراجه عن جادة الصواب إلى صحراء الهلكة.

ولذلك فإن الإمام المهدي سلام الله عليه لم يكن يوجه الهدى والنصيحة إلى الحاكمين الذين اطمأن رؤوس القوم ومن أعانهم من الناس إلى طغيانهم وتبعوا

---

(١) الارشاد للمفيد: ٩٧ – ٩٨، وبحار الأنوار للمجلسي: ٤٠: ٢٥١.

(٢) قضاء أمير المؤمنين للتستري: ٥١.

ضلالتهم من دون رادع يمضي في أنفسهم لردعها عن الانحراف، ولكنه سلام الله عليه كان يوجه نصحه إلى سفرائه وعلماء شيعته ورواة حديثه، وهناك من الروايات الموثوقة ما يؤكد نصحه عليه السلام للناس مباشرة، فيما تقتضيه عدالة السماء وللمهمات من الأمور التي يعجز غيره عن تقديم المساعدة فيها.

ومن ذلك توقيعاته الشريفة التي كان يقدمها لسفرائه الأربعة في غيبته الصغرى، وفيها من النصح والإرشاد والحكمة ما لا يخفى، ومن ذلك ما يروى من أجوبته على عدد من المسائل الشائكة والفتاوى الصعبة، وبها تبين الحق من الباطل، والهدى من الضلالة[1].

وهو وإن كان غائبا في الظاهر، إلا أن له فائدة عظيمة للناس، وهدى لهم من الضلال، يروى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: **«أقرب ما يكون العبيد إلى الله عزّ وجل وأرضى ما يكون عنهم إذا افتقدوا حجة الله فلم يظهر لهم، وحجب عنهم فلم يعلموا بمكانه، وهم في ذلك يعلمون أنه لم تبطل حجج الله ولا بيناته، فعندها فليتوقعوا الفرج صباحا ومساءً، وإنّ أشدّ ما يكون غضبا على أعدائه إذا أفقدهم حجته فلم يظهر لهم، وقد علم أن أولياءه لا يرتابون ولو علم أنهم يرتابون ما أفقدهم حجته طرفة عين»**.

وفيه: عن جابر الجعفي عن جابر الأنصاري أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله: هل ينتفع الشيعة بالقائم (عج) في غيبته؟ فقال صلى الله عليه وآله: **«إي والذي بعثني بالنبوة إنهم لينتفعون به، ويستضيئون بنور ولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن**

---

(١) ينظر: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عليه السلام: ٨٦٥ وما بعدها.

جللها السحاب».

أقول: التشبيه بالشمس المجللة بالسحاب يومئ إلى أمور كما يستفاد من كلمات العلامة المجلسي رحمه الله:

الأول: أن نور الوجود والعلم والهداية يصل إلى الخلق بتوسطه عليه السلام، إذ ثبت بالأخبار المستفيضة أنهم العلل الغائية لإيجاد الخلق، فلولاهم لم يصل نور الوجود إلى غيرهم، وببركتهم والاستشفاع بهم والتوسل إليهم يظهر العلوم والمعارف على الخلق، ويكشف البلايا عنهم، فلولاهم لاستحق الخلق بقبائح أعمالهم أنواع العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[(١)].

ولقد جربنا مرارا لا نحصيها أنه عند انغلاق الأمور وإعضال المسائل والبعد عن جناب الحق تعالى وانسداد أبواب الفيض لما استشفعنا بهم وتوسلنا بأنوارهم، فبقدر ما يحصل الارتباط المعنوي بهم في ذلك الوقت تنكشف تلك الأمور الصعبة، وهذا معاين لمن أكحل الله عين قلبه بنور الإيمان.

الثاني: كما أن الشمس المحجوبة بالسحاب مع انتفاع الناس بها، ينتظرون في كل آن انكشاف السحاب عنها وظهورها ليكون انتفاعهم بها أكثر، فكذلك في أيام غيبته ينتظر المخلصون من شيعته خروجه وظهوره في كل وقت وزمان ولا ييأسون منه.

الثالث: أن منكر وجوده مع وفور ظهور آثاره، كمنكر وجود الشمس إذا غيبها

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

السحاب عن الأبصار.

الرابع: أنّ الشمس قد تكون غيبتها في السحاب أصلح للعباد من ظهورها لهم بغير حجاب، فكذلك غيبته (عج) أصلح لهم في تلك الأزمان، فلذا غاب عنهم.

الخامس: أن الناظر إلى الشمس لا يمكنه النظر إليها بارزة عن السحاب، وربما عمي بالنظر إليها لضعف الباصرة عن الإحاطة بها، فكذلك شمس ذاته المقدسة ربما يكون ظهوره أضر لبصائرهم، ويكون سببا لعماهم عن الحق، وتحتمل بصائرهم الإيمان به في غيبته كما ينظر الإنسان إلى الشمس من تحت السحاب ولا يتضرر بذلك.

السادس: أن الشمس قد تخرج من السحاب وينظر إليها واحد دون واحد، فكذلك يمكن أن يظهر عليه السلام في أيام غيبته لبعض الخلق دون بعض.

السابع: أنهم كالشمس في عموم النفع وإنما لا ينتفع بهم من كان أعمى، كما فسر به في الأخبار قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[1].

الثامن: أن الشمس كما أن شعاعها يدخل البيوت بقدر ما فيها من الروازن والشبابيك، وبقدر ما يرتفع عنها من الموانع، فكذلك الخلق إنما ينتفعون بأنوار هدايتهم بقدر ما يرفعون الموانع عن حواسهم ومشاعرهم التي هي روازن قلوبهم من الشهوات النفسانية والعلائق الجسمانية، وبقدر ما يدفعون عن قلوبهم من الغواشي الكثيفة الهيولانية، إلى أن ينتهي الأمر إلى حيث يكون بمنزلة من هو تحت السماء يحيط به شعاع

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

الشمس من جميع جوانبه بغير حجاب.

فقد فتحت لك من هذه الجنة الروحانية ثمانية أبواب، ولقد فتح الله عنّي بفضله ثمانية أخرى تضيق العبارة عن ذكرها، عسى الله أن يفتح علينا وعليك في معرفتهم ألف باب، يفتح من كل باب ألف باب.

وعن ابن عمير عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قلت له: ما بال أمير المؤمنين عليه السلام لم يقاتل مخالفيه في الأول؟ قال عليه السلام: **«لآية في كتاب الله عز وجل** ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[1]**»**؛ قال: قلت: وما يعني بتزيلهم؟ قال عليه السلام: **«ودايع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين، [ومنافقين فلم يكن علي عليه السلام ليقتل الآباء حتى يخرج الودايع فلما خرج ظهر على من ظهر، وقتله] فكذلك القائم لن يظهر أبدا حتى تخرج ودايع الله عز وجل، فإذا خرجت ظهر على من ظهر من أعداء الله عز وجل جلاله فقتلهم»**[2].

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

(٢) إلزام الناصب بإثبات الحجة الغائب: ٣٧٨.

ثانياً: قضاء حوائج الناس وحفظ حقوقهم

إنّ واحدا من مقتضيات الإمامة قضاء حوائج الناس وحفظ حقوقهم، حتى وإن لم يكن الإمام هو السلطان، وهذا يتطلب أن يكون المستفيد من قضاء الحاجة من علق قلبه بمودة أهل البيت عليهم السلام، وصفت نيته بالتقرب إلى الله بحبهم وطاعتهم.

وحين نأتي إلى أمير المؤمنين عليه السلام نجد أنه كان يقوم بالكثير من الأعمال زمن غيبته دون أن يستحقر عملا أو يضنّ بمساعدة.

فقد عمل أمير المؤمنين عليه السلام على حفر الآبار لاستصلاح الأراضي للزراعة، نافعا الناس بعلمه عن أماكن المياه الجوفية الصالحة وكيفية استخراجها، فضلا عن قوته اللازمة لحفر تلك الآبار، كما أنه يتصدق على المحتاجين بما يستطيع من أموال ومقتنيات، فضلا عن حكمه التي يعلم بها الناس منافعهم.

ومن ذلك أنه يحث على العمل والكسب الحلال، إذ يقول سلام الله عليه: **«من**

أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[١].

كما أنه سلام الله عليه سنّ عددا من القوانين التي ضمنت العدالة وحفظ حقوق الناس والدفاع عنهم، ومن ذلك ما روي أنه سلام الله عليه أسقط الحدّ عن سارق الطعام في عام المجاعة إذ روي أنه قال: **«لا يقطع السارق في أيام المجاعة»**[٢].

ومن أبرز أعماله كذلك مقدار كبير من الأحكام التي أصدرها في زمن غيبته عن الحكم الظاهر عرفت بـ(قضاء علي عليه السلام)، وكثيرا ما ردد ثاني خلفاء قريش: لولا علي لهلك عمر! فإن همّ الإمام هو مساعدة المحتاجين وحفظ حقوق الناس وإقامة شريعة العدل والإنصاف بينهم تحقيقا لسعادة الإنسان بطاعة الباري سبحانه وتعالى.

أما الإمام المهدي سلام الله عليه فقد تركزت أعماله ـ فضلا عن تولي قبض الزكاة والخمس وتوزيعهما ـ على الإفتاء في مسائل مستجدة زمنه، وأخرى سابقة مختلف فيها، كما تولى عملية الحفاظ على العلاقة بين ناحية الإمامة والناس عبر شدّ عزيمة المؤمنين والثناء عليهم، وفضح المنافقين وكشف خداعهم.

وقد تولى سلام الله عليه محاربة الفتن وكشف الضلالات وتذكير الناس بأيام الله سبحانه، وإعدادهم ليوم الفرج والإذن بظهور الحق على الباطل بوساطة بث الأمل بقيام دولة الحق والتهيئة لنصرهما.

وكان من توقيعاته سلام الله عليه: عن إسحاق بن يعقوب قال: سألت محمد بن عثمان العمري رضي الله عنه أن يوصل لي كتابا قد سألت فيه عن مسائل أشكلت

---

(١)نهج البلاغة: قصار الحكم.

(٢) الوسائل للحر العاملي: باب حد السرقة: الحديث ٣.

عليّ فوردت في التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان عليه السلام: «**أما ما سألت عنه** أرشدك الله وثبتك من أمر المنكرين لي من أهل بيتنا وبني عمّنا فاعلم أنه ليس بين الله عزّ وجل وبين أحد قرابة، ومن أنكرني فليس منّي وسبيله سبيل ابن نوح عليه السلام، أما سبيل عمّي جعفر وولده فسبيل إخوة يوسف عليه السلام، وأما الفقاع فشربه حرام ولا بأس بالشلماب، وأما أموالكم فلا نقبلها إلا لتطهروا فمن شاء فليصل ومن شاء فليقطع، فما آتاني الله خير مما آتاكم، وأما ظهور الفرج فإنّه إلى الله تعالى ذكره وكذب الوقاتون، وأما قول من زعم أن الحسين عليه السلام لم يقتل فكفر وتكذيب وضلال، وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم، وأما محمد بن عثمان العمري رضي الله عنه وعن أبيه من قبل فإنه ثقتي وكتابه كتابي، وأما محمد بن علي بن مهزيار الأهوازي فسيصلح الله له قلبه ويزيل عنه شكه، وأما ما وصلتنا به فلا قبول عندنا إلا لما طاب وطهر، وثمن المغنّية حرام، وأما محمد بن شاذان بن نعيم فهو رجل من شيعتنا أهل البيت، وأمّا أبو الخطاب محمد بن أبي زينب الأجدع فملعون وأصحابه ملعونون فلا تجالس أهل مقالتهم فإنّي منهم بريء وآبائي عليهم السلام منهم براء، وأما المتلبسون بأموالنا فمن استحل فيها شيئا فأكله فإنما يأكل النيران...، وأما ندامة قوم قد شكوا في دين الله عز وجل على ما وصلونا به فقد أقلنا من استقال ولا حاجة في صلة الشاكين، وأما ما وقع من الغيبة فإن الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾(١)، إنه لم يكن أحد من آبائي عليهم السلام إلا وقد وقعت في عنقه بيعة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠١.

لطاغية زمانه، وإني أخرج حين أخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي، وأما وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيبها عن الأبصار السحاب، وإني لأمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، فأغلقوا باب السؤال عما لا يعنيكم، ولا تتكلفوا علم ما قد كفيتم، وأكثروا الدعاء بتعجيل الفرج فإن ذلك فرجكم، والسلام عليك يا إسحاق بن يعقوب وعلى من اتبع الهدى»[(١)].

ثم إنه بعد ذلك عليه السلام تولّى ويتولّى الكثير من الأعمال التي فيها قضاء لحوائج الفقراء والمساكين ماديا ومعنويا، ولكل بقدر ما يحتاج ويستحق، وفي ذلك من الروايات السالفة والقصص الحاضرة المعاصرة الكثير مما ينقله الثقات، ويحصل له الاطمئنان.

---

(١)كمال الدين: ٢: ٤٨٣. وينظر: إعلام الورى: ٤٢٣، والاحتجاج: ٢: ٤٦٩، وغيرها من كتب الأخبار والحديث.

ثالثاً: تربية الناس ودفعهم نحو التكامل

إن تذكير الإمامين عليهما السلام بأيّام الله، ودفعهما الناس نحو طاعة الله والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه، وإخراج حقائق أنوار القرب منه سبحانه، وتبيان مزالق البعد عنه، وحدود حرماته، كل ذلك الغرض منه أن يسير الإنسان في الطريق الصحيح وهو طريق التكامل.

فالإمامان الأول والآخر عليهما السلام يقودان حركة التربية في الناس نحو التكامل والرفعة، ويحفظان تلك الحركة من التسافل والانحطاط، وهي مهمة تربوية أخلاقية عظيمة برزت واضحة في سلوكهما عليهما السلام والسنة الشريفة التي سارا عليها في القول والعمل والإقرار، امتدادا للسنة النبوية الشريفة على صاحبها وعليهما الصلاة والسلام.

وقد برزت تلك التربية التي نجدها في متابعة كل منهما لأحوال الناس وتوجيههم الوجهة الصحيحة، بمنع السلوك المنحرف، والتشجيع على السلوك السامي، وهذا المظهر التربوي التوجيهي التكاملي يعد الإطار العام لمجمل أعمال الإمامين عليهما

السلام، ويمكن تلمس خصائصه في العديد من الأخبار المروية عنهما عليهما السلام، وحسبك دليلا أن الأمة تستشعر الضلال فتشكو منه، وتنظر الهلكة فتهرب منها، وتقر بالتسافل فلا تجد لنفسها مخرجا ولا منجى إلا باللوذ بالإمام والاستجارة به، لأنه باب الله الذي منه يؤتى، ولا يوجد من يعلم الحق ويهدي إليه سواه، بعد أن تعبت الناس من أئمة الضلال الذين لم يحققوا سوى التعب والنصب والفساد والهلكة والقلق المستمر، فتبقى إذن تربية الناس ومسيرة تكاملهم مرتبطتين بالإمام المعصوم وحركته، ولابد من اتباعه ليتحقق الفوز ونصل إلى النجاة، ونلقى الله سبحانه وقد نجحنا في اختبار الولاية لأوليائه والبراءة من أعدائه.

إن تربية الناس تحتاج إلى مربٍّ من طراز خاص، ويجب أن يكون متعاليا عن الواقع ليتمكن من التأثير فيه، ولذلك فالمتصدون للتربية هم قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1].

وتحتاج التربية إلى مربٍّ على هدى من ربه، ولذلك فالمتصدون للتربية هم الهداة المهديون المصطفون من الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٧.

وعلينا اتباعهم وترك الذين من دونهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

ولكن الملاحظ أن الأئمة عليهم السلام لا يمكن لهم أن يرفعوا بالتكامل والتربية إلا من أطاعهم مؤمنا بهم أولياء لله، أبوابا لرحمته، وأمناء على رسالته ودينه دين الحق، وأنهم المنتجبون المصطفون الأخيار الأبرار المطهرون، ليكون التسليم لهم كتسليم المريض نفسه للطبيب واثقا من قدرته على علاجه، وقد عمل كل من الإمام أمير المؤمنين والإمام الحجة عليهما السلام على تربية الناس ممن أطاعهما، وقد تخرج في مدرستهما الكثير من العلماء والزهاد والعبّاد والنجباء والصلحاء والأبرار، من مثل سلمان المحمدي وعمار بن ياسر والمقداد وأبو ذر وميثم التمار ومالك الأشتر وعمرو بن الحمق الخزاعي وحجر بن عدي وغيرهم الكثير ممن تربى مطيعا لأمير المؤمنين عليه السلام.

وأما الإمام الحجة بن الحسن عليهما السلام فقد تربى في كنف والده وكنفه عدد غير قليل من الصلحاء والعلماء، منهم سفراؤه الأربعة زمن الغيبة الصغرى، وهم عثمان بن سعيد العمري وابنه محمد بن عثمان، والحسين بن روح النوبختي، وعلي بن محمد السمري، ومن أصحابه الذين تربوا بعنايته: أحمد بن اسحاق الأشعري القمي، وأبو الأديان البصري، ومحمد بن شاذان بن نعيم والشيخ الصدوق وغيرهم[2].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٢) ينظر: الغيبة الصغرى والسفراء الأربعة، الشيخ فاضل المالكي، مركز الابحاث العقائدية، ط١، قم، ٢٠٠٠م: ١٢، ٥٠.

وهنا لابد من القول إن هؤلاء الذين ذكرناهم ممن تشرفوا بالتكامل برعاية كل من الإمامين أمير المؤمنين والحجة المنتظر عليهما السلام، هم ليسوا وحدهم، بل هناك غيرهم الكثير، ولكن كما هو معروف فإن الأخذ يكون بحسب القابل لا بحسب الباعث، فالباعث متصل بالمطلق، ولكن المشكلة في محدودية القابل، فضلا عما يحول بينه وبين الأخذ من تلك الأنوار المهدية ما ينتفع به لآخرته.

إن هذه بعض مظاهر حضور الإمامة في الواقع الحياتي المعيش للناس، مع غياب الرئاسة وتسنم مقاليد السلطة، وغيرها الكثير مما أثبتته كتب الحديث والأخبار، مما لا مجال لحصره، ولقد علم الناس في كل زمان أن لهم إماما مفترض الطاعة تجب موالاته، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، ومن نعم الباري سبحانه على العالمين أنه جعل لهم أئمة يهدون إلى الحق وبه يحكمون وفرض طاعتهم وأوجب مودتهم ليعلم الناس لمن الفضل، وفيمن الهدى، وحسبنا الله على الحق كفيلا، وكفى بالعواقب حجة ودليلا، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الرابع: الحركة الإيجابية

أوّلاً: التزيُّل.

ثانياً: الشوق.

ثالثاً: الاستعداد.

رابعاً: الصبر.

خامساً: التمحيص بالانتظار.

سادساً: رحمة من ضاق وسعهم.

سابعاً: التربية.

إنّ حركة المجتمع تمثل جزءا مهما من المعادلة التي ترسمها السنة الإلهية لحياة الإنسان على كوكب الأرض، فبقدر أهمية وجود النبي المرسل، لابد من وجود الإمام الهادي، ولابد من وجود المجتمع الواعي المتبع للهدى، فلو شاء الله سبحانه تنصيب ملوك لفعل دون حاجة لرضا الناس وهو القاهر فوق عباده، ولكنه سبحانه اقتضت حكمته أن يدعو الناس إلى الهدى ليختاروا طريقه بأنفسهم ويمحض إرادتهم، ليستحقوا الجزاء الأوفى وافر الخير الذي أعده لهم، وليستوجب الذين كفروا منهم والمنافقون العذاب الذي أعده لهم أيضا.

وهنا تُقدم لنا رؤيةُ حركة المجتمع تماما الصورة التي يسعى هذا البحث إلى تبيانها، فبعد أن تعرفنا إلى حركة الإمامين عليهما السلام الأول والأخير، نحتاج إلى أن نتعرف على حركة المجتمع بإزائها، ولنكتشف ما بينهما من تشابه أو اختلاف، لعلنا نصل إلى لوازم القيام التي لابد منها لكي نحظى برؤية الطلعة البهية لإمام الهدى الحجة ابن الحسن المهدي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام.

لقد أدى غياب الإمام عن موقع الحكم الرسمي إلى عدد من النتائج، منها

لضرورية بمقتضى السنن الإلهية التي يشهد بها القرآن الكريم وهي حركة إيجابية مقصودة من الغياب، ومنها ما لم يكن من اليسير تجاوزها وهي الحركة السلبية التي تنجم عنها الآثار الجانبية للغياب، ولعلها كانت نتائج طبيعية للانحراف الكبير عن الصراط المستقيم الذي قاده الجبابرة طالبو السلطان بكل الأثمان التي غالبا ما تكون غير مشروعة، وقد تصل إلى أقصى درجات البشاعة والإجرام كما حدث مع وقائع الحرّة، وكربلاء، وغيرها.

وإذا كنا تعرفنا إلى أهم أسباب الغياب فيما سبق، فعلينا أن نعرف أيضا أن الغياب حفر أخاديد الشيخوخة في وجه الأمة الإسلامية، وأضعف قوتها، حتى لقد تغيرت الحال نحو الانحطاط والفشل والتردي، وهنا يمكن أن نسجل أهم آثار الغياب في وجود الأمة الإسلامية، مع الانتباه إلى أن المؤمنين المغلوبين على أمرهم كانوا يعلمون بحقيقة الإمامة ومازالوا يتبعون نهجها القويم، إلا أن العلم وحده لا يكفي لنهضة الأمة كما ستكشف لنا الأوراق القادمة من هذا البحث، وإن السواد الأعظم من الناس قد مني بالأمراض الفكرية، وأصابته آثار الغياب الآتي ذكرها، فكثير من الناس يتطلع إلى الفائدة المباشرة من الحكم العادل ونهج الهدى، وليس لهم تحرك نحو إمام غائب عنهم، بل هم يطلبون ما تقع عليه حواسهم، ويقنعون بما يتمثل لهم، لكونهم جبلوا على المادة والسبل المادية للوصول إلى الغايات، في حين يشغل التفكر والتعقل والتدبر جلّ العبادة لله بحسب النص القرآني، التفكر بآيات الله الكونية، والتعقل لآياته التكوينية، والتدبر لآياته القرآنية، وهذا ما يدعو إلى طرح الأسئلة الآتية:

متى يتحقق وعد الباري عز وجل بإقامة دولة العدل الإلهي؟

متى يظهر الدين الإسلامي على كل الأديان الأخرى الضالة منها والمغضوب عليها؟ كيف السبيل إلى تحقق ذلك؟ وبمن؟

ما مواصفات القائد الكفيل بتحقق ذلك الوعد على يديه؟

ثم طرح السؤال الآتي: ماذا على الناس أن يفعلوا؟ وفي أي اتجاه عليهم أن يتحركوا ليبلغوا مأمنهم نحو تحقق الوعد الإلهي وفرحتهم بدولة الخير والعدالة والحرية والرفاه؟

وهنا يبدو أنه من الضروري التعرف على حركة الناس أيام الغياب، وما الذي باعد بينهم وبين القيام المبارك، في حالتي غياب الإمامين عليهم السلام، قبل الانتقال إلى حركة المجتمع التي أوجبت قيام الإمام علي عليه السلام، عسى أن نستنتج حركة المجتمع المماثلة المطلوبة في أيامنا، لنعرف ما علينا تجنّبه وما علينا فعله زمن غياب إمامنا الحجة المهدي محمد بن الحسن سلام الله عليهما وعلى آبائهما الطاهرين.

ونجد أن من أهم آثار الغياب الإيجابية التي تتحقق بحركة المجتمع المطلوبة من الغياب، بمقتضى السنن الإلهية التي يؤكدها النص القرآني هي التالية.

أولاً: التزيُّل

الغياب يحقق التزيّل (العزل بين المواقف المتباينة) بين المؤمنين من جهة، والمنافقين والكفار من جهة أخرى، وهذا التزيّل لا يتم إلا بالاختبار والتمحيص.

فمع كثرة الأدلة على أحقية الإمام الأول بتولي شؤون الخلافة، ووجود الإمام الثاني عشر سلام الله عليه، ومع الآثار الواضحة لقيامه بمهماته زمن الغيبة، سيُعرف المؤمنون به من المشككين والمنكرين، ومن كان بهذه الأدلة مؤمنا فهو من أهل الإيمان وأولى أن يكون من أهل النصرة للحق وأهله، ومن كان مرتابا أو منكرا فهو من أهل الفساد، وبذلك يكون الزمان قد ختم عهده بتوالد الأمم وتبدل الدول وتغير أحوالها من حيث الإيمان والكفر أو الضلال، وقد حصلت المزايلة وتبين الفرق بين الفريقين بما لا يقبل الشك لدى الناس، ليُقبِلوا فيما بعد على إمامهم غير شاكين ولا مرتابين ولا مجادلين في أوامره التي سيصدرها، وسيطيعونه في كل أمر صعب مستصعب بعدما شهدوا إصرار الفريق الآخر على الضلال رغم كل الأدلة والحجج، وفي ذلك تحقيق لسنة الله في تعذيب الكافرين والانتقام منهم، فمن غير الممكن حصوله على يد الإمام

سلام الله عليه من دون تحقق السنة الإلهية التي تؤكدها الآية الكريمة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾(١).

ونشير هنا إلى أن التزيّل على نوعين: فتزيّل أفقي، وهو الميز الفعلي جراء المواقف والأفعال بين الفريقين في زمن واحد، والآخر التزيّل العمودي، وهو الميز والافتراق بين الفريقين عبر الأزمان، وبالتحديد في الأصلاب.

فقد يحمل الكافر في صلبه مؤمنا ينصر الحق وأهله، وقد يخرج الله سبحانه من ظهور المنافقين ذرية صالحة بعد حين من الدهر، وهذا ما يستدعي التريّث في تعذيب الكفار والمنافقين الذين لم يتحقق معهم التزيّل العمودي.

ولعل المثال الأوضح لذلك حادثة سؤال مالك الأشتر رضوان الله تعالى عنه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بشأن تفوقه بعدد المشركين الذين قتلهم على عليّ عليه السلام، إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام يكبّر كلما قتل مشركا، وكان مالك قد أحصى التكبيرات فوجد العدد أقل مما قتل هو، وعلى الرغم من ذلك تأتي إشادة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله بعليّ عليه السلام، فكان الجواب أنّ علياً عليه السلام كان مما عنده من العلوم علم الأصلاب، فكان يشيح بوجهه عن المشرك الذي علم أن في صلبه ذرية مؤمنة، فيقعده عن الحرب بضربة غير قاتلة، ويبادر إلى من يعلم في صلبه ذرية أشد حقدا على الإسلام وأهله، فيعجل به إلى النار، على الرغم من بيان كفر القوم جميعا بقتالهم لرسول الله صلى الله عليه وآله.

والمثال الذي يمكن سوقه للحديث عن التزيّل بنوعيه العمودي والأفقي هو ما

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

حصل زمن نبي الله نوح على نبيّنا وآله وعليه السلام، إذ يعبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾(١).

ففضلا عن تزيّل المؤمنين عن الكافرين أفقيا في زمن نبي الله نوح عليه السلام، فقد تبيّن التزيّل العموديّ أيضا، وذلك من معنى قول الله عز وجل في كتابه العزيز على لسان نوح عليه السلام: يا رب إنك إن تتركهم دون هلاك فإنهم يضلون عبادك عنك، بمعنى كفرهم ودعوتهم للكفر، وفي هذا تزيّل أفقي، ثم إنهم لا يلدون من الذرية من أصلابهم إلا فاجرا كفّارا، وهذا ما نقصده بالتزيّل العموديّ، وبذلك ليس من مقتضى للرحمة يدفع باتجاه الصبر عليهم أو تركهم هكذا ينعمون، بل حق عليهم العذاب، وهذا ما حصل فعلا بالطوفان العظيم.

وهناك فائدة أيضا بهذا الشأن لا بأس بذكرها، وهي أن حديثا يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام يقرر أن في الأرض أمانين من العذاب، الأول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد رفع بقبض روحه صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى سبحانه، وبقي الأمان الثاني وهو ذكر الله ودعاؤه بالاستغفار، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(٢).

ولكن حين لا يوجد من يذكر الله في قوم وهم ينتمون إلى الفريق المعادي لله

---

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

ورسالته، أفقيا وعموديا، فقد حق عليهم العذاب وكذلك يكون.

ولولا التزيّل بعلي بن أبي طالب عليه السلام لما عرف المؤمنون كما ورد في الحديث الشريف، فانقسمت الأمة الإسلامية إلى قسمين: مؤمنين ومنافقين!

وعجبا لأولئك الذين يذمون هذا الانقسام والتزيل بين الفريقين، وينشدون الوحدة الوهمية، أكانوا يريدون الناس أن يكونوا أمة واحدة؟ وأين تذهب سنة الاختبار والابتلاء بالفتن؟

لقد عجبت من كثير من المؤلفات التي قرأتها وهي حين تذكر فتنة الخلافة وبالذات ما حصل في السقيفة حتى قبل دفن الجسد الطاهر للرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه، تتطرق إلى التزيّل بوصفه نتيجة سلبية لمبادرة المطالبة بالحكم من الإمام علي عليه السلام!! فماذا كنتم تريدون؟ أن يسكت عن واجبه في هداية الناس؟

وكأنهم لم يقرؤوا كلام الله حيث يقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

فالقرآن يصرح في هذه الآية أن الاختلاف والتزيل بين الفريقين إنما حصل بعد العلم وبعد حصول البينات، ولم تكن القضية قضية اشتباه أو جهل أو التباس كما يزعمون! بل القرآن يشهد على أن الاختلاف وقع نتيجة الاختيار كلٌّ بحسب حركته

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

وقصده، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾(١).

فلابد من أن يبلو الله الناس، ليتزيّل المؤمنون عن المنافقين، وهو ممهل الناس سبحانه لوقت يعلمه قبل أن يحاسبهم على اختلافهم وتزيلهم عن الحق، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلـكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٣).

ويبدو أن سنة الاختلاف مستمرة في بني الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٩.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٣.

لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[١].

وسنة الاختلاف هذه منشؤها حكمة إلهية تقتضي التزيل، الأمر الذي يجعل نصيب المؤمنين رضوان الله سبحانه، ونصيب الكافرين مجرد ما يحصلون عليه من متاع في الدنيا الزائلة، ولا نصيب لهم من طيباتها ولا طيبات الآخرة، ومقتضى الرحمة من الله جعل الكافرين في نعم زائلة كما أرادوا، ولولا أن يكفر الناس كلهم طمعا في متاع الدنيا لجعل الله للكافرين لبيوتهم سقفا من فضة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[٢].

فكونهم أمة واحدة له ظاهر أنهم إما مؤمنون أو كافرون، وله باطن أن الامة الواحدة فيها من يظهر خلاف ما يبطن من العقيدة، فمن أظهر الإيمان وأبطن الكفر فهو منافق، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[٣].

وقد وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

وقال تعالى فيهم أيضا: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾(١).

وأما من أظهر كفرا وأبطن إيمانا فأولئك أهل التقيّة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾(٢).

فاستثنى الله سبحانه أهل التقيّة، وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٣).

فاستثنى من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، وهو المظهر للكفر كرهاً منه، تقيةً، خوفاً على نفسه وحفظاً لها من الهلاك.

فهذان النمطان: المنافق الذي هو عدو مبين فلابد من قتاله، والمتقي الذي لابد من نصرته ورفع الإكراه والخوف عنه، يجعلان عملية الاقتتال والصراع الحربي بين

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

الفريقين أمرا غير مرغوب فيه، لئلا يقع الظلم، فيُقتلُ مُؤمنٌ مُكرَهٌ، أو ينتقمُ كافرٌ منافقٌ، والله يقول في المنافقين: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾(١).

ويقول في المؤمنين من أهل التقيّة: ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾(٢).

فلأجل ذلك وجب التزيّل للفصل بين الفريقين، فإذا كان ذلك حق على الكافرين العذاب.

وقد جرت سنة الله في التزيّل زمن غياب الإمام المهدي عليه السلام عن الحكم الظاهر أيضا، وهي سنة جارية، إذ تقع الفتن والابتلاءات من أجل غربلة الناس ليظهر الله عباده المتقين ويعلي شأنهم، ويظهر الفاسقين ويفضحهم، قال تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٤.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

وما ذلك إلا إظهاراً لحجة الله سبحانه.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

ثانياً: الشوق

إنّ طول الغياب يستوجب شدة الشوق وحرارة الانتظار ولهفة الوعد، مما يستلزم قوة الإرادة عند المنتظِر صاحب الشوق.

وهذا ما يستتبع عملا حثيثا، وهمة عالية، وإصرارا على المضي في إنجاز المشروع الرساليّ على الرغم من المخاطر التي تحف به، والصعاب التي تكتنفه، ويكون هذا الثبات وهذه الإرادة الصلبة بسبب الاطمئنان لذكر الله والخشوع الذي يحدثه التفكر والتعبد والعمل طوال مدة الانتظار، بخلاف من لم يؤمن ويقضي مدة الانتظار بالعبث أو الكسل أو اللهو والاستمتاع بالدنيا وزينتها مطمئنا لها، فإنما يحصل على قسوة في قلبه تباعد بينه وبين حسن الجزاء، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١).

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١١٦.

ومن المهم أيضا التعرف على سنة الله في أولئك الذين يرتدون عن دينه وعن إرادته واتباع ولاة أمره، ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فهذه صفات الكافرين والمرتدين، وتقابلها صفات المؤمنين الذين يتشوقون منتظرين للوعد الصادق، وكلهم عزم وثبات على النصرة والجهاد بين يدي منقذ البشرية الإمام المهدي صلوات الله عليه وسلامه.

وقد أظهر المؤمنون زمن أمير المؤمنين عليه السلام شوقهم لنصرته وحرصهم على اتبّاعه، وحسبك من بكى الرسول الأعظم صلوات الله عليه شوقا إليه، فقد ورد في بحار الأنوار ما نصه: عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: **«خرج رسول الله صلى الله عليه واله وعليه خميصة قد اشتمل بها، فقيل: يا رسول الله من كساك هذه الخميصة؟ فقال: كساني حبيبي وصفيي وخاصتي وخالصتي والمؤدي عني ووصيي ووارثي وأخي وأول المؤمنين إسلاما وأخلصهم إيمانهم وأسمح الناس كفا، سيد الناس بعدي، قائد الغر المحجلين، إمام أهل الأرض؛ علي بن أبي طالب، فلم يزل يبكي حتى ابتل الحصى من دموعه شوقا إليه»**[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) بحار الانوار: ٣٨: ٩٦.

فإذا كان الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله يبكي شوقا لعليٍّ عليه السلام لفراق قصير، وهو أستاذه ومربيه وسيده، فكيف بالمؤمنين العارفين بحق أمير هم عليهم وهم أقل شأنا، وأشد حاجة، وأولى بالشوق؟

وقد دأب المؤمنون على اشتياقهم لائمتهم حتى ظهر ذلك عليهم، شوق المصاب إلى العلاج، فمن ذلك يروى عن عبدالله بن عطا المكي، قال: (اشتقت إلى أبي جعفر عليه السلام وأنا بمكة فقدمت المدينة، وما قدمتها إلا شوقا إليه فأصابني تلك الليلة مطر وبرد شديد، فانتهيت إلى بابه نصف الليل فقلت: ما أطرقه هذه الساعة، وأنتظر حتى أصبح، فإنّي لأفكر في ذلك إذ سمعته يقول: **«يا جارية افتحي الباب لابن عطا، فقد أصابه في هذه الليلة برد وأذى»**، قال: فجاءت ففتحت الباب فدخلت عليه)(١).

ويبدو أن صفة الشوق إلى أئمة الهدى أهل البيت عليهم السلام هي غالبة على المؤمنين، فهذا الإمام الصادق عليه السلام يصف حال الشيعة وكيفية معرفتهم من بين الناس، فيقول: **«فيهم من قد أدأب ليله من طول القيام وأدأب نهاره من الصيام، أو منع نفسه لذات الدنيا ونعيمها خوفا من الله وشوقا إلينا أهل البيت»**(٢).

وكذلك يظهرون الشوق لقائم آل محمد صلوات الله عليه وآله، ويشتاق إليهم، ولعل في كلمة الاشتياق التي أطلقها أمير المؤمنين عليه السلام ما يؤكد تبادل الشوق واللهفة للقاء بين الإمام وأتباعه نصرة لله وفرحة بوعده الحق.

فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام كما جاء في بحار الأنوار أنّه قال: **«لا تخلو الارض من قائم بحجة إما ظاهرا مشهورا أو باطنا مستورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته،**

---

(١) بحار الانوار: ٤٦: ٢٣٥ـ٢٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ٧٥: ٣٨٣.

ويكون محنة لمن اتبعه واقتدى به، وأين أولئك ؟ وكم أولئك؟ أولئك الاقلون عددا، الأعظمون عند الله خطرا، بهم يحفظ الله دينه وعلمه حتى يزرعها في صدور أشباههم، ويودعها أمثالهم، هجم بهم العلم على حقيقة الايمان، واستروحوا روح اليقين، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون، واستلانوا ما استوعر منه المترفون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملا الاعلى، أولئك حجج الله في أرضه، وأمناؤه على خلقه، آه.. آه شوقا إليهم وإلى رؤيتهم، وواها لهم على صبرهم على عدوهم، وسيجمعنا الله وإياهم في جنات عدن ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم»[١].

فديت آهاتك الحارة سيدي بنفسي وولدي وجميع ما خولني ربي الذي أسأله أن يجمعني بقرة العين قائمكم أهل البيت عليكم الصلاة والسلام.

ومن لطيف ما يطيب لي ذكره في هذا الموضع ما روي عن القرآن من خاصة شوق المؤمنين إليه، فقد ورد الحديث عن (الروعة التي له في قلوب السامعين، فمن كان مؤمنا يجد شوقا إليه وانجذابا نحوه، وحكي أن نصرانيا مر برجل يقرأ القرآن فبكى فقيل له: ما أبكاك؟ قال: النظم)[٢].

فقد أثبت الله الشوق في قلب المؤمن لكل من القرآن والإمام المعصوم من أهل البيت عليهم السلام، فهما صنوان، وهذا من قبيل مبدأ عدم الافتراق بين القرآن والعترة، الذي أقره حديث الثقلين المشهور المستفيض الذكر.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٠: ٨١.

(٢) بحار الأنوار: ٨٩: ١٣٨.

ثالثاً: الاستعداد

الاستعداد يمنح طول الغياب مقدارا كافيا من الزمن للتهيؤ والاستعداد، واكمال المستلزمات الضرورية.

وليس خافيا أن خطر المشروع المهدوي وسعته واشتماله وأثره كلها أسباب تتطلب المزيد والمزيد من الاستعداد والتجهز للنصرة، يقول الباري جلّ شأنه:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾[1].

والتهيؤ والتحضير بهذا الحجم يستوجب إنفاقا موازيا من حيث المقدار والأهمية والظروف، مع ضرورة الإشارة هنا إلى أن الاستعداد بحجم الأمة لا بحجم الأفراد، أي أن زمن الاستعداد في عمر الأمم والشعوب يحتاج أن يقاس بالآلاف من السنين لا

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

بالعشرات والمئات كما هو الحال مع الأفراد والجماعات الصغيرة.

ثم إن الوعد الإلهي حقيق بأن يوفي ما يتم إنفاقه وبذله من أنفس أو أموال في سبيل الله، فضلا عن أن الله لا يضيع أجر عمل لعامل في سبيله، صغيرا كان أو كبيرا، من صبر على البلاء، وانتظار للفرج بلهفة المشتاقين، وثبات المؤمنين، وعمل العاملين المجاهدين، وعلم العالمين المعلمين، يقول سبحانه: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فالظمأ والنصب والمخمصة وإغاظة الكفار والنيل من العدو كل ذلك يسجل بوصفه عملا صالحا، وينطبق على صاحب هذا العمل وصف الذين يعملون الصالحات وما لهم من الجوائز والهدايا الربانية كما تشير آيات كثيرة في القرآن الكريم يمكن أن يعود إليها المتتبع.

إنّ الاستعداد أمر ضروري لإنجاز الوعد الإلهي، فمن دونه يقع الاضطراب ويحصل التقهقر، فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يوضح كيف أن عدم استعداد الأمة هو أحد أسباب هلاكها لأنه يبعدها عن طاعة المعصوم واتّباع نهجه، يقول سلام الله عليه: **«لقد دعوتكم إلى الحرب والاستعداد لها وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها،**

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

شغلتموها بالأباطيل والاضاليل»[١].

ففي عدم استعدادهم خذلان للإمام وتقاعس عن نصرته سلام الله عليه، وسيكون البديل عن الاستعداد هو الانشغال بالأباطيل والأضاليل، فمن باطل إلى ضلالة، وشتان بين هذي الحالة وحالة الاستعداد لنصرة الإمام التي هي بين حق وهدى.

وقد روي في شرح قول رسول الله صلى الله عليه واله (**«إن لكم معالم فاتبعوها، ونهاية فانتهوا إليها...»**: المعالم مايعلم به الحق، والمراد بها هنا الائمة عليهم السلام، والمراد بالنهاية إما حدود الشرع وأحكامه أو الغايات المقررة للخلق في ترقياتهم بحسب استعداداتهم في مراتب الكمال)[٢].

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أكيس الناس، فقيل: يا رسول الله فأي المؤمنين أكيس؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعدادا، اولئك هم الاكياس»**[٣].

والاستعداد للموت لا يعني الخنوع، بل الاستعداد يكون بالعمل بطاعة الله سبحانه، والتمسك بالثقلين كتاب الله وأهل بيت رسوله الكريم صلوات الله عليهم.

وقد ورد في الحديث الشريف: قال صلى الله عليه وآله: **«أفضل جهاد امتي انتظار الفرج»**.

وجاء في شرحه: أي الترقب والتهيؤ له بحيث يصدق عليه اسم المنتظِر وليس

---

(١) بحار الأنوار: ٢٩: ٤٦٥.

(٢) بحار الأنوار: ٢: ٩٩.

(٣) بحار الأنوار: ٢٢: ٣١١.

معناه ترك السعي والعمل لأنّه ينافي معنى الجهاد[1].

وهذا ما يجعل في غياب الإمام عليه السلام تحفيزا للتهيؤ والاستعداد والعمل الجاد من أجل نصرته وعدم التخلف عنه، والمؤمن العامل في طريقه إلى نصرة الإمام يجد نفسه في رحلة تكامل وارتقاء.

فكلما زاد إيمانه وتمسكه وثباته بالعمل الصالح زادت رفعته إلى أعلى الدرجات من التكامل، عسى أن يصل إلى أعلى حظه من الاستعداد لينال المرتبة التي ستمثل في الآخرة درجته التي يعرف بها، فكما يحمل طلبة العلم عندنا في آخر عامهم الدراسي درجة النجاح التي بها ينماز أحدهم عن الآخر وتوضح مقدار جهد كل منهم واستحقاقه، فكذلك كلما زاد الجهد نحو التكامل وارتفعت درجة الاستعداد والجهوزية كان القرب من الإمام عليه السلام أدنى وأحظى، وكانت المنزلة أرفع، ففي الحقيقة إنما يزيد المؤمن استعداده لتلقي درجته عند الله قربا وطاعة ومحبة، وإن كان في الظاهر يزيد من حجم استعداده لنصرة الإمام عليه السلام، لأن المعصوم لا يحتاج إلى نصرتنا في الواقع وهو المسدد من الله المنصور بنصره، بل نحن نحتاج إلى نصرته فبذلك ننصر أنفسنا باتباع الحق وننجو بها من الهلاك المتصل بالابتعاد عن الله وخذلان أوليائه والعياذ بالله.

---

(١) ينظر: بحار الأنوار: ٧٤: ١٧١.

رابعاً: الصبر

إن غياب الإمام عليه السلام مع علم الناس بحاجتهم إليه وعلمهم بحكمة ضرورة غيابه يوطن قلوبهم على الصبر ويربي نفوسهم عليه.

والله سبحانه يأمر نبيه الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وعلى أهل بيته بالصبر كما صبر أولو العزم، وولده المهدي سلام الله عليه أولى بالصبر من بعد آبائه عليهم السلام، وأتباعه ملزمون بالصبر كذلك، قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

ونلحظ كيف أن الصبر يقرب المؤمنين من الله لأنه يحب الصابرين، فهو إذن عمل يوجب حب الله وحسبك بهذه غاية، ويسبب الحسرة والندامة للفاسقين الذين لا يجدون من بعد الصبر إلا الهلاك والعذاب والخسران المبين.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

والصبر من المعصوم أشد وطأة عليه من صبر غيره، إذ لكل واحد من البشر طاقة معينة واستعداد محدد يقع الصبر منه بحسبه، وأما المعصوم فبما له من التقوى والحب لله والمعرفة به بما يرتفع عن مستويات البشر غير المعصومين فصبره أقوى وأثبت وأجمل وأشد.

وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام في جلوسه عن القوم الذين غصبوا حقه فقال: **«إني ذكرت قول النبي صلى الله عليه وآله: إني رأيت القوم نقضوا أمرك، واستبدوا بها دونك، وعصوني فيك، فعليك بالصبر حتى يتزل الامر، فإنهم سيغدرون بك وأنت تعيش على ملتي، وتقتل على سنتي، من أحبك أحبني، ومن أبغضك أبغضني...»**[١].

فكم هو عظيم صبرك على هذا البلاء العظيم سيدي يا أمير المؤمنين!

وها هو أمير المؤمنين عليه السلام يصف ببلاغته وفصاحته المعهودتين ما يقع على شيعته من الصبر عند افتقادهم للإمام عليه السلام فيقول: **«لو تعلمون ما لكم في مقامكم بين عدوكم وصبركم على ما تسمعون من الأذى لقرت أعينكم، ولو فقدتموني لرأيتم من بعدي أمورا يتمنى أحدكم الموت مما يرى من أهل الجحود والعدوان من الإثرة والاستخفاف بحق الله تعالى ذكره والخوف على نفسه، فإذا كان ذلك فاعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وعليكم بالصبر والصلاة والتقية»**[٢].

فما أجملها من بشارة للصابرين على غياب الإمام عليه السلام: **«...ولو تعلمون مالكم في مقامكم بين عدو كم وصبر كم على ما تسمعون من الاذى... لقرت أعينكم»**!

---

(١) بحار الأنوار: ٢٩: ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ١٠: ١٠٤ ـ ١٠٥.

وما أدقه من وصف لزمن الغياب: **«...ولو فقدتموني لرأيتم من بعدي أمورا يتمنى أحدكم الموت مما يرى من أهل الجحود والعدوان من الاثرة والاستخفاف بحق الله تعالى ذكره والخوف على نفسه»**!

وما أجملها من وصية للصابرين في محنتهم: **«...فإذا كان ذلك فاعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وعليكم بالصبر والصلاة والتقية»**.

نعم.. الصبر والصلاة والتقية.. وما يلقاها إلا الذين صبروا، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين! ويبقى الصبر عنوان المؤمنين المنتظرين حتى ظهور القائم من أهل البيت عليهم السلام، فهذا قول الصادق عليه السلام: (عن يعقوب السراج قال: قلت لابي عبدالله عليه السلام: تخلو الارض من عالم منكم حي ظاهر تفزع إليه الناس في حلالهم وحرامهم؟ فقال: **«يا أبا يوسف لا، إن ذلك لبين في كتاب الله تعالى، فقال:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾، **«عدوكم ممن يخالفكم»**، ﴿ وَرَابِطُوا ﴾، **«إمامكم»**، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾، **«فيما يأمركم وفرض عليكم»**)[١].

فلزم الصبر عند افتقاد الإمام لذلك، على أذى المخالفين، قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[٢].

فثبتت بمقتضى هذه الآية جملة من الأمور، منها:

أولا: أننا مأمورون من الله جل شأنه بالصبر بأمر صريح.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٣: ٥١.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

ثانيا: أن الصبر لا يكون إلا بالله، بمعنى أن علينا الاستعانة بالله سبحانه لتنفيذ أمره لنا بالصبر، فهو أمر من الله يستلزم تطبيقه الاستعانة به سبحانه، ومن دون ذلك لا نستطيع العمل به.

ثالثا: ينهانا الله سبحانه صراحة عن الحزن على المخالفين مهما وجدنا فيهم من انحراف وسوء عاقبة، وهذا ما يحول بيننا وبين التعاطف معهم الذي مصدره الرحمة، لأن الرحمة لا تجوز إلا بين المؤمنين، والشدة والغلظة على الكفار حق مكتوب ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

رابعا: يأمرنا الباري جلّ شأنه أن لا نشعر بالضيق والأذى الناتج عنه مهما بلغ مكر هؤلاء، لأن مكرهم زائل قبالة مكر الله بهم، ولابد أن يكون تعلقنا به سبحانه ومعرفتنا به وإيماننا به مما يفوق تأثرنا بمكر أعدائه، فليس لهم أن يصلوا إلينا إلا بأمر كتبه الله لنا، وما كتبه للمؤمنين فهو خير لهم، وما لم يكتبه فليس لمخلوق أن يصل إليه مطلقا!

وهكذا تتضح خصائص الصبر الذي يريده الله سبحانه منا، وهو صبر متحقق للمنتظرين زمن غياب الإمام المعصوم عن الحكم الظاهر.

صدق الله ورسوله وأهل بيته الأطهار عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، وأثبت في قلوبنا الصبر ورزقنا أجر الصابرين إنه سميع مجيب.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

خامساً: التمحيص بالانتظار

الغياب يوجب على المؤمنين الانتظار، فلا سبيل لهم سوى الانتظار وصولا إلى مبتغاهم في نصرة الإمام عليه السلام طاعة قربة إلى الله تعالى، وإعلاء لكلمته لتكون هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والانتظار كفيل بأن يمحّص المؤمنين ويظهر تفاوتهم في الدرجات، وثباتهم على مواقفهم رغم طول المدة وشدة المحنة، من دون تبديل لسنة الله ورسوله والأئمة الأطهار من بعده التي لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا، فلابد على المؤمنين إذن أن لا يبدلوا ولا يحولوا شيئا فيها، وليس أفضل من الانتظار كاشفا لمعادنهم، ومظهرا لحقائقهم، ومفصحا عن سجاياهم، ونجد حكمة الانتظار في قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1].

فالانتظار يكشف الثبات في العقيدة والرسوخ في المبادئ، ولكنه يحتاج إلى تغذية علمية وروحية لينمو، فالمؤمنون عند الانتظار لابد لهم من دعم وإسناد.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

وإذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يتولى دعم أصحابه وإسنادهم أيام غيابه قسرا عن الحكم الظاهر، فإن الإمام الحجة المهدي عليه السلام كذلك يفعل، ثم يوفر لمن كان دون أصحابه من المؤمنين من يسندهم ويغذيهم، فمن كان بمرتبة من التقوى والعلم تجعله قابلا لنور الاتصال بالإمام فهو المسدد له مباشرة.

وقد ورد في الأثر قول الإمام عليه السلام للشيخ المفيد أعلى الله مقامه: (أفد يا مفيد، عليك بالإفادة وعلينا بالتسديد) في حادثة مشهورة للشيخ ببغداد، ومن لم يكن بتلك الدرجة هيأ له الإمام عليه السلام من يستطيع الأخذ بيده عند حاجته من العلماء والصلحاء.

وورد بإسناده إلى أبي محمد العسكري عليه السلام قال: **«حدثني أبي، عن آبائه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: أشد من يتم اليتيم الذي انقطع عن أبيه يتم يتيم انقطع عن إمامه ولا يقدر على الوصول إليه، ولا يدري كيف حكمه فيما يبتلي به من شرائع دينه، ألا فمن كان من شيعتنا عالما بعلومنا وهذا الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا يتيم في حجره ألا فمن هداه وأرشده وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الاعلى»**[(١)].

فلاحظ قدر أجر من عني بيتيم من أيتام آل محمد عليهم الصلاة والسلام، وهم شيعتهم الذين غاب إمامهم فهم ما لبثوا يطلبونه، ويا له من تمحيص بالانتظار ذلك الذي يجري على شيعتك سيدي أيها الموعود بالنصر يا حامل لواء الحمد عليك مني سلام الله أبدا ما بقيت وبقي الليل والنهار.

---

(١) بحار الأنوار: ٧ : ٢.

سادساً: رحمة من ضاق وسعهم

في الغياب رحمة لطائفة من الناس لا تتمتع قابلياهم بتقبل أمر الإمام، وهم على درجة مقبولة من الورع والتقوى.

ولكن احتمال أمره وهو (صعب مستصعب) بنص المعصوم عليه السلام يحتاج إلى قلوب واعية بدرجة عالية من الوعي والقبول.

فقد ورد عن شعيب الحداد قال: (سمعت الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام يقول: «**إن حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، أو مدينة حصينة**»؛ قال عمرو: فقلت لشعيب: يا أبا الحسن وأي شيء المدينة الحصينة؟ قال: فقال: سألت الصادق عليه السلام عنها فقال لي: «**القلب المجتمع**»)(١).

فيكون الغياب - الذي هو غير تام بل كالشمس من وراء السحاب بتعبير الإمام عليه السلام - سببا في اعتقادهم بظهوره الشريف وتقربهم لله تعالى بالانتظار بحسب قابلياهم، من دون الاضطرار إلى مواجهة حقيقة الظهور التي قد تسبب الشك والارتداد

---

(١) بحار الأنوار: ٢: ١٨٣.

لضيق الأفق وقلة الإدراك عندهم، فكأن الله سبحانه قد اختار لهؤلاء العيش زمن غياب الإمام عليه السلام لتكون درجة ابتلائهم على قدر تحملهم، وبما يقع في ضمن وسعهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[١].

وقد ورد في هذا المعنى ما روي عن الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه: عن جابر، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: **«قال رسول الله صلى الله عليه واله: إن حديث آل محمد صعب مستصعب لا يؤمن به إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فما ورد عليكم من حديث آل محمد صلوات الله عليهم فلانت له قلوبكم وعرفتموه فاقبلوه وما اشمأزت قلوبكم وأنكرتموه فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى العالم من آل محمد عليهم السلام، وإنما الهالك أن يحدث بشيء منه لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا شيئا، والانكار هو الكفر»**[٢].

ومن هذا الحديث يمكن لنا أن نستخرج فوائد، منها:

أن عدم معرفتنا بماهية آل محمد عليهم الصلاة والسلام وجهلنا بحقيقة قدرهم لأسباب كثيرة قد يكون أبرزها أننا نقايسهم بأنفسنا وبقية بني الإنسان ممن هم دونهم في المنزلة جهلا منا.

أقول: عدم معرفتنا بهم يجعل من الصعوبة علينا تقبل حديثهم الدال على علمهم ومنزلتهم من الله سبحانه، فيتطلب الاستعداد لتقبل هذا الحديث أن يكون الفرد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) بحار الأنوار: ٢: ١٨٩.

إما ملكا وليس أي ملك بل هو ملك من المقربين، أو يكون نبيا، وليس أي نبي، بل هو نبي من المرسلين - صاحب رسالة عامة ودرجته تكون أعلى وعلمه أكبر -، أو أن يكون عبدا لله لم يشرك به أحدا لا من الناس ولا من هواه ولا من مال ولا سلطان، وهذا العبد امتحن الله قلبه للإيمان فنجح في ذلك الامتحان الإلهي، وغير هؤلاء يصعب عليه تحمل ما يرد في حديثهم صلوات الله وسلامه عليهم، ونحن نجد في زماننا الحاضر من المحبين الموالين لآل محمد عليهم الصلاة والسلام من همش نفسه لبعض أحاديثهم، ولكنه يقف متحيرا أقرب إلى الإنكار حين تعرض عليه بعض الروايات الشريفة المحققة المعتبرة متنا وسندا، لا لشيء سوى أنها صعبة عليه فلا يطيق احتمالها كما قال الصادق الأمين صلوات الله عليه وآله.

وهنا تبرز الفائدة الأخرى من الحديث الشريف: فما يلين له القلب من الحديث علينا قبوله وهذا أمر طبيعي، وأما ما اشمأز منه القلب ووقع الانكار له فقبل أن نرده تماما ونرفضه مع صحة متنه وسنده، فعلينا بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله أن نرده إلى الله أولا، فننظر في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وما فرط الله في الكتاب من شيء وفيه تبيان لكل شيء، ونرده إلى الرسول ثانيا، فما وجدنا من حديثه المنقول عنه ما يؤيد ذلك القول كان علينا لزاما الأخذ به ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1]؛ وأن نرده كذلك إلى العالم من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهو الإمام المعصوم المنصوص عليه

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

مفترض الطاعة من الله، فنعمل بما دلنا عليه القرآن والحديث الصحيح للرسول وأوصيائه عليهم الصلاة والسلام، ولا نسبقهم بقول أو فعل فالسابق لهم مارق والمتخلف عنهم زاهق والمتمسك بهم لاحق كما ورد في الحديث الشريف.

والفائدة الأخرى أن عدم الرجوع إلى تلك الأنوار القدسية والاستعجال بالإنكار والردّ مما يوجب الهلاك، لأن الإنكار سيكون بمثابة الكفر، نعوذ بالله من الكفر ونسأله الهدى إنه سميع مجيب.

سابعاً: التربية

إنّ غياب الإمام عليه السلام يربي الناس ويهذبهم، ويريهم سوء حالهم بعيدا عن أئمتهم وكيف يكون أمرهم في حال تركهم الحضور عند الإمام ونصرته.

وبما أن حضوره بينهم قد جعلهم يعرفونه ثم لم ينصروه، بل عملوا طوال زمن أحد عشر إماما هاديا مهديا على تجاهل الإمام والتخاذل عنه والإعانة على قتله، أو السكوت على ذلك في أقل تقدير.

فكان غياب الإمام عليه السلام أمرا إلهيا عسى أن يكون في الغياب رادع للناس وعقوبة تأديبية تربوية مؤقتة لهم تجعلهم يعرفون القيمة الحقيقية لوجود الإمام، حتى إذا أظهره الله أسرعوا إليه مطيعين مناصرين، يقلدونه زمام أمورهم فيأخذ بهم إلى حيث سعادة الدنيا والآخرة.

فقد اعتمد الناس على أنفسهم طوال مئات من السنين فلم يزدادوا إلا بؤسا وشقاء وارتكاسا، والإمام عليه السلام مغيّب عن الحكم الظاهر ولكنه آخذ بقيادة الأمور وإدارتها لئلا تسيخ الأرض بأهلها، في انتظار الفرج بالإذن الإلهي ليظهر الدين

القويم على الدين كله ولو كره الكافرون.

إن المعاني التربوية المستنبطة من الغياب تتجسد في التهذيب للنفوس وفسح المجال للناس للمقارنة بين قيادة الفاضل وقيادة المفضول، بين إدارة الهادي المهدي، وإدارة الضال المضلّ، بين حكم العالم وحكم الجاهل، بين دولة العدل والصلاح ودولة الجور والفساد، وفي متسع من الزمن كاف يمكن للإنسان أن يتعرف على تطبيقات الجانبين، ومفاهيم كل منهما، وإجراءات كل منهما، فيخبر الراحة والطمأنينة مع ذلك الطرف، والقلق والاضطراب مع هذا الطرف، ويعيش العدل والحرية مع هذا الجانب، والظلم والطغيان مع هذا الجانب، وينعم بالفضيلة والسمو مع هذا العنوان، ويشقى بالفساد والتسافل مع ذلك العنوان.

أي يمكن القول أن ما لم يعه الإنسان من آيات القرآن المحكمة، أو ما وعاه ولم يعلم خطره منها، فإن الفرصة متاحة أمامه ليجربه على أرض الواقع، ويخبره خبر تجريب ومشاركة، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٨.

الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾[٢].

فكل تلك الآيات معروضة أمامهم لينظروا في أخبار الأمم القديمة والحديثة ليعرفوا بم استحقوا العذاب؟ وما المزية في اتباع الإمام الهادي المهدي عليه السلام؟ فالإمام الهادي المهدي المعصوم العالم العادل مثال أئمة الهدى في عصره، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٤]. وقد بين نتيجة اتباع أئمة الهدى بقوله سبحانه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾[٥].

فهم الذين يرثون الأرض ومن عليها، ولهم عقبى الدارين، والأمثلة النظرية التي

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٥) سورة القصص، الآية: ٥.

أنكرها معظم الناس ولم يثبتوا لها، تبعتها أمثلة تطبيقية عملية على أرض الواقع، وإن كان الذكر الحكيم قد أورد عددا غير قليل من أمثلة الأمم السالفة ولكن ما أكثر العبر وأقل الاعتبار!

وهذا الإمام الضال المضل الناقص الجاهل الظالم مثال أئمة الكفر في عصره، وكلما ابتعد الإنسان عن نصرة أئمة الهدى وذهب باتجاه أئمة الكفر والضلال زاد شقاؤه، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾[١].

وقد أمرنا الله بقتالهم في قوله سبحانه: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾[٢].

ذلك بما نقضوا عهد الله، وفي التاريخ وحوادثه عبرة لمعتبر، ليقيم الله الحجة على الناس مع ما له من الحجج البالغة الدامغة التي سبقت، وفي ذلك جانب تربوي للإنسان يحمله على الاعتبار بغيره، والتعلم من تجارب الآخرين لكيلا يسقط في فخ الوهم والضلال فيكون مصيره الهلاك.

ولا يخفى الجانب التربوي وأهميته في طرح مبدأي التعزيز والتثبيط كما ينص الدرس التربوي المعاصر، فكل فعل طيب يقترن معه التعزيز بالإثابة والمكافأة والمدح وحسن العاقبة ليكون أولى بالثبات والرسوخ، وكل فعل خبيث يقترن به التثبيط لتعرية قبحه وكشف خبثه بالذم والتقريع وبيان سوء العاقبة ليكون التثبيط معينا على تركه والتخلي عنه وعدم العود إليه، وهذه المضامين التربوية محمولة في تلك الأمثلة الإلهية

---

(١) سورة القصص، الآية: ٤١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢.

النظرية والعملية سواء التي مرت على الأمم من قبلنا أو تلك التي نعيشها واقعا فعليا.

إن هذه الآثار لغياب الإمام الهادي المهدي عليه السلام عن الحكم الظاهر تمثل مجموعة من المدارس التربوية التي يدخلها المؤمن فتربيه وتزكيه وتعلمه الكتاب والحكمة، وتجعله مؤهلا لسلوك الصراط المستقيم.

الأمر الذي يعد تمثّلا خارجيا له الالتقاء بالمعصوم عليه السلام والاتباع له والعمل بطاعته، ولذا نرى أن العاملين بآثار الغياب المقربة من الهدى قليلون، وهذا ليس غريبا مع الأخذ بنظر الاعتبار لسنة الله في التمحيص والابتلاء.

ومما نود الالفات إليه هنا فائدة لها من الخطر ما قد يدرك المتأمل: إذا علمنا أن لكل شيء مقياسا يعرف به مقداره أو حجمه أو مبلغه، وأن المنتظرين حقا هم الذين ارتفع شوقهم واستعدادهم وصبرهم وتمحيصهم وتربيتهم، وأن هؤلاء في درجة مقبولة عند الإمام الحجة القائم عليه السلام بحيث يتولى إرشادهم بنفسه أو بمن ينوب عنه بإشارة منه، فهل يصح جعل ذلك الارشاد من الإمام مباشرة أو بوساطة مقياسا للوصول إلى تلك الدرجة من القبول؟

بمعنى: من منا ارتفع يقينه ووصلت تربيته إلى درجة مقبولة بحيث التقى بالإمام عليه السلام أو برسول منه؟ ومن لم يكن له هذا الحظ العظيم.

فكم هي درجته دون الدرجة المقبولة؟ اللهم لا يأس ولا قنوط من رحمتك.

ولكن أعيتنا أنفسنا الظالمة وحبائل الشيطان الرجيم الملتفة حول أعناقنا، لئن لم ترحمنا وتدركنا بسبب فضلك وشمول نعمتك وبركة دعاء إمامنا عليه صلاتك

وسلامك لنكونن من الهالكين، رحماك ربي ولو كان لي رب سواك لدعوته ولكنك أنت ربي سبحانك إني كنت من الظالمين فاهدني لأقرب من هذا رشدا، لا إله إلا أنت الحليم الكريم.

المبحث الخامس

الحركة السلبية

أولاً: التفرّق.

ثانياً: الانكماش.

ثالثاً: الشك.

رابعاً: الازدواجية.

خامساً: اليأس من الفرج.

ونجد أيضا أن من أهم آثار الغياب التي ظهرت في الأمة بشكل عام ولكنها أدت إلى المباعدة بين الأمة وبين درجة التهيؤ والاستعداد المطلوبة للقيام هي الآثار التي نجمت عن الحركة السلبية غير المطلوبة من الغياب والتي تظهر تمثلاتها على أشكال متعددة أهمها:

أولا: التفرّق

من أولى ظواهر الآثار السلبية التي خلفها غياب الإمام في الأمة هي ظاهرة التفرّق والتمزق، والتشتت عن نواة الأمة الحقيقية، والابتعاد عن الغاية الأسمى.

وهنا نظرتُ في روايات حديث اختلاف أمتي والتفرق على اثنتين وسبعين فرقة والفرقة الناجية، فوجدته يعطي صورة عن التفرق السياسي والفكري للأئمة، منهم أئمة الهدى يدعون إلى الله، وأكثرهم أئمة الضلال يدعون إلى النار، ولكن مقام البحث يتطلب تقديم صورة التفرق في المجتمع الإسلامي زمن الغياب، وتفرق حركة المجتمع نسبة إلى حركة الإمام المعصوم المغيّب قسرا عن الحكم الظاهر.

فوجدت خير ما يصور لنا هذه الحال ما طرحه القرآن الكريم من رؤية للمجتمع الإنساني في زمن الظلم، والذي اصطلح على تسميته بالمجتمع الفرعوني، نسبة إلى

فرعون الذي بلغ به الانحراف وقيادة الناس بالضلال نحو النار أنه ادّعى الربوبية جهارا وألزم الناس بها بالقهر والقمع والتنكيل والتجويع والإرهاب.

وقد وصف القرآن الكريم فرعون وحال الخوف الذي اعترى صالحي الأمة في زمنه وما نالهم منه من خوف وفتنة، يقابل ذلك من فرعون علوّ وإسراف، قال تعالى: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾[1].

وقد قرن سبحانه وتعالى اسم فرعون بالعذاب المهين بالنسبة إلى مجتمعه لأن ذلك فعلا ما كان يصدر منه تجاههم، ووصفه بالعلو والإسراف أيضا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾[2].

ويبدو أن حال المجتمع الفرعوني هو الأنموذج الذي يقدمه القرآن الكريم مثالا لحال المجتمع زمن الظلم والبغي والضلال والدعوة إلى غير الله تبارك وتعالى، وإن كان ذلك ظاهرا جهرا، فإن للأمة قادة زمن الغياب لا يختلفون كثيرا عن فرعون إلا ببعض الاختلافات أهمها أنهم يدّعون الهدى وهم يدعون إلى الضلالة والعمى ويقودون من اتبعهم إلى دار البوار، وقد كشف القرآن الكريم زيف ادعاءاتهم بأكثر من وسيلة، نذكر

---

(١) سورة يونس، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٣٠-٣١.

منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[(١)].

فهم وإن كانوا يدّعون الدعوة إلى الهدى، إلا أنهم غير قادرين على الاهتداء بأنفسهم إلا أن يُهدَوا، ففاقد الشيء لا يعطيه لافتقاره له، وهذه قاعدة عقلية ثابتة، ويظهر لنا التأريخ حاجة هؤلاء إلى من يهديهم وكثرة أسئلتهم للإمام المعصوم واحتياجهم له، حتى أن منهم من اعترف بهلاكه لولا الإمام المعصوم وما فتح الله على يديه من العلوم والأحكام، ووضوح الحق، وقوة الحجة والدليل.

ونعود لننظر إلى المجتمع طبقا للوصف القرآني، فقد تفرقت الأمة وانقسمت على طوائف زمن الظلم بسبب دفع الإمام عن دوره في قيادة الأمة، ومن ثم حرمانها من عطاء الله وفضله ببركة الإمام عليه السلام، فنجد:

الطائفة الأولى: طائفة الطبقة الحاكمة

وهي الطائفة الظالمة المستكبرة التي تمثل قمة الهرم في نظام الحكم الظالم، وهي تحاول أن تستضعف المجتمع كله بتنوع طبقاته وطوائفه، وأن تجعله عبدا طائعا لتنفيذ شهواتها ورغباتها[(٢)].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٢) ينظر: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، محمد باقر الحكيم، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره، ط٢، النجف الأشرف، ٢٠٠٦م: ٣٥٤ وما بعدها.

ورأس هذه الطائفة يتبنى عادة التشريع وقسر الناس على الطاعة، بما يخالف شرعة الله ومنهاجه، لمجرد أن يحظى بالسلطان والجاه والشهوات، ويسفك دماء الأحرار الذين يمتنعون عن طاعته، فهو إن أعلن أم لم يعلن، مدع للربوبية قبالة رب السماوات والأرض، لأنه سواء فرعونا كان أم معاوية ففي الحالتين يقتل الناس الذين يطيعون الله عز وجل بما أوجب لهم من حق وكرامة، ويقرّب الذين يطيعونه على باطله وبغيه وفساد أمره.

الطائفة الثانية: طائفة الأتباع

وهناك طائفة ثانية تسمى طائفة الأتباع، أو كما يسميهم القرآن بالظلمة المستضعفين، وهم الذين يظلمون الناس ويبغون عليهم ويمارسون أبشع الجرائم بحقهم، ولكن من أجل طائفة الحكام المستكبرين، مثل هامان وغيره، وعمرو بن العاص وعبيد الله بن زياد وغيرهم الكثير ممن باعوا دينهم بدنيا غيرهم.

الطائفة الثالثة: طائفة الأعوان

وهم الوزراء والمستشارون والكتبة، والقادة المنفذون، فتجد أنهم يقدمون المشورة والنصح والعون من أجل تحقيق مآرب السلطان الجائر وتعزيز دولته، وإسناد قوته، وبسط نفوذه، وإحكام قبضته على خلق الله والتفنن في التضييق عليهم والتحكم بمصائرهم، إرضاء لشهوات الحاكم المستكبر، وتلبية لغروره، وتزلف الأتباع له.

الطائفة الرابعة: طائفة الهمج الرعاع

وهي التي تشكل أغلبية المجتمع من حيث العدد، فالظلم حين يستفحل في أي بلد، يخلف من المآسي والويلات ما يشغل الناس عن الالتفات إلى أنفسهم، والنظر في أحوالهم، فينحبس الرزق، ويعم البلاء، ويصيب الناس القحط، وينتشر الجهل، ولا يفتح السلطان الجائر أبواب عطائه إلا لمن يقدم له النفع والعون على بغيه، فلابد أن يكون ذا خبرة وعلم أولاً، وذا طمع في الدنيا وزهد في الآخرة ثانياً.

ومن النتائج الطبيعية أن تكون النسبة الكبيرة من الناس بعد ذلك هي نسبة الجاهلين بما يدور حولهم، الذين لا رؤية لهم ولا إرادة، ولا رأي لهم في عملهم ومسيرة حياتهم ومصير مجتمعهم، قد فقدوا القدرة على التفكير والتحليل، واتخاذ القرارات الصائبة التي تنظر إلى المستقبل بعين الاعتبار، فهم يسيرون حسب ما تمليه عليهم الظروف الفعلية القائمة، وتحركهم العواطف والأهواء، والأوضاع السياسية، وتنطلي عليهم خدع الساسة الظلمة، ومكائدهم، فهم مع الحاكم إذا كان الوضع العام معه، وهم ضده إذا تحول الظرف السياسي ضده.

وقد عبر عنهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: **«همج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق»**[(١)].

والملاحظ أن هذه الطائفة هي ساحة المعركة بين معسكر الحق وأهله من جهة، ومعسكر الباطل وأهله من جهة أخرى، فكلا الفريقين يعمل للتأثير في هذه الطائفة، الإمام المعصوم وأولياؤه يعملون على توعية هذه الطائفة ورفع مستواها النفسي

---

(١) نهج البلاغة: ٤: ٣٦.

والإدراكـي، والثقـافي والاجتمـاعي، إلى مسـتوى الـوعي المـدرك، والإرادة القويـة الفاعلة، من أجل نشر الخير والصلاح، والحاكم المستكبر الجائر يسعى ومن معه من أتباع وأعوان إلى إبقاء السواد الأعظم من النـاس - الـذي تمثلـه هـذه الطائفـة - تحـت خط الفقر، وتحت خط الأميّة والجهـل، وتحـت خـط الضـعف والإنهـاك، ليـتمكن مـن قيادتها بسـهولة، وتحقيـق مآربـه الفاسـدة وترسـيخ سـلطانه البـاغي الجـائر بسـكونها وتقهقرها وانهزامها، وإلا ما الذي يبقي هـذه الملايـين مـن النـاس تحـت سـياط الظـالمين الفاسقين لولا الضعف والجهل والفقر؟

ولنلحظ قوله عليه السلام وندقق فيه: **«لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق»**، فالنجاة بطلب نور العلم دفعا لمهلكة الجهل، واللجـوء إلى الـركن الوثيـق وهو الإمام المعصوم عليه السلام، وفي ذلك كفاية لكل مستنير.

الطائفة الخامسة: طائفة المستضعفين

وهي من طوائف المجتمع في زمـن الظلـم والفسـاد والجـور بسـبب تغييـب الإمـام المعصـوم، قسـرا عـن الحكـم الظـاهر، فهـي طائفـة المستضـعفين، وتمثـل المظلـومين المضطهدين الذين يدركون ما أصابهم من اضطهاد وظلم وتعسف، رافضين غير راضين ولا مستأنسين، ولكنهم تعايشوا مع هذه الحال، مستسلمين للواقـع المرير، فـالرفض لا يظهر إلا سرا، وقد تمركز في النفس والروح، وأما من ناحية حركة المجتمع فهـي حركـة باتجاه قبول الواقع والتعايش معه، وبالتأكيد فإن الحركة المجتمعية هي التي تؤشر الوجود الحي وترسم معالمه، وإلا فإن كمون الرفض في قرارة النفس من دون مصداق خارجي،

أمر لا يحقق نهوضا مجتمعيا، ولا يقدم عطاء، ولا ينجز فرضا من أجله يقدم الإمام المعصوم ما عليه وينهض بأعبائه ويقوم بالأمر.

الطائفة السادسة: طائفة الانعزاليين

فالانعزاليون يسميهم القرآن الكريم الرهبان، وهي طائفة الهاربين من الحياة، الذين يحاولون الانزواء والانعزال عن المجتمع وما يجري له وفيه، بسبب ما يرونه من فساد وظلم وجور، ورفضهم لهذا الواقع، فهم مع ما لهم من نور العلم بالحال، ورفض للفساد ورغبة في الصلاح إلا أنهم ينعزلون عن الواقع، ولكنهم يمارسون بهذا العمل ردة الفعل السلبية، ولا يقومون بوظيفتهم، ولا يعملون في نطاق مسؤوليتهم في مواجهة الظلم والفساد، وإعانة الإمام العادل وتمكينه من قيادة الأمة، وطاعته بما يضمن انتشار الخير وتحقق العدل وسطوع شمس الحرية على بقاع الأرض كلها.

الطائفة السابعة: طائفة المظلومين الرافضين

وتضم الذين يعيشون حالة الرفض الواعي للواقع الظالم، من ذوي الإرادة الصلبة الحكيمة، فهم يحملون رفضهم على المستوى النفسي والروحي، الفكري والثقافي، النظري والعملي، وهم إما يعملون أو يحاولون صنع الفرصة للعمل، أو ينتظرونها تتهيأ، ليمارسوا دورهم ويقوموا بأعبائهم بأفضل صورة وعلى أكمل وجه، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الطائفة بقوله تعالى شأنه: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ

هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾(١).

فهي طائفة تدعو الله وتتواصل معه، وتتشوق لولي الله الذي ينتصر لأمته بأمر الباري سبحانه وبتوفيق منه وسداد، (ومن الواضح قرآنيا أن هذه الطائفة الوحيدة التي تبناها القرآن الكريم، وجعلها في موضع اللطف الإلهي، واستثناها من حكم الطائفة الظالمة لنفسها)(٢).

قال جلّ ثناؤه: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾(٣).

إن هذا التفرق الذي ذكرناه يمثل الصورة الاجتماعية للتفرق والتمزق، بناء على ما عرضته آيات الكتاب العزيز، قد حدث زمن تغييب الإمام الأول أمير المؤمنين عليه السلام عن الحكم الظاهر ،إذ يروي أحمد في مسنده عن جابر أن النبي صلوات الله عليه وآله قال لكعب بن عجرة: **«أعاذك الله يا كعب بن عجرة من إمارة السفهاء»**، قال: وما إمارة السفهاء؟ قال صلى الله عليه وآله: **«أمراء يكونون بعدي لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون عليّ حوضي، ومن لم يصدقهم على كذبهم ولم يعنهم على**

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥.

(٢) المجتمع الإنساني في القرآن الكريم: ٣٦١.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ٩٨ـ٩٩.

ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردون عليّ حوضي؛ يا كعب بن عجرة: الصوم جنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة، والصلاة قربان؛ يا كعب بن عجرة: إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت أبدا، النار أولى به؛ يا كعب بن عجرة: الناس غاديان: فمبتاع نفسه فمعتقها، أو بائعها فموبقها»[١].

فلاحظ أي جور أقسى على زمن الرسالة الأول من تحريف السنن وتبديلها، وتغيير النهج نحو الاعوجاج وتزييفه، كل ذلك يجري ورسول الله صلى الله عليه وآله ما زال يغسّل ويكفّن، وأمير المؤمنين مشتغل بتجهيز جثمانه المقدس للدفن! فأي جزاء لهذا المنقذ العظيم ناله من بعض أمته الذين تسلطوا على الرقاب بالغدر والمكر وحدّ السيف؟!

وهذه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت محمد المصطفى عليها وأبيها وبعلها وبنيها صلاة الله وسلامه تغصب حقها، وتظلم ما أوجبه الله ورسوله لها، فأي ظلم أكبر، وأي المسلمين آمن على نفسه وماله وعياله إذا كانت بنت نبي الإسلام غير آمنة، ولم يسلم لها مال أو بعل أو ولد؟!

تقول من خطبة لها بعيد دفن أبيها الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله: (**«أيها الناس اعلموا: إني فاطمة وأبي محمد صلى الله عليه وآله أقول عودا وبدوا، ولا أقول ما أقول غلطا، ولا أفعل ما أفعل شططا، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم.**

فإن تعزوه وتعرفوه: تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليه صلى الله عليه وآله وسلم، فبلغ الرسالة، صادعا بالنذارة، مائلا عن

---

(١) مسند أحمد: ٣: ٢٣١، و٥: ١١١، وللاستزادة في هذا المعنى راجع: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي: ١٤ وما بعدها.

مدرجة المشركين، ضاربا ثبجهم، آخذا بأكظامهم، داعيا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجف الأصنام وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق وتقتاتون القد، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله، وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدودا في ذات الله، مجتهدا في أمر الله، قريبا من رسول الله، سيدا في أولياء الله، مشمرا ناصحا، مجدا، كادحا، لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر، وتتوكفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال.

فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهرت فيكم حسكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفا بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافا، وأحشمكم فألفاكم غضابا، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم، هذا والعهد قريب والكلم رحيب،

والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، ابتدارا، زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة، وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلا، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.

ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها ويسلس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها، وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإهمال سنن النبي الصفي، تشربون حسوا في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء ويصير منكم على مثل حز المدى، ووخز السنان في الحشا، وأنتم الآن تزعمون: أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟! أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية: أني ابنته. أيها المسلمون أغلب على إرثي؟ يا بن أبي قحافة أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئا فريا! أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾[1]، وقال: فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا إذ قال: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾[2]، وقال: ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾[3]، وقال:

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦،

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾[(١)]، وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[(٢)]، وزعمتم: أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إن أهل ملتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم».

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت: «يا معشر النقيبة وأعضاد الملة وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي، والسِّنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله أبي يقول «المرء يحفظ في ولده»؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون مات محمد صلى الله عليه وآله؟ فخطب جليل: استوسع وهنه واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، واظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه، في أفنيتكم، وفي ممساكم، ومصبحكم، يهتف في أفنيتكم هتافا، وصراخا، وتلاوة، وألحانا، ولقبله

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

ماحل بأنبياء الله ورسله، حكم فصل، وقضاء حتم: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[1].

أيها بني قيلة أأهضم تراث أبي؟ وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة وعندكم السلاح والجنة توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودر حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين.

فأنى حزتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟ بؤسا لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وهموا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة، ونجوتم بالضيق من السعة، فمججتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني بالجذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة، وبثة الصدر، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر نقبة الخف باقية العار، موسومة بغضب الجبار، وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون؛ وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد فاعملوا إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون»[(١)].

حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هذه بضعة المصطفى صلوات الله وسلامه عليها وأبيها وبعلها وبنيها، تظهر سخطها على أول خلفاء قريش، وتستنكر غدر المهاجرين، وتستنجد بالأنصار فلا تجد فيهم نصرة، وتهضم حقها وهي ابنة النبي الأكرم والرسول الأعظم! وبأي شيء ملك أولئك الظلمة رقاب الناس وصار لهم سلطانهم؟ بنبوة محمد ونصرة علي صلوات الله وسلامه عليهما، ولكن التفرق في المجتمع على طوائف كما بيّن القرآن الكريم كان هو الواقع المرير الذي حدث بسبب إبعاد الإمام العادل المعصوم عن دوره في قيادة الأمة، وهدايتها نحو الصلاح والإصلاح، والسعي بها إلى حيث الخير كله، وسعادة الدنيا والآخرة.

كذلك الحال زمن الإمام الأخير من أئمة الهدى، الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، فطوائف المجتمع الفرعوني ماثلة متجسدة في الأمة منذ غيابه قسرا

---

(١) الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، تحقيق وتعليق: محمد باقر الخرسان، مركز الأبحاث العقائدية، النجف الأشرف: ١ : ١٣٢ وما بعدها.

صلوات الله وسلامه عليه وحتى اليوم.

ولاحظنا كيف أن التفرق يجعل النسبة الغالبة من المجتمع تمثل إما أعداء لابد من محاربتهم، وإما عقبات شيطانية أمام المشروع النهضوي لقيام حكومة العدل الإلهي بإمام معصوم عادل، وإما ساحة عمل مرهقة - بفتح الهاء وكسرها معا -، وتبقى فئة قليلة من المستضعفين الرافضين، المنتظرين بشوق لمقدم الإمام العادل، المستعدين لنصرته، الموطنين أنفسهم على الجهاد بين يديه، والعمل على مساندته وتمكينه من قيادة المجتمع للخير والصلاح.

وهذا ما نجده في المجتمع زمن الغياب عند أول الأئمة الهداة مثلما نجده عند آخرهم، فتفرق الأمة إلى طوائف مقترن بالظلم والطغيان من جهة الحاكم الجائر على الناس، و(عندما اقترب تسلسل أئمة العترة عليهم السلام من الثاني عشر تفاقم خوف السلطة العباسية، ولهذا أجبروا الإمام علي الهادي وولده الإمام الحسن عليهما السلام على الإقامة في العاصمة سامراء التي كانت تسمى العسكر، فعرفا بلقب العسكريين. ثم بدا للخليفة العباسي أن يقتل الإمام الهادي عليه السلام، وشدد الرقابة على ولده الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ثم قرر الخليفة بعده أن يقتله ليستريح منه ويمنع ولادة الإمام الثاني عشر الموعود حتى لا يكون زوال ملكهم على يده، وليس بعيدا أن تكون السلطة قد هددت الإمام العسكري عليه السلام بالقتل إن هو تزوج، وكانوا يتصورون أنه سيتزوج امرأة قرشية ليكون أولاده منها كما يفعل شخصيات قريش، لأن ابن الجارية ليس له تلك المكانة، لكن الإمام عليه السلام أعتق جاريته نرجس

الرومية وتزوجها، وشاء الله أن يكون ولده المهدي عليه السلام منها)[١].

فتصور مدى الظلم الذي لحق بالأمة إذا كان الظلم الذي لحق بآل محمد هكذا! ومثل هذا الإصرار من الحكومات الباغية الظالمة على ملاحقة الطيبين الطاهرين وقتلهم كفيل بأن يفرق الناس ويمزق اجتماعهم فلا يبقى لهم رأي، ولا يجمعهم اتجاه أو حركة، ولا تكون لهم هوية جامعة ولا همة دافعة، يروى عن مالك بن ضمرة، عن أمير المؤمنين أنه قال له: **«يا مالك بن ضمرة كيف أنت إذا اختلفت الشيعة هكذا»**؟ وشبّك أصابعه وأدخل بعضها في بعض؛ فقلت يا أمير المؤمنين ما عند ذلك من خير! قال: **«الخير كله عند ذلك، يا مالك عند ذلك يقوم قائمنا فيقدم سبعين رجلا يكذبون على الله ورسوله فيقتلهم، ثم يجمعهم على أمر واحد»**[٢].

هكذا يصوّر أمير المؤمنين عليه السلام تفرق الأمة واختلافها أيام إمامة المهديّ عجّل الله تعالى فرجه، اختلاف متشابك متنازع متباين الاتجاهات، ولكنه التنازع الذي يعقبه الخير كله بإمام يجمع الناس على أمر واحد نفسي لتراب مقدمه الفدا والوقا.

(اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله، وتذلّ بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك، والقادة إلى سبيلك، وترزقنا فيها كرامة الدنيا والآخرة، بمحمد وعترته الطاهرة، يا كريم يا كريم يا كريم).

---

(١) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي: ٧٨٨ـ ٧٨٩.

(٢) م. ن.: ٥٨١.

ثانياً: الانكماش

ونقصد به انكماش الأمة عن ممارسة دورها الحي الذي أنيط بها، وانحسار دورها عن مساحته الحقيقية في العمل المجتمعي الواعي.

فالجماهير المؤمنة تتحمل مسؤوليتين كبريين على مستويين هما:

مستوى الأمة الإسلامية من الداخل ويمكن إجماله بنظم الأمور في داخلها وحفظ تماسكها.

ومستوى علاقة الأمة الإسلامية بمن هو خارج عنها، ويمكن إجماله بالدفاع عن نفسها، ودعوة الناس من خارجها إلى الهدى.

وليس هناك جزء من الشريعة الإسلامية يعبر عنها بمعزل عن بقية الأجزاء.

فمفهوم الأمة الإسلامية مرتبط بمجمل تلك الشريعة التي يؤيد بعضها بعضا، ومرتبط بنظامها المتكامل، فالإسلام عقيدة إلهية ذات طبيعة أممية، بمعنى أنه للناس كافة غير مقتصر على ذوي لون أو عرق أو مكان أو آية دالة دون غيرهم، ولا لذوي زمن دون أصحاب بقية الأزمان، ولكننا نرى أكثرهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون

ببعض، يتخبطون في معرفة ما عليهم فعله، ويتلكؤون حتى بعد معرفتهم كالغنم التي ضلت عن الراعي الأمين.

إنّ مجتمعا يغيّب عنه قسرا الإمام القائد الهادي المنصب من الله سبحانه هو لا شك مجتمع يسوده الظلم والجور، وسمته الانحطاط والتسافل، ولذلك نجد أن الأمة حينئذ تنكمش عن أداء دورها في التفاعل الحي داخليا وخارجيا لغياب الفاعل المباشر وهو الإمام، ونجد أن الإسلام قد ألقى على جماهير الأمة مسؤوليات متعددة تمثل حركتها الصحيحة التي تنقلها نحو درجات تكاملها صعودا إلى سعادتها الأبدية.

فقد بني الإسلام على ضرورة الاجتماع، وارتبط ارتباطا عضويا بحركة المجتمع، فلو كان الهدف منه الحكم والملك لكان شأنه فرديا بيد الحاكم أيا كان، ولكن الغاية التربوية التكاملية المتمثلة بالهدى وإقامة العدل تتطلب وجود حركة إرادية حرة للمجتمع.

هذا فضلا عن أن الطبيعة المادية الغالبة على البشر تتطلب تحقيق قانون الكثرة، على الرغم من عدم شرطيته للتعرف على الحق، وعدم لزومه له، بل قد تدل الكثرة في أغلب الأحيان على الباطل ولزومه استدلالا من الآيات الكريمة من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(١).

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾(٢).

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾(٣).

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(٤).

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾(٥).

وقوله سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٨.

(٥) سورة يونس، الآية: ٣٦.

مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[٣].

وغيرها الكثير من الآيات التي تدل على الربط بين الكثرة العددية والباطل، على سبيل تبيان الواقع السيئ، وكشف زيفه.

ولكن مع ذلك فإن تحقق الكثرة لمشروع العدل الإلهي يعني رسوخ العقيدة في العقل الجمعي للأمة، وإن حركتها ستكون حركة كلية، من أجل أن (تكون قوى وخواص اجتماعية قوية تقهر القوى والخواص الفردية عند التعارض والتضاد، على أن الحس والتجربة يشهدان بذلك في القوى والخواص الفاعلة والمنفعلة معا، فهمّة الجماعة وإرادتها في أمر.

كما في موارد الغوغاءات وفي الهجمات الاجتماعية لا تقوم لها إرادة معارضة ولا مضادة من واحد من أشخاصها وأجزائها، فلا مفر للجزء من أن يتبع كله ويجري على ما يجري عليه، حتى أنه يسلب الشعور والفكر من أفراده وأجزائه، وكذا الخوف العام والدهشة العامة، كما في موارد الانهزام وانسلاب الأمن والزلزلة والقحط والوباء أو ما هو دونها، كالرسومات المتعارفة والأزياء القومية ونحوهما،

---

(١) سورة هود، الآية: ١٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

تضطر الفرد على الإتباع وتسلب عنه قوة الإدراك والفكر، وهذا هو الملاك في اهتمام الإسلام بشأن الاجتماع)[١].

وهنا تجدر الإشارة إلى أمرين مهمين:

الأول: أن المناوئين لخط الرسالة المحمدية على صاحبها وآله الصلاة والسلام، قد استثمروا قانون الكثرة المجتمعية ولوازمه الاجتماعية في تغلبهم العاجل على أهل الحق، باستمالتهم الكثرة من الناس بوساطة الحيل والمكائد والفتن المضللة، التي بها خدعوا الناس فانكمشت عن أداء دورها الرسالي، مما يستوجب سحب فاعليته من أيدي المناوئين كونه يمثل عنصر قوة بأيديهم وهم يمثلون قوى الباطل.

الثاني: أن تجاهل الإسلام لقانون الكثرة المجتمعية سيجعل منه عقبة أمام هداية الجماهير المحجوبة عن الحق، فلابد من إزالة هذه العقبة لتحرير أولئك من قيد الانخداع، وتحريرهم من الجري مع الناس إتباعا للكثرة دون التعقل أو التفكر أو مراعاة الأدلة الشرعية العقلية أو النقلية.

إن الإسلام يرمي إلى مجتمع متماسك يتولى مسؤولياته بوعي وإرادة، تلك المسؤوليات المتمثلة في عبادة الله وحده، وإطاعة أولي الأمر، واجتناب الطاغوت، والحفاظ على شعائر الدين ومناسكه العامة وحدودها، وأداء فريضة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

---

(١) المجتمع الديني عند العلامة الطباطبائي، محمود نعمة الجياشي، مركز دراسات فلسفة الدين، ط١، بغداد، ٢٠١٠م: ٢٤٥.

الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٢).

وقال سبحانه: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ (٣).

وقال سبحانه: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤).

وهذه المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتق الأمة تدخل في بناء المجتمع الإسلامي، وعليها تعتمد ركائزه، وبها يتحقق مستقبله، ولا يصل إلى غايته إلا بوساطتها، فهي جزء مهم من مسيرة التكامل والارتقاء نحو الجزاء الأوفى.

ولكن ما نجده زمن غياب الإمامين عليهم السلام هو الانكماش عن أداء هذه الواجبات، والقيام بهذه الأعباء، تخبطا مع أمواج الفتن، وإتباعا لقادة الضلال، فعلى

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣٤.

(٤) سورة الحج، الآية: ٦٧.

الرغم من كون الإمام علي عليه السلام انتهج سياسة اتسمت بأنها (ثابتة لا تتغير، ولا تؤمن بالمكر والمواربة والخداع، وقد بنيت على العدل والرحمة والسماحة، ونشر الأمن، والشدة مع الظالمين... [و] إن سياسة الأمويين تحاول تشخيص الهدف بأية وسيلة ممكنة، وهي نفعية أنانية تعتمد حب السلطة، وتمتاز سياسة الإمام علي بأنها متفاعلة مع الجماهير ومصالحها، ولا تعتمد الاستبداد وخداع الجماهير، وهي لا تزور التاريخ أو تمتهن الصراع القبلي أو النظرية المَلَكية في الحكم كما يفعل الأمويون، بل تعتمد المساواة والشورى والعدل والحوار)[١].

على الرغم من ذلك فإن الأمة تقهقرت نحو أمراء وأئمة غيره عليه السلام، وقد اتهمت حكمته ومقدرته على القيادة في زمنه، وردّها بأنه خبر فنون الحرب وهو صغير، وها قد بلغ الستين ونيفا، فمن أعلم منه بشؤون الحرب والسياسة ؟ ولكن لا رأي لمن لا يطاع!

وهنا تبرز مشكلة الكثرة العددية مرة أخرى، فلابد لكل قائد من عدد مناسب من الناس يطيعونه فيما يجري من أوامر لإقامة العدل وتحقيق المنجزات، وكانت الناس قد عادت إلى سيرتها القبائلية الأولى، تطيع شيوخها وكبراءها، وتتبع خطى أثريائها، وتبغي المكاسب العاجلة، لاسيما بعد استشهاد معظم الصحابة الأجلاء من حَمَلة نصوص الوحي والحديث الشريف، في حروب التنزيل ومعارك التأويل، فانقلب بعد ذلك الناس على الأعقاب مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن

(١) الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي ع، د. رحيم محمد سالم، مركز الشهيدين الصدرين، ط١، بغداد، ٢٠٠٧م: ٣٢٧.

قبله الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[١].

وبعد أن كان معيار التفاضل بين البشر يقوم على التقوى عملا بقوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٢].

عادت الأمور إلى سابق عهدها بالجاهلية من تفاضل وتفاخر بالعرق والمنزلة، وكثرة الأموال والأولاد.

فنحن نجد أمير المؤمنين عليه السلام بغير ناصر ينصره سوى بعض الصحابة الذين امتحن الله قلوبهم وثبتهم على التقوى، ويكثر الكذب والاختلاق على السنة الشريفة ونحل الأحاديث الملفقة، متهافتة الدلالة، متناقضة المقاصد، لأسباب دنيوية لا علاقة لها بشيء من رضا الله، بل يسعى واضعوها إلى حرف الناس عن محجتهم البيضاء، والاستئثار بالسلطة، والتحكم برقاب الناس ومصائرهم جريا على عادات الجاهلية، وفي كتاب الاحتجاج للإمام الطبرسي قدس الله نفسه ما يغنينا في هذا المقام عن إعادته[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) راجع: الإحتجاج: ١: ١٥٥ وما بعدها، وفي هذا الكتاب من الحقائق المسندة إسنادا صحيحا ما تخجل منه أية أمة ينسب إليها لعظيم ما فعلوا بنبيهم وبوصيته في أهل بيته الموثقة بالقرآن والسنة.

ففيه ما يكفي للبرهان على عظيم الانحراف ومعنى الانقلاب على الأعقاب كما في الآية الشريفة.

وقد استمرت الأمة في تسافلها، حتى أن رجلا مثل معاوية ابن أبي سفيان يدعي إمرة المؤمنين ويجد من يعينه على مبتغاه! وهو من الشجرة الملعونة في القرآن، بل لقد أفاضت الأحاديث النبوية الشريفة في فضحه وكشف زيفه، ونسبته إلى أهل النار لشركه بالله، ومحاربته لأوليائه!

فقد روى البلاذري كما في أنساب الأشراف قال: (حدثني إسحاق عن ابن طاووس عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه – وآله – وسلم فقال: **«يطلع عليكم من هذا الفج رجل يموت على غير ملتي»**، فطلع معاوية، فقال النبي صلى الله عليه – وآله – وسلم: **«هو هذا»**)[1].

وقال ابن عقيل الشافعي: (أخرج أحمد بن حنبل في مسنده وأبو يعلى كلاهما عن أبي برزة قال: كنا مع النبي صلى الله عليه – وآله – وسلم فسمع صوت غناء فقال: **«انظروا ما هذا؟»**، فصعدت فإذا معاوية وعمرو بن العاص يتغنيان، فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه – وآله – وسلم فقال: **«اللهم اركسهما في الفتنة ركسا، اللهم دعّهما في النار دعّا»**)[2].

وفي مجمع الزوائد: في حديث لعمرو ابن الحمق الخزاعي: (ثم هاجرت إلى النبي صلى الله عليه – وآله – وسلم، فبينا أنا عنده ذات يوم فقال لي: **«يا عمرو، هل لك أن أريك آية الجنة تأكل الطعام وتشرب الشراب وتمشي في الأسواق؟»**، قلت: بلى بأبي أنت!

---

(١) أنساب الأشراف، البلاذري: ٥: ١٣٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رض بمثل هذا.

قال: «**هذا وقومه**»، وأشار بيده إلى علي بن أبي طالب - عليه السلام -، وقال لي: «**يا عمرو هل لك أن أريك آية النار تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وتمشي في الأسواق؟**»، قلت: بأبي أنت! قال: «**هذا وقومه آية النار**»، وأشار إلى رجل، فلما وقعت الفتنة ذكرت قول النبي صلى الله عليه - وآله - وسلم، ففررت من آية النار إلى آية الجنة، ويرى بني أمية قاتلي بعد هذا، قلت الله ورسوله أعلم. قال: والله إن كنت في حجر في جوف حجر لاستخرجني بنو أمية حتى يقتلوني، حدثني به حبيبي رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم إنّ رأسي أول رأس يحتز في الإسلام وينقل من بلد إلى بلد)[1].

وبالفعل حدثت نبوءة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله كما قال.

ولعل أشهر حديث قاله النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله هو حديث الفئة الباغية حين أخبر عمار بن ياسر قائلا له: «**يا عمار تقتلك الفئة الباغية**»[2].

وغيرها الكثير مما ترويه الأخبار عن النبي المختار صلوات الله عليه وسلامه[3]، وهكذا ينكمش دور اللأمة ويتعطل بسبب الانشغال بالفتن ومقارعة الظالمين أو الهروب منهم والتقيّة حفظا للنفس.

وفي زمن الإمام الحجة المهدي عليه السلام يتكرر الأمر بشكل أكثر انتشارا ووضوحا ومأساوية، فقد بلغ الانكماش مبلغا هائلا، يشحنه الخوف، ويمده الرعب،

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي: ج٩، ص٦٨٥، برقم، ١٦١٢٨، رواه الطبراني في الأوسط.

(٢) صحيح البخاري: ج١، ص١١٥؛ صحيح مسلم: ج٤، ص٢٢٣٦.

(٣) لمزيد من التفصيل يراجع: معاوية، عبدالباقي قرنة الجزائري، دار التفسير، ط٢، قم، ٢٠٠٦م: ٢٧١ وما بعدها.

وتصبغه التقية، وهذه الأمة تتقصى مرعوبة أخبار الإمام الحسن العسكريّ سلام الله عليه، وتترقب بحذر وتوجس الاعتداءات المتكررة للسلطات الجائرة أيام العباسيين على هذا الإمام الذي نصبه الباري حجة له على خلقه وأمانا لهم من الهلكة، وإماما عادلا عالما، وعلما هاديا، فقد (قضى الإمام الزكيّ أبو محمد عليه السلام أيام حياته القصيرة الأمد بالمحن والخطوب، فقد جهد ملوك العباسيين على ظلمه وإنزال أقصى العقوبات به، فكانوا ينقلونه من سجن إلى سجن، وضيقوا عليه في حياته الاقتصادية، وحجبوه عن الالتقاء بشيعته، كما منعوا العلماء والفقهاء من الانتهال من نمير علومه.

ويعود السبب في حقدهم عليه إلى... خوف العباسيين من ولده الإمام المنتظر عليه السلام الذي بشر به النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبر عنه غير مرة، من أنه أعظم مصلح اجتماعي تشاهده البشرية في جميع أدوارها، فهو الذي ينشر العدل السياسي والعدل الاجتماعي، ويقضي على جميع ألوان الظلم والغبن، ويحطم قوى البغي، ويزيل دول الشرك، ويرفع راية الإيمان والحق ويقيم المعطلة من حدود الله، وقد حاولوا قتله ليقضوا على نسله، وقد أدلى عليه السلام بذلك في توقيع خرج منه جاء فيه: **«زعموا أنهم يريدون قتلي ليقطعوا هذا النسل وقد كذب الله قولهم، والحمد لله»**)[١].

هذه الحال في أواخر حياة الإمام العسكريّ سلام الله عليه، أما في حياة الإمام المهدي روحي لتراب مقدمه الفدا.

فانكماش الأمة عن أداء مسؤولياتها الداخلية والخارجية أصبح أمرا لا يحتاج إلى

(١) حياة الإمام الحسن العسكري، باقر شريف القرشي، مركز الأمير لإحياء التراث الإسلامي، ط١، النجف الأشرف،٢٠٠٧م: ٢٦١.

برهان، فقد انشغل أبناؤها عن الإسلام بالدفاع عن أعدائه! وعن هداية الآخرين باتباعهم وتقليدهم ! وعن التماسك ونظم الأمر بالتخاصم والتناحر، وعن العمل باللهو واللعب، بل لقد بلغ الانكماش في الأمة حدا لم تعد تُساوى معه الأمة بالأحياء!

ولولا بعض الهمة التي نشاهدها في مواضع محددة ومعروفة من الأمة تمثل تبييضا للوجه وملاذا من عار الهوان، لما رفع رأسه أحد منا بكرامة، هذا فيما يتعلق ببقية الأمة التي يصدق عليها عنوانها الإسلامي، وإلا فإن من لا يصدق عليهم هذا العنوان فهم يسيرون بفاعلية قصوى، ولكن باتجاه الفساد والإفساد، والظلم والبغي والعدوان، والتأسيس للشرك ومنهجه المنحرف، وتنكمش على نفسها نواة الأمة الصالحة، إذ تجد نفسها مستضعفة غير قادرة على شيء من مسؤولياتها، تستنفد طاقتها في محاولة البقاء على قيد الحياة، لأن الهمة لا تأتي للأمة إلا باجتماعها، في حين تمزقت وتفرقت، واستضعفت حتى لم تعد لديها القدرة على النهوض بالأعباء.

ثالثاً: الشك

يمثل الشك في العقيدة واحدا من الآثار التي يتركها الغياب، فليس كل الناس قادرين على رؤية الأدلة على الحضور، وآثار الإمامة، لاسيما في حالة الحديث عن إمامة المهديّ محمد بن الحسن العسكريّ سلام الله عليهما وعلى آبائهما الطاهرين، الذي قلّ من رآه وكلمه في غيبته الصغرى، وندر من شاهده في غيبته الكبرى.

فأمير المؤمنين عليه السلام في غيابه عن الحكم الظاهر كان حاضرا بمرأى العين، وملء الأسماع، يشافه الناس بالحق ويكاتبهم به، يرونه ويراهم، تلمس أكفهم كفه الشريفة، وتصل بطونَ جياعهم عطاياه السخية، ولكن مع ذلك نجد من شكّ في إمامته من قومه، لأنهم حين قاسوه بأنفسهم وأساليبهم الظالمة في التعامل والسلوك رأوه ضعيفا غير قادر على الرياسة بالمعنى الذي يعرفون، لأنهم بعد التغيير والتبديل والتعطيل للسنن الإلهية النبوية أصبحوا يساسون بالظلم ويقادون بالجور، ولم يكن إمام المتقين كذلك.

وليس بخاف أن من أسباب الشك أيضا حبائل الشيطان ودسائس الشياطين، شياطين الإنس والجن، من قادة الحزب القرشي وأتباعهم، الذين أكثر ما كان يؤلمهم

انتشار الإسلام وانكفاء حكم الجاهلية، ولكن على أية حال فقد دبّ الشك بالعقيدة الإسلامية في عقول الكثيرين ممن أغوهم حيل الحزب القرشي، ولاسيما في مسألة الإمامة والنص عليها، فقد (اختلف المسلمون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيمن يخلفه في الحكم لإتمام المسيرة بالدعوة وإدارة شؤون الأمة، متجاهلين جميع مواقفه بشأن من أعده لهذه المهمة، ووصاياه التي كان يرددها بين الحين والآخر، وكاد الصراع أن يؤدي بينهم إلى حروب دامية لا يفيد منها سوى طواغيت قريش من أمية وغيرها، وانتهى الصراع بانتزاعها من أصحابها الشرعيين)[1].

وكادت الأمور أن تعود جاهلية كتلك التي حاربها الرسول العظم صلوات الله عليه لولا لطف الله سبحانه بجهاد علي عليه السلام مرارا وتكرارا، وهو القائل: **«والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا عليّ خاصة»**.

وهكذا فعل، فقد تحمل الجور على نفسه ليربأ بالأمة عن أشد الوطأتين إلى أهون الشرّين، وما إليه الخيار، ولا بأمره الأمر، وقد أحدقت بالأمة موارد كثيرة للشك، منها عقائد الأقوام التي دخلت في الإسلام حديثا عبر الفتوحات، وقبلها دسائس اليهود الذين يتزعم حركتهم المضللة كعب الأحبار.

ثم بعد ذلك الشعوبيون، والزنادقة والملاحدة والوثنيون وغيرهم، وكل ذلك بوجود حكام لا علم لهم بالقرآن إلا القليل الذي فَضلتهم فيه رباتُ الحجال.

ولولا أمير المؤمنين عليه السلام لهلكوا ولأذلّتْهم المحن، ولذا (فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته متحسبا ومتحسسا بتلك الأخطار وحريصا على أن يولي

---

(١) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ: ٤٩.

أمور الأمة من بعده من يتابع المسيرة بدون انحراف والتواء، واختار لها الأمناء على شرع الله ووحيه كما أمره الله، وقد بلّغ عن ربه ذلك في عشرات المناسبات حتى لا يبقى عذر لمعتذر يوم يقف الناس بين يدي الله سبحانه، ولكنهم ومع الأسف الشديد رفضوا اختياره وتجاهلوا وصاياه، (ولم ينج منهم إلا مثل همل النعم) على حد تعبير البخاري في صحيحه، واختاروا لأنفسهم فكان ما كان، وبخاصة في العهد الأموي من انتكاسات في النظام والتواء في المبادئ، وما نجم عن ذلك من ردة أعادت المجتمعات الإسلامية إلى إحياء العصبيات وتجاهل الكفاءات واحتكار الصلاحيات ونسخ التعاليم الإسلامية أو مسخها وتشويهها، واستبدالها بالأنظمة الطبقية والرأسمالية المستغلة.

هذا بالإضافة إلى الفرق التي انتحلت الإسلام وراحت تفسر نصوصه وحتى أصوله بما يلتقي مع نزعاتها واتجاهاتها)[١].

وحسبك بذلك شكا بعد يقين، واضطرابا بعد أمن واطمئنان، وكان لابد من أن يتغذى الشك على عدد من المفاهيم التي تم اعتمادها بديلا عن المنهج الرسالي القرآني العلمي بإمام مبين، ومن تلك المفاهيم الفاسدة مفهوم الحكم بالرأي، والاستحسان، والاستصلاح، وهي مداخل للحكم في العقيدة تعتمد على قابليات الحاكم الذاتية، فهي مفاهيم ذاتية وليست موضوعية، وباستبعاد أهل العصمة نكتشف أن لكل شخص قدراته الخاصة وقابلياته المتفاوتة وقدراته المختلفة على التذوق والاستحسان أو الاستقباح للأحكام والأمور، والظن بوجود المصلحة أو الذهاب إلى وجود المفسدة في الشيء نفسه.

---

(١) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ: ٥٢.

وهـذا كفيـل باسـتبدال الصـراط المستقيم بسـيرة التخـبط والتلـون والاعتـراض والتقلب، بل الانقلاب على الأعقاب كما يعبر القرآن الكريم، فالمفـاهيم الظنيـة الذاتيـة لا يمكن أن ترقى في الصدق والثبات واليقين إلى ما تنجزه المفاهيم القطعية الموضـوعية، قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلَيمٌ بما يَفْعَلُونَ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾[٢].

وقد بدأ الشك في لحظة التفكير بإمامة علي بن أبي طالب عليه السـلام، هـل هـي روحية أم إدارية؟ تكوينية أم تشريعية؟ واجبة أم مستحبة؟

ومنذ ذلك الحين والقـرآن الكـريم يتـولى تأويلـه قـوم لا علـم لهـم بـه، وفي ذلـك مصداق لقول الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآلـه: («**إن مـنكم مـن يقاتـل علـى تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله**»؛ قيل أبو بكر وعمر؟، قال: «**لا ولكنه خاصف النعل**» - يعني عليا)[٣].

وقد روي عن سليم بن قيس أنه قال: (حدثني سـلمان والمقـداد، وحدثنيـه بعـد ذلك أبو ذر، ثم سمعته من علي بن أبي طالب عليه السلام، قالوا: إن رجلا فاخر علـي بن أبي طالب عليه السـلام فقال رسول الله لما سمع به لعلي بن أبي طالب: «**فاخر العرب**

(١) سورة يونس، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٩.

(٣) ينظر: كنز العمال: ج٦، ص١٥٥، برقم ٢٥٨٥.

وأنت أكرمهم ابن عما، وأكرمهم صهرا، وأكرمهم زوجة، وأكرمهم ولدا، وأكرمهم أخا، وأكرمهم عما، وأعظمهم حلما، وأكثرهم علما، وأقدمهم سلما، وأعظمهم غنا بنفسك ومالك، وأقرأهم بكتاب الله، وأعلمهم بسنتي، وأشجعهم لقاء، وأجودهم كفا، وأزهدهم في الدنيا، وأشدهم اجتهادا، وأحسنهم خلقا، وأصدقهم لسانا، وأحبهم إلى الله وإلي، وستبقى بعدي ثلاثين سنة تعبد الله وتصبر على ظلم قريش لك، ثم تجاهدهم في سبيل الله إذا وجدت أعوانا، فتقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت معي على تنزيله، ثم تقتل شهيدا تخضب لحيتك من دم رأسك، قاتلك يعدل عاقر الناقة في البغض إلى الله والبعد منه»)[1].

فهل بعد هذا القول حاجة إلى بيان؟! أم هل بعد هذا الهدى إلا الكفر والعناد؟!!

ثم إن الشك لم يقف عند حدّ، وحسبك برزية يوم الخميس - حسب تعبير عبد الله ابن عباس - مانعا من كتاب الهدى، وقد تفرقت الأمة بسبب عنادها، وإتباعها من ليس يعلم موضعه في أي شيء هو، والأمة تتخبط في مدارج الشك والحيرة، وقد ظهرت حركات الردة التي أعد لها المنافقون إعدادا شيطانيا، حتى وصل الشك إلى أصل التوحيد فرجع بعض الناس إلى عبادة الأوثان، وكل ذلك بسبب تخبط القيادة الحاكمة، وقد بلغ بالأمة الحال من تعدد الفرق، وخصوماتها، وتكفير بعضها بعضا ما لا يقبله عالم ولا يقره منصف، ونجد أن جلّ التكفير والتقتيل والتهجير والتشريد والتجويع يمارس ضد المطيعين لله ورسوله في وصيته بحق علي وأولاده عليهم السلام.

فإذا انتقلنا إلى زمن غياب إمامنا المهدي رزقنا الله إتباعه عند ظهوره وعجل له

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١: ٢١٤.

ولنا ذلك، نجد أن الشك قد بلغ مبلغه لطول المدة ولكثرة الفتن، ولابتعاد الناس عن خط الإمامة، وخوضهم في آيات الله بغير علم، ففي زمن غيبته الصغرى عجل الله تعالى فرجه الشريف وسهل مخرجه، خرجت إلى الناس توقيعاته التي يبيّن فيها ما أشكل على الناس فهمه، ويظهر لهم الحلال من الحرام، وكل ما يحتاجون إليه، عبر سفرائه الأربعة المعروفين، ونلاحظ أن من توقيعاته سلام الله عليه، وهو التوقيع الثالث، ما يشعر بالشك واختلاف الناس وتفرقهم بشكل عام، وشيعته بشكل خاص، ويبدو أن من أسباب ذلك تضليل الفتن، وتفشي الشكّ والحيرة، والابتعاد عن التمسك بحبل الله الممدود.

ففي توقيعه الثالث عليه السلام: (عن أبي عمرو العمري، قال: تشاجر ابن أبي غانم القزويني وجماعة من الشيعة في الخلف وذكر ابن أبي غانم أن أبا محمد مضى ولا خلف له، ثم إنهم كتبوا في ذلك كتابا وأنفذوه إلى الناحية وأعلموه بما تشاجروا فيه، فورد جواب كتابهم بخطه عليه السلام وعلى آله وآبائه: «**بسم الله الرحمن الرحيم عافانا الله وإياكم من الفتن، ووهب لنا ولكم روح اليقين، وأجارنا وإياكم من سوء المنقلب، إنه أنهي إلي ارتياب جماعة منكم في الدين وما دخلهم من الشك والحيرة في ولاة أمرهم فغمنا ذلك لكم لا لنا، وساءنا فيكم لا فينا، لأن الله معنا فلا فاقة بنا إلى غيره، والحق معنا فلن يوحشنا من قعد، ونحن صنايع ربنا والخلق بعد صنايعنا، يا هؤلاء ما لكم في الريب تترددون، وفي الحيرة تنعكسون أوما سمعتم الله عز وجل يقول:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]**، أوما علمتم ما**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

جاءت به الآثار مما يكون يحدث في أئمتكم على الماضين والباقين منهم السلام؟ أو ما رأيتم كيف جعل الله لكم معاقل تأوون إليها وأعلاما هتدون بها من لدن آدم عليه السلام إلى أن ظهر الماضي، كلما غاب علم بدا علم، وإذا أفل نجم طلع نجم، فلما قبضه الله إليه ظننتم أن الله أبطل دينه وقطع بينه وبين خلقه؟ كلا ما كان ذلك وما يكون حتى تقوم الساعة ويظهر أمر الله وهم كارهون، وإن الماضي مضى عليه السلام سعيدا فقيدا على منهاج آبائه عليهم السلام حذو النعل بالنعل، وفينا وصيه وعلمه ومنه خلفه ومن يسد مسده، ولا ينازعنا موضعه إلا ظالم آثم ولا يدعيه دوننا إلا كافر جاحد، ولولا أن أمر الله لا يغلب، وسره لا يظهر ولا يعلن لظهر لكم من حقنا ما تبين منه لقولكم ويزيل شكوككم، ما شاء الله كان، ولكل أجل كتاب فاتقوا الله وسلموا لنا وردوا الأمر إلينا، فعلينا الإصدار كما كان منا الإيراد، ولا تحاولوا كشف ما غطي عنكم، ولا تميلوا عن اليمين وتعدلوا إلى اليسار، واجعلوا قصدكم إلينا بالمودة على السنة الواضحة فقد نصحت، والله شاهد علي وعليكم.

ولولا ما عندنا من محبة صاحبكم ورحمتكم والإشفاق عليكم لكنا عن مخاطبتكم في شغل مما قد امتحنا به من منازعة الظالم العتل الضال المتتابع في غيه، المضاد لربه، المدعي ما ليس له، الجاحد حق من افترض الله طاعته، الظالم الغاصب، وفي ابنة رسول الله صلى الله عليه وعليها لي أسوة حسنة وسيردى الجاهل رداء عمله وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار، عصمنا الله وإياكم من المهالك والأسواء والآفات والعاهات كلها برحمته، فإنه ولي ذلك والقادر على ما يشاء، وكان لنا ولكم وليا حافظا، والسلام على جميع الأوصياء والأولياء والمؤمنين ورحمة الله وبركاته، وصلى

الله على محمد النبي وآله وسلم تسليما»)[١].

وهناك حديث آخر نستدل به على انتشار الشك والريب، وهو من الحركة السلبية للمجتمع زمن الغيبة، (يروى عن أبي محمد الحسن العسكري عليهم السلام: **«قال علي بن محمد عليهما السلام: لولا من يبقى بعد غيبة قائمكم عليه السلام من العلماء الداعين إليه والدالين عليه والذابّين عن دينه بحجج الله والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس ومردته ومن فخاخ النواصب لما بقي أحد إلا ارتد عن دين الله، ولكنهم الذين يمسكون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك صاحب السفينة سكانها، أولئك هم الأفضلون عند الله عز وجل»)**[٢].

وفي قول الإمام سلام الله عليه كفاية لتبيان موارد الشك وكيفية العصمة منها، باتباع العلماء الأعلام والمراجع العظام.

وفي الحديث أيضا ما يدل على أن موارد الشك واقعة فعلا ولابد منها في هذه الظروف، وبالمقابل لابد من مواجهة الشك باتباع السبيل الأقوم والصراط المستقيم والتمسك بحبل الله الممدود أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، ومعدن الرحمة، وخزّان العلم، ومنتهى الحلم، وأصول الكرم، وقادة الأمم، وأولياء النعم، وعناصر الأبرار، ودعائم الأخيار، وساسة العباد، وأركان البلاد، وأبواب الإيمان، وأمناء الرحمن، وسلالة النبيين، وصفوة المرسلين، وعترة خيرة رب العالمين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب: ٣٨٧.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ١: ١٢.

رابعاً: الازدواجية

حين يتبع الإنسان منهجا فكريا معينا، ويحمل عقيدة معينة، فإنهما يصبغانه بما يحملان من مفاهيم ومبادئ، ويرسمان له ملامح شخصيته التي يعرف بها بين الناس، على مستوى الشخصية الفردية الخاصة، والشخصية المعنوية العامة للأمة.

ولكن حين تنهل الشخصية من مناهل متعددة، وتختلط عندها المفاهيم المأخوذة مرة من العقيدة السليمة ومرة من العقيدة الفاسدة، وتعتمد على أكثر من مصدر معرفي ومنهج عملي، فإنها تكون شخصية مزدوجة، لها أكثر من وجه، ويصلح عليها إطلاق صفة الازدواجية، أو ما يعرف في علم النفس الحديث بـ(الشيزوفرينيا)، وهل ترسم ملامح الشخصية الإسلامية للفرد سوى أفعاله السلوكية؟

فمرة ينتهج منحى (فرعونيا) طاغيا عاليا مسرفا، ومرة ينتهج منحى (قارونيا) عابدا للمال والشهوة، ومرة ينتهج منحى (هامانيا) تابعا للطغاة ظهيرا لهم مساعدا على بغيهم وانحرافهم، ومرة يكون سامريّ قومه يضلهم، أو عجلهم الذي يعبدون من دون الله، وهو مع كل ذلك ـ أي الفرد ـ يدعي أنه مسلم! فعن أي إسلام نتحدث؟ في

زمن كثرت فيه واجهات الإسلام، وتعددت فرق الإدعاء به؟!

برزت ازدواجية الأمة بشكل عام نتيجة لازدواجية الأفراد الذين تولوا قيادتها، والسير بها خبط عشواء، ولم يسلم من الأمة إلا من اهتدى بهدي الأئمة الهادين المهديين عليهم السلام، فتجده محافظا على خط سيره، ثابتا في سيرته بين الناس على ما يوافق أحكام القرآن، ورضا الرحمن، وحين نبتدئ الحديث بمسألة الإمامة في كل قضية نتطرق إليها قد يعيب ذلك علينا من لا علم له بقيمة الإمامة، ولا دراية له بخطرها، وبعد أثرها في الناس، والناس على دين ملوكهم، هكذا هي سجيتهم، وإلى ذلك اطمأنوا، وبذلك تحدثنا أخبار الماضين ومن تبعهم من الأمم عامة، وأمتنا الإسلامية خاصة، فنجد أن أول مظاهر الازدواجية في الأمة القول بأن الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه لم يترك وصية! في حين أمر الناس بما جاء في كتاب الله بوجوب الوصية!! ولا أدري إن كان ثاني معالم الازدواجية أو ثالثها القول إن معاشر الأنبياء لا يورثون!

في حين يقر أولئك بأن بقية الناس يورثون، فتبرز بنت محمد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعليها لترد على المدعي بآي الذكر الحكيم، وقد سبق أن ذكرنا خطبتها الشريفة وما أوردته من حجج بالغة، مع علمنا - ولعل القارئ يعلم - أن القضية ليست قضية ميراث في الأصل، فأرض فدك في الأصل ليست إرثا بل هبة كان قد أعطاها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للزهراء سلام الله عليها في حياته، والميراث إنما هو بالقسمة بعد الموت، ولكن في دين الجاهلية لا تعطى النساء من الميراث شيئا! فالنزاع إذن بين دين الجاهلية ودين الإسلام.

وتتوالى الانحرافات في الفكر والعقيدة حتى تتسع الهوّة، ويحتكم الناس إلى

الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾(١).

ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾(٢).

فمن الناس من عاد إلى بعض سنن الجاهلية، مثل معايير النسب والكثرة العددية وكثرة الأموال ميزانا في التفاضل بين الناس ،وهذه بعض مظاهر النظام القبائلي في الحياة الذي كان في عهد الجاهلية، والله يقول في محكم كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

وهو بذلك يقرّ أن علّة جعل الناس شعوبا وقبائل هي التعارف، وأما معيار التفاضل بين الناس والكرامة فهو التقوى، وهذا من محض علم الله وخبرته سبحانه، فمن ذا يكون الأعلم من الله والأكثر خبرة منه ليضع معايير للتفاضل والكرامة غير ما وضع سبحانه؟ أوليس التفاضل بالأنساب وكثرة الأولاد والأموال هو من قبيل الكفر

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٧.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

بالله؟ تأسيسا على قوله سبحانه على لسان الكافر: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾[1].

ومثل هذه الممارسات الكثير مما يعتمد من الأسس الفكرية والعقائدية ما نفاه الإسلام بعد أن حفلت به الجاهلية، فحين يخلط الناس في ممارساتهم بين ما هو سلوك إسلامي، وما هو سلوك قبائلي جاهلي، ألا يرسمون لأنفسهم شخصية مزدوجة؟

ثم بعد ذلك يأتي نظام للحياة آخر ليطرح نفسه مزاحما للإسلام والجاهلية، وهو النظام الرسمي السلطوي، أي ما تفرضه السلطة من أنظمة وقوانين وتشريعات بمقتضى مصالحها التي أولها استمرار الحكم وبقاء الحاكمين.

وهذه التشريعات والقوانين تفرض على الإنسان إن هو آمن بها أو اتبعها ولو قسرا، عددا من السلوكيات المنحرفة التي تتسبب في انتشار الفساد في الأرض، نعم هي ليست مأخوذة من عهد الجاهلية، ولكنها مما استحسنه الحكام لإدامة ملكهم، ولإظهار تفوقهم المعنوي من أجل أن لا يحيد عنهم الناس، ويبقون تحت ربقة طاعتهم والولاء لهم، سواء ترغيبا أم ترهيبا، وقد اصطلح عليها تسمية (القوانين الوضعية) في مقابل القوانين الإلهية أو الشرائع السماوية، ومنها ما يتسبب في نشر الفساد في الأرض، مثل القوانين التي تلزم المعاملات المالية بالربا، والقوانين التي تسمح بتداول الخمور وتعاطيها ومنح الإجازات لدور اللهو والفجور وغير ذلك.

وحين نعود إلى زمن غياب أمير المؤمنين عليه السلام عن الحكم الظاهر نجد أن الأموال كانت تهدى للقرشيين بالملايين من الدنانير الذهب، وقد فُرق بالعطاء بين

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٤.

القرشيين وسواهم من القبائل، ثم بين المهاجرين والأنصار، ثم بين الأحرار والعبيد، ثم بين العرب والعجم أو الموالي مخالفة صريحة لسنة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه، حتى أن أمير المؤمنين عليه السلام حين نهض بالأمر قام (في ثورته التصحيحية بالإعلان عن تصميمه على مصادرة الأموال التي منحها عثمان بن عفان لأسرته وحاشيته، وعزل الولاة عن الأمصار التي كانت تعاني الأمة من جورهم واستهتارهم بالقيم والمقدسات، حتى أعلن المساواة في العطاء وغيره بين جميع الفئات، وألغى جميع الامتيازات التي كان الحزب القرشي يعامل الناس على أساسها بعد تصنيفهم إلى قرشي وعربي وعبد ومولى وما إلى ذلك من الأصناف التي كانوا يعاملون المسلمين على أساسها ويستغلون غير القرشيين منهم كما يستغل الإنسان ممتلكاته، وكان سعيد أحد أفراد الأسرة الحاكمة يقول يوم كان واليا على الكوفة لقريبه عثمان: السواد بستان لقريش! مما أثار غضب أهل الكوفة الذين كانوا ينتمون إلى عشرات القبائل العربية، وفي الوقت ذاته كانوا يعتبرون صنفا ثالثا من أصناف الإنسان، ويبلغ بهم الإسراف في تحقير الموالي إلى حد الحاقهم بالحيوانات، فكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلا كلب أو حمار أو مولى! إلى غير ذلك من النزعات العنصرية التي أوشكت أن تطغى على المجتمع الإسلامي.

في حين أن الإسلام قد ألغى جميع تلك المظاهر وأعلن عليها حربا لا هوادة فيها، ولم يفضل إنسانا على إنسان من أي صنف كان وإلى أي أسرة كان ينتمي إلا بالتقوى والاعمال الصالحات والخدمات التي يقدمها لمجتمعه وغيره من بني الإنسان، ولأكثر من مناسبة كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول لبني هاشم وبني عبد المطلب: «**اعملوا فلن أغني عنكم من الله شيئا، ولا تتعاظموا على الناس بأنسابكم**

وصلتكم برسول الله، فالناس سواسية كأسنان المشط وكلكم لآدم وآدم من تراب»)[(١)].

وقد سنت قوانين لإعطاء الرشا للحكام والأمراء، ثم كانت دماء المسلمين وأعراضهم تسفك وتنتهك باسم الإسلام!

وحسبك دليلا آلاف القتلى الأبرياء في واقعة الحرة، وتعاور الظلمة على مكة والمدينة بالقتل واغتصاب الحرائر، وهدم الكعبة تارة، واحراقها تارة أخرى، كل ذلك على أيدي جيوش حكام الجور باسم الإسلام!

وأكثر من ذلك نلحظ الخطر الأكبر في التحريف العقائدي باسم الإسلام أيضا، فنجد أن الأحاديث كانت توضع كذبا على لسان النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه، في حياته الشريفة، ومباشرة بعد التحاقه بالبارئ سبحانه، ومن ذلك حديث التوريث، ثم قضية فدك، وغير ذلك الكثير، ثم حكم الأمويين الذي ابتدأ بعثمان، وكانت تسيطر عليهم النزعة البدوية أو القبلية، ولا يبالون بما يقول الفقهاء والوعاظ كما كان يصنع العباسيون، وجل اهتمامهم كان منصرفا إلى تدعيم ملكهم ولو بحد السيف على الطريقة البدوية والقبلية، وفي الوقت ذاته لم يجدوا بدا من اللجوء إلى مصانع الحديث التي أسسها لهم أبو هريرة وكعب الأحبار وسمرة بن جندب وعروة بن الزبير والزهريّ، عند الحاجة، ولما جاء العباسيون إلى الحكم حاولوا أن يظهروا بمظهر أكثر التصاقا بالدين وراحوا يتصلون بالفقهاء والوعاظ من أجل شراء الذمم للتوفيق بين سياساتهم التي تقتضيها مصالحهم الدنيوية وبين ما تبقى من هيكلية النظام الإسلامي

---

(١) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ: ١٨٥.

عبر التأويل الفاسد، والتزوير والكذب على الله ورسوله)[1].

ثم نأتي إلى زمن غياب الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه فنجد أن الازدواجية تتسع في تطبيقاتها السلوكية العملية، ويتخذ الكثير من متناقضاتها طابع المقبولية العرفية، أو الطابع القانوني الرسمي، أو حتى أنها قد تشرعن على يد وعاظ السلاطين وفقهاء المال، والحركات الهدامة المنحرفة، ولا سيما خوارج العصر الذين يدعون إلى إسلام مبني على التكفير لبقية طوائف المسلمين، والقتل والنهب والإحراق والتدمير، مبني على سفاسف بالية، وخزعبلات لا قيمة لها إلا التجهيل وتعطيل الإسلام وهدر طاقاته الحقة، وسفك دماء أبنائه وانتهاك حرماتهم.

ولعلنا نذكر هنا قول الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه وآله، إذ يقول: «**إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء**»، ويروى أن أبا بصير طلب من الإمام الصادق عليه السلام أن يشرح له هذا الحديث، فقال له عليه السلام: «**يستأنف الداعي منا دعاء جديدا كما دعا رسول الله، وكذلك المهدي يستأنف دعاء جديدا إلى الله لمّا غُيِّرت السنن وكثرت البدع وتغلب أئمة الضلال، واندرس ذكر أئمة الهدى الذين افترض الله طاعتهم على العباد، وأقامهم للدعاء إليه والدلالة بآياته عليه، ونسي ذكرهم وانقطع خبرهم لغلبة أئمة الجور عليهم، فلما أنجز الله بالدعاء للأئمة ما وعدهم به من ظهور مهديّهم، احتاج أن يدعوهم دعاء جديدا كما ابتدأهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالدعاء أولا**».

ويروى أيضا عن عبد الله بن عطاء المكي أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام

---

(١) ينظر: م. ن.: ١٢٣.

عن سيرة الإمام المهديّ سلام الله عليه، فأجابه عليه السلام: **«يصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يهدم ما كان قبله كما هدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر الجاهلية، ويستأنف الإسلام جديدا»**[١].

وبعد كل ما حرفه الناس من أمر الإسلام، فما الذي بقي من الإسلام؟

إنها الازدواجية في المنهج والعقيدة، بل هي شيزوفرينيا المجتمع العربي بين ثلاثة أنظمة:

١. النظام القبائلي الجاهلي.

٢. النظام السلطوي السياسي.

٣. النظام الإسلامي المعصوم.

وعسى أن يمدني الباري بفضله ويوفقني لأتم كتابي الخاص بهذا الموضوع الذي أسميته (شيزوفرينيا المجتمع العربي: ثلاثة في واحد)، إنه ولي التوفيق.

---

(١) ينظر: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي: ١٢٥.

خامساً: اليأس من الفرج

وهذا مما جرته كثرة الانتفاضات الإسلامية المقموعة الداعية إلى الإصلاح، ونشر العدالة الإسلامية، الانتفاضات التي أبيدت هي وكل أصحابها وأنصارهم وتابعيهم، وقد أدت إبادتها إلى انتشار الظلم حتى لقد غصت به لهاة الأرض واختنقت به رئة السماء.

إن معظم تلك الانتفاضات كانت شيعية تدعو بالأمر إلى الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، (لقد كان الأئمة وشيعتهم في حرب فكرية شرسة مع تلك الانحرافات ومحاولات التغيير والتشويه للإسلام من قبل الحاكمين وجنودهم من بعض الفقهاء والشعوبيين والمحدثين، لذلك كان كل من يتولى الحكم منهم يتجه بكل امكانياته لمقاومة الإمام المعاصر له، ويعمل بكل ما لديه من الوسائل للقضاء عليه وعلى الأصوات الخيرة التي تنطلق من حوله بالدعوة الإسلامية الصريحة...، وكان من نتيجة مواقفهم من المنحرفين وأعوان الحاكمين من الفقهاء والمحدثين والشعوبيين...، أن تعرض الأئمة وشيعتهم للاضطهاد والتشريد والسجون المظلمة والقتل بمختلف الأسلحة)[1].

---

(١) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ: ١٤٠.

ونجد أن أول انتفاضة تصحيحية رافضة للظلم، فاضحة للفساد والمفسدين، مقضة لمضاجع المنافقين، هي انتفاضة علي بن أبي طالب عليه السلام، أول القوم إسلاما وأكملهم إيمانا، أعلمهم بشرائع الله وأقضاهم، الولي الناصح الذي بايعوه بإمرة المؤمنين ثم ما لبثوا أن نكثوا بيعتهم، وقد سبب ذلك دبيب اليأس في قلوب الناس وعقولهم يوما بعد يوم، في حين كان اليأس مقررا على الذين كفروا، بعدما تمت البيعة لعليّ عليه السلام، ولم يعد من مجال للكفار والمنافقين، بل للشيطان نفسه، في فتنة أو طمع في حكم، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾(١).

ولكن نكث البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام، وادعاء القوم لها، ودعوتهم الناس لطاعتهم دون طاعة الله، ولبسهم الحق بالباطل، كل ذلك قلب المعادلة، فصار اليأس من حصة المسلمين بعد أن كان من حصة الكفار، والسبب واضح، وهو أن إكمال الدين وإتمام النعمة لم يلقيا تأييدا لدى الناس ومنعة ودفاعا، ولله سنته الجارية ونظامه المفروض، الذي لابد من إتباعه للفوز بوعده الحقّ، حتى لقد يئس كثير من الناس من تحقيق العدالة الاجتماعية، والعودة إلى سنة الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله، بعد أن استأثر الحكام بالأموال وتحكموا برقاب الناس بالباطل، وما زالوا يلوذون بعلي عليه السلام حتى انثالوا عليه من كل جانب مجتمعين حوله كربيضة الغنم يطلبونه راعيا لهم ولحقوقهم، بعدما ضيعوا أنفسهم وما لهم من حقوق بعدولهم إلى غيره.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

ونجد أن اليأس في حقيقته شعور قلبي بالقطيعة بين العبد وربه، بين الفقير حقا والغني المطلق، بين المحكوم فعلا والحاكم الدائم، بين الضعيف المستكين والقوي المتين، حتى يصل العبد إلى درجة لا أمل له معها بنصر الله، وحتى يصل انغماس العبد في المعاصي إلى درجة أنسه بالشيطان الرجيم، وعدم رغبته بالعود والإنابة إلى الله، فلا طمع له بمغفرة لِما عَظُم في نفسه من ذنوبه، بل لِما استأنس منها ولكفايته بها تلذذا عن الطاعة وحلاوتها، لِما ران على قلبه، وعميت بصيرته، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وهؤلاء اليائسون من الرحمة والفرج، ونصر الله، ليسوا من الإيمان في شيء، فقد قال تعالى: ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[2].

وهؤلاء لا يجوز توليهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾[3].

ولكن مع ذلك فاليأس على درجات ومستويات، والقرآن الكريم يقدم لنا ثلاثة مستويات رئيسة هي:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٣.

المستوى الأول

اليأس من روح الله وهو من الكفر، قال تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[١].

المستوى الثاني

القنوط من رحمة الله وهو من الإسراف في الكفر، وهو أشد من اليأس قال تعالى: ﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٣].

المستوى الثالث

البَلَس، وهو نهاية اليأس من الرحمة الإلهية، بل هو القطع بعدم الرحمة والعياذ بالله، ومن سلكه يسمى المُبْلِس، ومنه سمي اللعين (إِبْلِيس) لشدة مبالغته في البَلَس، وسمي اللعين من اللعن وهو الطرد من رحمة الله، وهو ومن أبلس معه في سواء الجحيم لا محالة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾[٢].

وقال تعالى من سورة الزخرف: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾[٣].

ونجد أن اليأس يدب في أوصال الأمة، وقد يلحقه القنوط ثم البلس والعياذ بالله، وقد تبدأ درجات اليأس بالاستفهام للتثبت، ولا حجة بعد الجواب، ثم الاستفهام الإنكاري، ثم المجاهرة باليأس من الفرج بإنكاره جملة وتفصيلا، وقد يكون بين ذلك درجات أيضا لتفاوت الناس في درجات عقولهم وإيمانهم وأوعيتهم، وهذا أبو مريم عبد الغفار بن القاسم يدخل على الإمام الباقر صلاة الله وسلامه عليه ويسأله عددا من الأسئلة، ثم يقول له: (بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله فما نجد العلم الصحيح إلا عندكم، وإني قد كبرت سني، ودقّ عظمي، ولا أرى فيكم ما أسرّه، أراكم مقتلين مشردين خائفين، وإني أقمت على قائمكم منذ حين أقول: يخرج اليوم أو غدا، قال

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الزخرف، الآيات: ٧٤-٧٨.

عليه السلام: «**يا عبد الغفار إن قائمنا هو السابع من ولدي، وليس هو أوان ظهوره، ولقد حدثني أبي عن أبيه عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الأئمة بعدي اثنا عشر عدد نقباء بني اسرائيل، تسعة من صلب الحسين، والتاسع قائمهم، يخرج في آخر الزمان، فيملؤها عدلا كما ملئت جورا وظلما**»)[1].

وهذا اليأس من فرج الله بظهور القائم من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يدب في عروق الأمة، فقد (روى الكليني عن محمد بن يحيى، وأحمد بن إدريس، عن محمد بن أحمد، عن السياري عن الحسن بن علي بن يقطين، عن أخيه الحسين، عن أبيه علي بن يقطين قال: قال لي أبو الحسن عليه السلام: «**الشيعة تربى بالأماني منذ مائتي سنة**»، قال: وقال يقطين لابنه علي بن يقطين: ما بالنا قيل لنا فكان، وقيل لكم فلم يكن؟ قال: فقال له: علي: إن الذي قيل لنا ولكم كان من مخرج واحد غير أن أمركم حضر فأعطيتم محضة فكان كما قيل لكم، وأن أمرنا لم يحضر فعللنا بالأماني، فلو قيل لنا: إن هذا الأمر لا يكون إلا إلى مائتي سنة أو ثلاث مائة سنة لقست القلوب، ولرجع عامة الناس عن الإسلام، ولكن قالوا: ما أسرعه وما أقربه تأليفا لقلوب الناس وتقريبا للفرج).

وقوله: قيل لنا أي في خلافة العباسية - وكان من شيعتهم — أو في دولة آل يقطين، وقيل لكم أي في أمر القائم وظهور فرج الشيعة.

وروى أيضا عن الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد، عن الحسن بن علي الخزاز، عن عبد الكريم بن عمرو الخثعمي، عن الفضيل بن يسار، عن أبي جعفر عليه

---

(١) كفاية الأثر: ص٢٥٠؛ ينظر: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي: ١٩٥.

السلام قال قلت: لهذا الأمر وقت؟ فقال: «**كذب الوقاتون، كذب الوقاتون، كذب الوقاتون، إن موسى – على نبينا وآله وعليه السلام – لما خرج وافدا إلى ربه واعدهم ثلاثين يوما، فلما زاد الله إلى الثلاثين عشرا قال قومه: قد أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا، فإذا حدثنا كم الحديث فجاء على ما حدثنا كم فقولوا: صدق الله، وإذا حدثنا كم الحديث فجاء على خلاف ما حدثنا كم به فقولوا: صدق الله تؤجروا مرتين**»[١].

وقد أثبتت الروايات المعتبرة عن الأئمة المعصومين الأوصياء المنتجبين عليهم صلاة الله وسلامه أن اليأس والشك حاصلان في الأمة إلا الخواص من المؤمنين، فمن ذلك ما ورد (عن المفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إياكم والتنويه أما والله ليغيبن إمامكم سنينا من دهركم ولتمحصن حتى يقال: مات، قتل، هلك، بأي واد سلك؟ ولتدمعن عليه عيون المؤمنين ولتكفأن كما تكفأ السفن في أمواج البحر فلا ينجو إلا من أخذ الله ميثاقه وكتب في قلبه الإيمان، وأيده بروح منه، ولترفعن اثنتا عشرة راية مشتبهة، لا يدرى أي من أي**»، قال فبكيت ثم قلت: فكيف نصنع؟ قال: فنظر إلى شمس داخلة في الصفة فقال: «**يا أبا عبد الله ترى هذه الشمس**»، قلت: نعم، فقال: «**والله لأمرنا أبين من هذه الشمس**»)[٢].

إذن فاليأس منه لغير الخواص من المؤمنين واقع لا محالة، على أن اليأس من ظهور القائم صلوات الله وسلامه عليه وآبائه هو في حقيقته يأس من روح الله، فمن غير المستقيم عقلا مع عدالة الله سبحانه أن تخلو الأرض من حجة، أو يستفحل الظَلَمة

---

(١) بحار الأنوار: ٤ : ١٣٣.

(٢) الكافي للكليني: ١ : ٣٣٦.

ببغيهم على الناس فلا يجد المؤمنون من ينصرهم ويسترجع المغتصب من حقوقهم، وإن للباطل جولة، وللحق دولة، اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله، وتذل بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك، وترزقنا فيها كرامة الدنيا والآخرة بمحمد وعترته الطاهرة صلواتك عليه وعليهم ونعوذ بك من اليأس والقنوط والبلس إنك حميد مجيد.

المبحث السادس

الانتظار والمبادرة

أولاً: الانتظار الإيجابي ومبادراته.

ثانياً: الانتظار السلبي وحركاته.

ثبت لدينا فيما سبق من البحث أن الغياب يوجب على المؤمنين الانتظار، وصولا إلى مبتغاهم في نصرة الإمام عليه السلام طاعة قربة إلى الله تعالى، وأن الانتظار كفيل بأن يمحّص المؤمنين ويظهر تفاوتهم في الدرجات، وثباتهم على مواقفهم رغم طول المدة وشدة المحنة، من دون تبديل لسنة الله ورسوله والأئمة الأطهار عليهم السلام من بعده التي لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا، وليس أفضل من الانتظار كاشفا لمعادنهم، ومظهرا لحقائقهم، ومفصحا عن سجاياهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(١).

ولو جئنا إلى الانتظار لوجدناه على نوعين فسلبي وإيجابي، والإيجابي بحسب ما يصدر عن الناس المنتظِرين، وإلا فغير المنتظرين - بالكسر - لا يدخلون في حسابات المؤمنين، على نوعين أيضا هما: الانتظار التام، والانتظار المتحفّز.

ونجد المبادرة على نوعين أيضا تبعا لنوع الانتظار: الإيجابية والسلبية.

لأن المبادرة لا تأتي إلا بعد وعي متكامل بالانتظار وحقيقته، والسلبية هي مما يؤخر الظهور الشريف ويعرقل مسيرته التي هي في الأصل رحلة الإنسان نحو التكامل

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

عملا بقانون التغيير الإلهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[١].

وأما المبادرة الإيجابية فهي لحظة البدء الحقيقية للظهور، والإعداد لها يتطلب جهودا مضنية على نطاق واسع يشمل الأمة نوعا وكمّا، ولا يقتصر على مجتمع أو جماعة، فالإنسان يدعو الله سبحانه طلبا لتغيير الحال السيئة بحال حسنة، ويدعو طلبا للتعجيل بالفرج، ولكن هذا لا يكفي، فقانون التغيير الإلهي بمقتضى هذه الآية ينفي استجابة الله لعباده بتغيير ما بهم من حال إلا بشرط أن يغيّروا هم واقع أنفسهم وما بها من شطط عن الحق وبعد عن جادة الصواب وانحراف عن الصراط المستقيم، فتغيير الحال لأية قوم أمر خارج عن نطاق وسعهم وداخل بالضرورة في وسع الباري سبحانه، ولذلك هم يدعونه للتغيير، ولكنه يشترط عليهم أن يغيروا هم أولا ما في وسعهم، ما مكّنهم منه، ما جعله في ضمن ولايتهم وأفسدوا فيه، وأقصد أنفسهم التي أمّروها عليهم بالسوء إلا ما رحم ربي، في حين جعل لهم القلب أميرا على جوارحهم، والحجة الأولى له عليهم، قائدهم إلى الهدى، القادر على الاهتداء بهدى الله بما حباه من قدرات، وأما الروح فهي حبيسة هذا الطين والماء، تأنس بالعبادة لبارئها والقرب منه، وتستوحش غير ذلك، وأما الجسد فهو الحمل الثقيل الذي يبغي الراحة ويستأنس بالأرض التي خرج منها، ومصيره العودة إليها، فلابد للإنسان بقلبه، وبالموازنة بين حاجات جسده وروحه أن يقود نفسه إلى حيث الاطمئنان، لتكون مطمئنة راضية مرضية، ليتحقق بذلك ما ليس في وسعه من تغيير الحال بأمر الله سبحانه.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

أولاً: الانتظار الإيجابي ومبادراته

نستطيع تقسيم الانتظار الإيجابي على نوعين: انتظار تام وانتظار متحفز، ويأتي ذلك من استقراء سلوك المنتظرين، فهم مؤمنون، صابرون على البلاء محتسبون، عالمون بإمامهم، يتقصون أخباره ويتبعون ما تيسر لهم منها.

ولكنّ منهم من ينتظر على وفق منهج ارتضاه لنفسه بعد النظر فيما عنده من وسائل معرفة، ظنا منه أنه انتظار العاملين، فجعل ما وصل إليه من تمحيص بالانتظار والصبر وما تحقق لديه في محيطه المباشر من تزيّل، جعل كل ذلك وسيلة تحفّز المجتمع نحو التغيّر في محاولة لعلاج مرض انعدام الإرادة عند المجتمع بدواء يشبه أثره ما فعلته الثورة الحسينية المباركة في مجتمعها القريب منها، ولعله يتوخى بذلك مصداق الآيات الشريفات من قوله تعالى من سورة العنكبوت: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ

أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[١].

فأمر الله واضح وصريح بلزوم عبادته وحدة، وهناك سعة لمن أراد على رغم ما يبدو من تضييق الطغاة العصاة المستكبرين، وإن كان لابد من المواجهة مع أولئك الطغاة فالموت حق وكل نفس لابد أن تذوقه، وإلى الله الرجوع والمصير، وهناك يسعد الفائزون بما صبروا وعملوا الصالحات وعزموا على الشهادة وتوكلوا على الله، وهؤلاء يبلغون مبلغا من الانتظار ثم يسعون إلى تحفيز المجتمع بتوكلهم على الله في اتخاذ طريق المواجهة الذي يؤدي بهم إلى قضاء نحبهم.

ومن المنتظرين من يبقى على وفق منهج الانتظار التام، يمارس الصبر والتصبّر والمصابرة والمرابطة، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢].

كما ورد شرحه (عن يعقوب السراج قال: قلت لابي عبدالله عليه السلام: تخلو الارض من عالم منكم حي ظاهر تفزع إليه الناس في حلالهم وحرامهم؟ فقال: **«يا أبا يوسف لا، إن ذلك لبين في كتاب الله تعالى، فقال** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾، **«عدوّكم ممن يخالفكم»**، ﴿وَرَابِطُواْ﴾، **«إمامكم»** ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ﴾، **«فيما يأمركم وفرض عليكم»**)[٣].

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٥٦ ـ ٥٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٣) بحار الأنوار: ٢٣: ٥١.

ثم بعد ذلك هو يمد أفراد مجتمعه به، ويحثهم على الثبات، ويكون عند حاجتهم إلى الهدى حين طلبهم إياه للمشورة حتى يأذن له الإمام المعصوم بحركة، أو عمل يخرجه عن دائرة الانتظار التام.

إن العاملين بكلي النوعين من الانتظار الايجابي مشمولان بقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

ولكني أطلقت على من (قضى نحبه) منهم بأنه ذو الانتظار المحفز، لأنه يؤدي حركة تحفز الأمة من حالة السكون والانتظار السلبي إلى حالة الانتظار الايجابي ولكن حركته هذه تؤدي به إلى الشهادة، فضاؤه لنحبه سيكون جزءا من حركة الانتظار الايجابي للأمة ولكنه انتظار محفز، فهو بما يطلق من طاقة، طاقة التضحية بالنفس، يبث في أوصال الأمة اليقظة بعد طول ما منيت به من خَدَر.

والنحب هو الموت، وقيل هو النذر لمن ينذر نفسه للموت في سبيل الله، وقد ورد في تفسير مجمع البيان: (﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾، أي بايعوا أن لا يفروا فصدقوا في لقائهم العدو، ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ أي: مات أو قتل في سبيل الله فأدرك ما تمنى فذلك قضاء النحب وقيل قضى نحبه معناه فرغ من عمله ورجع إلى ربه يعني من استشهد يوم أحد، عن محمد بن إسحاق وقيل معناه قضى أجله على الوفاء والصدق عن الحسن وقال ابن قتيبة أصل النحب النذر وكأن قوما نذروا إن يلقوا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا أو يفتح الله فقتلوا فقيل فلان قضى نحبه إذا قتل.

قال ابن إسحاق ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ من استشهد يوم بدر وأحد ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ما وعد الله من نصرة أو شهادة على ما مضى عليه أصحابه ﴿ وما وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ أي ما غيروا العهد الذي عاهدوا ربهم كما غير المنافقون.

قال ابن عباس: ﴿مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ حمزة بن عبد المطلب ومن قتل معه وأنس بن النضر وأصحابه وقال الكلبي: ما بدلوا العهد بالصبر ولا نكثوه بالفرار.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن علي عليه السلام قال: «**فينا نزلت** ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ **فأنا والله المنتظر وما بدلت تبديلا**»)[1].

وإنّ قوله تعالى (وما بدلوا تبديلا) يعني لم يبدلوا عهد الله، والمفعول المطلق المؤكد لفعله يشير إلى صرامة الموقف من المبدلين ولو بنسب ضئيلة.

والانتظار بنوعيه التام والمتحفّز لابد له من الالتزام بشروط الامتناع عن التبديل، بمعنى التمسك بالعهد مع الله ورسوله وأهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وعدم مخالفتهم لا بتقدم عليهم ولا بتأخر عنهم، بل ملازمتهم واتباعهم، ولكن حين يكون العلم بالأمور ودقائقها لدى القيادة في العمل الاسلامي سببا للنشاط والحركة مع توافر الشروط الموضوعية للحركة فإن ذلك يمثل انتظارا محفّزا للجماهير باتجاه الإمام

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم المقدسة: ٨: ١٢٦.

عليه السلام، وأما إذا كانت الظروف الموضوعية تمنع الحراك وتقيده، فالانتظار التام أولى من الحراك الذي قد تكون آثاره أكثر سلبية وأشد وطأً من الصبر والتصبّر والمصابرة والمرابطة، وللعلماء القادة تقدير المصلحة من الحراك وتحفيز الانتظار الايجابي، أو الصبر والانتظار التام، كلٌّ في محيطه وبحسب ظروفه الموضوعية.

إذن فالانتظار بنوعيه التام والمتحفز هو انتظار ايجابي يسعى إلى جملة من المرامي عبر مبادرات إيجابية، ومن هذه المرامي:

ألف: التعريف بالسنن الإلهية والمبادئ الحقّة وتحقيق الثبات عليها والالتزام بها.

باء: التعريف بتفاصيل الشريعة الإسلامية ومستلزمات العمل بها ونقل هذه الخبرات إلى المجتمع.

جيم: إعداد جماهير الأمة لخوض معارك الجهاد الأكبر مع النفس التي ستقع عبر التمحيص بالبلاء وخوض الفتن وممارسة العيش في هذه الحياة الدنيا بشكل عام، كما نجد عند أغلب الفقهاء المتصدين للاجتهاد والعمل العلمي والتوعوي في الحوزات الإسلامية.

دال: إعداد جماهير الأمة لاستقبال الإمام المعصوم عليه السلام في حركته التغييرية العالمية عبر الحضور في دائرة طاعته والفاعلية في مجال نصرته بكل المقاييس.

هاء: نظم أمر الأمة لجعل الاستعداد بالانتظار عملية جمعية لكل الجماهير غير محجوبة عن أحد قدر المستطاع، وبحسب الظروف الموضوعية المتوافرة، كما نجد في زعامات الحوزة العلمية في النجف الأشرف عبر العصور، ولعل في مرجعية آية الله

السيد علي الحسيني السيستاني خير رافد دال على ذلك لاسيما بعد حركته التغييرية باتجاه نظم الأمر وإصراره على مغادرة المحتل بكل الوسائل التي أتيحت له، وإصراره على كتابة دستور يحظى بتأييد أغلبية الشعب العراقي قبل تأسيس أي حكم، ثم تصديه لحل المشكلات الفكرية والسياسية للبلد كلما سنحت له الفرصة من المعنيين بالطاعة والانصات وحسب الظروف الموضوعية، ولن يكون آخر عمله بإذن الله فتوى الجهاد الكفائي التي قلبت موازين القوى وغيرت المعادلات الأمنية والسياسية والاجتماعية وحتى الفكرية في العراق والمنطقة والعالم بأسره، الفتوى التي أطلقت وهج الحضور بين يدي الإمام عليه السلام بأجلى صور الحضور، وهو حضور كلي بتضحية وفداء منقطعي النضير، والملفت للنظر أنها جعلت الحضور الجماهيري يعبر مراحل ومسافات ليصل بموهبة ربانية مباشرة إلى الذود عن المقدسات بالنفس واحتمال الشهادة لتكون كل المقدمات التي نعتقد بضرورة تقدمها لاحقة لفعل الاستشهاد الذي احتشدت له الجماهير العراقية المؤمنة الصابرة، وما انتظم بذلك من تداعيات وثورات وحركات متصلة مشابهة في بقية البلدان الإسلامية ذات الجماهير الشيعية المظلومة المضطهدة، ولعل لنا مناسبة أخرى إن شاء الله لبسط القول في تحليل هذه الفتوى والتعريف بخطورتها وأهمية فعلها وآثارها.

واو: تحفيز الأمة نحو تعجيل الحركة باتجاه المعصوم عليه السلام من مثل تأسيس الدولة الإسلامية الحديثة وفقا لمدرسة أهل البيت عليهم السلام والسعي بالجماهير نحو تلمّس خيرات الصحوة الإسلامية وفعلها على صعيد سعادة المجتمع واستقراره واطمئنانه، كما نجد في تجربة الجمهورية الإسلامية في إيران بقيادة مؤسسها الراحل آية الله العظمى السيد روح الله الخميني قدس سره الشريف، ومواصلة المنهج

على يدي السيد القائد علي الخامنئي أطال الله بقاءه.

إن الانتظار الايجابي يصنع أو يمهد لصنع المبادرات الايجابية نحو تفعيل الحضور بين يدي الإمام صاحب الزمان عليه السلام حضورا فاعلا قادرا على النصرة الحقّة، وإن هذه المبادرات هي التي تعجل حصول التزيّل الذي به تبدا معركة الحسم المتمثلة بوراثة الأرض ومن عليها لإقامة دولة العدل الإلهي، وقد ذكرنا أمثلة حية من هذه المبادرات وهي معاصرة، وقعت زمن غياب الإمام المهدي عليه السلام عن الحكم الظاهر في محاولة لإصابة تلك المرامي المتوخاة.

ومن هذه المبادرات التي سعت إلى تحصيل تلك المرامي يمكن التمثيل في زمن غياب أمير المؤمنين عليه السلام عن الحكم الظاهر، بمبادرة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام المطالبة بحق فدك وخلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وتأسيسها لبيت الأحزان الذي أقض مضاجع الظالمين لفرط حزنها سلام الله عليها وشدة ظلمهم لها، مما جعلها تكشف زيفهم وتعرّي نفاقهم وكفرهم وتفضح ما خبأته صدورهم من حقد على التوحيد وأهله والإسلام وبنيه والإيمان وقادته والهدى وأئمته، فكانت مبادرتها بالمطالبة الحثيثة، والدعوة الحقة، والتذكير والإرشاد، ثم تأسيسها بيت الأحزان الذي أستطيع أن أصفه بأنه (المؤسسة الرقابية التصحيحية الأولى من نوعها في العالم)، كانت أعظم مبادرة تؤسس للانتظار الحقيقي البنّاء القائم على أسس متينة من القرآن والسنة وفيه إصابة لتلك المرامي التي ذكرناها وبها تتحقق إيجابية الانتظار.

ولعل من تلك المبادرات أيضا مبادرة أبي ذر التي دفع حياته ثمنا لها، فهو في أكثر من موقف ومشهد يذكّر بوجوب الالتحاق بالإمام مفترض الطاعة وعدم التخلف عن

ركبه، وليت مشهده يكون ماثلا أمام الناس الآن إذ (أخذ بحلقة الباب ثم نادى بأعلى صوته في الموسم: أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن جهلني فأنا جندب بن جنادة، أنا أبو ذر، أيها الناس إني قد سمعت نبيكم يقول: «**إن مثل أهل بيتي في أمتي كمثل سفينة نوح في قومه، من ركبها نجا ومن تركها غرق، ومثل باب حطة في بني اسرائيل**» أيها الناس إني سمعت نبيكم يقول: «**إني تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وأهل بيتي**»...)[١].

ومثل تلك المبادرات لسلمان المحمدي والمقداد الكثير مما يؤطر المبادرات الايجابية بإطار الانتظار المتحفز.

ملاحظة مهمة:

هنا أجدني أسأل سؤالا وأجيب عليه: ما الفرق بين مبادرة المعصوم ومبادرة غيره زمن الانتظار؟

أجد أن الجواب يكمن في مقتضى العصمة، وحتما فإن غير المعصوم لا تتوافر لديه سمات المعصوم فيكون أقل بكثير من حيث العلم والحكمة والإرادة والتأثير.

وغير ذلك من خصال الكمال النسبي عند المعصوم التي تقابلها عند غيره صفات النقص، ولذا سأتحدث عن مبادرة غير المعصوم وإن كان عالما فقيها ورعا تقيا، بل مرجعا من مراجع الأمة، ولكنه يبقى غير معصوم، وقد أسميت هذه المبادرة عند كل مبادر غير معصوم بـ(المبادرة الاجتهادية)، فهي مبادرة ربما تكون ليست بأمر من المعصوم، ولم تقع في ضمن نهيه، - أو هكذا تبدو لنا- لها آثارها الإيجابية والسلبية

---

(١) الاحتجاج: ج١: ٢١٤.

بحسب الحكمة منها وطريقة إدارتها وسعة تأثيرها وما إلى ذلك من أمور، وسأحاول تحليل آلية إجراء المبادرة الاجتهادية، وقد أسميتها اجتهادية لأنها ليست بقيادة مباشرة من الإمام المعصوم، وإن كانت ربما جرت بأمر منه عليه السلام، وإلا لكان الظهور المقدس قد تم بأكمل وجه وظهر الإسلام على ما سواه ولسادت العدالة والسعادة بين الناس.

ولكن هذا لم يتحقق بعد كما هو واضح، وليس سكوت المعصوم عن النهي عن هذه المبادرة إلا لأنها تقع في دائرة المعروف من حيث المبدأ ولكنها غير مكتملة بكل جوانبها لان فيها من الخبايا ما يخفى على من قام بها هو أو اتباعه، وليس بمقدورهم إحداث التغيير المطلوب بكل تفاصيله لعجزهم عن ذلك فهو ليس بوسعهم، ولذا فمثلما نجد لهذه المبادرة آثارا إيجابية قد نجد لها آثارا سلبية أيضا.

فمن تلك المبادرات التاريخية: ثورة زيد بن علي عليهما السلام، وثورة المختار الثقفي رضي الله عنه، ومبادرات أخرى حدثت زمن الإمامين المعصومين الأول والثاني عشر عليهما من الله الصلوات والتحيات موضوع هذا المبحث، من مثل ثورة الصحابة الأجلاء على عثمان بن عفان في زمن غياب أمير المؤمنين عليه السلام.

ومما لا يمكن تجاهله أن التشيع بشكل عام وفّر مهادا خصبا لحركات الإصلاح والتغيير ضد الأنظمة الفاسدة، من أجل (تحقيق العدالة التي دعا إليها الإسلام وضحى علي وبنوه بأنفسهم وبكل ما يملكون من أجلها ومن أجل الإنسان وكرامته، وتطبيق العدالة التي تحفظ لكل إنسان حقه وكرامته، وكانوا القدوة الخيرة المعطاء لكل ثائر على الظلم والظالمين وفراعنة العصور، وتستّر بهم حتى أولئك الذين قاوموا الحكم الأموي والعباسي لمصالحهم الخاصة، وطمعا في السلطة، كالزبيريين وابن الأشعث والعباسيين

وغيرهم)[١]. ويمكن أن نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى أمثال سهل بن حنيف، وأبي أيوب الأنصاري، وأبي الهيثم بن التيهان، ومالك بن نويرة، وأبي ذر الغفاري وسلمان المحمدي، ومالك الأشتر النخعي، ومحمد بن أبي بكر بن أبي قحافة، ولكل منهم قصته المعروفة بمحاولة أو أكثر للتغيير والإصلاح بعمل فرديّ، سواء المحاولات التي اعتمدت الدعوة السلمية، أم التي كانت مسلحة ثورية، هذا في زمن غياب الإمام علي عليه السلام عن الحكم الظاهر.

وأما في زمن غيبة المهديّ المنتظر سلام الله عليه، فقد بزغت شخصيات إسلامية ثائرة، وكثرت الحركات الفردية التغييرية بسبب طول المدة واتساع رقعة الفساد، ووجود الأفذاذ المصلحين من العلماء، وكثير منهم انتهجوا الطرائق السلمية في التغيير، من مثل إنشاء المدارس الإسلامية التي تدرّس علوم أهل البيت عليهم السلام وأخبارهم وأحاديثهم، وتأسيس الحوزات العلمية، وتأليف المناهج الدراسية العلمية لها وتوفير الأجواء الملائمة للطلبة من كل مكان من دون ميز عرقي أو لوني أو جغرافي أو غير ذلك، عملا بالسيرة العقلائية التي تؤكد أن نشر علوم أهل البيت هو أفضل وسيلة لتعريف الناس بقضية الإمامة والمظلومية، وخلافة الإنسان لله في الأرض المرتبطة بمشروعهم الإلهي التغييري الواسع سلام الله عليهم.

ولا يمكن القبول برأي من يقلل من شأن الحركات التغييرية للواقع الفاسد بالطرائق السلمية، ولا سيما العلمية منها، فأهل السياسة قد ينظرون باحترام أكثر للحركات التغييرية السياسية والعسكرية لتولي زمام السلطة وتأسيس الحكومة بشكل

---

(١) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ، هاشم معروف الحسني، دار التعارف للمطبوعات ،ط١، بيروت، ١٩٩٠م: ٨.

مباشر وقيادة الأمة، ولكن ذلك يعد في منظومة الفكر الإسلامي من الجهل المركّب !، فقاعدة التغيير بحسب المفهوم القرآني قائمة على ركيزة (حتى يغيروا ما بأنفسهم)، بمعنى أن فعل التغيير يحتاج إلى إرادة ثابتة، والإرادة الثابتة تحتاج قبل أن تتحقق إلى وعي ثابت، فالمعركة الأولى إذن هي معركة الوعي قبل كل شيء، وأما من يريدون قلب هذه المعادلة وجعل التغيير يأتي سلطويا أولا، ثم اصدار القوانين للناس فهم لاشك طامعون بالمناصب، وقد غرتهم الحياة الدنيا.

وفي زماننا المعاصر أيضا قد يبرز بين الحين والآخر من الجماهير المؤمنة عالم فذّ فرد، يحمل صفات خاصة، تؤهله للوعي المدرك، والإرادة القوية الفاعلة، وتمكنه من استمالة عدد لا بأس به من الناس، ينصرونه، ويعضدون مشروعه النهضوي، وهناك قائمة طويلة من الحركات الفردية لأفذاذ الأمة وعلمائها وقادتها، عملوا فيها على قيادة المعارك الفكرية والعقائدية لحفظ الدين، وتثبيت الشريعة، وإعلاء كلمة التوحيد، حتى لا تندرس ملامح الإسلام ولا تغيب أنواره، وقد استشهد منهم من استشهد، أو مات صبرا، أو نفي، أو سجن وعذّب، وكلهم ينشدون نشر الوعي الإسلامي لإحداث التغيير في القواعد الجماهيرية، من أجل الوصول إلى نصر الله الموعود، وكلمته الحق، وقد توالت تلك الحركات الفردية حتىَ أيامنا، ونحن نعيش زمن الغيبة المرير.

وهنا أتذكر رواية عن والدي (حفظه الله)، نقلها عن أحد قادة الجيش العراقي أيام كان على رأس قيادة الحرس الجمهوري عام ١٩٦٨م ببغداد في زمن كان الطاغية المقبور نائبا للحاكم، فقد ذكر ذلك القائد العسكري أنه زار آية الله السيد محسن الحكيم رضوان الله تعالى عليه للتباحث معه بشأن انقلاب عسكري يزعم أنه قادر على تحقيقه

لتسليم الحكم إلى سماحة السيد الحكيم أعلى الله مقامه، ولكنه يقول - بحسب رواية السيد الوالد حفظه الله - ما نصّه:

(ففوجئت بسؤال لم أتوقعه مطلقا من سماحة السيد، وودت أن لو الأرض انشقت وابتلعتني ساعتئذ، فقد كنت على أتم الاستعداد للإجابة عن الأسئلة المتعلقة بأعداد الجيش وعُدده تحت إمرتي، والظروف السياسية، ولوازم ساعة الصفر للانقلاب، وعن تشكيل الحكومة ومجلس الثورة وما إلى ذلك، ولكني لم أكن أتوقع أن يسألني سؤالا شخصيا محرجا تتعذر علي إجابته حياءً، إذ سألني: أتصلّي؟... ولما عرف إجابتي حين أطرقت برأسي قال لي: أن تصلي وتلتزم بأوامر الإسلام وتنتهي عن نواهيه، ثم تنقل تجربتك إلى عائلتك ثم أقاربك وجيرانك وتؤثر فيهم، ثم يفعل ذلك كل إنسان، فإن هذا هو مفهوم الثورة عندنا).

وهذه القصة التي أنقلها عن شاهد عيان توضح طريقة أحدى الشخصيات الإسلامية الفذة في قيادة التغيير نحو الإصلاح، وهو عمل ثوري فكري إصلاحي كبير، ولكنه يبقى يمثل حركة فردية بالمعنى العددي، فهذه كانت رؤية القائد للمرجعية الدينية آنئذ لنفاذ بصيرته وحكمته، ولكن لم تكن تلك الرؤية راسخة في الأمة كلها.

ويمكن أن نشير أيضا إلى حركة آية الله السيد محمد باقر الصدر قدس سره حين تولى تربية الوعي لدى شباب الأمة لّما شعر بضعف الوعي، وضبابيته، وقد تولت أطروحاته الفكرية في الفلسفة والاقتصاد والاجتماع وعلوم القرآن والتفسير والأصول والمعرفة والسياسة وعلم النفس والتنمية البشرية، وغيرها، معركة الوعي، ثم انتقل بعدها إلى معركة الإرادة حين استشعر انعداما للإرادة في المجتمع، عبر العمل السياسي وكسر حاجز الخوف من السلطة الجائرة وصولا إلى مبادرته الاجتهادية في الانتظار المحفز

إذ قضى نحبه باستشهاده رضوان الله تعالى عنه ولم يبدل تبديلا.

وهكذا كانت مبادرة السيد محمد الصدر قدس سره ،التي ترسّم فيها نهج الصدر الأول ولكن بخطى متسارعة أملا في إحداث فرق أكبر في الواقع للإطاحة بنظام الطاغية المقبور، فبعد ان قدم أطروحته المهدوية لخواص طلبته عمل على تطبيقها في الواقع ليكون سباقا إلى تحفيز المجتمع نحو الانتظار الايجابي للتعجيل في الظهور المقدس لصاحب الأمر عليه صلوات ربي وسلامه.

ولكن الملاحظ هو أن هؤلاء الأفذاذ يظهرون وقد سبقوا عصورهم الزمنية بعصور فكرية وذهنية، فهم وإن استوعبوا الماضي واستشرفوا المستقبل، فأصبح تبصّرهم بالأمور وبُعد آفاقهم عونا لهم في تدبير شؤونهم وشؤون الجماهير التي اتبعتهم، إلا أن سَبقهم لزمانهم جعل بينهم وبين الجماهير فجوة واسعة، يصعب معها التفاهم مع الناس تفاهما تاما، فلا تصل الرؤية كاملة إلى الجماهير، مرة بسبب القصور الموضوعي لكون قدرات الناس متباينة، وهي في الأعم الأغلب أقل من المطلوب، فضلا عن كونها أقل مما هو متحصل لدى ذلك العالم الفذ، ومرة بسبب التقصير الذاتي، لانشغال الجماهير أو تشاغلها بهمومها اليومية، وأمراضها المجتمعية والنفسية، وممارساتها الثقافية وعاداتها وتقاليدها المقيدة لحركتها، البعيدة عن الإسلام ونظامه وفسحة الحرية فيه، وهكذا يضطر ذلك العالم العامل إلى اتخاذ اقرب الناس إليه – من حيث الوعي والثقافة، والإرادة والعمل، والحضور المنتج – جماعة له، وقادة للناس، وحلقات وصل بينه وبينهم، وهنا تضيق دائرة التأثير وتنحسر بسبب الآليات المتواضعة المعتمدة للتواصل بين القيادة والجماهير، وغياب قناة الاتصال الفعالة، وعدم وجود نظام اتصال

اجتماعي حي متحرك، يكفل الاستمرار، والنماء، والتفاعل، أو يتخذ عددا كبيرا من القادة الميدانيين فيحسن التواصل المباشر مع الجماهير والتغطية الواسعة لمساحة حركتهم ولكن هنا تتعجل المواجهة مع الباطل ويحترق المشروع قبل أن ينضج.

إن مثل هذا العمل بالمبادرة الاجتهادية يمثل عملا فرديا بالمعنى النوعي، يعتمد فيه القائد على قدراته هو، ثم على قدرات جماعته ومن معهم، وعادة ما يدفع هذه المبادرات في العمل، استعجال الخير قبل أوانه، وعدم الصبر على طول البلاء، والرغبة الملحة بالتغيير، وتنامي أعداد الملتفين حول القيادة الفذة بما يشعر بالاطمئنان إلى فرص النجاح، وقد يفضي الأمر إلى الاعتداد بالكثرة دون النوع، وعلى أية حال فنضج الأمر يحتاج إلى تبلور قضية العدالة والإمام العادل، وضرورة طاعة الله في هذا الأمر بالذات، تبلورا حقيقيا في المجتمع كله، أي أن ينهض المجتمع نهضة واحدة للحضور بين يدي إمامه، حضوره الفاعل المنتج، وأن يقدم نصرته المعدّة كاملة غير منقوصة، وإلا عدنا إلى المربع الأول: (لا رأي لمن لا يطاع)!

إن هذه المبادرات الاجتهادية التي قام ويقوم بها العلماء الأفذاذ على الرغم من اتصافها بالحق، وسعيها لتحقيق العدالة والانتصاف من الظلم، والقضاء على الفساد والمفسدين، إلا أنها تفتقر إلى صفات العمل المجتمعي المتكامل الذي لا يتاح لغير المعصوم، فالجماهير تتفاعل مع القائد الرمز، وتستجيب له، ولكن جمرتها تخبو، وتفاعلها يخمد بمجرد قيام البغاة الجائرين بقتل هذا الزعيم الرمز.

وهذا ما تفسره لنا التفاعلية الرمزية وهي واحدة من نظريات علم الاجتماع الحديث، فهي بحسب (هربرت بلومر) تفترض (أن البشر يتصرفون حيال الأشياء على أساس ما تعنيه تلك الأشياء لهم .هذه المعاني هي نتاج للتفاعل الاجتماعي في المجتمع

الإنساني، وهذه المعاني تحور وتعدل ويتم تداولها عبر عملية تأويل يستخدمها كل فرد في تعامله مع الإشارات التي يواجهها...، إن الرمز الدال هو المعنى المشترك وهو يتطور في سياق عملية التفاعل التي تتلخص هي ذاتها في سعي البشر لتحقيق نتائج عملية في التعاون فيما بينهم)[1].

وهكذا هي نظرية تستند في الأصل إلى النفعية (البراغماتية)، فحين يركن الناس إلى ما يمتلكون من قوى، ويستغنون عن قوة الخالق العظمى، لا مجال أمامهم للالتزام بالأخلاق، بل الالتزام الأكبر يكون بالمنافع الشخصية والفئوية الجماعية، لأن الرمز الدال بينهم سيكون حينئذ وليدا للسياق النفعي البشري، والسلطة التي ينتجها ذلك الرمز الدال المشترك ستكون من النوع الذي يصل إلى أذهان الناس وقناعاتهم لا بوصفه عقيدة وفكرا ومنهجا، واجبا ومُنجيا ومُلزما، بل بوصفه يمثل طبقة أو شريحة أو جماعة، تكونت بسبب ظرف معين، وبذلك لا تكون العلاقة بين رمز السلطة والجماهير علاقة حركة فاعلة تستمد قوتها من المطلق وتتحرك باتجاهه، بل تكون علاقة محكومة بالقوانين الاجتماعية والسنن التي تجري على الطبقات والمجموعات المرتبطة بقيادتها استجابة لظروف معينة لها صلتها بالواقع نفسه وليست خارجة عنه، وبذلك (يحتل الصراع كآلية في الأقل المنشط لبناء الطبقة التي عندها يتحول الانتماء التقليدي، العشيري، العائلي، المحلي إلى ولاء وحسّ للطبقة نفسها)[2].

---

(١) النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، إيان كريب، ترجمة: د.محمد حسين غلوم، عالم المعرفة ٢٤٤، الكويت، ١٩٩٩م: ١٣٤.

(٢) السوسيولوجيا العابرة، نظرية معرفة تاريخ، أ.د. متعب مناف جاسم، المركز العلمي العراقي، بغداد، ط١، ٢٠١٠م: ٥٨.

وليس إلى مصدر قوة تلك الجماعة أو الطبقة؛ فإذا مات قائدها أو قتل عادت تلك المجموعة أو الطبقة إلى سيرتها الأولى، لأن العلاقة بين القائد/السلطة (وهو الرمز الدال المشترك هنا) والمتفاعلين كانت خاضعة لفعل السلطة ورد الفعل عليه، ولعل هذا ما يفسر آية الانقلاب على الأعقاب بعد موت الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله وسلم، فحين تكون العقيدة فكرا ومنهجا عند عدد محدود من الناس وتتسم بقيتهم وهي السواد الأعظم، بالولاء إلى الطبقة / الجماعة / فإن مفهوم الأمة لا يتحقق بالمعنى الكلي عددا وعدة، منهجا وولاء، بل يتحقق مفهوم الجماعة أو الطبقة، وهذا ما تحدد مصيره فيما بعد قوانين الصراع الطبقي، وللغالب كلمته طبعا وأثره في المغلوبين، وهذا ما أشرت إليه بقولي عن القوانين والسنن واستمدادها للقوة من الواقع وعناصره بأنها: لا يمكن لها أن تكون محركة له فهي جزء منه!

فطبقا لفكر السيد محمد باقر الصدر إن العامل الفاعل في التاريخ لابد أن يكون خارجا عنه وليس أحد عناصره، أي أن التسافل المجتمعي ينحدر في الولاء من قمته (الأمة) إلى الجماعة المتفاعلة التي تشترك في الرمز الدال الذي تنتجه، إلى الطبقة التي تعتاش على الصراع، وبذلك (فإن الدين إنما يرتبط بنمط معيشة الناس: جماعات ومجتمعات، وهو بالتالي يبني القاعدة التي يعتمدها اقتصاد هؤلاء الناس، وبالتالي فإنه يشكل نمط فعلهم الاجتماعي)[١].

لا أن يكون كما هو في الأصل مرتبطا بإرادة الواجب الوجود المحرك الفعلي للوجود، باعث الحياة، ومصدر القوة والفعل، وصولا إلى حالة من الارتباط الحي بين مصدر الحركة / الله، والمتحرك / المجتمع، والذي حينها فقط يمكن أن نطلق عليه بأنه

---

(١) م. ن.: ٨٨.

أمة، وهنا مع استبعاد المعيار العددي لفشله في الميز والترجيح بين الحق والباطل، بين ما هو مفيد مصلح، وما هو مضر مفسد، بدلالة النص القرآني الذام لمعيار الكثرة، يمكن إطلاق مصطلح (الأمة) على الفرد العددي إذا كان ممثلا لهذا الارتباط الحي.

ولعل القارئ المتأمل يجد معي في قولي هذا تفسيرا اجتماعيا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

فالأمة هي الحالة العليا لتطور المجتمعات، الحالة التي سعى القرآن الكريم، بل الإسلام عامة، إلى جعل بني الإنسان يعيشونها، متحركين في الواقع حركة إصلاحية عِمارية، بقوة الحق المطلق، باتجاهه سبحانه، وبذلك تكون قوة الرمز مطلقة غير محدودة، قادرة على أن تترك آثارا مهمة ومفيدة جدا وغير منتهية في بناء مواقف التفاعل عند الأفراد، الذين سيكوّن ارتباطهم وتفاعلهم معه بناء المؤسسة / الأمة، وفقا لسننه القرآنية التي أنزلها وبينها، وفيها كفاية لمن طلب معرفة القوانين والآليات التي بها تجري الحركة وتتفاعل العناصر وتصير الأمور إلى مصائرها على المستويات كلها، ومنها المستوى الاجتماعي.

وعودا على ذي بدء، نجد أن العمل الفردي من حيث النوع، الذي تمثله المبادرة الاجتهادية يمكن أن يكون فاعلا حين يصبح الفرد (أمة) بالمفهوم القرآني، ولكنه لا يكون تام الفاعلية بالنظر إلى التوازن الذي يسعى القرآن الكريم إلى تحقيقه بين الكم والنوع، فعلى الرغم من ذمّه للكثرة العددية ومدحه للقلة، إلا أنه جعل مقصد الرسالة

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

الإسلامية مشتملا على الناس كافة من دون تحديد أو حصر، بل أفاد الإطلاق، ونجد ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر في الآيات التي تبيّن ذلك مباشرة، مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢).

فالناس كافة والناس جميعا، تعبيران يشعران بضرورة توافر عناصر معينة للحركة عند الجماعة / المجتمع / الأمة، فضلا عن توافر عناصر الحركة المطلوبة عند الرمز / القائد / الإمام، بما يحقق نقطة التحول الكبرى (التزيّل) ثم الانتقال إلى المرحلة التالية (الصراع)، ثم المرحلة الأخيرة وهي مرحلة الحسم (وراثة الأرض)، وإن كانت الآية الأولى تشير إلى أن الوعي الجمعي بضرورة تشكيل الأمة بمفهومها القرآني غير متوافر (ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وبعد هذا كله لم يعد خافيا أن تحقق التوازن بين الكم والنوع بهذا الشكل مرتبط بصورة من الولاء والانتماء بعيدا عن مفهوم الطبقة أو الجماعة وآليات الارتباط بها تبعا لذلك الولاء وذلك الانتماء، فالركيزة الأولى إذن (هي الانتماء إلى الله تعالى، انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد وهو المستخلف الذي استخلفها على الأرض، ورفض كل الانتماءات الأخرى، إن الإنسان في حياته في المجتمع الفرعوني من حيث يشعر أو لا

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

يشعر ومن حيث يرضى أو لا يرضى ينتمي في فكره وسلوكه إلى جهات عديدة تشكل الأقطاب الجاذبة في مسيرته في حياته)[١].

مع ملاحظة مهمة للغاية لكي لا يفهم من هذا الكلام نفي الانتماء بشكل مطلق، وهي (إن لقضية الانتماء في حياة الإنسان واقعا فطريا أقره الله تعالى ولم يذمه، ولكن بشرط أن لا يكون حجم الارتباط وقوته بالجهة المنتمي إليها بقدر يستوعب الإنسان ويسيره، لأن الإنسان إذا سيطرت عليه جهة ما من خلال نشاط أو مفاهيم واستبدت به فكأنما استعبدته، وهو كأنما عبدها، وفي هذه الحالة يكون كمن خرج من عبادة الله تعالى إلى عبادة شيء من مخلوقاته، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لله وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[٣].

وأخطر أنواع الانتماء الذي يهمنا في موضوعنا أكثر من غيره هو الانتماء إلى

---

(١) مجتمعنا، محمد باقر الصدر، إعداد: محمد علي أمين، دار المرتضى، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م: ١٧٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٣) سورة الزمر، الآيتان: ١٧ ـ١٨.

جهة اجتماعية أو سياسية تخرج الإنسان عن الانتماء إلى الله تعالى، بوصفه أول ركيزة من ركائز خط الخلافة، وتكون تلك الجهة الاجتماعية مستضعِفة للإنسان، وإذا سوف يندرج في السير في خط الاستكبار الذي يفرض علاقة الاستضعاف، وطبعا إذا استضعف الإنسان فقد رشده للسير في خط تكامله ورقيه الإنساني)[١].

وهنا نصل إلى ضرورة أن يكون العمل القائد، صادرا عن إمام مسدد بعدد من المواهب الإلهية، التي لا تتهيأ لسواه من البشر، ولعل أولها العلم اللدنّي، والقدرة المستمدة منه سبحانه، والخبرة العملية الطويلة، وغير ذلك من الصفات الكثيرة غير المتحققة بأحد من العالمين سوى الإمام المعصوم، أو من كان معززا ومسندا بالإمام المعصوم ويعمل بأمر منه.

---

(١) مجتمعنا: ١٧٧.

ثانياً: الانتظار السلبي وحركاته

وهو الانتظار الوهمي الذي يرفع شعارات الانتظار الحقيقي من جهة، ويطبق خطوات التبديل والتحويل لسنة الله وخيانة عهده من جهة أخرى!

ويمكن ملاحظة الانتظار السلبي عبر النظر في الحركات والمبادرات السلبية التي تمثله، الناتجة عن الفهم الخاطئ لمشروع العدل الإلهي ممثلا بالإمام المهدي عليه السلام، ومن هذه الحركات:

ألف: حركات التحرر المزعوم

ونجد ها حركات تدعو إلى الثورة على كل قيد للإنسان بدعوات التحرير البراقة الجذابة، ولكنه يتحرر من ماذا؟ وبأية وسيلة يتم التحرر؟ وإلى ماذا ينتمي الإنسان بعد التحرر المزعوم؟

ننظر فنجد أن كل دعوة لتحرير الإنسان تبدأ من (التحرر) من طاعة الله الواجب

الوجود القائم بنفسه المقوّم لغيره الحي قبل كل حي والحي بعد كل حي، والحي إذ لا حي!!

وهنا أذكر أني رأيت مقطعا مصورا لأحد الصحفيين الغربيين وهو يختم أسئلته الصحفية في مقابلة مع السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله في لبنان حفظه الله ونصره، بسؤال أطلق عليه الصحفي نفسه تسمية (سؤال استفزازي)!، ومضمونه: يا جناب السيد أنتم تعدون من القيادات التحررية والثورية ضد الدكتاتورية والتوتاليتارية (الشمولية) فماذا تقبلون بحكم الله وهو حكم شمولي؟ لماذا لا تدعون للثورة على الله؟! فما كان للسيد حسن نصر الله إلا أن يبتسم ويخبره بما معناه: إن قيم السلم والعدالة والرحمة والتسامح ورفض الظلم هي قيم الجمال التي أمرنا الله باتباعها وهي فطرته التي فطر الناس عليها، وأما الظلم والفساد والاستعباد والقهر والاستكبار فهي قبائح يعملها العاصون لأمره وقد نهانا سبحانه عنها بل أمرنا بمحاربتها، فهو إذن دليلنا إلى الجمال والثورة على القبح.

ولا أدري إن كان الصحفي قد فهم المراد من كلام السيد كما فهمت، فالجميل المطلق دلنا على الجمال وأمرنا بنفي القبح ورفضه فإن نحن ثرنا عليه ورفضناه يعني ضمنا رفضنا لقيمه الجمالية وقبولنا بالظلم والفساد والاستعباد!

والملاحظ أن هذا التحرر المزعوم يحصل بوسائل مغرقة في المادية، والجسدية منها بوجه خاص في سلسلة من عمليات الإفراط أو التفريط، ثم بعد ذلك ينتمي ذلك المتوهم للتحرر إلى مجموعة أطر معرفية مادية كفيلة بحجب الحقيقة عن هذا الإنسان المهدور!! ولعل أبرز مثال نتناوله هو حركة الحداثة بمفهومها الغربي الذي تم نقل تجربته إلى الشرق مع بعض التعديلات غير الجوهرية ولست أحسبها إلا من قبيل ذر الرماد في العيون، وهنا أقصد الحداثة بمفهومها الفكري المفاهيمي

التأسيسي، الحداثة المبنية على فلسفة نيتشة (موت الإله)، بمعنى تغييب الإله عن وظائفه في الألوهية والربوبية والملكية والحاكمية وغيرها، من أجل الانشغال بالمألوه (الكون) وحده دون شاغل على حد زعمهم.

ويبدو أن منشأ ذلك تجربة الغربيين المريرة مع الكنيسة التي تمثل الإله من قبول للظلم أو تكريس له بالتسويغ والتأييد الأمر الذي أدى إلى رفض الميتافيزيقي برمته والانعطاف نحو العالم الفيزيقي لاكتشافه، فالإنسان بذلك سيعتمد على نفسه وليس على الأحكام الإلهية الجاهزة، ثم إنه سيضع القوانين التي يراها مناسبة له ليكوّن شريعته الخاصة به ويعدّل ويحوّل فيها كما يروق له!! وكل ذلك بسبب غياب العصمة عن القادة الدينيين الذين يمثلون الإله في الأرض، وسوء تصرفهم مما جعل الناس تنفر منهم وتردّ الغيب وما فيه بما في ذلك الإله وحاكميته وعلمه وحكمته وسلطانه ورحمته.

وحركات التحرر المزعومة في زمن غياب الإمام المهدي عليه السلام كثيرة ولكنها تأخذ أشكالا متعددة، آثرنا الاكتفاء بالإشارة إلى نمط واحد منها لتبيان وهم التحرر وكشف زيفه وخداعه، وأن هذه الحركات لا تمثل خلاصا حقيقيا من الجور في زمن الغياب، فهي مبادرات سلبية تنتج عن الانتظار السلبي الموهوم.

إن مبادرة يائسة كهذي تسلب من الإنسان حضوره الحي الفاعل بأن تفترض أن الإيمان بالغيب يمثل قيدا لابد من التحرر منه بما يحمل الإيمان بالغيب من منظومة عقائدية ترسم أدق التفاصيل للإنسان في حياته ولا تبقي له شيئا، ولكن لو جئنا إلى الحقيقة لوجدناها غير ذلك تماما، فالإنسان الذي أصر على حمل الأمانة التي أبت السموات والأرض حملها، لم يكن أمامه سوى طريقين التقوى يسلكها بالشكر أو

الفجور يسلكه بالكفر، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾[٢].

فوضع الله سبحانه وتعالى للإنسان خارطة لكلا الطريقين، بأن رسم خارطة التقوى عبر الإرشادات المتمثلة بالشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع وهي المهيمنة عليها، وما كان خارجا عنها فهو حتما في الطريق الآخر طريق الفجور، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾[٣].

وأما الذين آمنوا بالله ورضوا برضاه وسلموا له فأولئك ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٤].

لذا فقد وعدهم الله سبحانه وتعالى بالخير كله ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً ﴾[٥].

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٧ـ٨.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٦٨ـ١٦٩.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٣٠.

(٥) سورة الجن، الآية: ١٦.

فمن ذلك يثبت أن التحرر من الغيب يعني بالضرورة ترك الإرشادات اللازمة للنجاة، مما يعني الوقوع في الهلكة، ومن غير الممكن التغاضي عن حركة الحياة بالتجاهل لمفاهيم الابتلاء والفتن والاختبار، ولا حتى إيقاف هذه الحركة، فلابد إذن من سلوك أحد الطريقين طريق الفوز والنجاة أو الهلاك والخسران، ولكلٍ مثاباته وتعليماته، والسلامة لا تكون إلا مع نور العلم والركن الوثيق كما قال أمير المؤمنين عليه السلام، ونجد أن قوما من المهاجرين والأنصار قد نادوا بالتحرر من الإيمان الفاعل وقد حصلت لهم الطاعة من الناس، فانتظارهم لعدل الله الحاكم تمثل في تحررهم من التسليم والطاعة لله فيما أمر، وتخليهم عن عهدهم ببيعتهم للإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، فهم يطلبون من الله حكمه العادل بأن تركوا أهم شرط للإيمان، وهو عِدل القرآن والهادي بعد النذير، وهو الإمام الموصى له المنصوص عليه بالإمامة المأخوذة له البيعة بالطاعة والنصرة والاتّباع، وهيهات أن يطلب العدل بالظلم والجور وخيانة العهد!

وليست تلك الحركة (التحررية) من عهد الله إلا شبيهة بحركة مماثلة جوبه بها الإمام المعصوم الثاني عشر سلام الله عليه، وكأن الإطار العام لغيابه منطبق على الإطار العام لغياب الإمام أمير المؤمنين بادئ ذي بدء، فنجد من يدعو إلى إلغاء (فكرة) وجود إمام ثاني عشر! وهو (الموظف الدولي لمهاجمة الشيعة) كما يسميه سماحة الشيخ علي الكوراني العاملي، وأقصد المدعو (أحمد الكاتب) لأن هذه الفكرة بزعمه تعطل حركة الحياة، ونجده يرفع صوته بالقول: (ما حاجتنا إلى الإمام الثاني عشر)؟!..، وكأن المسألة رهينة بالرغبة أو كأنها فكرة مبتكرة يحاول نسخها!! ضاربا بعرض الجدار عددا

غير قليل من المبادئ العقلية الجوهرية المرتبطة بالتوحيد في النظام الإسلامي، من مثل حجة الله على الناس ودوامها وإتمامها، ومن مثل مبدأ عدم الافتراق بين القرآن والعترة الشريفة، وهو مبدأ ملازم لاستمرار حيوية الشريعة، ووجود الإمام الثاني عشر عليه السلام هو المصداق الوحيد لهذا المبدأ، وسوى ذلك من الأدلة والحجج التي ساقها عدد من الغيورين على الإسلام في معرض ردهم على (الكاتب) وتخرصاته.

باء: حركات الإفساد

وهي حركات تقوم على افتراض وهمي آخر ملخصه أن الظهور المقدس مرتبط بشرائط أهمها انتشار الفساد في الأرض، ولذا فهي تقوم على مبادرة لنشر الفساد في كل مجالات الحياة من أجل التعجيل بالظهور!!

وعجبا لهؤلاء القوم كيف يريدون الوصول إلى غاية نبيلة كل النبل بوسيلة فاسدة كل الفساد؟!!

ومن هذه الحركات ننتقي على سبيل المثال لا الحصر حركة الخوارج الذين عملوا بكل جهدهم للهدم والقتل والحرق، بتكفير كل من لم يدخل في طاعتهم، وما كان لهم من الإسلام سوى اسمه ومن القرآن سوى رسمه، ولم يدخروا جهدا في إفساد الحياة نقمة منهم على الوضع الفاسد الذي عاشوا فيه من دون أن يقبلوا بالإمام المفترض الطاعة أو يسمحوا له بتأدية وظيفته في قيادة جماهير الأمة نحو الصلاح والخير والنعمة الدائمة، فعطلوا الأحكام وهدموا أركان الهدى وصروح الإسلام ومازالوا يفعلون !، فأين يذهبون من قول الله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا

أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾[٢].

فقد نقضوا بيعتهم لأمير المؤمنين عليه السلام، وقطعوا رحم رسول الله صلى الله عليه وآله في ابنته وذريته عليهم السلام، وأفسدوا في الأرض وما زالوا يفسدون!!

وفي زمن الإمام الثاني عشر عليه السلام مثال الإفساد هو حركة الوهابية خوارج العصر الذين يكفرون كل من لم يطعهم، ويقتلون بأبشع الطرائق، سفكا للدماء وإرعاباً لبني البشر ويعتمدون سياسة الإحراق والتدمير لكل بناء، ولاسيما أبنية النهج المحمدي الاصيل من أضرحة الأئمة عليهم السلام والمدارس الدينية التابعة لفكرهم وسبيلهم المستقيم، ويزعمون أن المهدي منهم وهم يستقبلونه بقتل أهل البدع!!

ونذكر أيضا للتمثيل حركة ظهرت في العراق كانت أكثر سرعة وتركيزا في ظهورها وانحسارها، وهي حركة عرفت بتسمية (جند السماء) كانت ترمي إلى العمل العسكري المنظم لقتل مراجع المسلمين وعلمائهم في النجف الأشرف وإحراق مكتباتهم العلمية وهدم الأضرحة المقدسة للأئمة الأطهار والصالحين من عباد الله، وكان مما اعتمدته هذه الحركة نشر الفساد الاخلاقي والفكري وسيلة للتعجيل بظهور الإمام الغائب!! فيال ضلال القوم، وقد نهانا الله عنهم وأمرنا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٥.

بطاعته، فقال سبحانه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[١].

جيم: حركات التغافل

ولا أقصد بالتغافل هنا معنى التغاضي والمداراة ،بل الارتكاس في الغفلة طواعية، وهذه الحركات تتخذ أنماطا تنظيمية سلمية تدعي المدنية وتحاول النأي عن الدين والتدين والسياسة والتحزّب، ولكنها تسلب من الإنسان الموقف الذي يمثل جوهر حياته.

فماذا يكون الإنسان من دون موقف اتجاه مواضع الابتلاء التي يتعرض لها أو تتعرض له في هذه الحياة الدنيا؟ وكيف له أن يتغافل عن اتخاذ أي موقف تحت غطاء زائف من ادعاءات وهمية برفض العنف واحترام الرأي الآخر وقبول الاختلاف وعدم الانحياز وغير ذلك، نعم نحن لسنا مع الدعوة إلى الحق باستعمال العنف بل مع الدعوة السلمية لأن الإسلام الصحيح في نظرنا لا يمكن له أن ينمو في أجواء القلق والاضطراب والتخبط والسهو التي تصاحب العنف، بل لابد له من الاستقرار والاطمئنان ليأخذ الإنسان نصيبه من الهدوء للتفكير والتعقل ثم التغيّر باتجاه الحق من دون تشويش أو تعمية قد تنتج إيمانا متزعزعا غير راسخ يعقبه تقهقر مرير، قال تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٥٠ـ١٥٢.

فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

فلا إكراه بعدما تبين الرشد من الغي، وللإنسان أن يختار ويتحمل مسؤولية اختياره فإما النجاة وإما الهلاك.

ولكن أن تسعى تلك الحركات إلى حجب الوعي عن الإنسان وإدخاله في عوالم وهمية تستنفد طاقاته ومواهبه وجهوده لتذهب بها سدى وتسلب وجوده الحي بسلب موقفه من الابتلاءات الحياتية، فهذا تخدير وسعي نحو التغافل عن الحقيقة لا ينتج سوى الخسران المبين، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

فهو يأمر نبيه الكريم بإنذار الناس أن يقعوا في الغفلة عن أمر الله فيقعوا في الحسرة والندامة، وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[٣].

فهذا الإعراض عن يوم الحساب والمساءلة هو ليس إعراضا حقيقيا صادرا عن متمكن من الإعراض، بل هو إعراض غفلة، وعاقبته الندامة والهلاك ،ولن ينفع الناس يومئذ الانتباه من الغفلة والتحسّر على ما فاقم، وعلى ظلمهم أنفسهم والناس قال تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١.

فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾[١].

وينبه الله سبحانه الإنسان إلى الذكر والتقوى واتباع إرشادات النجاة، وإلا فإن الغفلة تحجب عنه الرؤية الواضحة البينة ولن ينفعه التغافل والرضا بالعيش في غفلة ما دام من ورائه يوم يكون بصره فيه حديد النظر ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[٢].

فلابد من موقف للإنسان ومراقبة منه لكل قول أو فعل قبل الموت بما يوافق إرشادات النجاة، وهذا إمام الهداة أمير المؤمنين عليه السلام يقرر: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا!!

فقد تساوى بصره في الحدة قبل الموت وبعده سلام الله عليه، ولكن قوما قد أسسوا مقالتهم على التغافل مثل أصحاب مقولة (المهاجرون أولى بالخلافة - ولا تجتمع الخلافة والنبوة في هاشم) وأصحاب مقولة (منا أمير ومنكم أمير) ومقولات لقدرية والجبرية والمرجئة الذين ابتدأوا الحياة من حيث القول بسلطان القدر وأن الإنسان

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.

(٢) سورة ق، الآيات: ١٦-٢٢.

مجبور في أفعاله غير مخير، وأن المواقف والأحكام لابد من إرجائها إلى يوم الحساب، قد أصابتهم الغفلة عن ذكر الله وحق إمامهم المعصوم ونراهم تحركوا باتجاه تولية غيره أو القبول بمن تولى مع رؤيتهم للمفاسد التي ارتكبها والسنن التي بدلها، وإمامهم مرتهن بجهلهم، مقيد بورعه وتقواه، ولكنهم آثروا التغافل مادام الوعي والبصيرة يوجبان الجهاد، وركنوا إلى الدنيا التي حذر منها أمير المؤمنين عليها السلام ومن الغفلة فيها.

فقد ورد في وصيته لابنيه الحسن الزكي ومحمد ابن الحنفية عليهم السلام قوله: **«وأكثر ذكر الاخرة وما فيها من النعيم والعذاب الاليم فإن ذلك يزهدك في الدنيا ويصغرها عندك، وقد نبأك الله عنها ونعتت لك نفسها، وكشفت عن مساويها، فإياك أن تغتر بما ترى من إخلاد أهلها إليها، وتكالبهم عليها، وإنما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية، يهر بعضها على بعض، يأكل عزيزها ذليلها وكبيرها صغيرها قد أضلت أهلها عن قصد السبيل، وسلكت بهم طريق العمى، وأخذت بأبصارهم عن منهج الصواب، فتاهوا في حيرتها، وغرقوا في فتنتها، واتخذوها ربا، فلعبت بهم، ولعبوا بها ونسوا ما وراءها»**(١).

وهكذا اغتر الناس متغافلين، فالوقوف على التل بعرفهم أسلم كما تقرر مقولتهم الشهيرة!! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكذلك نجد اليوم من يتبع سنة التغافل عن الحق والوقوف معه، من قبيل ادعاء العلمية أو الموضوعية، ولكنها والله علمية جاهلة وموضوعية منحازة!!

فمتى كان العلم والمعرفة معارضين للحقيقة أو مجانبين للصواب؟ وهل يحصل

---

(١) بحار الأنوار: ٧٤: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

العلم وتخبر المعرفة بغير العقل؟ العقل الذي قال له الله سبحانه في حديثه القدسي أنت أكرم شيء خلقته لأنه كان مثال الطاعة والتسليم فهو حجة الله الأولى على الإنسان؟! ولكن القوم يتبعون الظن ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾(1).

وليس في طاعتهم إلا الضلال المبين ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾(2).

وقد نجد من يدعي العلم والمعرفة وينادى باسمه في مقدمة العلماء من رجال الغرب أو الشرق، فيضع قانونا عاما لفهم النصوص، أو يخرج إلينا آخر بنظرية جديدة في الحكم، أو النظام المجتمعي، وآخر في التعامل مع النفس البشرية، فنجد من يلهثون وراءهم متتبعين أخبارهم، يقضون جل عمرهم في الدراسة والتعلم عليهم، وفي الحقيقة ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾(3).

النجم٢٣، وقد يشكل علينا من لم يوطئ قلبه للمعرفة الحقة والعلم النافع، بأن الإمام المهدي عليه السلام غائب فكيف نحصل العلم والمعرفة ؟، فنجيبه بأن طريقين ناصعي البياض أمامه:

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٣) سورة النجم، الآية: ٢٣.

١. فطريق يمر عبر: دراسة علوم أهل البيت عليهم السلام المبثوثة في أحاديثهم الشريفة المروية عنهم في الصحاح المعتبرة.

٢. ولابد قبله من سلوك طريق يمر عبر: تطهير القلب من كل دنس ورجس مادي أو معنوي، والإخلاص في التسليم لله سبحانه، فما من عبد يخلص لله سبحانه أربعين يوما حتى تتفجر الحكمة من بين جنبيه، وما الحكمة ؟ أليست معرفة الحقيقة والاطمئنان التام بها؟ قال تعالى شأنه: ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[1].

وعند الجمع بين الدراسة والبحث وتطهير القلب فحينئذ السعادة كلها أمام الإنسان، ولا يعلم لذته بهذه المنزلة إلا الله سبحانه، وحينئذ سيصل إلى أية معلومة يريد بيسر وسهولة، وهنا أشير إلى مفصل مهم يوضح هذا المطلب بعمق ودراية، وأقصد المباحث العلمية الواردة في أسفار الحكمة المتعالية للسيد صدر الدين الشيرازي قدس الله سره، ففيها ما يغني عن إشارة ضئيلة قد يوردها مثلي، سوى أن هذا المطلب يبعد بنا عن مقام البحث.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

الباب الثاني: لوازم القيام

المبحث الأول: الحاجة الواعية.

المبحث الثاني: الحضور النفسي.

المبحث الثالث: الحضور العقلي.

المبحث الرابع: الحضور العقلي.

المبحث الخامس: من أحوال القلب.

المبحث السادس: النصرة وأبعادها.

المبحث الأول: الحاجة الواعية

أولاً: الاحساس بالمشكلة والتنبه إلى الخطر.

ثانياً: معرفة الحل والتوجه لطلبه.

ثالثاً: الحضور الفاعل.

أيكون لزاما على الإمام القيام؟

نعم... لابد له من القيام بالأمر لزاما... فهذه وظيفته التي انتدبه الله لها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وإنما الأَئِمّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلى خَلقِهِ، وَعُرَفاؤُهُ عَلى عِبَادِهِ، ولا يَدخُل الجنةَ إلا مَن عَرَفَهُم وَعَرَفُوه، ولا يَدخِل النارَ إلا مَن أَنكَرَهُم وأَنكَرُوه**»[1]... فلمَ التأخير الموجب للانتظار إذن؟

يبدو أن هناك لوازم للقيام لم تتحقق بعدُ !!

وحتى أبرز ما عندي من دليل على قولي لئلا أُتّهمَ، لأسرع في إبراز قول مأثور لأمير المؤمنين عليه السلام في خطبة مشهورة له عرفت باسم (الشقشقية)...، ففيها يضع لوازم القيام التي يمتنع من دونها، إذ يقول: «**أما والذي فَلقَ الحَبَّةَ وبَرأَ النَّسَمَةَ، لولا حُضورُ الحاضِرِ، وقيامُ الحُجَّةِ بوجودِ النَّاصِرِ، وما أَخَذَ اللهُ على العلماءِ أَنْ لا يُقارُّوا على كِظَّةِ ظالمٍ ولا سَغَبِ مَظلومٍ، لأَلقَيْتُ حَبْلَهَا على غارِبِها، ولَسَقَيْتُ آخِرَها**

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، مؤسسة الصفاء للمطبوعات، ٢٠١٢م: مجلد ٥: ١٠٧.

بكَأْسِ أَوَّلِها، ولأَلفَيْتُم دُنياكم هذهِ أَزهدَ عِندي من عَفطةِ عَنْزٍ!»[١].

فهو هنا يقرر الأسباب التي يلزم توافرها للقيام بالأمر، ومن دونها يكون الترك أولى، بل إن هذه اللوازم هي التي توجب القيام، فقد ترك القيام عليه السلام زمنا ثم ترك غيابه الظاهر بحضور ظاهر لوجود هذه الأسباب.

وعلى الرغم من أن معظم الذين شرحوا الخطبة قد ذهبوا إلى تفسيرها وفقا لمعطيات الأحداث التاريخية التي جرت، فقد مِلتُ عن التفسير التأريخي، وقاربت هذا النص مقاربة بنيوية تكوينية، فحسب فهمي لرؤية الإمام عليه السلام للعالم من حوله، وإرادته التعبير البليغ عن هذه الرؤية مع تمكنه من ذلك، يمكن قراءة النص أعلاه بوساطة أسئلة تمثل مفاتيح لبوابة ذلك النص:

١. يقال: حضور الغائب.. فإنما نحن نرجو أن يحضر الغائب، فعلام قال سلام الله عليه: حضور الحاضر؟ وهل يرتجى من الحاضر أن يحضر؟!.. وما معنى ذلك؟ ولمن يقول: إن حضور الحاضر يقصد منه القول على التحقق، أي حضور من حضر فعلا.

أقول: إن ذلك من نافلة القول، ولا نافلة في حديثه سلام الله عليه وهو إمام البلاغة الذي كل كلامه فرض، فكلام الإمام إمام الكلام كما روي.

وقد كان يستطيع القول مثلا: لولا من حضر، ولكنه قال: حضور الحاضر.

٢. الحضور بالدلالة التي يحتملها النص كما سنأتي إليها تفصيلا، هل يستلزم ما يسبقه من دافع قوي كالشعور بالحاجة والوعي بخطر ما، أو غير ذلك؟

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: مجلد ١: ٩٩.

٣. لِـم لَـم يشكل الحضور حجة بحد ذاته؟.. ولِمَ احتيج مع الحضور إلى النصرة لقيام الحجة؟.. وهل النصرة غير الحضور؟

٤. بالتأكيد الشرط الأخير وهو ما أخذه الله على العلماء من عهد أن لا يقر لهم قرار بوجود ظالم مستأثر قد امتلأ جوفه حتى التخمة، ولا مظلوم قد أرهقته شدة الجوع، هو شرط متحقق لدى الإمام بمقتضى العدالة، فلا موجب لتناوله هنا، وسنكتفي بما يصبو البحث إلى معرفته وهو مقدار التطابق بين مدتي غياب كل من الإمام علي عليه السلام والإمام المهدي عليه السلام عن الحكم الظاهر، فإذا كانت أسباب الغياب وظروفه متطابقة، فلعل لوازم القيام تكون متطابقة أيضا، وأما ما يجب على الإمام فهو متحقق بحسب مبدأ (ضرورة العدالة)، فما يعنينا في بحثنا هذا إذن هو ما يلزم تحققه عند الجماهير لوجوب قيام الإمام عليه السلام بالأمر، إتماما للمقارنة بين مدتي غياب كل من الإمامين الأول والثاني عشر عن الحكم الظاهر، وصولا إلى تسنم كل منهما زمام الحكم الظاهر، فلعلّ التماثل في جملة من الظواهر بين مدتي غيابهما الظاهر وحضورهما الباطن، يسري على حضورهما الظاهر، وهذا هو القصد الأخير من هذا البحث، وهو ما سيعالجه هذا الباب في مباحثه الآتية.

كل حركة يتحركها المجتمع لابد أن تصدر عن دافع قوي يوجه طاقة المجتمع نحو وجهة معينة لتلبية حاجة معينة كانت هي الدافع في الأصل.

إذن يمكنني القول: إن وراء كل حركة حاجةً.

ولا يمكن الاستهانة بقوة الحاجة المحركة ما دامت (تمثل الحاجة غير المشبعة قوة كامنة في داخل الإنسان تحثه على التصرف بحثا عن إشباع... فالحاجات قوة دافعة لسلوك الفرد)[1].

---

(١) مهارات الاتصال، المهندسان علاء محمد القاضي وبكر محمد حمدان، دار الاعصار العلمي للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠١٠م: ١٦.

ولكن الأمر ليس كما يبدو بهذه البساطة، فحركة المجتمع التي ننتظر أن يقوم بها ليحقق ما عليه من الواجبات التي تستتبع فيما بعد الاستحقاقات المرهونة بتولي الإمام عليه السلام وقيامه بالأمر لتحقيق دولة العدل الإلهي، المشروع الضخم المهم، هذه الحركة لابد لتشغيلها من دافع عظيم، يمكن وصفه بأنه حاجة ملحة وضرورية، كبيرة وخطيرة، ولها قدرها الكافي من الوعي الذي يضمن لها الاستقامة والمطاولة حتى بلوغ الغاية.

لقد دأب الإسلام عبر نصوصه المعتبرة من القرآن الكريم والسنة المطهرة على التذكير بالمبدأ والمعاد، ليكون حافزه الأول هو رضا الله سبحانه، ثم تذكير الإنسان وتوعيته بكرامته وشرفه وعظمته، فهو جوهر طاهر يتنافى بالذات مع كل الرذائل من فساد وكذب وإراقة دماء وحقارة وخضوع للظلم والقوة وغير ذلك، وركّز الإسلام على التوعية الاجتماعية وعلى الحقوق والمسؤوليات الاجتماعية، والإسلام لا يستند إلى العقد النفسية وإلى تحريك الحسد والشهوة، فهو لا يقول مثلا: إن الآخرين تمتعوا وتنعموا وتسلطوا فلم لا تكونون أنتم مكانهم؟!

لقد حدد الإسلام الدوافع التي تحرك المجتمع، ومجملها يتمحور حول الفطرة، مثل البقاء على النقاء الفطري الأصيل بالتقوى، الذي سيرتبط فيما بعد بالهدى الذي جاء به الكتاب العزيز: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(١)].

والإحساس بالمسؤولية أمام نظام الكون ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[(٢)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٤٩.

وحيوية الفطرة ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[١].

أما المشاكل التي تواجه المجتمع وتمنعه من القيام بوظيفته وأعبائها، فتتمحور حول الفساد الروحي والأخلاقي، مثل إثم القلب، ورينه، وانغلاقه، وعماه، واتباع الظن، وطاعة الكبراء، وغير ذلك، مما يمكن ملاحظته في مظاهر بينة من مثل الظلم، والتفرّق، وعدم الالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والفسق والفجور وفساد الأخلاق[٢].

وفي هذه الحالة، حالة غياب الفطرة السليمة، بوجود ظواهر الملوثات المجتمعية، ينبغي على المجتمع التنبه من الغفلة التي يعيشها، والتحرك نحو التغيير، وهذا التحرك يحتاج إلى أن يمر عبر بوابات التغيير الطبيعية، وهي: إجراء مسح تقويمي لتحديد المشكلات وطبيعتها وأسبابها، والخطر المحدق من بقائها، والتعرف على الحلول الممكنة بعد التشخيص الدقيق، وكيفية الوصل إلى تلك الحلول على أن تكون قابلة للتطبيق، وواضحة وقابلة للقياس[٣].

ومنسجمة مع الطرح الإسلامي، ولذا سيكون الحديث في هذا المبحث الخاص بالحاجة الواعية على محورين:

---

(١) سورة يس، الآية: ٧٠.

(٢) ينظر: المجتمع والتاريخ، الشهيد مرتضى مطهري، دار الزهراء، قم، ٢٠٠٥م: ٢٦٥ وما بعدها.

(٣) ينظر: فلسفة إدارة الجودة في التربية والتعليم العالي - الأساليب والممارسات - د. هناء محمود القيسي، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، ٢٠١١م: ١٨١ وما بعدها.

أولاً: الإحساس بالمشكلة والتنبه إلى الخطر

يمثل الإحساس بالمشكلة الخطوة الأولى نحو حلها، فقبل الإحساس بها لا يدري بها الناس بل يتعاطون الخطوات والتصرفات التي قد تفاقم المشكلة وتزيدها تعقيدا وسوءا، فالناس يتعلمون الهدى، والأنبياء والرسل والأولياء يقومون بمهمة المعلمين، وإن (شعور المتعلم بالمشكلة يولد لديه نوعا من الإثارة والدافعية لحلها، كما يولد نوعا من التحدي العقلي والشعور بالمشاركة، فإذا لم يشعر المتعلم بالمشكلة فإنه لن يفكر بحلها، والمعلم الناجح هو الذي يثير الشعور بالمشكلة)[1].

وهنا يجدر التطرق إلى كيفية حصول الإحساس بوجود المشكلة بعد حالة مستتبة من الغفلة التي تعم الناس، ولعل هناك أكثر من كيفية، ولكنني أشير هنا إلى الإحساس بآلية الأنموذج الصالح أو ما دعاه القرآن بالأسوة الحسنة، فيبدأ الإحساس بالمشكلة مع وجود أنموذج عال من الطرح يناقض النماذج السيئة التي يعج بها المجتمع،

---

(١) طرائق تدريس الدراسات الاجتماعية، د.فخري رشيد خضر، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط١،عمّان، ٢٠٠٦م: ٢٣٨ـ ٢٣٩.

ولـذلك فقد اعتمـد المنهج القـرآني على مبدأ (الأسـوة الحسنة) كما جاء في القـرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[١].

فالأنموذج الأسوة الحسنة يستدعي التفكير والتدبر في آيات الله سبحانه، والمقارنة مع الأنموذج السيئ، وهذا ما يفضي إلى الإحساس بوجود الفرق بين الأنموذجين، وهنا تكمن المشكلة!

ولذا فقد حصر الله سبحانه مهمة كل نبي ورسول بالإنذار والبشارة، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً﴾[٢].

وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٤].

ففضلا عن كونه صلوات الله عليه وآله منذرا، فقد قدّر سبحانه أن يكون لكل

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٧.

قوم من بعده هادٍ يهديهم، وهو الإمام المعصوم من الأئمة الاثني عشر الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وآله بأسمائهم في غير مرة، وفي أكثر من مناسبة، وهكذا لا تخلو الأرض من أسوة حسنة، ولا ينقطع عن الناس الأنموذج الصالح الذي يرسم منهج التقوى والخير ليكشف منهج الفجور والشر لدى أنموذج الفساد ويفضحه.

ويبدو أن أسلوب النمذجة في الطرح الإلهي يسبب الاحساس والاهتداء والتعلم، ويسهم في تحديد المشكلة وشرحها، مما يعني (تحديد جوانبها وحصرها في أشخاص معينين، أو أشياء معينة، أو مجالات معينة...، وتحديد المشكلة يعد أمرا مهما حتى لا تتشعب وترتبط بمشكلات أخرى مما يؤدي إلى تسطيح دراستها)[1].

ويقع أسلوب النمذجة في ضمن دائرة الإنذار، فالإنذار محفز كبير للإحساس بوجود مشكلة، والإنذار مهمة المرسلين الكبرى كما نجد في كتاب الله عز وجل، إذ يقول لرسوله الأعظم صلوات الله عليه وآله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[2].

وهي مهمة المرسلين من قبله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[3].

---

(١) طرائق تدريس الدراسات الاجتماعية: ٢٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٩.

(٣) سورة هود، الآية: ٢.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾[٢].

وقوله تعالى أمرا لرسوله صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٣].

بل لقد قصر مهمة الرسول على ذلك: ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[٥].

والإنذار للناس يستوجب منهم الإحساس بوجود مشكلة والتفكر في الحل المناسب لها، لأن الإنذار إنما يكون بوجود خطر محدق، وهو يستلزم عذابا شديدا وهلاكا إن لم يؤخذ بالحسبان، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ

---

(١) سورة هود، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٩.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ١١٥.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.

(٦) سورة مريم، الآية: ٣٩.

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[3].

وهذا الإنذار من لدنه على يد رسله إنما هو رحمة منه للإنسان ليتدارك نفسه وحاله بالتذكر من غفلته، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[4].

وهو إنذار من أجل الهداية أيضا، قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[5].

وقد بين الله سبحانه مخاطر التهاون في هذا الإنذار، وحذر الناس من ذلك أيما تحذير، فنجده يقول سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى

---

(١) سورة نوح، الآية: ١.

(٢) سورة الليل، الآية: ١٤.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٤٦.

(٤) سورة القصص، الآية: ٤٦.

(٥) سورة السجدة، الآية: ٣.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

ويقول جل من قائل عارضا حال المتهاونين في النذر: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾[٢].

وهو سبحانه يشدد من خطورة النذر بأن يؤكد حقيقة الحساب بعد ذلك وأن لا عودة للظالمين إلى الحياة بعد انقضاء مدتهم فعليهم أن يأخذوا الإنذار مأخذ الجد وإلا فإن النار مثوى لهم يصطرخون فيها، فيقول سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[٣].

ومازال الملائكة الموكلون بالنار يلومون الظالمين على تفريطهم بالنذر التي جاءتهم تحذرهم من هذا الموقف: قال تعالى واصفا النار وحال الظالمين فيها: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[٤].

ويعرض سبحانه نماذج لحال الذين أعرضوا عن النذر، قال تعالى: ﴿قَالُوا بَلَى

(١) سورة المائدة، الآية: ١٩.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٢.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الملك، الآية: ٨.

قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ (١).

فهم كذبوا الرسل واتهموهم بأبشع التهم على الرغم من أن الله نزههم بسيرهم المعروفة وصفاتهم المعلومة والحجج والبراهين والمعاجز والأدلة التي بعثهم بها، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٤).

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ (٥).

---

(١) سورة الملك، الآية: ٩.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

(٣) سورة ص، الآية: ٤.

(٤) سورة هود، الآية: ١٢.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٧.

وقال سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[١].

ولكن الفئة المنتفعة من الظلم والفساد والبغي تأبى إلا الكفر بالرسالات والاعراض عن النذر، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[٢].

والله سبحانه ينكر تعجب الناس من اختيار الرسل، كما ينكر قولهم واتهامهم للرسول صلى الله عليه وآله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[٣].

إن الإحساس بالمشكلة أمر ضروري للتغيير المطلوب نحو الأفضل، ولكنه قد لا يحصل على الرغم من وجود النذير بكل ماله من حجج وبراهين، بسبب الميل إلى الشهوات، أو اتباع الشيطان الرجيم، أو الغفلة بشكل عام، ولكن النظام الذي وضعه الله سبحانه للإنسان هو نظام عادل يضمن سعادته من دون أن يظلم نفسه أو يظلم الآخرين (لا ضرر ولا ضرار)، ولذلك فإن فيه نظام انضباط يحدد مسار العاملين الفاعلين في المجتمع، إذ إن (وجود نظام انضباطي يضمن احترام العاملين لقواعد العمل

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢.

ويسطر العقوبات لمخالفيها ويضمن سلامة التحقيق وعدالة الجزاء، يمثل حالة جوهرية تتطلبها مسألة إشاعة العدالة في أجواء العمل ومن ثم اندفاع العاملين نحو العمل ورفع الكفاءة الانتاجية وبالشكل الذي يحقق خير المجتمع كله، كما أن غياب نظام انضباط متكامل وفي كل مجتمع ليحمي العمل من قصور العاملين، والعاملين من تعسف الإدارة سيؤدي إلى فقدان الاستقرار في العمل، وهبوط معنويات العاملين، وظهور قلق ينتابهم على مصائرهم ومن ثم هبوط انتاجيتهم)[١].

وهذا ما جعل المجتمعات التي أعرضت عن النذر ترتكس في حضيض الحياة الدنيا، وتشملها التعاسة من كل جهة، فهي مجتمعات بقيادات ظالمة طاغية باغية، وأفرادها مغيبون في غياهب الغفلة والجهالة، وحسبك بذلك هوانا.

لقد بذل أمير المؤمنين عليه السلام كل ما في وسعه لإرشاد الناس وتذكيرهم بالنذر، عسى أن يتملكهم الإحساس بوجود مشكلة كبيرة مفادها أن يتملك زمام القيادة من ليس أهلا للتقوى، فمهمة القائد هي الهداية والإرشاد لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٢].

ولكن كيف يتولى إدارة شؤون الناس بالهدى وقيادته من لا يملك أن يهتدي بنفسه؟! قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي

(١) إدارة الأفراد، د. مهدي حسن زويلف، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، ٢٠١٠م: ٢١٨.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٧.

لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾[٣].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ﴾[٥].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٦].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٩.

(٣) سورة القصص، الآية: ٦١.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١٨.

(٥) سورة محمد، الآية: ١٤.

(٦) سورة الملك، الآية: ٢٢.

ولكن الناس لم يدركوا جميعا وجود مشكلة في ذلك!

وها هو أمير المؤمنين عليه السلام يخبرهم بالأمر عسى أن يتملكهم الإحساس بوجود مشكلة!!

فمن خطبة له عليه السلام تسمى (الشقشقية) يتحدث عن الخلافة التي هي قيادة زمام الناس وهدايتهم وإدارة شؤونهم فيقول للناس: **«أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحا، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إلي الطير، فسدلت دونها ثوبا، وطويت عنها كشحا، وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا، حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده.**

شتانَ ما يَومي على كُورها   ويـوم حيَّـان أخـي جـابرِ

فيا عجبا! بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته! لشدّ ما تشطّرا ضرعيها! فصيّرها في حوزة خشناء، يغلظ كلمها، ويخشن مسّها، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم، فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلون واعتراض، فصبرت على طول المدة وشدة المحنة، حتى إذا مضى لسبيله، جعلها في ستة زعم أني أحدهم، فيا لله وللشورى! متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر! لكني أسففت إذ أسفّوا وطرت إذ طاروا، فصغا رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هَنٍ وهَنٍ،

إلى أن قام ثالث القوم نافجا حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث فتله، وأجهز عليه عمله، وكبتْ به بطنته.

فما راعني إلا والناس إليّ كعرف الضبع، ينثالون عليَّ من كل جانب، حتى لقد وُطِئ الحسنان، وشُقَّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وفسق آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذه الله على العلماء، أن لا يقارُّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[2].

فأية بلاغة أروع من هذي لأمير المؤمنين عليه السلام وهو يفصح بأجلى تعبير حتى يحسّ القوم بوجود مشكلة من تربع أولئك المنحرفين على عرش السلطة غير آبهين ولا مبالين بالضلال الذي يخبط سير الناس خلف قيادتهم الذميمة!

ولم تكن مقالته سلام الله عليه بتبيان اعوجاج الرؤساء من قبله وميلهم عن الحق في زمن خلافته فقط، بل لقد سبق منه القول مرارا وتكرارا، لينبه الناس إلى الخطر

---

(١) سورة القصص: ٨٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مؤسسة الصفاء للمطبوعات، بيروت، ط٢، ٢٠١٢م: مجلد١: ٩٩ ـ ١٣٥.

الذي يحيق بهم إن هم عزلوه عن القيادة وولوا أولئك النفر الضال.

فمن رسالة له إلى أبي بكر بعد منعه الزهراء عليها السلام فدكا، جاء قوله:

«واقتسموا مواريث الطاهرات الأبرار، واحتقبوا ثقل الأوزار، بغصبهم نحلة النبي المختار، فكأني بكم تترددون في العمى، كما يتردد البعير في الطاحونة، أما والله لو أذن لي بما ليس لكم به علم لحصدت رؤوسكم عن أجسادكم كحب الحصيد، بقواضب من حديد، ولقلعت من جماجم شجعانكم ما أقرح به آماقكم، وأوحش به محالكم، فإني - مذ عرفت - مردي العساكر، ومفني الجحافل، ومبيد خضرائكم، ومخمد ضوضائكم، وجرار الدوارين إذ أنتم في بيوتكم معتكفون، وإني لصاحبكم بالأمس، لعمر أبي وأمي لن تحبوا أن يكون فينا الخلافة والنبوة، وأنتم تذكرون أحقاد بدر، وثارات أحد، أما والله لو قلت ما سبق من الله فيكم، لتداخلت أضلاعكم في أجوافكم كتداخل أسنان دوارة الرحى، فإن نطقت يقولون حسدا، وإن سكت يقولون ابن أبي طالب جزع من الموت، هيهات هيهات!! الساعة يقال لي هذا؟!!

وأنا المميت المائت، وخواض المنايا في جوف ليل حالك، حامل السيفين الثقيلين، والرمحين الطويلين، ومنكس الرايات في غطامط الغمرات، ومفرج الكربات عن وجه خير البريات، أيهنوا فوالله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل إلى محالب أمه هبلتكم الهوابل، لو بحت بما أنزل الله سبحانه في كتابه فيكم لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويّ البعيدة، ولخرجتم من بيوتكم هاربين وعلى وجوهكم هائمين، ولكني أهوّن وجدي حتى ألقى ربي، بيد جذاء صفراء من لذاتكم، خلو من طحناتكم، فما مثل دنياكم عندي إلا كمثل غيم علا فاستعلى ثم استغلظ فاستوى ثم تمزق فانجلى، رويدا فعن قليل ينجلي لكم القسطل وتجنون ثمر فعلكم مرا وتحصدون غرس أيديكم ذعافا

ممقرا، وسما قاتلا، وكفى بالله حكيما، وبرسول الله خصيما، وبالقيامة موقفا، فلا أبعد الله فيها سواكم، ولا أتعس فيها غيركم، والسلام على من اتبع الهدى»[١].

وغير هذا الكلام الكثير مما يروى في كتاب سليم بن قيس الكوفي، والاحتجاج للطبرسي، وبحار الأنوار للعلامة الجلسي وغير ها من الكتب المعتبرة، مما يظهر تنبيه أمير المؤمنين عليه السلام على الخطر المحدق بالأمة نتيجة تخاذل الناس عن الحق، والميل نحو قادة غير مأمونين من الزلل، بل هم أشد الناس زللا وخروجا عن جادة الصواب.

إن أمير المؤمنين عليه السلام سعى بكل ما أوتي من قوة ليبين للناس خطر تركهم لبيعته يوم غدير خم في حجة وداع النبي الأكرم صلوات الله وسلامه عليهما، وفادح الكرب الذي سيحيق بهم، وشدة المحنة التي ستسوؤهم، ولكن شروط القيام ولوازمه من جهة الناس لم تتحقق إلا بعد مقتل عثمان بن عفان، كما بين ذلك أمير المؤمنين في خطبته الشقشقية التي مر ذكرها.

حتى إذا جئنا إلى زمن غياب الإمام المهدي عليه السلام عن الحكم الظاهر، فسنجد الأمر مماثلا، من حيث الإرشاد والتذكير، فها هو سلام الله عليه وعلى آبائه ينفذ إلى بعض شيعته كتابا بخطه، جوابا على كتاب لهم ذكروا فيه الاختلاف في أمر الأمام عليه السلام، فكان من جوابه صلوات الله وسلامه عليه وآبائه: **«يا هؤلاء ما لكم في الريب ترددون وفي الحيرة تنعكسون، أوما سمعتم الله يقول:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢].

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي، مؤسسة الصفاء للمطبوعات، ط١، بيروت، د.ت.: ج١: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

أوما علمتم ما جاءت به الآثار مما يكون ويحدث في أئمتكم على الماضين والباقين منهم السلام؟ أوما رأيتم كيف جعل الله لكم معاقل تأوون إليها، وأعلاما تهتدون بها، من لدن آدم عليه السلام إلى أن ظهر الماضي عليه السلام، كلما غاب علم بدا علم، وإذا أفل نجم طلع نجم، فلما قبضه الله إليه ظننتم أن الله أبطل دينه، وقطع السبب بينه وبين خلقه، كلا، ما كان ذلك ولا يكون، حتى تقوم الساعة ويظهر أمر الله وهم كارهون، وإن الماضي عليه السلام مضى سعيدا فقيدا على منهج آبائه عليهم السلام، حذو النعل بالنعل، وفينا وصيته وعلمه، ومنه خلفه ومن يسد مسده، ولا ينازعنا موضعه إلا ظالم آثم، ولا يدعيه دوننا إلا كافر جاحد، ولولا أن أمر الله لا يغلب، وسره لا يظهر ولا يعلن، لظهر لكم من حقنا، ما تبتز منه عقولكم، ويزيل شكوككم، ولكنه ما شاء الله كان، ولكل أجل كتاب، فاتقوا الله وسلموا لنا وردوا الأمر إلينا، فعلينا الإصدار كما منا الإيراد، ولا تحاولوا كشف ما غطي عنكم، ولا تميلوا عن اليمين وتعدلوا إلى اليسار، واجعلوا قصدكم إلينا بالمودة، على السنة الواضحة فقد نصحت لكم، والله شاهد علي وعليكم، ولولا ما عندنا من محبة صاحبكم ورحمتكم، والاشفاق عليكم، لكنا عن مخاطبتكم في شغل مما قد امتحنا به من منازعة الظالم العتل الضال، المتتابع في غيه، المضاد لربه، المدعي ما ليس له، الجاحد حق من افترض الله طاعته، الظالم الغاصب، وفي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لي أسوة حسنة، وسيتردى الجاهل رداء عمله، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار.

عصمنا الله وإياكم من المهالك والأسواء والآفات والعاهات كلها برحمته، إنه ولي ذلك والقادر على ما يشاء، وكان لنا ولكم وليا وحافظا، والسلام على جميع

الأوصياء والأولياء والمؤمنين ورحمة الله وبركاته، وصلى الله على النبي محمد وآله وسلم تسليما»[١].

ففداؤك نفسي سيدي وشغلك الشاغل منازعة الظلمة والغاصبين والفسقة والكفرة من الملوك والرؤساء الذين فتنوا الناس وقادوهم إلى المهالك تلو المهالك، وأنت سلام الله عليك تكشف أستار الخدع عن أهل الضلالة والبدع، عسى أن يشتمل على الناس الاحساس بالمشكلة والإلمام بالخطر المحدق بهم من جراء تخاذلهم عن لوازم قيامك بأمرهم، وأول تلك اللوازم وعيهم بحاجتهم إليك، الوعي الذي لم يصل قلوب الناس، لأن تلك القلوب مغلفة بالذنوب المانعة لنور الله الذي جعله فيكم، فسلام عليكم مذ كنتم نورا من نور في نور الله، حتى تمام نور الله.

---

(١) الاحتجاج: ج٢: ٦٤٢ـ ٦٤٣.

ثانياً: معرفة الحل والتوجه لطلبه

حين يكون الأمر متعلقا بالإنسان، وفقا لنظرية المعرفة المادية، يبدأ التعرف على الحل المناسب للمشكلة عند طرح فرضيات حلول مؤقتة، وبعد جمع المعلومات عن تلك الفرضيات تجري مناقشتها لاستبعاد ما ليس له علاقة مباشرة بالمشكلة، واختيار المتعلق بها وفقا لأدلته وبراهينه المتوافرة، ثم يجري اختيار أكثر الحلول مناسبة للواقع والمرامي المرجوة منه للأطراف المعنية بالحل(١).

وأما وفقا لسنن الله المشار إليها في القرآن الكريم، فإن الحل لمشكلة غياب الإمام المعصوم عن الحكم الظاهر والمتعلقة بلوازم قيامه الواجبة على الأمة هو حل بيّن واضح، يبدأ من حيث التوحيد، التوحيد لله الذي يضمن للإنسان الهدى والسعادة وحسن العاقبة، فبالتوحيد يستقيم أمر الإنسان سيرا على الصراط المستقيم في مسيرة التكامل والرقيّ، والتوحيد هو الغاية الكبرى من عمليات الإنذار المستمرة من الله لبني الإنسان، فشقاء الإنسان هو صورة لاتباعه آلهة غير الله، مرة تكون الشهوات، ومرة

---

(١) ينظر: طرائق تدريس الدراسات الاجتماعية: ٢٤٠.

الهوى، ومرة الشيطان الرجيم، ومرة الرؤساء والملوك وأكابر القوم، وغير ذلك، فالأصل في حل مشكلة غياب الإمام عليه السلام هو التوحيد الذي به يسلم الإنسان أمره إلى الله سبحانه الذي يقول في كتابه الكريم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1].

وأما الخطر الذي حذرنا الله منه بوساطة رسله وما أنزل عليهم من الكتب والصحف والآيات، فيخبرنا سبحانه بطريقة الخلاص منه والنجاة من وقوعه بقوله سبحانه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[2].

وكيف يكون الفرار إلى الله؟ بالتأكيد يكون باتباع أوامره عبر رسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، واتباع أهل بيته عليهم السلام الذين فرض علينا طاعتهم هدى ورحمة لنا، فمن كان يعبد الله وحده فعليه أن يطيعه فيما أمر، إلا إن كان يعبد إلها غير الله، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[3].

فالحل يكمن في التوحيد الذي من مقتضياته طاعة الله وحده لا شريك له، وهذا يعني عدم القول بالرأي أو الاستحسان أو سوى ذلك من أبواب الاجتهاد خلافا لحكم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الذاريات: ٥١.

الله عز وجل، فالله واحد، وهو قهار لا غالب له، وكل عمليات الإنذار تصب في ضرورة توحيده للنجاة من عذابه، وخطر الهلاك يحدق بالمعرضين عن أمره سبحانه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (١).

ويمكننا القول أن التوجه لطلب الحل بالتوحيد يبدأ من التقوى، فإذا أراد الإنسان لنفسه الهداية، فإنها مرتبطة بالتقوى، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢).

فالهدى للمتقين، فلابد إذن من التقوى لحصول الاهتداء، وقد قال الله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٣).

إذن فالتقوى هي مفتاح الخير كله، وبها يتحقق العمل بالتوحيد، الذي يستلزم الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤).

في حين نجد المعاندين يقابلون التوحيد بالكفر، وتمسكهم بالباطل، ومجادلتهم

---

(١) سورة ص، الآية: ٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٨.

مقالة الحق يريدون أن يدحضوه، مستهزئين بآيات الله سبحانه ونذره، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً ﴾[1].

فمن أين لهؤلاء معرفة المشكلة إذا كانوا مستأنسين بها، معاندين لا يقبلون بحلها، بل لا يرون أنه من الضروري إجراء أي تغيير في سنن حياتهم!!

إن الإنذار محفز للوعي، فالمطلوب هو رد الفعل الايجابي تجاهه، ثم بعد ذلك التزود بالمعلومات المطلوبة، ثم التحرك وفقا للتعليمات المنجية المرافقة لها.

وهنا أشير إلى معنى لطيف.. القرآن الكريم هو كتاب عظيم، واحدة من فوائده أن فيه تعليمات المُصنّع، فالإنسان صنع الله، والله سبحانه هو منشئ القرآن الكريم، وبات معروفا لكل من يريد الحفاظ على أي مصنوع أن عليه التمسك بتعليمات الصانع لحفظ المصنوع وضمان سلامته!

فتحقق الحاجة الواعية لا يتم إلا بإدراك النذر، وقد سبق ذكر الآيات القرآنية الكريمة التي وضحت لنا أهمية النذر وخطورتها على الصعيدين الدنيوي والأخروي، فمن يتحلى برد الفعل الايجابي تجاه النذر ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ تكون عاقبته خيرا ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، ومن يكون رد فعله سلبيا ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً ﴾، فإن لهم سوء العاقبة حتما: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٦.

سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾(١).

وليس أفضل من التسليم لله تعالى واتباع التعليمات التي أصدرها في كتابه الكريم، ومعرفة تفاصيلها من العترة الطاهرة الذين هم عِدل القرآن، عملا بمبدأ عدم الافتراق بين القرآن والعترة أهل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، حتى إذا شعرت الأمة نوعا وكما، بالحاجة الواعية إلى الإمام القائد المعصوم، أدركت حينئذ النجاة من الهلكة، والفوز برضا الله، وسيكون من الطبيعي لها الانتصار في الدنيا على قوى الاستكبار، والفوز في الآخرة يوم يخسر المبطلون.

إن أمير المؤمنين عليه السلام تولى طوال حياته بعد التحاق الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله بالرفيق الأعلى، العمل على قيادة الجماهير في نطاق الأمة الإسلامية نحو ردة الفعل الإيجابية تجاه النذير الإلهي، فالرسول النذير صلوات الله عليه وآله بلغ ما أنزل إليه من ربه، وترك وصيه للأمة هاديا من بعده، فلا نجده إلا بالله مذكرا وما أنذر به في كتابه الكريم، داعيا الناس إلى العمل بما جاء في هذا الكتاب، وأول ذلك الوفاء بعهد البيعة له عليه السلام امتثالا لأمر القرآن العظيم والرسول الكريم صلوات الله عليه وآله، فها هو أمير المؤمنين عليه السلام يؤنب أبا بكر على فلتته ويسائله عن تركه لكتاب الله ويذكره بما جاء فيه، وما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في حديث طويل، هو سلسلة من المناشدات التي يستفهم بها الإمام عليه السلام استفهام إنكار للحال التي هيأ أمرها أبو بكر وعمر، ففي الاحتجاج مرويا

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٥.

بسنده ومشروحا بأدلته:

(لما كان من أمر أبي بكر وبيعة الناس له وفعلهم بعلي، لم يزل أبو بكر يظهر له الانبساط ويرى منه الانقباض فكبر ذلك على أبي بكر، وأحب لقاءه واستخراج ما عنده والمعذرة إليه مما اجتمع الناس عليه وتقليدهم إياه أمر الأمة وقلة رغبته في ذلك وزهده فيه، أتاه في وقت غفلة وطلب منه الخلوة، فقال: يا أبا الحسن والله ما كان هذا الأمر عن مواطاة مني ولا رغبة فيما وقعت عليه ولا حرص عليه ولا ثقة بنفسي فيما تحتاج إليه الأمة ولا قوة لي بمال ولا كثرة لعشيرة ولا استيثار به دون غيري فما لك تضمر علي ما لم استحقه منك وتظهر لي الكراهة لما صرت فيه وتنظر إلي بعين الشنآن؟

قال: فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«فما حملك عليه إذ لم ترغب فيه ولا حرصت عليه ولا وثقت بنفسك في القيام به؟!»**.

قال: فقال أبو بكر: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إن الله لا يجمع أمتي على ضلال»**، ولما رأيت إجماعهم اتبعت قول النبي صلى الله عليه وآله، وأحلت أن يكون إجماعهم على خلاف الهدى من ضلال، فأعطيتهم قود الإجابة، ولو علمت أن أحدا يتخلف لامتنعت.

فقال علي عليه السلام: **«أمّا ما ذكرت من قول النبي صلى الله عليه وآله «إن الله لا يجمع أمتي على ضلال»، فكنت من الأمة أم لم أكن؟»**.

قال: بلى. قال عليه السلام: **«وكذلك العصابة الممتنعة عنك: من سلمان، وعمار، وأبي ذر، والمقداد، وابن عبادة، ومن معه من الأنصار؟»**.

قال: كل من الأمة، قال علي عليه السلام: **«فكيف تحتج بحديث النبي وأمثال هؤلاء**

قد تخلفوا عنك؟! وليس للأمة فيهم طعن ولا في صحبة الرسول لصحبته منهم تقصير؟!».

قال: ما علمت بتخلفهم إلا بعد إبرام الأمر، وخفت إن قعدت عن الأمر أن يرجع الناس مرتدين عن الدين، وكان ممارستهم إلي إن أجبتهم أهون مؤنة على الدين وإبقاء له من ضرب الناس بعضهم ببعض فيرجعون كفارا، وعلمت أنك لست بدوني في الإبقاء عليهم وعلى أديانهم.

فقال علي عليه السلام: «**أجل ولكن أخبرني عن الذي يستحق هذا الأمر بما يستحقه؟**».

فقال أبو بكر: بالنصيحة، والوفاء، ودفع المداهنة، وحسن السيرة، وإظهار العدل، والعلم بالكتاب والسنة، وفصل الخطاب، مع الزهد في الدنيا، وقلة الرغبة فيها، وانتصاف المظلوم من الظالم للقريب والبعيد، ثم سكت.

فقال علي عليه السلام: «**والسابقة، والقرابة**».

فقال أبو بكر: والسابقة والقرابة، فقال علي عليه السلام: «**أنشدك بالله يا أبا بكر أفي نفسك تجد هذه الخصال أو فيّ؟**».

فقال أبو بكر: بل فيك يا أبا الحسن، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله أنا المجيب لرسول الله صلى الله عليه وآله قبل ذكران المسلمين أم أنت؟**».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله، أنا صاحب الأذان لأهل الموسم والجمع الأعظم للأمة بسورة براءة أم أنت؟**».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله أنا وقيت رسول الله صلى**

الله عليه وآله بنفسي يوم الغار أم أنت؟».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنا المولى لك ولكل مسلم بحديث النبي صلى الله عليه وآله يوم الغدير أم أنت؟».**

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله ألي الولاية من الله مع رسوله في آية الزكاة بالخاتم أم لك؟».**

قال: بل لك. قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله ألي الوزارة مع رسول الله صلى الله عليه وآله والمثل من هارون من موسى أم لك؟».**

قال: بل لك، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أبي برز رسول الله صلى الله عليه وآله وبأهلي وولدي في مباهلة المشركين أم بك وبأهلك وولدك؟».**

قال: بل بكم، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله ألي ولأهلي وولدي آية التطهير من الرجس أم لك ولأهل بيتك؟».**

قال: بل لك ولأهل بيتك، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنا صاحب دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهلي وولدي يوم الكساء «اللهم هؤلاء أهلي إليك لا إلى النار» أم أنت؟».**

قال: بل أنت وأهلك وولدك، قال علي عليه السلام: «فأنشدك بالله أنا صاحب آية ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[1] أنا أم أنت؟».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنت الذي ردت عليه الشمس لوقت صلاته فصلاها ثم توارت أم أنا؟».**

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٧.

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله أنت الفتى نودي من السماء «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي»، أم أنا؟**».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله أنت الذي حباك رسول الله صلى الله عليه وآله برايته يوم خيبر، ففتح الله له أم أنا؟**».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله أنت الذي نفست عن رسول الله وعن المسلمين بقتل عمرو بن عبد ود أم أنا؟**».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله أنت الذي ائتمنك رسول الله صلى الله عليه وآله على رسالته إلى الجن فأجابت أم أنا؟**».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله أنا الذي طهره الله من السفاح من لدن آدم إلى أبيه بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «خرجت أنا وأنت من نكاح لا من سفاح من لدن آدم إلى عبد المطلب» أم أنت؟**».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله أنا الذي اختارني رسول الله وزوجني ابنته فاطمة عليها السلام، وقال: «الله زوجك إياها في السماء»، أم أنت؟**».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله أنا والد الحسن والحسين سبطيه وريحانتيه إذ يقول: «هما سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما»، أم أنت؟**».

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: «**فأنشدك بالله أخوك المزين بالجناحين يطير في الجنة مع الملائكة أم أخي؟**».

قال: بل أخوك، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنا ضمنت دين رسول الله وناديت في المواسم بإنجاز موعده أم أنت؟».**

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنا الذي دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله والطير عنده يريد أكله يقول: «اللهم ايتني بأحب خلقك إلي وإليك بعدي يأكل معي من هذا الطير»، فلم يأته غيري أم أنت؟».**

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنا الذي بشرني رسول الله صلى الله عليه وآله بقتال الناكثين، والقاسطين والمارقين، على تأويل القرآن أم أنت؟».**

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنا الذي دل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله بعلم القضاء وفصل الخطاب بقوله: «علي أقضاكم» أم أنت؟».**

قال بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنا الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه بالسلام عليه بالإمرة في حياته أم أنت؟».**

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنا الذي شهدت آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ووليت غسله ودفنه أم أنت؟».**

قال: بل أنت، قال عل يعليه السلام: **«فأنشدك بالله أنت الذي سبقت له القرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله أم أنا؟».**

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنت الذي حباك الله بالدينار عند حاجته إليه وباعك جبرئيل وأضفت محمدا فأطعمت ولده أم أنا».**

قال: فبكى أبو بكر قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنت**

الذي جعلك رسول الله صلى الله عليه وآله على كتفه في طرح صنم الكعبة وكسره حتى لو شئت أن أنال أفق السماء لنلتها أم أنا؟».

قال بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنت الذي قال لك رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنت صاحب لواي في الدنيا والآخرة»، أم أنا؟».**

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك الله أنت الذي أمرك رسول الله صلى الله عليه وآله بفتح بابه في مسجده عندما أمر بسد أبواب جميع أهل بيته وأصحابه وأحل لك فيه ما أحل الله له أم أنا؟».**

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنت الذي قدمت بين يدي نجوى رسول الله صلى الله عليه وآله صدقة فناجيته إذ عاتب الله قوما فقال: «أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجويكم صدقات» أم أنا؟».**

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله أنت قال رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة: «زوجتك أول الناس إيمانا، وأرجحهم إسلاما في كلام له» أم أنا؟».**

قال: بل أنت، قال علي عليه السلام: **«فأنشدك بالله يا أبا بكر أنت الذي سلمت عليه ملائكة سبع سماوات يوم القليب أم أنا؟».**

قال: بل أنت، قال: فلم يزل يورد مناقبه التي جعل الله له ورسوله دونه، ودون غيره، ويقول له أبو بكر: بل أنت؛ قال علي عليه السلام: **«فبهذا وشبهه تستحق القيام بأمور أمة محمد، فما الذي غرك عن الله وعن رسوله ودينه وأنت خلو مما يحتاج**

إليه أهل دينه؟».

قال: فبكى أبو بكر وقال: صدقت يا أبا الحسن انظرني قيام يومي فأدبر ما أنا فيه وما سمعت منك، فقال علي عليه السلام: **«لك ذلك يا أبا بكر»**.

فرجع من عنده وطابت نفسه يومه ولم يأذن لأحد إلى الليل، وعمر يتردد في الناس لما بلغه من خلوته بعلي، فبات في ليلته فرأى في منامه كأن رسول الله صلى الله عليه وآله تمثل له في مجلسه فقام إليه أبو بكر يسلم عليه فولّى عنه وجهه فصار مقابل وجهه فسلم عليه فولى وجهه عنه، فقال أبو بكر: يا رسول الله أمرت بأمر لم أفعله؟ فقال: أرد عليك السلام وقد عاديت من والاه الله ورسوله؟ رد الحق إلى أهله، فقلت: من أهله؟ قال: من عاتبك عليه علي، قلت: فقد رددته عليه يا رسول الله ثم لم يره.

فأصبح وبكر إلى علي عليه السلام وقال: أبسط يدك يا أبا الحسن أبايعك وأخبره بما قد رأى، قال: فبسط علي يده فمسح عليها أبو بكر وبايعه وسلم إليه وقال له: أخرج إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبرهم بما رأيت من ليلتي وما جرى بيني وبينك، وأخرج نفسي من هذا الأمر وأسلمه إليك، قال: فقال علي عليه السلام: **«نعم»**.

فخرج من عنده متغيرا لونه عاتبا نفسه، فصادفه عمر وهو في طلبه، فقال له: ما لك يا خليفة رسول الله؟ فأخبره بما كان وما رأى وما جرى بينه وبين علي، فقال عمر: أنشدك بالله يا خليفة رسول الله والاغترار بسحر بني هاشم والثقة بهم فليس هذا بأول سحر منهم، فما زال به حتى رده عن رأيه وصرفه عن عزمه ورغبه فيما هو، بالثبات عليه، والقيام به.

قال: فأتى علي المسجد على الميعاد فلم ير فيه منهم أحدا فأحس بشيء منهم، فقعد إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فمرّ به عمر، فقال: يا علي دون ما تريد خرط القتاد، فعلم عليه السلام بالأمر ورجع إلى بيته)[(١)].

لقد أوردت الرواية كاملة ليتبين نوع الاحتجاج من أمير المؤمنين عليه السلام على الغاصبين لحقه، فلم يكن الاحتجاج بقصد الإساءة، ولا الحسد، ولا طلب الملك، بل كان لإثبات الصفات التي يجب أن يتحلى بها إمام الأمة، ليستطيع الهدى والرشاد.

وما الآيات التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام إلا تذكير بالله وكتابه وما أنذر به، فالإمام عليه السلام يقود الناس نحو النجاة باتباع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ومنهج القرآن القويم، ويحفزهم نحو الوعي بحاجتهم الفعلية إلى قيام الإمام الذي بينت صفاته تلك الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي احتج بها عليه السلام، ونقل حديثه فيما بعد الأئمة المعصومون من بعده، إرشادا للأمة، وهدى ورحمة للمؤمنين.

وفي كتاب الاحتجاج للعلامة الطبرسي رحمه الله المزيد من الروايات التي تسرد لنا سلسلة طويلة من الاحتجاج والتذكير بآيات الله سبحانه، وسنة نبيه الأكرم صلوات الله عليه وآله، في باب وجوب اتباع الإمام مفترض الطاعة، تمسكا بحبل الله، وصراطه المستقيم.

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد رسم بما احتج به منهجا واضحا للحراك العملي نحو تطبيق مشروع دولة العدل الإلهي الذي أرادته السماء، متجاوزا كل الأطر الضيقة

---

(١) الاحتجاج: ١٥٥ ـ ١٧٥.

لمفهوم السلطة، فالمتأمل في كلماته عليه السلام يجد أنه يؤكد نوعين من الصفات الواجب توافرها فيمن عليه أن يقوم بإمامة الأمة وقيادتها وهدايتها وإرشادها ورعايتها، صفات ذاتية تمثل المؤهلات التي يتمتع بها القائد، وصفات موضوعية تمثل سيرته ومنهجه ورؤيته ونظامه المعرفي والقيمي الذي يعتمده، وأداؤه العملي بحسب سيرته المعروفة، وليس من ذنب ولا جريرة أن تجتمع الصفات كلها بنوعيها في شخص أمير المؤمنين عليه السلام، بل الجريرة والجريمة الكبرى في أن يكون مثله موجودا، ثم ينحى جانبا عن مهمة القيادة الفعلية على رأس السلطة، فقد تم تغييبه قسرا عن الحكم الظاهر، ولكن ذلك طبعا لم يكن ليقدح في إمامته، أو ليمنعه من ممارسة القدر المتاح له من مسؤوليات الإمامة، ولقد عمل جاهدا في أكثر من مناسبة لوخز الوعي الجمعي للأمة عسى أن يصحو على حقيقة الحاجة الفعلية للإمام المعصوم على رأس السلطة الفعلية للدولة الإسلامية.

وهنا لابد من التطرق إلى مسألة مهمة، وهي أن عليا عليه السلام يسعى إلى إيقاظ الوعي الجمعي للأمة، لا ارغامها على ما يريد، لأن من مسؤولية الأمة اتباع علي عليه السلام، وليس من مسؤوليته اجبارها على توليته، وإن كانت الأمة قد بايعته بالولاية يوم غدير خم ونكثت بيعتها.

فقد أورد العلامة المجلسي رحمه الله رواية مفادها: (عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«مثل علي في هذه الأمة كمثل الكعبة، النظر إليها عبادة والحج إليها فريضة»**[1]).

---

(١) بحار الأنوار: ٤٠: ٤٣.

فمتى كان على الكعبة أن تأتي أحدا للحج؟ بل الثابت أن على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا، وقد كان علي عليه السلام أيسر السبل المستطاعة، وأوضحها وأجملها، بل هو الصراط المستقيم، فأنى يؤفك المبطلون؟

وما يؤكد هذه الرواية أخرى جرت بمثلها، فيها يتحدث أبو بكر معاتبا أمير المؤمنين عليه السلام لتركه له، فيرد عليه: (وأنت لم تزل يا أبا الحسن مقيما على خلافي والاجتراء على اصحابي، وقد تركناك فاتركنا، ولا تردنا فيرد عليك منا ما يوحشك ويزيدك تنويما إلى تنويمك، فقال علي عليه السلام: **«لقد أوحشني الله منك ومن جمعك، وآنس بي كل مستوحش، واما ابن الوليد الخاسر، فإني أقص عليك نبأه، انه لما رأى تكاثف جنوده وكثرة جمعه زها في نفسه، فأراد الوضع مني في موضع رفع ومحل ذي جمع، ليصول بذلك عند أهل الجمع، فوضعت عنه عند ما خطر بباله، وهم بي وهو عارف بي حق معرفته، وما كان الله ليرضى بفعله»**.

فقال له أبو بكر: فنضيف هذا إلى تقاعدك عن نصرة الاسلام، وقلة رغبتك في الجهاد، فبهذا أمرك الله ورسوله، أم عن نفسك تفعل هذا؟! فقال علي عليه السلام: **«يا أبا بكر! وعلى مثلي يتفقه الجاهلون؟ إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمركم ببيعتي، وفرض عليكم طاعتي، وجعلني فيكم كبيت الله الحرام يؤتى ولا يأتي»، فقال: يا علي! ستغدر بك أمتي من بعدي كما غدرت الامم بعد مضي الانبياء بأوصيائها إلا قليل، وسيكون لك ولهم بعدي هناة وهناة، فاصبر، أنت كبيت الله: من دخله كان آمنا ومن رغب عنه كان كافرا، قال الله عزّ وجل:** ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ

وَأَمْنًا﴾[١]، واني وأنت سواء إلا النبوة، فإني خاتم النبيين وأنت خاتم الوصيين»[٢].

وهذا الإمام جعفر الصادق عليه السلام يؤكد هذا المعنى لجابر حين سأله فأجابه مكررا السؤال، مردفا بالإجابة: (قُلْتُ: يَا سَيِّدِي أَلَيْسَ هَذَا الأَمْرُ لَكُمْ؟ قَالَ عليه السلام: «نَعَمْ»، قُلْتُ: فَلِمَ قَعَدْتُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وَدَعْوَاكُمْ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ}، قَال عليه السلام: **«فَمَا بَالُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَعَدَ عَنْ حَقِّهِ حَيْثُ لَمْ يَجِدْ نَاصِراً أَوَلَمْ تَسْمَعِ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي قِصَّةِ لُوطٍ** ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[٣]، **وَيَقُولُ فِي حِكَايَةٍ عَنْ نُوحٍ** ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[٤]، **وَيَقُولُ فِي قِصَّةِ مُوسَى** ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[٥]، **فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ هَكَذَا فَالْوَصِيُّ أَعْذَرُ، يَا جَابِرُ مَثَلُ الإِمَامِ مَثَلُ الْكَعْبَةِ إِذْ يُؤْتَى وَلاَ يَأْتِي»**[٦].

إنّ هذا يؤكد أيضا ما ذهبنا إليه في متن البحث من أن لوازم القيام التي على الإمام قد جرى الالتزام بها، ولكن النقص جارٍ فيما على الأمة من لوازم تخلفت عنها ولم تلتزم بها، ولعل أولها ـ كما هو موضعه هنا ـ الحاجة الواعية في الأمة إلى قيام

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩: ١٧١ ـ ١٧٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٨٠.

(٤) سورة القمر، الآية: ١٠.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٢٥.

(٦) م.ن.

الإمام عليه السلام بالأمر، عبر الإحساس بالمشكلة والإحاطة بجوانبها، ثم التعرف على الحل والتحرك نحوه.

وشبيه بما جرى للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وما كان من دوره ودور صحابته رضوان الله تعالى عنهم، ما كان من أمر صاحب العصر والزمان عليه السلام، فقد تولى الله سبحانه ونبيه الكريم والاوصياء من بعده كلهم التبشير بإمامة القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف، ولكن لخصوصية خاتميته وما يترتب على ذلك من مسؤوليات، فقد كان لابد من تدبير إلهي خاص لهذا القيام، إذ إن (مشروع إنهاء الظلم على الأرض وإقامة دولة العدل الإلهي مشروع ضخم، وهو جزء أساس من المخطط الرباني لحياة الإنسان ومستقبله، لكنه يحتاج في استيعابه إلى رقيّ فكريّ، وفي تحمله إلى رسوخ إيمان وقوة أعصاب. ولذلك كانت مشكلة الناس في الأديان أنهم يستعجلون نصر الله تعالى وعقوبته للظالمين، بينما بنى الله - عز وجل - فعله على قوانين وحكم خاصة ولذلك اهتم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بتربية المؤمنين على توسيع أفقهم العقلي والذهني والشعوري وضبط أعصابهم، والتسليم لأمر الله تعالى وانتظار الفرج)[1].

وهنا يبدو لي من الأهمية بمكان أن أتطرق لحديث (انتظار الفرج من الفرج)، فقد ثبت في المأثور عن الأمة عليهم السلام الحض على الانتظار للفَرَج لأنَّ فيه الفَرَج، ومن ذلك ما روي عن الرضا عليه السلام: **«ما أحسن الصبر وانتظار الفرج، أما سمعت**

(١) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف: ٤١٣.

قول العبد الصالح: ﴿فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[(١)]، أوليس تعلم أن انتظار الفرج من الفرج؟»[(٢)].

فيكون ذلك من الفرج لأن الله يجزي المنتظرين حق الانتظار جزاء من لحق بالإمام عليه السلام زمن ظهوره، فقد وردت في بحار الأنوار للعلامة المجلسي روايات شريفة كثيرة تؤكد ذلك، منها على سبيل المثال: (قال أبوعبدالله عليه السلام: **«من مات منكم على هذا الامر منتظرا له كان كمن كان في فسطاط القائم عليه السلام»**)[(٣)].

وهذا مما أجده مرتبطا بعدالة الله سبحانه، فالقوم الذين لم يخلقوا زمن الظهور المقدس، ليس لهم أن يحتجوا على الله تعالى لعدم تشريفهم بنصرة الإمام عليه السلام، فقد جعل انتظارهم الفرَج فرَجًا لهم، وقد سبق أن تحدثت عن رحمته سبحانه في أن يبتلي كل قوم بمقدار ما يستطيعونه من بلاء، إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وليس كل المؤمنين بقادرين على تحمل مشهد الظهور المقدس، وردة الفعل الصحيحة بالعمل الصالح بموجبه.

وقد ورد في الكافي عن مالك الجهني أنه قال: (قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **«يا مالك أما ترضون أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتكفوا وتدخلوا الجنة؟ يا مالك إنه ليس من قوم ائتموا بإمام في الدنيا إلا جاء يوم القيامة يلعنهم ويلعنونه إلا أنتم ومن كان على حالكم، يا مالك إن الميت والله منكم على هذا الأمر لشهيد بمنزلة الضارب بسيفه في سبيل الله»**[(٤)].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧١.

(٢) م. ن.: ٤١٧.

(٣) بحار الأنوار: ٥٢: ١٢٥.

(٤) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه: ٤٢٧.

وهذا من أعظم الوصف وأجمله للمنتظرين بحسن الانتظار، والأحاديث المروية بهذا المعنى كثيرة ومتواترة، وكلها تفصح عن عظيم منزلة المنتظرين من المؤمنين، وتدفعهم إلى التمسك بمنهج الانتظار والثبات عليه والصبر على المحن والشدائد، إلى درجة أن الانتظار نفسه يكون هو الفرج!! فكأن لا حاجة للفرج ويكفي الانتظار! ولكن ليس كذلك، بل لأهمية الانتظار وخطره كانت منزلته كذلك.

ولنتطرق في خاتمة هذا المبحث إلى حديث الإمام زين العابدين السجاد عليه السلام مع أبي خالد الكابلي الذي يذكر فيه إمامة الثاني عشر من الأوصياء عليهم السلام، وغيبته وطول مدتها، وفيه: «**ثم تمتد الغيبة بولي الله الثاني عشر من أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمة بعده، يا أبا خالد إن أهل زمان غيبته القائلين بإمامته والمنتظرين لظهوره أفضل من أهل كل زمان، فإن الله تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله بالسيف، أولئك المخلصون حقا وشيعتنا صدقا، والدعاة إلى دين الله عز وجل سرا وجهرا**».

وقال عليه السلام: «**انتظار الفرج من أعظم الفرج**»[(١)].

فهل بعد هذا البيان من قول؟ وهل عقب هذا التوضيح من شرح؟ هيهات أن تغيب أنوار شاء الله أن يظهرها، أو تعفى حقائق تولى الله كشفها، ولكنه موضع ابتلاء المؤمنين ليؤجروا، والمخالفين ليفتضحوا، والمعاندين ليدحضوا، وكفى بالله شهيدا ومن عنده علم الكتاب.

---

(١) م. ن.: ٤٢٠.

ثالثاً: الحضور الفاعل

سبق أن ذكرت أن لوازم القيام التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بالشقشقية تتحدث عن (حضور الحاضر)، ومن الشائع أن يقال: حضور الغائب.. فإنما نحن نرجو أن يحضر الغائب، فعلام قال سلام الله عليه: حضور الحاضر؟ وهل يرتجى من الحاضر أن يحضر؟! وما معنى ذلك؟ ولمن يقول: إن حضور الحاضر يقصد منه القول على التحقق، أي حضور من حضر فعلا.

أقول: إن ذلك من نافلة القول، ولا نافلة في حديثه سلام الله عليه وهو إمام البلاغة الذي كل كلامه فرض، وقد كان يستطيع القول مثلا: لولا من حضر، ولكنه قال: حضور الحاضر.

إذن الحضور بالدلالة التي يحتملها النص لا يقتصر على المعنى الشائع للحضور، الذي هو قبالة الغياب، فهو بالمعنى الشائع نفهم منه الحضور الفيزيقي، أو المعروف بالحضور الجسدي، تلك الكتلة الكبيرة من اللحم والدم التي تمثل بدن الإنسان! ولكن يبدو أن النص يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فكأن الحضور بوجوده الفيزيقي يعد

غائبا أيضا، ويرتجى حضوره، فيكون الحضور محتاجا إلى حضور! ويمكن أن نفهم من هذا أن الحضور يقصد به حالة أن يكون الحاضر من جنود الإمام عليه السلام على النحو الفعلي، (فما على أحدنا إذا أراد أن يكون من جنوده عليه السلام إلا أن يعتني بتهذيب نفسه ليحصل على الأقل على شيء من التناسب بينه وبين هذه المسيرة الربانية التي سيملأ الله بها الأرض قسطا وعدلا.

جاء في أوصاف أنصار الإمام المهدي عليه السلام عن الإمام الصادق عليه السلام: «**رجال كأن قلوبهم زبر الحديد لا يشوبها شك في ذات الله أشد من الحجر، لو حملوا على الجبال لأزالوها... يتمسحون بسرج الإمام عليه السلام يطلبون بذلك البركة ويحفون به ويقونه بأنفسهم في الحروب...، لا ينامون الليل لهم دوي في صلاتهم كدوي النحل يبيتون قياما على أطرافهم ويصبحون على خيولهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار، هم أطوع له من الأمة لسيدها، كالمصابيح كأن قلوبهم القناديل وهم من خشية الله مشفقون يدعون بالشهادة ويتمنون أن يقتلوا في سبيل الله، شعارهم يا لثارات الحسين، إذا ساروا يسير الرعب أمامهم مسيرة شهر**».

ويتضح من النص المتقدم مدى عمق البعدين: الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر في أنصار الإمام المهدي عليه السلام)[1]، يكون على أنواع: فحضور جسدي، وحضور قلبي، وحضور نفسي، وحضور عقلي، ولم أتطرق إلى حضور الروح لعدد من الأسباب أهمها:

١. الروح مرتبطة بالله سبحانه وهي من أمره ومتصلة به، وقد نهانا سبحانه عن

---

(١) آداب عصر الغيبة، الشيخ حسين كوراني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٠م.

الخوض في علمها وقصر ذلك العلم عليه جل جلاله ،و نسبه إلى ذاته المقدسة، ونسب إلينا قبالته قلة العلم، قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[١].

٢. الروح تأنس بالقرب من بارئها، وتطمئن لذكره، وهي منقادة إليه مطيعة لأمره، وهي متعلقة بصفة الحياة للإنسان فحضورها يعني الحياة، وغيابها يعني خروجها وهو ما يعني الموت له، وليس ذلك مما يدخل في موضوع البحث.

٣. ليس عندنا من علم بمقدار أثر الروح أو تأثرها بحركة الإنسان عامة، فضلا عن ذلك الأثر أو التأثر بحركة الإنسان نحو واجباته المتعلقة بلوازم قيام الإمام ليحقق لها الهدى والرشاد والسعادة في الدنيا، والنجاة والسعادة والفوز في الآخرة، ليكون سببا في اعتماد حضورها من غيابها في هذا البحث.

٤. يمكن إجمالا عد الروح جزءا مكملا للبدن، لا بمعنى أنها بعضه، بل بسبب من تعلقها به، وهذا ما يؤكده الراسخ في الفهم من أن الروح (هي الطاقة المحركة للبدن وهي حياة البدن، وهي الأصل الأول للحياة وهي جاءت بالنفخ الأول في البدن وهي مخلوقة واستمرارها عبارة عن استمرار الحياة للنطفة الأولى التي تصبح علقة ثم مضغة ثم إنسانا كاملا)[٢].

وقد بين الإمام علي عليه السلام أن النطفة إذا أتمت أربعة أشهر بعث الله إليها ملكا فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث، فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي عليه السلام: ١٨٨.

آخَرَ﴾[١]، ويعني بذلك نفخ الروح[٢].

وأما الجسد فإنه يطلب حاجاته من الطعام والشراب واللذة الجنسية والراحة بالنوم وغيره، وله طاقة لابد من أن يعبر عنها بالحركة كالعمل ونحوه، وهو منقاد حين تكون الإرادة قوية فاعلة، جاهز للحضور الكامل متى جهزت بقية المكونات الإنسانية، وحضوره وحده لا يعتد به، لأنه منقاد كما قلت، فمن التوهم التعويل على حضور الجسد وحده دون التأكد من حضور بقية المكونات، فقد نراه حاضرا مع الحق والخير، حتى إذا أمرته النفس بالسوء غاب فجأة عند اللحظة الحاسمة! وقد يمنعه العقل من الحضور، هذا طبعا على فرض صحة الجسم وتمكنه من الحركة المطلوبة، ولذلك فسنعتمد مكونات الإنسان الثلاثة بوصفها مباحث لهذا المقصد، لنتقصى حضورها كيف يكون مع الحضور الجسدي/ الفيزيقي، ليتم الحضور بمعناه الكامل، فيكون جزءا من لوازم القيام، وبه يتحقق ركن من أركانه، وقد أسمينا المقصد (الحضور الفاعل)، لأن الحضور إذا لم يكن كاملا شاملا لهذه المعاني لن يكون فاعلا باتجاه القيام، وليس له أن يشكل حركة فاعلة من لدن الأمة تنجز بها ما عليها من واجب الحضور بين يدي الإمام المعصوم عليه السلام.

لذا فلننتقل للحديث عن بقية المكونات الثلاثة للإنسان وكيفية حضورها مع الجسد في المواقف المطلوبة، والمشاهد اللازمة.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٢) ينظر: بحار الأنوار: ٥٧ : ٣٨٣.

المبحث الثاني

الحضور النفسي

الحديث عن النفس حديث ذو شجون! لخطورها أولا، ولتشعب القول فيها ثانيا، ولكونها مصدر الانحراف عند الإنسان ثالثا.

فقد وردت النفس في القرآن الكريم على ثلاثة أصناف رئيسة: فالأمّارة، واللوامة، والمطمئِنّة، قال تعالى على لسان امرأة العزيز في قصة نبيه يوسف عليه السلام: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

فهذه النفس الأمارة، إذ (إن النفس لكثيرة الأمر لصاحبها بعمل المعاصي طلبا للذاتها، إلا مَن عصمه الله، إن الله غفور لذنوب مَن تاب مِن عباده، رحيم بهم)[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾[3].

وهذه النفس اللوامة، فهي النفس (المؤمنة التقية التي تلوم صاحبها على ترك الطاعات وفِعْل الموبقات)[4].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٢) التفسير الميسر: سورة يوسف.

(٣) سورة القيامة، الآية: ٢.

(٤) م.ن.: سورة القيامة.

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[1].

وهذه النفس المطمئنة، وسميت كذلك لأنها (المطمئنة إلى ذِكر الله والإيمان به، وبما أعدَّه من النعيم للمؤمنين)[2].

لقد عدّ أمير المؤمنين عليه السلام معرفة النفس أفضل المعرفة، لذلك دعا الإنسان إلى معرفة نفسه، وقد ذكر ذلك ابن سينا بقوله: (معرفة النفس مرقاة إلى معرفة الرب تعالى، كما أشار إليه داعي الحق بقوله: **«من عرف نفسه فقد عرف ربه»**، وداعي الحق عند ابن سينا هو الإمام علي عليه السلام، وقد وصف سلام الله عليه النفس بأنها جوهرة ثمينة من صانها رفعها ومن ابتذلها وضعها، ومن خصائص النفس تأثرها بالطبائع.

فقد ورد عنه عليه السلام: **«إن من يقوى أثر النفس فيه بفعل الطبائع يمكنه أن يرتقي في الأخلاق والعلوم الإلهية، والنفس بدلالة هذا النص تحمل طابع القوة والضعف، والتدرج في المعارف والتغير»**.

وقد قسم النفس على أربعة أقسام في جوابه سؤال الصحابي الجليل كميل بن زياد رضي الله عنه، عن النفس حين سأله فقال له الإمام عليه السلام: **«وأية نفس؟»**، فقال كميل رضي الله عنه: وهل غير واحدة يا أمير المؤمنين؟! فأجابه سلام الله عليه:

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) م. ن.: سورة الفجر.

«بل أربع أنفس، لكل واحدة منها خمس قوى وخاصّتان، وقد يعني هذا أن ما ذكره في قوله أنفس هي نفس واحدة ذات قوى مختلفة ووظائف متباينة».

والأقسام التي ذكرها أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام للنفس هي:

أولا: النفس النامية النباتية

ولها خمس قوى هي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والمربية، ويبدأ إيجادها عند مسقط النطفة، ومقرها وانبعاثها من الكبد، ومادتها من لطائف الأغذية، ولها خاصتان هما الزيادة في النمو والنقصان.

ثانيا: النفس الحسية الحيوانية

ولها خمس قوى هي السامعة والباصرة والشامّة والذائقة واللامسة، ولها خاصّتان هما الشهوة والغضب، وانبعاثها يكون من القلب.

ثالثا: النفس الناطقة القدسية

ولها خمس قوى هي الفكر والذكر والعلم والحلم والنباهة، ولها خاصّتان هما النزاهة والحكمة، ويبدأ إيجادها عند الولادة الدنيوية ومقرها العلوم الحقيقية الذهنية وموادها التأييدات العقلية، وفعلها المعارف الربانية، وسبب فراقها تحلل الآلات الجسمانية، وهي أشبه الأشياء بنفس الملائكة.

رابعا: النفس الكلية الإلهية

هي قوة إلهية وجوهرة بسيطة حية بالذات، أصلها العقل منه بدأت وعنه دعت

وإليه دلت وأشارت، وعودها إليه إذا كملت وشابهت، من عرفها لم يشق، ومن جهلها ضل وغوى، ولها خمس قوى: بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعز في ذل، وغنى في فقر، وصبر في بلاء، ولها خاصّتان هما الرضا والتسليم، ومبدؤها من الله وإليه تعود(١).

وعند التأمل في هذه الأنماط التي تحدث عنها أمير المؤمنين عليه السلام نجد الكثير من المعلومات الغزيرة الثرية التي توضح لنا كثيرا من الالتباسات الحاصلة نتيجة الأخطاء المعرفية في النظريات المادية لدراسة النفس البشرية، ومما يمكن التوصل إليه عبر التأمل في النص السابق:

١. نجد أن النفس مركب رباعي الأجزاء، ولكل جزء منه خمس قوى وخاصتان، وإلا فإن القول بخمس أنفس لا يمكن أخذه على نحو الانفصال فيما بينها، كما لا يمكن أخذه على نحو الاتحاد، فالفصل يعني المباينة المستلزمة للغيرية، والاتحاد يسقط عند معرفة امكان التحكم في قوى نفس دون أخرى وإمكان ترويض قوى معينة والإفادة من خصال معينة دون أخرى، وهكذا فلا يبقى عندنا سوى القول بالتركيبية.

٢. يمكن تقسيم النفس إلى أنماط حسب أكثر من وجهة، فمن وجهة سلوكها العام يمكن أن نجد اللوامة والأمارة والمطمئنة كما حددها القرآن الكريم، ومن وجهة قواها الفاعلة وخصالها يمكن أن نجد هذه الأنماط الأربعة التي حددها أمير المؤمنين عليه السلام، ويمكن أن نقسمها من حيث نتيجة ما يفعله الإنسان بنفسه، إلى نمطين: النفس الزاكية والنفس الداسية، فإن زكّى نفسه بمعنى أنماها وأظهرها ورفع شأنها كانت النفس

---

(١) ينظر: الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي عليه السلام: ١٨٩ ـ ١٩٤.

زاكية، وإن دسّى نفسه بمعنى قلل من شأنها وأخملها وواراها[١].

كانت النفس داسية، وقد ورد في ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[٢].

ومن ذلك يمكن القول بإمكان تعدد وجهات النظر إلى النفس مما يستتبع تعدد تقسيماها إلى أنماط حسب كل وجهة، ومن ذلك تقسيم فرويد لأنماط النفس، غير أن وجهته المادية انصبت على فهم النفس من حيث (الإشباع – الكبت – المرجعية)، فكانت عنده الأنماط ثلاثة: الأنا، والهو، والأنا العليا، وعلى أية حال فإن فهم التنميط ينبغي أن لا يخرج عن إطار القول بالتركيبية كما أسلفنا.

٢. عند ملاحظة نمط النامية نجد تسميته الأخرى (النباتية) تسمية شارحة وموضحة، فهو نمط يؤطر لمجموعة مكونات من قوى وخصال تشبه إلى حد بعيد في فعلها فعل النبات، فالجذب والمسك والهضم (الذي هو في النبات التمثيل الضوئي) والدفع والتربية (بمعنى النمو)، هي أفعال تحدث في النباتات، وتحدث أيضا للإنسان، فأوعيته الدموية المسؤولة عن تغذية كل خلايا الجسم تتولى هذه الفعاليات بمساعدة عدد من الغدد والأعضاء، وكما يحدث جذب الغذاء ومسكه وهضمه ثم دفعه والنمو به، لجسم الإنسان بشكل عام، تحدث هذه الآلية نفسها بهذا التسلسل لكل جزء من أجزاء جسم الإنسان حتى أصغر خلية فيه، ولكن بالطبع بطرائق مختلفة وباستعمال أجزاء متنوعة، وهذه الفعال لا تحدث للجسم من تلقائه وحده، فبعد إزهاق النفس

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ١٤: ٢٥٦.

(٢) سورة الشمس، الآية: ٩–١٠.

مثلا يبقى الجسد جثة هامدة، يتحلل ويعود إلى أصله من تراب، غير أن النفس التي تقوم له بهذه الفعاليات هي النفس النامية النباتية بقواها الخمسة هذه، وبما أن هذه النفس تقصد في نتيجة فعلها إلى النمو، وبما أن فعلها متعرض للتغيير، فإن خاصّتاها هما الزيادة والنقصان، فإما أن تؤدي الفعاليات إلى زيادة في النمو أو نقصان فيه، بحسب ظروفه الموضوعية، فهاتان الخاصتان إذن ملازمتان لعمل هذه النفس.

٣. وأما الحسية الحيوانية، فنجد أنها تعتمد فعاليات قوى الحسّ الخمس، وتسميتها بالحيوانية شارحة أيضا ومفسرة لها، فهي على قرب شبه من الحيوان من حيث حضور تلك القوى وفعلها، برغم بعض الاختلافات في مدى تحقق تلك القوى ومقادير قابلياتها، ففعاليات من مثل: السمع والبصر والشمّ والذوق واللمس، هي مما يشترك فيه الإنسان مع الحيوان، وهذه الفعاليات معنية بالمدخلات المعرفية للإنسان عبر وسائل الإدخال الخارجية التي هي الحواس، ومن ثم فهي تؤثر بالنتيجة في قلبه، فتستحثه بمدركات تلك الحواس نحو الشهوة ونحو الغضب، على اختلاف في درجات كل منهما بحسب المدرك الحسّي المؤثر، إذ (إن النافذة التي يستقبل بها الذهن رياح الحياة والتجربة هيالحواس كما أن الذهن محتاج في كثير من اعتمالاته إلى الحواس لترجمة تلك الاعتمالات، فتكون الحواس بهذا المنحى أهم وسائل الذهن في الاستقبال والبث)(١).

فيمكن أن نعد الانفعال سواء بالشهوة أو الغضب بأنه (استجابة للإحساس، وهذا يعني ان الحواس بإدراكها الاشياء تثير انفعالات معينة في النفس)(٢).

---

(١) الصورة الفنية معيارًا نقديا، د. عبد الاله الصائغ، دار الشؤون الثقافية، ط١، بغداد،١٩٨٧م: ٤٠٦.

(٢) نظرية تراسل الحواس، الأصول-الأنماط-الإجراء، د. أمجد الفاضل، المركز العلمي العراقي، ط١، ٢٠١٠م: ٢٠٥.

وبذلك تكون (من أهم مصادر الكلام أو الكتابة، كما أن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها، ولذلك قيل: من فقد حسًا فقد علما، بل يمكن القول مؤكدا إن مدركات السمع والبصر والذوق والشم واللمس، التي هي الحواس الخمس، أوضح في الجملة مما لا تقع عليه الحواس، كما لا يمكن أن تعرف للفظ صفة يكون طريق معرفتها العقل دون الحسّ إلا دلالته على معناه، فالصفات تدرك بالحواس، ثم يعمل العقل فيها بالتحليل، فهي وسيلة الذهن لإجراء الكثير من العمليات التي تكوّن النصّ الأدبي بالاعتماد على الخيال)[1].

وأما خاصتا هذه النفس فهما المتحصلتان من الانفعال فإما رغبةٌ تُوقِعُ في الشهوة، وإما رهبةٌ توقِع في الغضب، لذا فهما خاصتان ملازمتان لهذه النفس.

٥. فيما يتعلق بالنفس الناطقة القدسية، فكونها ناطقة فهذه تسميتها التي تميزها بالنطق عن غيرها من الأنماط، ومعروف أن النطق يحتاج إلى قوى معينة لكي يتم له البيان، وهذه القوى هي الفكر والذكر والعلم والحلم والنباهة، فبالفكر يحلل الإنسان المعلومات التي يحصل عليها، وبالذكر لله سبحانه يحصر تفكيره في آيات الله جل جلاله وآثاره في خلقه، فلا يتعداها إلى الاستقلال بالتفكير الموقع في الزلل، قال تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[2].

فالتفكير المستقل عن ذكر الله سبحانه ووحيه، خارجا عن آياته وآثاره، يجعل

---

(١) م. ن.: ٢٢.

(٢) سورة المدّثر، الآيات: ١٦ـ٢٠.

الإنسان في موضع (المُقَدِّر) الذي هو في الحقيقة الله وحده! وهذا ما يفسر معنى كونه عنيدا لآيات الله، فيحق عليه قول الباري سبحانه (فقتل كيف قدّر) ولا يحتاج التكرار إلى توضيح ما فيه من توكيد، ولكن ما يبدو لي أنه يحتاج إلى توضيح هو أن القول عليه بالقتل بمعنى الإنكار عليه فعله ليس المقصود منه مجرد التفكير، بمعنى ليس التفكير بحد ذاته هو الجرم، بل كيفيّة التفكير هي المقصودة بالإنكار والتي يترتب عليها التجريم، لأن الله سبحانه في آيات أخرى كما هو معلوم دفع الإنسان باتجاه التفكّر والتدبّر، ولكن في ضوء الوحي، وفي موضوع آيات الله سبحانه وآثاره في خلقه.

ثم بعد ذلك تأتي قوة العلم لتفعل فعلها، وهي متحصلة بعد التفكّر والتذكّر، وبعد العلم يحتاج الإنسان إلى الحلم في توجيه تصرفاته فيما قد علمه لئلا ينقلب علمه وبالا عليه إن هو تعجّل العمل به في غير موضعه مثلا، وتأتي النباهة لتكون القوة المسؤولة عن الحذر واليقظة. أما الخاصّتان اللتان هما النزاهة والحكمة، فلابد منهما خصلتين ملازمتين لتلك القوى، وبهما ترهن أفعالها، فينزه الإنسان عند إعماله تلك القوى نفسه عمّا لا يليق بحسن تقويمه الذي فطره الله سبحانه عليه، ويمتلك ناصية الحكمة، ومقر هذه النفس وموضع تفتقها وظهورها العلوم الحقيقية الذهنية، لا الأوهام التي يتم الترويج لها على أنها علوم!!

بمعنى لابد من البحث في مصادر المعرفة والتأكد منها، على أن يتم تحصيل موادها من التأييدات العقلية لتلك العلوم، ويظهر فعلها جليا عند بلوغ المعارف الربانية، ولأنها مرتبطة بالحواس التي هي مداخل العلم فإن سبب فراقها هو تحلل تلك الحواس أو ما أسماها أمير المؤمنين عليه السلام (الآلات الجسمانية)، وهي نفس تعد

أشبه الأشياء بنفس الملائكة، لما تنطوي عليه من قدرة على الانضباط في النزاهة والتحرك في نطاق الحكمة، وهذا هو منشأ قدسيتها.

٦. وأما النفس الكلية الإلهية، فنجد أن أمير المؤمنين عليه السلام يشير إلى كونها قوة إلهية، بمعنى انبثاقها عنه سبحانه، ولذلك لا يمكن تجزئتها لأنها (جوهرة بسيطة)، كما لا تستمد حياتها من غير الله عزّ وجلّ لأنها (حية بالذات)، وقوله سلام الله عليه إن «**أصلها العقل منه بدأت وعنه دعت وإليه دلت وأشارت، وعودها إليه إذا كملت وشابهت**» لموحٍ بالحديث القدسي الذي يتحدث عن خلق الله سبحانه للعقل وكونه أكرم شيءٍ خلقه وأنه به يثيب وبه يعاقب، لحسن استقباله للأمر واستدلاله عليه ثم طاعته تبعا لذلك، وأما قوله عليه السلام «**من عرفها لم يشق**» فقد سبق له أن قال: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»، فكيف يشقى من عرف ربه؟!

ومن جهلها سيكون بذلك قد جهل ربه، ومن جهله سبحانه عن ذلك فقد ضل وغوى، ولهذه النفس خمس قوى، هي فعاليات إلهية في نهجها كلية في طبيعتها، فالبقاء الحقيقي لهذه النفس يكمن في فنائها، لأن وجدانها يحول بينها وبين ربها، وفناؤها فيه يدنيها منه، فإن كان لها من الوجود قدر عرقٍ ينبض كان هذا العرق حائلا بينها وبين مصدر وجودها وموئل بقائها الذي هو القائم بنفسه المقوّم لغيره سبحانه، والنعيم الحقيقي لهذه النفس هو في شقائها في الحياة الدنيا مكدودة في ذات الله سبحانه، لأن تنعُّمَها يحجب عنها لذة نعيم القرب منه سبحانه، وعزها الحقيقي كامن في تذللها له سبحانه، وهنا نذكر مقولة أمير المؤمنين عليه السلام الشهيرة: «كفاني عزا أن أكون لك عبدا، وكفاني فخرا أن تكون لي ربا».

وهي لاشك صادرة عن عارف بالله صادق العرفان لشهادة رسول الله صلى الله

عليه وآله له بذلك في قوله «**يا علي لا يعرف الله إلا أنا وأنت...**»، فقد قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾(١).

فلم يترك الله سبحانه من العزة شيئا لغيره، بل لقد قرر أن العزة له جميعا، فلا عزة من دونه، ونيل العزة منه لا يكون إلا بالأداء الوظيفي السليم للإنسان وهو العبودية، التي تقتضي الذلة له، بمعنى الطاعة والتسليم والانقياد، لا بمعنى المهانة التي ينفيها مقتضى الحال بتناول العزة من العبودية له سبحانه، وأما غنى هذه النفس فهو غنى عن المخلوقين جميعا، وهذا يقتضي الفقر إلى الله الغنيّ الحقيقي.

ولابد لهذه النفس من فعالية الصبر في البلاء لتظهر كمالاتها المتحصلة من مسيرة تكاملها بسعيها نحو بارئها، ولهذه النفس خاصّتان هما الرضا والتسليم، فمحصلة تلك القوى كلها حصول الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم لأمره، كما أن كيفية الدأب على فعل هذه القوى مرتبطة بالرضا والتسليم، فهما خصلتان ملازمتان لهذه القوى، ومبدأ هذه النفس من الله وإليه تعود، ومما تجدر الإشارة إليه هنا في موضع المبدأ والمعاد أن الرضا والتسليم يقرّان الاطمئنان ويحكمان ثباته، وقد خصّ الله سبحانه نمط النفس المطمئنة بقوله لها: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾(٢).

ولم يذكر مع نمطي اللوامة والأمارة بالسوء موضوع العودة والرجوع إليه، فلم

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٨.

يكن عند ذلك الاطمئنان متحصلا، فلا رضا ولا تسليم، وفي ذلك نكتة مهمة جدا متعلقة بقوله عليه السلام: **«ومبدأ هذه النفس من الله وإليه تعود»**.

إن القول في معنى النفس وأقسامها له أكثر من مسلك فيما هو معروف، للعلة التي بيّناها فيما سبق، وكنت قد ذكرت فرويد وتقسيمه للنفس إلى أنماط فأحببت الرجوع إلى مناقشة ذلك، فإنّ علم النفس الحديث له نظرياته التي تفسر حركة النفس، وأنواع المثيرات لها، وأنواع الاستجابة، وتحاول تلك النظريات التوصل إلى ما يجعل النفس قريبة من مستوى أن تكون سويّة، بالحد المعيّن في كل نظرية لكلمة سويّة، ولعل أبرزها نظرية فرويد عن النفس، وفيها يقسم النفس على ثلاثة أقسام هي: (الهو) وتمثل الشهوات والغرائز وضرورة اشباعها، و(الأنا) وتمثل قوة الكبح لانفلات (الهو) وأداة كبتها، و(الأنا العليا) وتمثل جانب المثل وتحقيق القبول والرضا[1].

وفي الموازنة بين تقسيم الإمام علي عليه السلام وتقسيم فرويد للنفس نجد (إذا شئنا الدقة فإن النفس الحيوانية الشهوية هي ما يمثل أيضا مفهوم (الهو)، والنفس الناطقة هي (الأنا) وأما (الأنا العليا) فكأنها النفس الإلهية المتدرجة في مدارج المعرفة الإلهية والتي يمثلها فرويد بجهاز القيم الخاص عند الشخصية نفسها والتي تكون منحرفة أحيانا، إلا أن فرويد هنا يعطل جانبا من جوانب النفس ويبطل تطلعها الروحي في جوانب الأخلاق والمعرفة)[2]. يرى فرويد (أن النشاط النفسي موزع بين قوى ثلاث: الأنا، والأنا الأعلى، والهي، والصراع دائم بين هذه القوى، ومحصلة الصراع تتجلى في سلوك الشخص في أي موقف)[3].

---

(١) ينظر: الأنا والهو، سيجموند فرويد، ترجمة: د. محمد عثمان نجاتي، ط٤، بيروت، ١٩٨٢م: ٣٣.

(٢) الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي عليه السلام: ٢٠٢.

(٣) مقدمة في النقد الأدبي، د. علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية للدراسات، ط٢، بيروت، ١٩٨٣م: ٤٢٤.

وقد ظهر اهتمام (فرويد) بشكل كثر نقده على أنه مبالغة كبيرة في الاهتمام بالغريزة الجنسية، أو ما اصطلح عليه (الليبيدو)، وهي (لفظة لاتينية الأصل تفيد معنى الشهوة، استخدمها (فرويد) معتبرا إياها بمثابة طاقة حيوية شبقية في جوهرها تتمثل فيها غريزة الحياة)[١].

وهو يعتقد أن نفس الإنسان الحقيقية تمثل الـ(هي)، التي تعد ملامحها الحقيقية مكبوتة لا يستطيع الإنسان الإفصاح عنها، وهي واقعة تحت تأثير الواقع وما يفرضه من قوانين تتعلق بالبيئة الاجتماعية والثقافية والنفسية وغيرها مما يوضع تحت تسمية (الأنا)، وهناك تأثير آخر تمثله القيم والمثل والتعاليم الدينية، وهذا يقع تحت تسمية (الأنا الأعلى)، والمحرك الدافع لحياة الإنسان الناتج بشكل سلوك - ومنه التعبير الأدبي - هو الغريزة الجنسية (الليبيدو).

إن الدراسات النفسية ترتكز على الشخصيات الشاذة والمصابة بالأمراض النفسية والعقد، ولاسيما طروحات التحليل النفسي بشأن المريض العصابي، والعصاب هو (اضطراب انفعالي بسبب صراع داخلي وتصدع في العلاقات الشخصية، أهم سماته القلق، وينشأ القلق العصابي من الشعور بعدم الأمن الناتج من المواقف البيئية الضاغطة)[٢].

---

(١) مبادئ علم النفس، د.محمد بني يونس، دار الشرق للتوزيع والنشر، ط١، عمان، ٢٠٠٤م: ٥٤٩.

(٢) موسوعة علم النفس والتحليل النفسي - إنجليزي - عربي، د. عبد المنعم الحفني، نشر مكتبة مدبولي، دار العودة، ط١،

بيروت، ١٩٧٨م: ٢ : ٢٤.

وحين نزداد تعمقا في طروحات المدرسة الفرويدية، ورؤيتها للنفس البشرية، ورسمها لملامح الشخصية الإنسانية، نجد أنها رؤية تقوم على المادية في تصوراتها وعقيدتها، (وتعني المادية في علم النفس الاقتصار على وصف الأفعال ودراسة السلوك، أو ما يسمى بالسلوكية المنطقية)(١).

والاقتصار على التجربة – المنطق التجريبي – في التفسير المتبع للسلوك، من دون الاعتقاد بوجود خالق مدبر للكون، وأنه خلق الإنسان في مهمة محددة هي الخلافة في الأرض.

وهذا الجانب الغيبي الذي أغفلته المدرسة الفرويدية قد تسبب في الوقوع في أخطاء لا مبرر لها علميا، يمكن التوصل إليها من خلال التناقضات الحاصلة في الفهم الفرويدي للنفس البشرية وظواهرها، فالدين الذي يصنفه (فرويد) بأنه يقع في ضمن (الأنا الأعلى) الضاغطة على الإنسان مسببة له الكبت، فهو معها في صراع دائم، مما يضع الدين موضع المسبب لمرض نفسي مزمن يسعى الإنسان إلى التخلص منه، هذا الدين الذي يعتقد (فرويد) أنه نشأ بسبب محاولة الإنسان إيجاد موازنة أمام عجزه تجاه الظواهر الطبيعية القاهرة – كالزلازل والأعاصير وغيرها – فنشأ اعتقاده بوجود القوى الغيبية، إنه الحل الوحيد المتاح لعلماء النفس لتخليص الإنسان من خوفه من المجهول، والتفكير بلا جدوى العبثية مع وجود الموت والحياة ما بعد الموت.

ولعل في تقريرات (يونج) ما يؤكد أن عددا كبيرا من المضطربين نفسيا كانت أسباب أمراضهم تتعلق بالفراغ الروحي، الذي تولده الحياة المادية الحسية، هذا غير ما

---

(١) م. ن.: ١١٧.

يسبب الأمراض من عناصر كثيرة تعج بها البيئة الاجتماعية، وفي تنظيم الحاجات الإنسانية - ومنها الحاجة الجنسية - لدى الأديان السماوية حل أكيد لمنح الإنسان فرصة تلبية تلك الحاجات مع عدم الضرر بنفسه على النحو الفردي - كالشذوذ مثلا - ومع عدم الضرر بالمجتمع على النحو الجماعي هذا فضلا عن مسألة خبرات النفس البشرية ومقدار ما يقدم الوحي السماوي من دعم ذاتي وموضوعي لهذه الخبرات، مما يرتفع بالنفس البشرية إلى مراتب التكامل والاتزان، فيصدر عنها تبعا لذلك سلوك متزن أيضا[١]، وهذا مما أغفله التحليل النفسي في نظرية فرويد.

أما قضية (اللبيدو) فيقرر التصور الإسلامي حيالها (أن الدافع الجنسي أشد إلحاحا من سائر الدوافع البيولوجية في شتى انعكاساته على السلوك)[٢].

إلا أنه من غير المقبول لدى الفكر الإسلامي أن يخضع الباحث النفسي العملية التاريخية كلها (لإلحاحية هذا الدافع من حيث نشأة العقل الإنساني ومراحل تطوره بدءا من مراحل ما قبل التاريخ وانتهاء بعصور التقدم الحضاري في المستوى النوعي للإنسان، كما أخضعه للتفسير نفسه في مستوى السلوك الفردي الخاص، فيما جعل مختلف مراحل النمو للطفولة والرشد خاضعة للبعد الجنسي المذكور)[٣].

وفي حين نجد أن جلّ الباحثين في علم النفس تتأرجح نظرتهم بين موضوعية

---

(١)ينظر: القرآن وعلم النفس الإدراك الإنساني، د. عبد العليّ الجسماني، الدار العربية للعلوم، ط١، بيروت، ١٩٩٧ م: ٣٧.

(٢) دراسات في علم النفس الإسلامي، د. محمود البستاني، دار البلاغة،ط٣،بيروت،٢٠٠٠م:٢ : ٢٤٢.

(٣) دراسات في علم النفس الإسلامي: ٢ : ٢٤٣.

السلوك البشري وذاتيته، يعود الفكر الإسلامي ليؤكد الوسطية والموازنة بين الذات والموضوع في تصور شامل للنفس البشرية وسلوكها الظاهر منه والخفي، ومن ذلك (إخضاع الجنس في التصور الإسلامي لهدف عبادي صرف، شأنه شأن أية ممارسة من السلوك الهادف، بمعنى عدّه مجرد وسيلة للهدف المذكور بما يستتبعه من طرائق خاصة في تنظيم الإشباع)[١].

وعلى الرغم من إلحاحية الدافع الجنسي لدى النفس البشرية وشدة تأثيره عليها، إلا أن (مفهوم الوظيفة العبادية يظل الأساس الرئيسي في تفسير العمليات النفسية وتنظيمها)[٢].

وإذا كانت اتجاهات التحليل النفسي متعددة فإن أكثرها انتشارا – وهي الطريقة الفرويدية – هي الأشد وقوعا في المفارقات، (والسبب في ذلك عائد إلى تشددها أولا على الفعاليات اللاشعورية، وثانيا على خبرات الطفولة، وثالثا على ظاهرتي العدوان والجنس بخاصة)[٣].

غير أن إيلاء (اللاشعور) الأهمية الكبرى في فهم النفس البشرية وتفسير سلوكها هو أمر ينظر إليه الفكر الإسلامي على أنه نقص في الاستيعاب، ومغالطة كبيرة، فاللاشعور الذي يمثل منطقة الكبت، كبت الصراعات والخبرات المؤلمة[٤].

والذي تتوصل إليه مدرسة فرويد عبر التحليل النفسي، لا ينكر الفكر الإسلامي

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي: ٢٤٤.

(٢) م. ن.: ٩.

(٣) م. ن.: ١: ١٦٣.

(٤) ينظر: مبادئ علم النفس: ٥٤٩.

وجوده، لكنه (لا يراه مصدرا مفسرا لكل أنماط السلوك، كما أنه لا يراه علاجا أوحد للظاهرة المرضية، إنه وسيلة عابرة فحسب، من الممكن حين تستحضر بعض مفاهيمها أن تسهم في تخفيف الظاهرة، في حين يظل النجاح أولا وأخيرا قائما على (الإرشاد)... أي على (وعي) الشخصية)(١).

وهذا الوعي الذي يمثل إرادة الإنسان هو الحالة الطبيعية الأصيلة في نظر الإسلام، فالسلوك البشري كله خاضع لمبدأ الثواب والعقاب، وتغييب الوعي بهذا الشكل هو هروب من هذه الحقيقة، أو أنه تفسير مادي يبتعد عنها لسبب مجهول، وبالتالي هو لا يقدم تصورا مقنعا لسلوك الإنسان.

إن اللاوعي على حد علماء النفس يغيب الإرادة - (يستخدم علم النفس هذه اللفظة بشكل عام للدلالة على النزوع نحو الفعل في كافة نواحيه وجميع مراحله التطورية، وعلى وجه أكثر تخصيصا تقتصر اللفظة على معنى الفعل الإرادي فحسب)(٢)-.

في حين يكشف لنا الفكر الإسلامي عن حضور غالب للإرادة، ولا يمثل اللاوعي سوى بعض ما هو هامشي من السلوك البشري، ومن منطلق الإرادة الواعية (ثمة أصل رئيس محرك للطبيعة البشرية يقف وراء نشاط الكائن الآدمي بأكمله ممثلا بالمبدأ... (البحث عن اللذة واجتناب الألم)، هذا المبدأ يجسد في التصور الإسلامي أصلا نفسيا قائما على طبيعة ثنائية يتجاذب طرفاها الكائن الآدمي في بحثه عن اللذة ،وطرفا التجاذب هما (الشهوة والعقل) أو (الذات والموضوع)، ويتمثل أولهما في البحث

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي: ١: ١٦٣.

(٢) مبادئ علم النفس: ٤٩١.

عن الإشباع المطلق، والآخر في الإشباع المقيد بالمبادئ والضوابط المقررة، ويوازن هذا الأصل النفسي، أصل عقلي، قائم على قدرة التمييز بين نمطي الإشباع المذكورين... والأصل النفسي المذكور مجسّد بثنائيته طاقة متوازنة، لا هيمنة لأحدهما على الآخر إلا من خلال الطريقة التي يختارها الكائن الآدمي في بحثه عن الإشباع)[١].

فالتنازع يقع بين الشهوة التي هي (تأزم رغبات فكرية بما يفوق الحاجات الضرورية)[٢]. وبين العقل، القوة الأكثر فاعلية في طبيعة النفس البشرية بحسب التصور الإسلامي، واللذة التي هي (الدافع إلى التكرار، وهذا ما يمثل سرا من أسرار البقاء والاستمرار)[٣]، تكون حاضرة في طرفي الصراع معا، على خلاف مع ما اعتقده (فرويد) من الصراع بين اللذة وكبتها (عدمها)، (على أن تجاهل (اللذة العقلية) في نظرية (فرويد) لا يعني غياب فعاليتها في الطبيعة البشرية بقدر ما يسهم هذا (التجاهل) في تقليل فرص الخلاص من الألم))[٤].

فمدرسة التحليل النفسي تجعل الصراع ما بين رغبة الإشباع المطلق للذة (الهي/ الهو) وبين الواقع (الأنا)، وإن (الالتزام بمبدأ الواقع يحقق نمطين من اللذة أحدهما اجتناب الألم الناجم عن معاقبة المجتمع، والآخر تحقيق اللذة الناجمة عن التقدير الاجتماعي)[٥]، وإن مفهوم (الالتزام بالواقع) يشير إلى إطاعة الإرادة الجمعية وإرضاء المجتمع.

---

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي: ١ : ٢٦.

(٢) فلسفة التحليل النفسي، محمد عنداني، دار القلم العربي، ط١، حلب، ٢٠٠٣ م: ٥١.

(٣) م.ن.: ٥٣.

(٤) دراسات في علم النفس الإسلامي: ١ : ٢٢.

(٥) م. ن.: ١ : ٢٣.

في حين إن المشرع الإسلامي في نظرته إلى الإنسان (يلغي الانتماء الاجتماعي أو التقدير الاجتماعي من الأساس، ويطالبه بانتماء إلى (السماء) فحسب، وبتقدير منها، لا من الآخرين)[١]، وهذا ما جعل مدرسة علم النفس الإسلامي تمثل المدرسة الواقعية التي تمتلك الحلول المناسبة لكل حالات النفس البشرية، وفي ظروفها المختلفة جميعا[٢]، باستيعاب حقيقة الإرادة البشرية وفاعلية حضورها، ووهم غيابها، في حين إن اتجاه مدرسة (فرويد) بشكل عام يمثل الاتجاه التحليلي الديناميكي الذي يقول: (إن الجزء الأكبر من السلوك البشري هو نتاج قوى ودوافع لا شعورية)[٣]، وهو بذلك يغيّب الإرادة، ويحصر اللذة في الإشباع المطلق للشهوة، ويغفل عن اللذة العقلية.

وإنّ هذه النظرية (عندما تفترض أن (الأنا) يضطلع بمهمة الضبط لغرائز (الهو) من خلال مبدأ (الواقع) فإن عملية الضبط المذكورة إنما تمثل (كبحا) خارجيا: أي كبحا لا يستند إلى (بحث عن لذة) لها أساسها الفطري (وهو اللذة العقلية)، بل يستند إلى عامل خارجي مفروض على الشخصية)[٤]، وإن مَكمن المفارقة الخطرة بين تصور هذه النظرية، وبين الحقيقة التي يسوقها التصور الإسلامي، يقع في (انطوائها على نكسة علمية وأخلاقية تدع الكائن الآدمي نهبا لغرائز (الهو) توجهه حيث تشاء بالرغم من

---

(١) م. ن.: ١: ١٩٨.

(٢) ينظر: دراسة في علم النفس الإسلامي، د. أبو القاسم الحسيني، ترجمة: ناصر النجفي، مجمع البحوث الإسلامية، ط١،

مشهد، ٢٠٠٦ م: ١٢٧.

(٣) مبادئ علم النفس: ٤٨٤.

(٤) دراسات في علم النفس الإسلامي، د. محمود البستاني: ١: ٢١.

محاولاته الدائبة على الخلاص منها، حتى أن صاحب النظرية نفسه أقرّ بأن الكائن الآدمي محكوم عليه بـ(الخسار) في صراعه المرير مع الحياة)[١].

أما وجهة النظر الإسلامية فترى (إن التدريب على كبح غرائز (الهو) يقتاد إلى النفور منها... وليس إلى الوقوع في صراع خاسر معها)[٢]، ويبدو أن سبب هذه المفارقة الخطرة هو توهم أصحاب هذه النظرية (فرويد ومن تبعه) بأن (الهو) لوحده مصدرٌ للذة، وأن مبادئ كبحه مفروضة من الخارج[٣]، في حين إن (مبادئ الكبح نفسها تستند إلى الأصل الغريزي الباحث عن اللذة... إن الجانب العقلي بمقدوره أن يكسب المعركة لصالحه)[٤]، من خلال مبدأ البحث عن اللذة - وهي هنا اللذة العقلية - وتأجيل اللذة الحسية التي تطلب الشهوة إشباعها.

إن غياب التصور الغيبي في نظرية (فرويد) وسواها يجعلها تغفل مبدأ (تأجيل اللذة)، لأن التأجيل يتطلب تعويضا بلذة متفوقة - أو مماثلة في الأقل - أو تثمينا بمقابل آخر أو جزاء اعتباريا، فالتصور الإسلامي يقدم نظرته الشاملة التي تقتضي أن لمن يؤجل لذته الحسية بتقوية اللذة العقلية وتغليبها، تعويضا عنها بخير منها في الآخرة، تثمينا لذلك التأجيل الذي قصد منه التقرب إلى الله سبحانه، لا لحاجة لله تعالى عن ذلك، بل لأن في تلبية تلك اللذة أذى لأشخاص بعينهم، وللمجتمع بشكل عام، وفي تأجيلها خير للآخرين، ونجد أن القرآن الكريم يؤكد الاطمئنان إلى حصول الرضا

---

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي، د. محمود البستاني: ١ : ٢١.

(٢) م. ن.: ٢١ - ٢٢.

(٣) ينظر: م. ن.

(٤) ينظر: م. ن.

للإنسان الذي يلتزم بالحدود التي وضعها الله ويعطي له الضمانات اللازمة، وكذلك يجد هذا الإنسان أمامه قيمة اعتبارية توجب القناعة بأن التأجيل يمثل قيمة محترمة لدى السماء، وأما في التصور الأرضي المادي فإن غياب هذه المفاهيم - لغياب البعد الأخروي والغيبي عامة - يجعل من التأجيل غير ذي معنى، وبالتالي تجري عملية تغليب الإشباع المطلق للذة، بمعنى تغليب الشهوة بلذتها الحسية على لذة العقل التي يقطع التصور الإسلامي بقدرتها على الهيمنة والغلبة(١).

إن التصور الإسلامي للنفس البشرية يقضي بأن وجودها هو لعلة الخلافة على الأرض المحددة من قبل السماء بالالتزام بجملة من المبادئ (فعل ما هو واجب أو مندوب) وترك ما هو (محرم أو مكروه)، والخيار في حالة السلوك الذي لا يتسم بأمر أو نهي (المباح)، ويتميز وجود النفس البشرية في الحياة الدنيا بأنه: مؤقت قبالة الحياة الأبدية التي هي الدار الآخرة، وبأنه وجود وسيلة من أجل تحقيق غاية كبرى هي المستقر في الحياة الآخرة، وبأنه مجرد اختبار يترتب عليه أن تواجه هذه النفس البشرية شدائد أو احباطات للذة، أي صراعا بين لذتين: لذة الشهوة ولذة العقل، بين الذات والموضوع، ولكي يمضي الاختبار بنجاح يتعين على الشخصية الموازنة بينهما، وعند احتدام الصراع يجب تأجيل اللذة الذاتية بطابعها الحسّي وإحلال اللذة العقلية والنفسية محلها، أو في الأقل ترجيح كفة العقلية على لذة الشهوة باعتبار أن هذه الحالة تمثل الحالة الطبيعية النموذجية للإنسان السوي، وما يخالفها يمثل الحالة

---

(١) ينظر: دراسات في علم النفس الإسلامي، د. محمود البستاني: ١: ١٧٩.

المرضية[١]، وهي التي تحتاج إلى علاج نفسي فعلا، وهكذا (تتناول جميع التعليمات الإسلامية ازدهار الفطرة وضبط الشهوة)[٢].

وهكذا يتضح أن (الأنا) و(الأنا العليا) ممثلتان في اللذة العقلية التي تنشدها النفس البشرية بدافع شعوري واع، وهما الأصل، في حين تمثل الـ(هي/ هو) شذوذا بمرض طارئ على خلاف ما تعتقده مدرسة التحليل النفسي، وبعد الحديث عن (اللاشعور) وتغليب الغريزة الجنسية تبقى قضية التأكيد على خبرات الطفولة، فإن نظرية (فرويد) تقوم على أساس تطويري متغير (بحيث ينجم تطور الشخصية عن اختبارات الطفولة الباكرة، ومن الصراع الذي تخوضه (الأنا) للتفاهم مع الهذا - الهو، والأنا الأعلى، والواقع)[٣].

ويضع (فرويد) خمسة مراحل لخبرات الطفولة، وكلها مفسرة عنده بالغريزة الجنسية على أنها المحرك الأوحد للسلوك، بدءا بالمرحلة الفموية (الرضاعة)، ثم الشرجية (التلذذ عند الإخراج عبر الشرج)، ثم القضيبية (التلذذ بالقضيب عند الذكور وبما يقابله عند الإناث)، ثم عقدة أوديب (التلذذ بفعل الأبوين)، وانتهاء بالمرحلة التناسلية (ممارسة اللذة الجنسية)[٤].

وتعتمد هذه النظرية في فهم النفس البشرية وسلوكها على رسوخ هذه الخبرات في تلك النفس، وتأثيرها في السلوك وتوجيهها له، في حين يقوم التصور الإسلامي على

---

(١) ينظر: م. ن.: ١: ١٧١ - ١٧٢.

(٢) دراسة في علم النفس الإسلامي، د. أبو القاسم الحسيني: ١٠٨.

(٣) مبادئ علم النفس: ٥٠٦.

(٤) ينظر: م. ن.

أن الإنسان يولد على الفطرة التي هي (الوعاء النظيف من دون أي تلوث مسبق)[1].

وإذ تفرق نظريات علم النفس بين السلوك والأخلاق من حيث الوراثة والبيئة أو المحيط، فإن (التصور الإسلامي لعنصرية (الوراثة) و(المحيط) يتمثل في أن النوع الإنساني يرث (أصلا نفسيا) عاما على مستوى الوراثة النقية، لا يتمايز من خلالها فرد عن آخر سواء أكان ذلك متصلا بالمهارات العقلية أو العمليات النفسية بعامة. بيد أن هناك وراثة طارئة تدرج ضمن شروط خاصة تتصل بالأفراد أو الرهوط، فيما تشكل (استثناء) للقاعدة العامة، وخارجا عن ذلك فإن (التنشئة) تتكفل بتحديد النمط الذي تختطه الشخصية في ضوء (الأصل النفسي) الذي ترثه (بالقوة)، ونعني به قدرتها على التمييز واختيار النمط الملائم من السلوك)[2].

وهذا يعني تكافؤ الفرصة لكل البشر في الاختيار والإرادة بما يحقق العدالة، باعتبار تغلب الوعي الإنساني - الذي يعني: (قدرة الفكر المسبقة على بلوغ مرتبة الإدراك، والكون بظواهره المادية والنفسية يمثل موضوع الإدراك)[3]-، على حالة (اللاوعي)، مادام الوعي هو السابق في وجوده، والحاضر ابتداء في قدرة الإدراك، وهذا لا يدع مجالا لهيمنة خبرات الطفولة على السلوك البشري وتوجيهها له، نعم إن الفكر الإسلامي لا ينكر وجود تأثيرات خاصة لمثل تلك الخبرات، ولكنها عرضية ثانوية أمام إرادة الإنسان الجوهرية الأساسية.

---

(١) فلسفة التحليل النفسي: ٥٨.

(٢) دراسات في علم النفس الإسلامي، د. محمود البستاني: ١: ٤٣.

(٣) فلسفة التحليل النفسي: ٤١.

إن تقسيم الإمام علي عليه السلام للنفس وتوضيحه لخصائصها يبين لنا المسار الذي يمكن اتباعه من أجل الوصول إلى أفضل النتائج في حركة الإنسان التكاملية نحو الغاية العظمى التي هي مصدر الكمالات ومنشؤها، فمعرفة أنماط النفس، وخصائصها وقواها يمكننا من معرفة كيفية التصرف معها في مجمل أحوالها التصرف السليم الذي يقودها نحو المنفعة، ودرء كل ضرر عنها، ونجد لأمير المؤمنين عليه السلام قولا آخر يروى، فيه الكثير مما يعيننا على فهم النفس والتعامل معها، وهو قوله عليه السلام: **«العلم رائد والعدل سائق والنفس حرون»**[١].

ففي هذا القول نجد أن النفس من عادتها الامتناع عن القياد، ولكن العلم يمكن أن يكون كشافا للسبيل أمامها، فيقنعها بما فيه نفعها، ويثنيها عما فيه ضررها، وأما ما يسوقها وفقا لما يقدمه العلم من أدلة على الحال، فهو العدل، بمعنى أن الرفق بالنفس في بيئة عادلة يجعلها قابلة لان تساق نحو أفق الدليل العلمي.

وعلى هذا الأساس فإن النفس من دون العدالة ستكون غائبة تماما وإن حضر الجسد!! إن النفس التي تتعرض لظلم صاحبها، بوصف ظلم الإنسان لنفسه يعد أشد أنواع الظلم قسوة، هي نفس مريضة لا يمكن لها أن تحضر عند الإمام عليه السلام تلبية لقيامه، وحين نحاول الكشف عن أمراض هذه النفس التي تحول بينها وبين صحتها، ومن ثم تمنعها عن الحضور مع الجسد عند الإمام عليه السلام، نجد أن أمير المؤمنين عليه السلام قد أجمل هذه الأمراض في اثنين هما: الكفر والنفاق، في حين أن الحالة السوية للنفس هي الإيمان، فأما الكفر فهو بيّن بمجاهرة أصحابه، وأما النفاق فقد ورد قوله عليه السلام في أهل النفاق: «أوصيكم عباد لله بتقوى الله، وأحذركم أهل النفاق،

---

(١) المجازات النبوية، الشريف الرضي، تحقيق: طه محمد زويني، قم، د.ت.: ٢٠٤.

فإنهم الضالون المضلون، والزالون المزلون، يتلونون ألواناً، ويفتنون افتناناً، ويعمدونكم بكل عمادٍ، ويرصدونكم بكل مرصادٍ، قلوبهم دويةٌ، وصفاحهم نقيةٌ؛ يمشون الخفاء، ويدبون الضراء، وصفهم دواءٌ، وقولهم شفاءٌ، وفعلهم الداء العياء، حسدة الرخاء، ومؤكدو البلاء، ومقنطو الرجاء؛ لهم بكل طريق صريعٌ، وإلى كل قلب شفيعٌ، ولكل شجوٍ دموعٌ، يتقارضون الثناء، ويتراقبون الجزاء، إن سألوا ألحفوا، وإن عذلوا كشفوا، وإن حكموا اسرفوا؛ قد أعدوا لكل حق باطلاً، ولكل قائم مائلاً، ولكل حي قاتلاً، ولكل باب مفتاحاً، ولكل ليلٍ مصباحاً، يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم، وينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشبهون، ويصفون فيموهون؛ قد هونوا الطريق، وأضلعوا المضيق، فهم لمة الشيطان، وحمة النيران: ﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾[1].

ومن الجدير بالذكر أن النفاق سمي كذلك مأخوذا (من النافقاء، وهو بيت اليربوع، له بابان يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر، وكذلك الذي يظهر دينا ويبطن غيره)[2]، وفي هذه المقالة كفاية في وصف المنافقين وتشخيصهم لمن يعتبر أو كان من أولي الألباب.

ولكي نخلص إلى قيمة هذا المبحث وغايته، ينبغي أن نحدد ولو حلا واحدا يمكن من خلاله العبور إلى ضفة النجاة بالحضور الفاعل، فبقدر تعلق الحضور الفاعل بالنفس، يمكن أن نرسم لهذه النفس الاتجاه الآتي لتسير على وفقه:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٠: ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) م. ن.: ٣٣٩.

يمكن أن نسمي هذا الاتجاه: (نَهيُ النفس عن الهوى)، فهواها يدفع بالإنسان إلى الزيادة الـمُفرطة في النمو من جهة والنقصان المفرِّط في جهة أخرى، والهوى أيضا يحمل النفس على مركبي الشهوة والغضب حملا مُفْرطاً، أو يقعد بهما عن الحركة الواجبة قعودا مُفَرّطاً، والإسلام دين اعتدال فلا افراطَ ولا تفريطَ، كما أن الهوى يحيد بالإنسان عن جادة النزاهة، ويسقطه من ضبط الحكمة واتزانها، ويوقع في نفسه عدم الرضا، ويقعد به عن التسليم، وبذلك يحصل الطغيان من الإنسان، فهو آثر أن يتخذ من الحياة الدنيا مجالا لحركته، وموضعا لتحصيل جهده، وإطارا عاما لنيل جزاء عمله، مكتفيا بذلك عما أعده الله له من الجزاء الجزيل والثناء الجميل في الآخرة، ومع الفارق الكبير بين متعة صغيرة زائلة في هذه الحياة الدنيا، ومتعة ما أعده الله سبحانه من جوائز دائمة في الحياة الآخرة، فلا مسوغ لهذا الاختيار الفاشل سوى كفران النعمة والطغيان والعصيان.

وهكذا فإن نَهْيَ النفس عن الهوى سيخرج أجمل خصالها، فتكون الزيادة والنقصان في سبيل الله سبحانه، ولا شهوة أو غضب إلا بما يرضي الله سبحانه، وتتحقق النزاهة وتتحصّل الحكمة، ويحصل الرضا ويقع التسليم، فتكون نتيجة ذلك أن الإنسان يعيش سعادته الحقيقية التي تصح تسميتها فعلا بالجنة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1].

وهنا نكتة لطيفة أحب الإشارة إليها: فالنهي يجري من الإنسان على نفسه،

(١) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ـ٤١.

ينهاها عن الهوى، ولا يجري من الإنسان على الهوى ينهاه عن النفس، بمعنى أن الهوى لابد من جريانه على النفس لأنه جزء من الاختبار الذي رُسم للإنسان، فلا مناص من وقوع الهوى في القلب، ولكن الطريق إلى تحاشيه يمر من نهي النفس عن قبولها للهوى، بل نهيها عنه جملة وتفصيلا، حتى إذا مرت به - ولابد لها من ذلك - مرت غير آبهة ولا راغبة، تجدُّ في سيرها للحضور بين يدي الإمام عليه السلام، الذي هو في حقيقته الحضور بين يدي أمر الله عز وجل طاعةً قربةً إليه.

وبنَهي النفس عن الهوى يتحقق الرضا ويتم التسليم، ويكون الحضور من جهة النفس تاما، النفس التي هي أخطر ما يعترض عملية الحضور الفاعل للأسباب التي مر ذكرها، ولتشعب الابتلاءات المصاحبة لها، وتعقد ملابسات التعامل معها، لطبيعتها المركبة، ودواخلها المتشعبة، وأنماطها المتعددة وخصائصها المتنوعة، وبذلك يحضر الإنسان بجسده، وإذ تكون روحه تائقة إلى أمر ربها، فإن نفسه مطمئنة راضية مسلّمة إلى الله أمرها طائعة غير مرغمة، ولا معترضة، مستقبلة غير مستدبرة ولا نافرة، وبذلك يأمن الإنسان من شرورها وبأس اعتراضها، وما قد تثيره من مشاكل ومشاكسات تمنع هذا الإنسان من التوفيق إلى رضا الله سبحانه بالحضور بين يدي إمام الزمان مفترض الطاعة سلام الله عليه حضورا فاعلا، وطوبى لمن حضر عنده ونصر.

المبحث الثالث

الحضور العقلي

إن الفكر الإسلامي قائم على تعاضد علمي متين بين (الوحي) بوصفه (حجة خارجية) على الإنسان، ومصدرا حقيقيا قطعيا مهما للمعرفة، وبين (العقل) بوصفه (حجة داخلية) للإنسان، ومصدرا مهما لضبط المعرفة للتمييز بينها وبين ما يشتبه بها من أمور فاسدة عقلا، لا يصلح العمل بها، لاشتباه الأمور على الإنسان، الأمر الذي يتطلب منه ميزا بين صحيحها وفاسدها، وليدله على أدلتها الصحيحة فيتبعها، ويكشف له زيف الأدلة الباطلة فينبذها، فالعقل إذن يستنقذ الإنسان من الحيرة، ويدله على السبيل السليم إلى الحقيقة.

وفي ذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما استودع الله امرأً عقلا إلا ليستنقذه به يوما ما**»[1].

ونذكر له قولا آخر سلام الله عليه نجد فيه مشكاة نور توضح لنا ما على العقل من مَهَمّة لابد من إتيانه بها ليكون حضوره فاعلا، يقول أمير المؤمنين عليه السلام وهو

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: مجلد١٠: ج ٢٠: ٢٧٢.

يصف عارفا بالله تقيا: «**قد أحيا عقله، وأمات نفسه**»[1].

فبعد إماتة النفس لا بمعنى الانتحار!، بل بالمعنى الاعتباري وهو نهي النفس عن الهوى كما أسلفنا، لابد لهذا الإنسان من أن يُحيي عقله، فكيف يكون إحياء العقل يا ترى؟ طبعا بجعله يمارس فعالياته الحياتية التي إذا جاء بها يمكن أن نقول أنه حي، والتي تظهر آثار وظيفته، ولعل أبرز مزيتين للعقل بهما يظهر وجوده للحياة هما: الضبط والاعتدال، فلابد لمسير الإنسان في رحلته نحو الكمال المطلق، متكاملا في سبيله إليه، من الضبط الذي يشمل التدقيق والتحقيق، والفرز والتوثيق، والميز بين المتشابهات، والورع عن الشبهات، والالتزام بالأوامر عملا والنواهي تركا، كما لابد للعقل من صنع الاعتدال الذي يشمل الحفظ من الافراط والتفريط، ولزوم غنى النفس وتحاشي فقرها، واعتماد حسن التدبير بما لا ينافي مراضي الله سبحانه، وبالتأكيد فإنه لابد من توفيق الله للإنسان في سعيه ليحظى بعقل حي، الأمر الذي جعل التوكل على الله ضرورة في كل عمل.

ونجد من أقوال أمير المؤمنين عليه السلام فيما يناسب هذا المقام: «**إن أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق**»[2]، ويقول عليه السلام: «**لا يرى الجاهل إلا مُفْرِطا أو مُفَرِّطا**»[3]، ويقول في موضع آخر سلام الله عليه: «**إذا تم العقل نقص الكلام**»[4].

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: مجلد 6: ج 11: 88.

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: مجلد 9: ج 18: 290.

(3) م.ن.: 323.

(4) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.: 324.

وهنا توجد نكتة لطيفة لا بأس من التوقف عندها، وهي أن صفة تمام العقل بمعنى وصوله إلى أقصى درجات الحيوية والفاعلية، هي قلة الكلام، لأن الكلام إنما يصدر للبث أو الاستقبال، فمن عَقِلَ لم يحتج إلى الاستقبال للمعلومات والبيانات إلا قليلا، لأنه إنما يدرك أغلب ما يحتاج إلى إدراكه بالتفكر والتأمل والنظر العقلي، فيقل كلامه المتضمن طلب المعرفة، ومن تم عقله وسأله أحد عن شيء، تجد أن كلامه من خير الكلام، فهو مما قلّ ودلّ، لأن عقله التام يرشده إلى نمط كلام قليل، ولكنه مناسب للمخاطب وصفته ومستواه الذهني، ومناسب لمقتضى الحال بشكل عام أيضا، وهو مع ذلك دال دلالة كافية على ما يريده السائل، ففي الحالين إذن البث والاستقبال يقل كلام العاقل تام العقل.

وفي موضع آخر يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا مال أعود من العقل... ولا عقل كالتدبير**»[1].

فهو يضع العقل موضع المال الأكثر عودا بالنفع، ويجعل أبرز ما يميز العقل التدبير، لأن العقل يسمح بحرية الحركة في مسير الإنسان وإن كان المسار ضيقا، وذلك بحسن التدبير.

ومن الحسن ذكره في هذا المقام أننا عند التفكر في حديث الإمام الباقر عليه السلام الذي يصف فيه أهل البيت عليهم السلام وخطر مكانتهم عند الله، نجد ميدانا رحبا للعقل، وذلك قوله سلام الله عليه: «**الراغب عنهم مارق، والمقصر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق**»[2].

إذ نجد أن بني البشر لابد لهم من إحدى ثلاث لا مزيد عليهن، فإما أن يكون

---

(١) م.ن.: ٣٥٣.

(٢) بحار الأنوار: ٢٣: ٢٤٦.

أحدهم راغبا عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام واتخذ لنفسه سبيلا آخر فهو مارق من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وإما أن يكون مقصرا عنهم في سيره متخلفا عن ركبهم فهو زاهق وهالك لا محالة، وإما أن يكون لازما لهم في كل قول وفعل وإقرار وحُكم صدر عنهم صلوات الله وسلامه عليهم وبذلك يكون لاحقا لهم في سبيل النجاة والفوز.

وهذا التقسيم الثلاثي يذكرنا بموضع آخر ورد فيه وهو سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[1].

فالذين أنعم الله عليهم هم اللاحقون الفائزون، والذين غضب الله عليهم هم المارقون، والذين ضلوا السبيل أولئك هم المقصرون عن اللحاق بأهل البيت سلام الله عليهم أجمعين، وهنا أحببت أن أوضح موضع ميدان العقل في الحركة والنشاط والحياة، وهو تقصّي آثار أهل البيت عليهم السلام ومعرفة سبيلهم، وكيفية المحافظة على صفة اللحاق بهم، والميز بين سبيلهم وبقية السبل، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

ولأن لسبيلهم وهو الصراط المستقيم تفاصيل دقيقة كثيرة، فلابد من إعمال العقل في التعرف عليها والاهتداء بها، ولكن بعد الاطمئنان لا يمكن للإنسان سوى التسليم، وقد سبق أن بيّنا كيف أن التفكير واستعمال العقل لابد أن يكون في ساحة

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

آيات الله، غير منفصل عن الوحي لئلا يقع الإنسان في فخ التقدير، أي أن تكون أحكامه الظنية مسوغا لوضعه الأمور في مواضع يظن أنها مواضعها، وهي ليست كذلك، فهو حين يقدر الأمور بنفسه معتمدا على ظنونه كأنه ينتحل صفة المقدّر من الله العزيز الجليل، وبالطبع فإن ذلك يؤدي به إلى الخسران، ففي الدنيا يحبط عمله ولا يجني منه سوى الخيبة، وفي الآخرة يصلى سقر التي لا تبقي ولا تذر!! مثلما يؤكّد قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾[(١)].

وهنا تكمن بحق أهمية التلازم بين العقل والوحي، بين نور الهداية وآلة السير في قصد واعتدال، فهناك مضمار للعقل إن خرج منه ضلّ، وهو مضمار الإدراك مستهديا بنور الوحي والشريعة، وكم من عقل غاب عن نور الشريعة والوحي فضل عن الحق واهتدى إلى فعل الباطل القبيح، وإلا فأي خير يمكن أن يرتجى من صنع المتفجرات وآلات القتل والدمار؟ وأي جمال يمكن أن يوجد في فكر العبث واللهو والمجون وإنكار الفطرة والتهتك؟ أم أي حق في صناعة آلات تعذيب الإنسان وسجنه وممارسة أصناف القمع والإيذاء بحقه؟! إنها جميعا نتائج لتقدير الإنسان الذي فكر بعيدا عن هدى الوحي ونور الشريعة.

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ١٦ـ٢٩.

ومما يحسن ذكره أيضا أن للعقل فضلاً كبيراً في الأجر الذي يحصل عليه العابد من عبادته، لأن العابد إنما يعبد الله بما يعي من حق معبوده، ويعقل من عظمة فعل العبادة، ويروى في هذا الصدد أنه قيل (لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: فلان من عبادته ودينه وفضله كذا وكذا قال: فقال عليه السلام: «**كيف عقله؟**»، فقلت: لا أدري، فقال عليه السلام: «**إن الثواب على قدر العقل، إن رجلا من بني إسرائيل كان يعبد الله عزّ وجل في جزيرة من جزائر البحر خضراء نضرة كثيرة الشجر طاهرة الماء، وإن ملكا من الملائكة مر به، فقال: يا رب أرني ثواب عبدك هذا، فأراه الله عزّ وجل ذلك، فاستقلّه المَلَك، فأوحى الله عزّ وجل إليه أن اصحبه فأتاه المَلَك في صورة إنسيّ، فقال له من أنت؟ قال أنا رجل عابد بلغنا مكانك وعبادتك بهذا المكان فجئت لاعبد معك فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له المَلَك: إن مكانك لنزهة، قال: ليت لربنا بهيمة، فلو كان لربنا حمار لرعيناه في هذا الموضع فإنّ هذا الحشيش يضيع، فقال له الملك: وما لربك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش! فأوحى الله عزّ وجل إلى المَلَك إنما اثيبه على قدر عقله**»[1].

وروي (عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**هبط جبرئيل على آدم عليه السلام فقال: يا آدم إني امرت أن اخيرك واحدة من ثلاث، فاختر واحدة ودع اثنتين فقال له آدم: وما الثلاث يا جبرئيل؟ فقال: العقل، والحياء، والدين، قال آدم فإني قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه فقالا له: يا جبرئيل إنا**

---

(١) بحار الأنوار: ١: ٨٤.

امرنا أن نكون مع العقل حيثما كان، قال: فشأنكما، وعرج»)[١].

وهذا يدلنا على أن العقل يدل صاحبه على الحياء والدين، وبالعقل يستدل عليهما، فهو الملزم صاحبه بهما.

وفي ذلك ورد في معجم لسان العرب لابن منظور قوله: (العَقْلُ: الحِجْرُ والنُهَى ضد الحمق...، ابن الانباري: رجلٌ عاقِلٌ وهو الجامع لأمره ورأيه مأخوذ من عَقَلتُ البعيرَ إذا جمعتَ قوائمه، وقيل: العاقِلُ الذي يحبسُ نفسَه ويَرُدُّها عن هواها، أُخِذَ من قولهم قد اعتُقِلَ لسانُهُ إذا حُبِسَ ومُنِعَ الكلامَ)[٢].

فالعقل الذي هو جمع قوائم الدابة ومنعها من الحركة بما يشبه القيد، هو كذلك يجعل نفس الإنسان في قيد لا تقوى معه على الحركة خارج المسموح لها من مساحة، لذلك فالعقل يمنع الإنسان من مغادرة الحياء إلى الفجور، ويمنعه من مغادرة الدين والشريعة إلى التخبط والزلل واتباع الهوى.

وروي أنه (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«ما قسم الله للعباد شيئا أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله رسولا ولا نبيا حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من عقول جميع أمته، وما يضمر النبي في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدى العاقل فرائض الله حتى عقل منه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، إن العقلاء هم اولوا الالباب الذين قال**

---

(١) بحار الأنوار: ١: ٨٦.

(٢) لسان العرب، ابن منظور: مادة (عقل).

الله عزّ وجلّ: ﴿إنما يتذكر اولوا الالباب﴾»[1].

وهذا الحديث يفسر لنا الكثير من الأحاديث المتعلقة بفضل عبادة أمير المؤمنين علي عليه السلام، ومنها القول المشهور للنبي صلوات ربي وسلامه عليه: **«إن ضربة علي يوم الخندق خير من عبادة الثقلين»**.

وقول الإمام السجاد علي بن الحسين سلام الله عليه حين نظر في صحيفة أعمال الإمام علي عليه السلام اليومية وهي مختصة بعبادته سلام الله عليه: **«أين نحن من عبادة علي!»**.

فوصيّ الرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه لهذه الأمة هو أعقلهم من بعده، وأوعاهم، لذلك فأجر عبادته على قدر عقله، وفعله لا يشبهه فعل أحد ممن هم دونه في العقل، كما لا تعدل أجرَ فعله أجورُ أفعالهم.

وهناك موارد كثيرة أشّر فيها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله هذا المعنى في عليّ عليه السلام خاصة لم يكن موضع واقعة الخندق أولها ولم يكن آخرها، وسلام عليه وهو القائل: **«ليس الرؤية مع الابصار، وقد تكذب العيون أهلها، ولا يغش العقل من انتصحه»**[2].

فرؤية الحال بالعقل حقيقة، على خلاف الرؤية بالعين التي قد تغش صاحبها، لحاجز يحجزها، أو لزيف يعتورها، أو خداع ينطلي عليها، في حين أن

---

(١) م. ن.: ١: ٩١ ـ ٩٢.

(٢) م.ن.: ١: ٩٥.

من شأن العقل التدقيق والتحقيق والتدبر والتفكر وتقليب الأمور والوعي بها، فهو أنصح للمرء من غيره.

ولذا فإن حضور العقل بين يدي الإمام عليه السلام ليتم الحضور كاملا، يقتضي جملة أمور أهمها:

أ: ملازمة الوحي والتسليم له

والوحي الإلهي كما هو معروف مبلّغ للإنسان بالرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه، ومن بعده بوساطة الثقلين الذين تركهما رسول رب العالمين صلوات الله عليه وآله وسلامه، وهما الكتاب والعترة الطاهرة، وقد ورد في الحديث عنهم: «**السابق لهم مارق والمتأخر عنهم زاهق واللازم لهم لاحق**»، ومعنى الملازمة التسليم لقولهم، فقولهم نور كما ورد عنهم صلوات ربي وسلامه عليهم.

ب: التعقل والتدبر والتفكر في آيات الله سبحانه

فالتعقل يكون في آيات الله التكوينية، التي يمكن للعقل فهمها واستيعاب مضامينها، والتي أشار القرآن الكريم إلى عدد من مضامينها مثل المحاججة والنصح وشرح الأسرار والإعلام بما هو مجهول، من الأمور المتعلقة بتكوين الخلق، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً

مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٣).

والتدبر يكون في الآيات القرآنية، لأن القرآن حمل إلينا كل ما نحتاجه في تدبير أمورنا في مهمتنا الكبيرة التي هي مشروع الاستخلاف في الأرض، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾(٤).

والتدبر يكون بالقلب لأنه أوعى لحمولة القرآن المعرفية وأولى بها لأنه مستودعها ومكان رعايتها، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾(٥).

وأما التفكر ففي الآيات والسنن الكونية الموجبة لتسبيح الخالق لعظمة خلقه وبديع صنعه، وتنزيهه عن الشريك، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(٦). وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٥) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١). وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

فنجد أن آيات التفكر هي لتسبيح الله وتنزيهه عن الشريك والاعتراف بقدرته دون الإحاطة بتلك الآيات أو إدراكها كما هو الحال مع آيات التعقل، وقد وردت تلك الآيات جميعها نشرا وطيا في صفحات الثقلين معا (الكتاب المبين والعترة الطاهرة عليهم السلام)، مما يوجب علينا تجاهها التفكر والتدارس والتدبّر وإعمال العقل، لمعرفة ما يجب فعله وقوله والاعتقاد به.

ج: التحقق من الحق والميز بينه وبين الباطل الذي قد يلتبس به ويتشبه

فإن من أصعب العقبات أمام سير المرء للحضور بين يدي إمام زمانه هي موارد الشبهات، وما سميت الشبهة كذلك إلا لاشتباهها بالحق والتباسها معه كما يشير أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا يعني أن الميز بين الحق والشبهة التي هي من الباطل أمر ليس باليسير، ويحتاج إلى قدرات معينة ولابد معها من التوفيق الإلهي.

قال تعالى حكاية عن المؤمنين الذين أورثهم الجنة: ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣.

هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

د: حسن التدبير في كيفية ملازمة الوحي حين تضيق المسالك

فقد يمر الإنسان بمسلك ضيّق بين رضا الله سبحانه المبيّن بالوحي عبر الثقلين، وبين ضغط الباطل وسلطانه الشديد بأساليبه القمعية المعروفة، وحينها لابد للعقل من التدبير لحسن التصرف بما يحقق حفظ العقيدة الصالحة وحفظ النفس معا.

ولعل في وضع الإسلام لمبدأ التقيّة ما يغني لتوضيح المطلب، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[٢].

مراقبة الإنسان بكل طاقاته العقلية لمسيره في الحياة بكل تفاصيله، لضبط هذا السير وفقا لما يرضي الله ورسوله الكريم وأوصياءه البررة الأطهار عليهم جميعا الصلاة والسلام، وهذا بالتأكيد يأتي بعد التعلم والتدبر لمعرفة أحكام الله سبحانه والتوصل إلى مواضع رضاه بالمعرفة، ثم ضبط العمل والسلوك ومجمل السير وفقا لمقتضياتها، وقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: **«فمن لم يتق الله ولم يراقبه فليس منا ولسنا منه»**[٣].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٣) عيون أخبار الرضا: ١: ٢٦٠.

وهكذا يمكن التوصل إلى الحضور العقلي بين يدي إمامنا صاحب العصر والزمان مطيعين لله ورسوله، وليكون هذا الحضور مكملا لأنماطه الأخرى، مستوجبا حق الظهور الشريف الذي ننشده ونسأل الله تعجيله وتيسيره إنه سميع مجيب.

المبحث الرابع: الحضور القلبي

المرحلة الأولى

المرحلة الثانية

المرحلة الثالثة

القلب.. وما أدراك ما القلب؟ مضغة في الإنسان إن صلحت صلح ما سواها كما ورد في الحديث، ويبدو لي الحديث عن القلب شائقا، فهو موضع الرضا والتسليم، ومكمن الإيمان والنيات، وهو عرش الله وموضع نوره، فلأبتدئ الكلام عن القلب بذكر حديث شريف المنزلة جليل القدر عظيم الحمولة، كيف لا وقائله أشرف الخلق أجمعين عليه وآله من الله الصلاة والتسليم.

فقد أورد الطبرسي في الاحتجاج من مساءلة عدد من المنافقين للرسول الكريم صلى الله عليه وآله: (قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن علي عليه السلام أهو أفضل أم ملائكة الله المقربون؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وهل شرفت الملائكة إلا بحبها لمحمد وعلي وقبولها لولايتهما، وأنه لا أحد من محبي علي قد نظف قلبه من قذر الغش والدغل ونجاسات الذنوب إلا كان أطهر وأفضل من الملائكة، وهل أمر الله الملائكة بالسجود لآدم إلا لما كانوا قد وضعوه في نفوسهم أنه لا يصير في الدنيا خلق بعدهم إذا رفعوا عنها إلا وهم- يعنون أنفسهم - أفضل منه في الدين فضلا وأعلم بالله وبدينه علما.**

فأراد الله أن يعرفهم أنهم قد أخطأوا في ظنونهم واعتقاداتهم، فخلق آدم وعلمه الأسماء كلها ثم عرضها عليهم فعجزوا عن معرفتها، فأمر آدم عليه السلام أن ينبئهم بها وعرفهم فضله في العلم عليهم، ثم أخرج من صلب آدم ذريته منهم الأنبياء والرسل والخيار من عباد الله أفضلهم محمد ثم آل محمد والخيار الفاضلين منهم أصحاب محمد وخيار أمة محمد وعرف الملائكة بذلك أنهم أفضل من الملائكة إذا احتملوا ما حملوه من الأثقال وقاسوا ماهم فيه بعرض يعرض من أعوان الشياطين ومجاهدة النفوس واحتمال أذى ثقل العيال والاجتهاد في طلب الحلال ومعاناة مخاطرة الخوف من الأعداء من لصوص مخوفين ومن سلاطين جورة قاهرين وصعوبة في المسالك في المضائق والمخاوف والأجراع، والجبال والتلاع، لتحصيل أقوات الأنفس والعيال من الطيب الحلال، فعرفهم الله عز وجل أن خيار المؤمنين يحتملون هذه البلايا ويتخلصون منها ويحاربون الشياطين ويهزمونهم ويجاهدون أنفسهم بدفعها عن شهواتها ويغلبونها مع ما ركب فيهم من شهوات الفحولة وحب اللباس والطعام والعز والرئاسة والفخر والخيلاء، ومقاساة العناء والبلاء من إبليس وعفاريته وخواطرهم وإغوائهم واستهوائهم ودفع ما يكابدونه من أليم الصبر على سماعهم الطعن من أعداء الله وسماع الملاهي والشتم لأولياء الله، ومع ما يقاسونه في أسفارهم لطلب أقواتهم والهرب من أعداء دينهم، أو الطلب لمن يأملون معاملته من مخالفيهم في دينهم.

قال الله عز وجل: يا ملائكتي وأنتم من جميع ذلك بمعزل لا شهوات الفحولة تزعجكم ولا شهوة الطعام تحفزكم، ولا خوف من أعداء دينكم، ودنياكم تنحب في قلوبكم ولا لإبليس في ملكوت سماواتي وأرضي شغل على إغواء ملائكتي الذين قد

عصمتهم منهم، يا ملائكتي فمن أطاعني منهم وسلم دينه من هذه الآفات والنكبات فقد احتمل في جنب محبتي ما لم تحتملوا واكتسب من القربات إلى ما لم تكتسبوا. فلما عرف الله ملائكته فضل خيار أمة محمد وشيعة علي وخلفائه عليهم السلام واحتمالهم في جنب محبة ربهم ما لا تحتمله الملائكة أبان بني آدم الخيار المتقين بالفضل عليهم».

ثم قال: **«فلذلك فاسجدوا لآدم لما كان مشتملا على أنوار هذه الخلائق الأفضلين، ولم يكن سجودهم لآدم إنما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله عز وجل، وكان بذلك معظما له مبجلا، ولا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد من دون الله ويخضع له خضوعه لله ويعظم بالسجود له كتعظيمه لله»**[(١)].

وفي هذا الحديث فوائد جليلة، لعل منها أن محمدا وآله صلوات الله عليهم أجمعين، كانوا أنوارا تحف بالعرش، الذي هو قبلة أهل السماء كما أن الكعبة الشريفة قبلة أهل الأرض، فلما وضع سبحانه أنوار عرشه في صلب آدم عليه السلام، تحولت القبلة نحو آدم، فكان سجود الملائكة لله عز وجل، ولكن قبلة السجود هي آدم بعد أن كانت العرش، لعلّة تحول الأنوار من العرش إلى صلب آدم، وسبحان الله الذي جعل تحويل القبلة التي في السماء لأهل السماء ببركة ظهور أنوار محمد وآله عليهم الصلاة والسلام، وجعل تحويل القبلة التي في الأرض لأهل الأرض أيضا ببركة ظهور أمر محمد وأهل بيته صلى الله عليهم أجمعين، وحين عرّف الله آدم أسماءهم وعظيم منزلتهم، ودعاه ليعلم الملائكة بذلك بعد أن عجزوا عنه، دلّ على ارتفاع شأن آدم على شأن الملائكة، فقد صار هو واسطة الفيض بين الله وبينهم، ومصدر المعرفة لهم من الله سبحانه، وما ذلك إلا بفضل محمد وآل محمد صلوات الله وسلامه عليهم، وسيد أهل

---

(١) الاحتجاج: ١: ٦٣ ـ ٦٥.

بيت محمد صلى الله عليهم من بعده هو علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي يقرر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله (أنه لا أحد من محبي علي قد نظف قلبه من قذر الغش والدغل ونجاسات الذنوب إلا كان أطهر وأفضل من الملائكة).

فعلى محبي الإمام علي عليه السلام أن يشتغلوا بتنظيف قلوبهم من قذر الغش والدغل ونجاسات الذنوب، وهذا هو التطهير بعينه، ليتمكنوا من الحضور بين يدي إمام زمانهم، الذي هو في حقيقته حضور بين يدي بارئهم بأفضل حال، لأن إمام الزمان عليه السلام هو باب الله الذي منه يؤتى، وهو قبلته التي يُتعَبّد بالاتجاه نحوها، وضبط بوصلة الأعمال باتجاهها.

وورد في بحار الأنوار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قوله: «**وأقبل على صلاتك بجميع الجوارح والقلب، إجلالا لله تبارك وتعالى، ولاتكن من الغافلين، فان الله جل جلاله يقبل على المصلي بقدر إقباله على الصلاة وإنما يحسب له منها بقدر ما يقبل عليه**»[1].

وفي هذا الحديث نجد أن الحضور لابد له من إقبال القلب والجوارح، وبقدر الإقبال الذي به يتحقق الحضور تكون العوائد المرجوّة بإقبال الله عزّ وجلّ، وفي ذلك الخير كله كما لا يخفى، وورد فيه أيضا أن حضور القلب روح العبادة[2]، فالعبادة هي التسليم والطاعة مطلقا لله سبحانه، وليس الغرض منها تلبية لحاجة الله سبحانه وتعالى عن الحاجة علوا كبيرا وهو الغني عن عباده، وإن روح ذلك التسليم وتلك الطاعة

---

(١) بحار الأنوار: ٨١: ٢٠٨.

(٢) ينظر: م.ن.: ٨١: ٢٧٣.

يكمن في حضور القلب الذي هو موضع القرب من الله سبحانه وتحقق العبادة.

وقد أورد العلامة المجلسي أيضا قوله (وقال الوالد قدس سره: لما كان صلاة المؤمن الكامل غالبا مع حضور القلب، فيكون قلبه بمنزلة الامام، وحواسه الباطنة والظاهرة وقواه وجوارحه بمنزلة المقتدين كما قال صلى الله عليه وآله: **«لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»**)[١].

فخشوع القلب وحضوره مقترن به خشوع الجوارح وحضورها فإن غاب هو غابت هي، وقد ورد قول أمير المؤمنين عليه السلام يصف عارفا بالله تقيا: **«قد أحيا عقله، وأمات نفسه، حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة، بما استعمل قلبه وأرضى ربه»**[٢].

وفي هذا الحديث من الكنوز ما يعيي اللسان عن وصفه! فالعارف بالله المتقي له عقل حيّ يمكنه من التوصل إلى الحقيقة، وله نفس ميتة غير قادرة على الاعتراض والتخبط به بعيدا عن طريق الحق، وقد صار العظيم من نفسه دقيقا صغيرا لا قيمة له بعد أن كان يستعظم شأن نفسه به، وقد صار طبعه الغليظ لطيفا لما رأى من عظمة ربه وحقارة نفسه! فكانت مداومته على اتباع الحق وكثرة ما يصدر عنه من معروف سببا لتواصل العوائد الإلهية عليه بالنفع، وذلك أن كل عمل يرجى فيه رضا الله سبحانه يقع من المرء كالبرق الذي يلمع ليبين له الطريق، فإذا كثرت البروق اللامعة زاد الطريق بيانا ووضوحا مما كان أدعى للثبات عليه والالتزام بجادّته، وعدم الانحراف عنه، فسبيله

---

(١) م.ن.: ٨٥: ١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: مجلد ٦: ج ١١: ٨٨.

يمضي به من باب خير إلى باب خير آخر، وهكذا كل باب يدفعه إلى الآخر حتى يصل في نهاية المطاف بانتهاء عمره المقدر له إلى باب السلامة وهو النجاة والفوز في الآخرة، فحصل على الاطمئنان الحقيقي بما مكن ربه من قلبه، وجعل القلب موقع تواصل رحمة الله وتجلي أنواره، وحوزة الطمأنينة من سني مواهبه سبحانه، فقد حصّل ذلك العارف رضا الرب بما استعمل من حضور القلب.

ويبدو أن القلب السليم محتاج إلى الاستمرار في الحضور والحفاظ على تلك السلامة اللازمة لنجاته بالحضور، وأما القلب المريض فهو محتاج إلى التداوي بالقرآن الكريم الذي هو حبل الله المتين المتصل بين السماء والارض، به مباشرة لمن استطاع أو بثِقله وعِدله وهو الإمام المعصوم عليه السلام، إذ (أن القرآن إذا كشف نقاب العزة عن وجهه ورفع جلباب العظمة والكبرياء عن سره يشفي كل عليل داء الجهل ويروي كل غليل طلب الحياة والحقيقة ويداوي كل مريض القلب بعلل الأخلاق الذميمة وأسقام الجهالات المهلكة وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن القرآن هو الدواء وإن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه والقرآن هو حبل الله المتين النازل إلى هذا العالم... وفيه نجاة المقيدين بسلاسل التعلقات وأغلال الأثقال والأوزار من حب الأهل والولد والجاه والمال وشهوة البطن والفرج والذهب والفضة والخيل وطول الآمال»)[1].

وليس أقسى على القلب من النفس التي تشغله عن ذكر ربه بتعلقاتها الكثيرة بالدنيا وزينتها، فلابد للمرء من تطهير قلبه من حب الدنيا ليميت نفسه عن الاعتراض بينه وبين ربه، (فإذن النفس متى كانت مجلوة المرآة متطهرة القلب بقيت على ملكة

(١) الأسفار الأربعة، صدر الدين الشيرازي: ٧: ٤٤.

الاتصال واستعداد الاستشراق وقابلية الارتسام التي اكتسبتها)[١].

فكيف يمكن أن يتطهر القلب؟ قال تعالى شأنه وتبارك ذكره في محكم كتابه الكريم: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢].

فالقلب السليم شرط للفوز يوم القيامة، (وإنما خص القلب بالسلامة لأنه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد من حيث إن الفساد بالجارحة لا يكون إلا عن قصد بالقلب الفاسد، وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «هو القلب الذي سلم من حب الدنيا»)[٣].

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة ورأس العبادة حسن الظن بالله»[٤].

وهنا أجد من الضرورة بمكان أن أحاول بسط هذا الكلام بمزيد من التوضيح. حين يريد المرء تطهير قلبه ليكون سليما فإنه يحتاج إلى ثلاث مراحل ضرورية ومهمة.

---

(١) الأسفار الأربعة، صدر الدين الشيرازي: ٧: ٢٧٥.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ـ٨٩.

(٣) بحار الأنوار: ٦٧: ٢٤٠.

(٤) م.ن: ٥١: ٢٥٩.

المرحلة الأولى

مرحلة تطويق القلب وإحاطته بسور الحماية المانع، وسدّ المنافذ المؤدية إلى القلب على الخبائث من المفاسد والنجاسات فلا تصل إليه، ولكن علينا أولا أن نعرف ما هي المنافذ المؤدية إلى القلب والتي قد تنفذ منها الخبائث إليه؟ ويمكن إجمالها بما يأتي:

أ: الحواس الخمس الظاهرة

فكل حاسة تلتقط مدركات معينة، أو قد تلتقط مدركات حاسة أخرى كما هي الحال في تراسل الحواس[1].

ولذلك فإن مقدارا كبيرا من المعلومات ينقل إلى القلب بوساطة الحواس، وقد يكون بعض تلك المدركات من الخبائث التي توقع في القلب أثرها فتجعله نجسا فاسدا بمقدار ما علق به من تلك الخبائث، فمثلا لو نظرنا إلى أثر حاسة البصر في القلب فإن

---

(١) ينظر: نظرية تراسل الحواس، الأصول- الأنماط -الإجراء، الدكتور أمجد الفاضل، المركز العلمي العراقي، ط١، بغداد، ٢٠١٠م.

في كلام أمير المؤمنين عليه السلام كفاية إذ يقول: «القلبُ مصحفُ البصر»[١].

أي أن ما يدركه البصر فيعلق به يدوّن في القلب، فكأن القلب صحيفة أعمال البصر، وكذلك بقية الحواس، فما كان من مدركاتها طيبا دُوّنَ في القلب طيّبا، وما كان من مدركاتها نجساً حلّ بنجاسته مكتوبا في صحيفة القلب.

ورب سائل يسأل: ومن أين لنا أن نعرف الخبائث من الطيبات فيما تدركه الحواس؟ لاستحالة أن يمتنع المرء عن إدراك أي شيء فذلك معناه الموت، ولا يمكن تحقيقه مع الحياة، فنقول: إن الخبائث التي على المرء اجتناب التقاطها، ومنعها من الوصول إلى القلب هي الأمور المحرمة في شريعة محمد صلى الله عليه وآله، فإننا نجد أنه مما تلتقطه الحواس بعض الأمور المحرّم على تلك الحاسة التقاطه شرعا، مثل التقاط حاسة السمع للغناء، والبصر لعورة الشخص الأجنبي، واللمس لجسد امرأة محصنة، والذوق للشراب المسكر، والشم لعطر شخص أجنبي بقصد الانتشاء، فهذه الأمثلة - وغيرها الكثير طبعا - مما يحرم على الحواس الخمس المذكورة التقاطه، وحين تجري عملية الالتقاط لهذه المُحَسّات بتلك الحواس فإنها ستذهب إلى القلب، وستستقر عنده إذا لم يجر تطهيره منها، وهي نجاسات ومفاسد وخبائث بالضرورة.

وهنا لنتوقف قليلا عند كونها خبائث بالضرورة ودليل ذلك، فقد قال تعالى في محكم كتابه العزيز من سورة الأعراف: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ

(١) نهج البلاغة بشرح محمد عبده، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ٢٠٠٨م: ٥٠٧.

الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

وهنا نلفت من غزير معاني الآية الكريمة وعميق دلالاتها إلى خاصية مهمة من خواص سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، سيّد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم، وهي أنه جاء من عند الله سبحانه بشريعة تُحِلّ الطيبات، وتُحَرّمُ الخبائث، فبذلك يوجد انطباق وتلازم ضرورة بين الحلال والطيب، وبين الحرام والخبيث، فجوهر ما حلله الرسول الأكرم جوهر طيب، وجوهر ما حرمه خبيث بالضرورة، وأما سواه من الأنبياء فقد كانت شرائعهم تحرم من الأشياء ما قد يكون طيبا، فجاء رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فحلل لنا ذلك الطيب وأزال عنه المنع، فكانت الشريعة الأكثر سماحة في موارد الحلال، واتساعا في مساحة الحرية الشرعية، وضيقا في مواضع الحرام، هي شريعة محمد عليه وآله أفضل الصلاة والسلام، وهذا مما نفهمه من قوله تعالى في الآية المذكورة نفسها: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾(٢)، فمن تلك القيود والأثقال تحريم ما هو طيب والمنع من إتيانه، فنجد على سبيل المثال لا الحصر في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

لَصَادِقُونَ﴾[١]، أنه سبحانه قد حرّم على الذين هادوا ما هو حلال للذين اتبعوا النبي الأميّ صلوات ربي عليه وآله، فكانت الشرائع السابقة قد ضيقت موارد الحلال وجاءت شريعته المباركة لتوسع على من اتبعها، الاتساع الذي ليس بعده اتساع، لأنه وصل إلى الحدود الفاصلة بين الطيب والخبيث، فجعل الحلال كل ما كان جوهره طيبا، وجعل الحرام كل ما كان جوهره خبيثا، وحاشى لله سبحانه أن يحل لبني آدم الخبائث وقد كرّمهم من قبل.

وقد يذهب رأي ضعيف إلى أن (ال) التعريف في كلمتي (الطيبات) و(الخبائث) هي للعهد، فنقول: ضعف هذا الرأي ظاهر، فلم يسبق الحديث عن الطيبات والخبائث في سياق القول ليستعمل المتكلم (ال) العهدية، ولا معنى من ذكرها ابتداء، فثبت أنها (ال) الدالة على الجنس باطراد، فجنس الطيبات كله حلال، وجنس الخبائث كله حرام، وهذا هو موضع التلازم بالضرورة لذا اقتضى التوضيح. وعند ذلك فإن تلقي المحرمات بالحواس يعني تلقي الخبائث، وبما أن الحواس الخمس الظاهرة تؤدي إلى القلب، وتحدث به علوقا بدرجة معينة، فإنه لن يكون طاهرا، ولابد من تحصين تلك الحواس من الخبائث والنجاسات، بمنعها من مقاربة الحرام فضلا عن التقاطه.

ب: الحواس الباطنة وهي عديدة

ونقصد بها حواس الباطن التي من مهمتها أنها تدرك إحساسات من مثل: الجوع، والعطش، والخوف، والحب، والبغض، والغريزة، وأي إحساس آخر يوجب حركة أو ميلا باتجاه ما.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.

فالإنسان يشعر بمشاعر متعددة غالبا ما تدفعه للحركة باتجاهها، وهي مشاعر تنتج عنها حاجات معينة، ثم تدفع الإنسان نحو تلبيتها والتعبير عنها، فالجوع يحرك الإنسان نحو الشبع، والعطش نحو الارتواء، والخوف نحو الأمان، والحب نحو الوصال، والبغض نحو النفرة أو الانتقام، والغريزة نحو الاتصال الجنسي، وسوى ذلك من إحساسات تداهم القلب فتشغله بما تُنشئ له من حاجات، تُعطّل كل طاقاته سوى عن تلبيتها، فتجد الإنسان يوظف طاقاته المادية والمعنوية لتلبية تلك الحاجات، ولا يبقى عنده مجال من طاقة ليصرفه في عبادة الله سبحانه مع أنها علّة الخلق! لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

ونجد أن الإحساسات المختلفة بالحواس الباطنة يمكن إجمالها في صنفين اثنين: إحساسات الحب، وإحساسات البغض، فالمرء يحب الشيء بدرجة ما فيميل إليه بدرجة متناسبة، ويبغض الشيء بدرجة ما فيميل عنه بدرجة متناسبة، وهو في حركتيه الرئيستين هاتين يعتمد على مبدأ الحركة وفقا للرؤية الإسلامية: (حب المنفعة وبغض الضرر)، أو بتعبير آخر: (البحث عن اللذة والهروب من الألم)، فإذا ما عرف ما ينفعه فأحبه مال إليه وتحرك باتجاهه، وإذا ما عرف ما يضره مال عنه ونفر بعيدا منه، على أن تقترن معرفته بإرادة قوية تمنعه من الانجذاب نحو المفاسد المتزينة له المعترضة طريقه، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[1]، فالمعرفة لابد لها من الإرادة القوية لتتحقق الفائدة المرجوة منها، وليكون الإيمان كاملا بجزأيه: ما وقر في القلب، وما صدّقه العمل.

علما أن الحب والبغض يجب أن يكونا في الله سبحانه، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم لأحد صحابته كما ورد في الأثر (عن أبي محمد العسكري، عن آبائه عليهم السلام، **«قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض أصحابه ذات يوم: يا عبد الله! أحبب في الله وأبغض في الله، ووال في الله، وعاد في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجد رجل طعم الايمان - وإن كثرت صلاته وصيامه - حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادون، وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئا؛ فقال له: وكيف لي أن أعلم أني قد واليت وعاديت في الله عزّ وجل؟ ومن وليٌّ الله عزّ وجل حتى أواليه؟ ومن عدوه حتى أعاديه ؟. فأشار [له] رسول الله صلى الله عليه وآله إلى (علي) عليه السلام فقال: أترى هذا؟ فقال: بلى قال: ولي هذا ولي الله، فواله، وعدو هذا عدو الله، فعاده، قال: والِ وليَّ هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك، وعاد عدو هذا ولو أنه أبوك أو ولدك»**)[2].

وورد في الزيارة الجامعة الكبيرة المروية عن الإمام الهادي عليه السلام: **«ومن أحبكم فقد أحب الله ومن أبغضكم فقد أبغض الله»**[3].

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٢) بحار الأنوار: ٢٧ : ٥٤ - ٥.

(٣) رواها الصدوق في الفقيه والعيون.

فالحب يدفع إلى الموالاة، والبغض يدفع إلى المعاداة، وهذا شيء طبيعي، ولكن المهم أن نختار الخيار الصائب حين نوالي ونعادي.

ولرب سائل من أهل زماننا المخدوعين بزخرف النظريات الغربية يسأل: ولِمَ المعاداة؟ ألا يكفينا الحب؟ لِمَ لا نتصالح مع بعضنا مهما كانت آراؤنا ومعتقداتنا وطرقنا في الحياة؟ لنعيش بسلام على هذا الكوكب الأزرق الجميل؟ متى ننظر بجلاء إلى الأمم المحبة للسلام التي تعمر الأرض وتؤمن كرامة الإنسان؟ وقد استعرت هذه الأسئلة الرائجة هذه الأيام ومثلها الكثير مع الأسف، وهنا لابد لي من الإجابة على مثل هذا الطرح الذي لا أجده أقل خطرا من الفتنة:

من قال إن الدنيا دار قرار وخلود وعمار حتى يصطلح فيها أهل الخير مع أهل الشر؟ فكل الأدلة العلمية تؤكد الحقائق القرآنية القائلة بزوال الأرض وفناء من عليها في مصير إلى الله سبحانه، وأنه تعالى شأنه مجازٍ الأممَ التي كلفها بعبادته وطاعة ولاة أمره بحسب صنيعها، ولأن الخير والشر موجودان بين يدي الإنسان ليتحقق الاختبار الكبير، قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[١].

فكان لابد لأهل الخير من تزكية نفوسهم بموالاة أولياء الخير بأمر الله ليفلحوا، ومعاداة أولياء الشر، فلا يغطون نفوسهم بالمعاصي فيخيبوا، وهل يستطيع أهل الخير وأهل الشر التصالح لو كانوا يريدون؟! ... هيهات...، بل هي معركة مصيرية بين أتباع

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧-١٠.

الحق جلّ وعلا، وأتباع الشيطان، وقد شخَّص الباري سبحانه وتعالى عدوَّ الإنسان بأنه الشيطان، وأنَّ على الإنسان معاداته أي التعامل معه بوصفه العدو، بالمدافعة ضده، والتحوط منه والحذر، ومهاجمته عند التمكن، وقبل ذلك الاستعداد التام بكل قوة متاحة: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1]، فكيف نطيع عدونا المبين ونتصالح معه؟ وقال سبحانه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾[2]، وقال تعالى على لسان ابراهيم على نبينا وآله وعليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً﴾[3]، فكيف نقف مع من عصى الرحمن؟ وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[4]، إنه ليس عدوا هينا، بل هو يدعو أنصاره والمتحزبين له ليخلدوا معه في السعير! فلابد من الاستعداد لحربه مصداقا لقول الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[5].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٣) سورة مريم، الآية: ٤٤.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

فمن يصدق كلام الله سبحانه فعليه أن يعدَّ كل قوة ممكنة عنده لإيقاع الرهبة في العدوّ، وإنفاق كل ما يمكن إنفاقه في سبيل ذلك، وقد وعد الله سبحانه الذي لا يخلف الميعاد أنه يوفي للمنفقين في هذا السبيل كل ما أنفقوا وأنهم لا يظلمون، كما جعل مع العدو آخرين حذرنا منهم، وعلامتهم أننا لا نعلمهم بل الله يعلمهم، وأولئك هم المنافقون الذين يعيشون بيننا، ويدعون الوقوف في صفنا ضد العدو ولكنهم في الحقيقة ينصرون الشيطان، ويحاربون أنصار الحق وأتباع الخير.

فعلى المصدق بالله وكلماته أَن لا يلتفت إلى زخرف القول لدى أولئك الذين لا يؤمنون بالله الحق ولا بالآخرة، ويحاولون أن يضلوا الذين آمنوا بالكلام المعسول والشعارات البراقة، وأعظم ما يمكنهم فعله هو تحقيق رغبات النفس وملذاتها، من دون أن يقيموا وزنا للعدالة والحكمة والانصاف، وكيف يحقق العدالة من كان جاهلا بالحكم؟ وكيف يعلم بالحكم من لم يكن شاهدا؟ وكيف يشهد من كان غائبا؟

وثبت لدينا من خلال هذا البحث أن الحضور الجسدي لا يمثل الحضور الحقيقي، بل هو الغياب ولا غير، فالترف والراحة والدعة والتطور التقني كلها أشياء جميلة لو كانت مساعدة على الحضور، ولكنها حين تكون مساعدة على الغياب، الغياب عن الجميل مانح الجمال وسيده المطلق، الله النور سبحانه، فإنها حتما تكون قبيحة، وهذا مقياسنا في الجمال والقبح: القرب منه سبحانه جمال، والبعد عنه سبحانه قبح، وهؤلاء الذين يشيدون حضارة متقدمة على أسس من البعد عنه لا قيمة لما يشيدون، لأنهم استكبروا على الله إذ أنكروه، وفيهم قال سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ

وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[١]. وقال سبحانه: ﴿ وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[٢].

وأوضح دليل على أولئك غير المؤمنين والكاشف لهم هو بعدهم عن الصراط الذي هو علي بن أبي طالب الفاروق بين الحق والباطل عليه السلام، قال تعالى شأنه: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾[٣].

وتجد أنهم ضالون عن الحق يميلون إلى اتخاذ القبح مثلا لهم يقتدون به، ويتركون الجميل الذي يتصف بالعزة والحكمة، قال سبحانه: ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٥].

وقد شاهدتُ مثل هؤلاء وسمعتُ مقالتهم، فهم ينأون عن كل ذكر لله، ويطربون لذكر غيره، بل يستبشرون لكل ما بعد عنه سبحانه، وهل يبعد عن الجميل سوى القبيح؟! وأجدهم مصداقا واقعا لقول الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧٤.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٨.

(٥) سورة النحل، الآية: ٦٠.

قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾(١).

ولقد تزامن هذا التجسد الفعلي لهذه الآية الكريمة عند عدد غير قليل في بلادنا الإسلامية، من مدعي الثقافة، والفلسفة والفكر، وهم كالأنعام بل أضل سبيلا! لأنهم يتبعون المثل السيئ كما تشير الآية الكريمة.

ونلحظ أنه مع تحرك التنظيمات المسلحة التي تخدم مصالح الاستكبار العالمي بالذبح والقتل واغتصاب النساء وإتلاف الأموال في بلادنا، وكل ذلك تحت شعار الإسلام، من مثل عصابات ما يسمى بـ(داعش) ومن لف لفها وقدم لها السند والعون، تُصرف أيضا أموال طائلة للدفع باتجاه حركتين هما بقية الأثافي الثلاث، وأقصد حركة الانحلال الأخلاقي من جهة، وحركة الإلحاد من جهة أخرى، ويبدو أن هناك بعض التقارير المسربة من إدارات القرار الغربي الذي يمثل قمة الهرم في قوى الاستكبار العالمي تشير إلى ضرورة دعم هذه الحركات الثلاث (الذبح والترويع - الفساد الأخلاقي - الإلحاد)، لشعور تلك الإدارات وتلك القوى بضرورة تخريب المنطقة الإسلامية لأنها المعنية بقرب ظهور المصلح العالمي ومنقذ البشرية، مقيم دولة العدل الإلهي القائم بالحق الذي بشر به الأنبياء والرسل، وكان سيد المبشرين به الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وليس من مصلحتهم - وهم الموالون للشيطان - أن يتركوا أهل الحق والخير يقيموا دولة العدل الإلهي.

فلابد إذن من أن ينقسم البشر إلى ثلاثة أصناف كما تشير سورة التوبة:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٥.

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

فهناك من عمل صالحا من السابقين وممن تبعهم بإحسان، وهناك من مرد على النفاق الله يعلمهم، وهناك من خلط عملا صالحا وآخر سيئا، هذا في داخل صفنا، وبالتأكيد هنالك الصف الآخر المجاهر بالعداء، فهي سنة الخالق في خلقه التي هو أعلم بها.

أن الناس مختلفون ولا يجتمعون على حق أو باطل، وأصل الابتلاء هو اختبار أهل الحق بالصبر، وفسح المجال لتوبة أهل الباطل بهدى الحق، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾[2].

فالاختلاف والصراع أمران طبيعيان إذن، وكل فكر يعتمد على عدم الصراع بين الحق والباطل إنما هو فكر مادي ناشئ من الاعتقاد بعدم وجود الخالق العظيم وعدم

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ١٠٠-١٠٢.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٨.

وجود اليوم الآخر، والبعث والنشور والحساب والجنة والنار، وهذا ما يجعل الحسابات التي تقوم على هذا الاعتقاد الفاسد باطلة ومجرد ثقب أسود من الضلالة يبتلع الإنسان ويهوي به إلى الجحيم والعياذ بالله سبحانه من هكذا مصير.

ج: المنافذ الخفية

وهناك منافذ خفية توصل إلى القلب، وقد أسميتها خفية لأنها لا تمر عبر الحواس الخمس الظاهرة، ولا تقع عبر الإحساسات الباطنة، وهي خفية أيضا لأنها تقع في منطقة الغفلة من شعور الإنسان.

وكثيرا ما يستغلها الشيطان الرجيم للوصول إلى قلب الإنسان والتأثير فيه، مع تشديد الأهمية على أن موضع الصراع بين الشيطان ونور الرحمن هو القلب، قلب الإنسان الذي يقوده في سيره، فمن يحتل القلب يقود الإنسان.

ولذا فإن الشيطان يحاول المرور عبر منافذ خفية نحو القلب، فالحواس ما ظهر منها وما بطن قد يقع تحت فحص العقل وتدقيقه، الأمر الذي يسمح بكشف ألاعيب الشيطان، ومع الوعي والإرادة يمكن التغلب على تلك الألاعيب وإفشال مخططاتها الرامية إلى إفساد الحياة وجعل مصير النفس البشرية الهلاك وسوء العاقبة، ولكن المنافذ الخفية تكون أيسر للشيطان ليمر منها بخفة ونعومة وسلاسة بنسبة نجاح أكبر، وهي بعيدة نسبيا عن الانتباه واليقظة، ومن هذه المنافذ مثلا :

١. الغفلة

وهي انقطاع الذكر، ذكر الله، والانشغال بغيره سبحانه، فبمجرد أن يعرض ابن آدم عن الذكر، ذكر الله سبحانه، سواء أكان هذا الذكر لفظا أو تفكرا، أو شعورا قلبيا أو سلوكا، فإنه يقع في ضمن الغفلة التي هي ضد الذكر، فإذا غلّفت قلبه جعلته في مصيدة العدو الأول له وهو الشيطان، وما قيمة تطهير الحواس الظاهرة والباطنة وهي بمثابة الحرس، والحواجز المانعة من الخبائث إذا غفل الإنسان عن الذك؟ فحين يغفل الحارس يمرّ العدو!

ونحن وإن كنا ذكرنا أحوال الغفلة في موضع الحديث عن حركات التغافل، إلا أننا نرى أن بسط القول بمزيد من التبيين نافع هنا أيضا، وقد أمرنا الله سبحانه بالذكر طوال الوقت الذي يعيشه الإنسان في حياته الدنيا، ذكرا مختلفا أنماطهُ وهيأته، ونهانا عن الغفلة، فمن ذلك ذكره سبحانه في النفس لإشغالها به عما سواه، فبذكره نهي لها عن الهوى وتذكير بالمصير إليه، قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[1].

وعرفنا سبحانه بأن الذكر يحتاج إلى الصبر عليه ليستمر بكل فوائده للإنسان، فأمرنا بالصبر على الذكر طوال الوقت، وتثبيتا لنا أمرنا بالصبر على الذكر مع الدعاة إلى الله يريدون وجهه وهم السابقون إليه من بني البشر، لعلمه سبحانه أننا قد نعجز عن الصبر على الذكر وحيدين، لعلي ألمح هنا إشارة إلى قيمة الفعل بزخم السلوك الجمعي، فالإنسان منفردا يقوم بعمله بصعوبة، وقد يعتريه التكاسل، ولكنه مع

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

الجماعة، وبوجود قدوة قائدة وأنموذج متفرد، يعطي أفضل ما عنده ويقدم أجود ما لديه من عمل.

والأمر الآخر أن الذكر مطلوب طوال الوقت للإنسان، خوفا عليه من فتنة الغفلة لما لها من خطر على مصيره، ونهانا سبحانه بعد ذلك في الآية نفسها عن السير في ركب الغافلين، فمثلما تعزز الجماعة الذاكرة لله قدراتنا وتزيد في همتنا ونشاطنا في العمل الصالح والذكر الطيب، وترسّخ فينا فوائد ذلك ومنافعه، فإن الجماعة الغافلة تزيد في تثبيط همتنا عن الذكر، وترسّخ فينا الغفلة وتعمّق أضرارها، وتنحرف بنا عن الصراط المستقيم، وتتحول طاقة السلوك الجمعي وزخمه المضاف إلى موجهات سلبية ضاغطة علينا باتجاه اليأس والاستسلام لسوء العاقبة والعياذ بالله سبحانه، فالغافلون الذين اتبعوا أهواءهم ضلالة، بعد أن لزموا اليأس وأصروا على الانحراف لم يكن الله سبحانه ليجبرهم قسرا على الذكر، بل مكنهم مما يريدون فكأنه أغفل قلوبهم لإرادتهم الغفلة بشدة وإصرار منهم، قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾[١].

فعلينا أن نعرض عن أهل الغفلة لأنهم تولوا عن ذكر الله ولم تشغلهم سوى الحياة الدنيا الزائلة، قال سبحانه: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾[٢].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٩.

وتتوالى الآيات التي تأمرنا بالذكر لأنفسنا، والتذكير لنا ولغيرنا، وصرّح أنَّ الذكرى مقصورة بالنفع على المؤمنين، وليس غيرهم ينتفع بها، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾[2]، وقال سبحانه من سورة الأعلى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾[3].

فالمؤمن بالله الذي يخشى الحساب هو أهل ليذّكر، وأما الأشقى فهو على النقيض من الذكرى، فهو يتجنبها، لأنه يظنّ بما أملى له الشيطان أن الذكرى تعني له عرض التناقضات بين سلوكه المنحرف، وأمر الله المستقيم، مما يعني له أن الذكرى تضعه في موضعٍ متدنٍ يجد أنه أرفع منه بغروره، فيصرّ على تحرره من العبودية لله ظنا منه أنها حرية حقيقية، وما هي إلا وهم وضلال، فكلنا يعرف أن إغماض أعيننا ساعة السقوط من مكان مرتفع جدا مع الصراخ الذي يمنع الذهن من التركيز بل عامة التفكير، لا يعني أننا لن نرتطم بالأرض بشدة وتتحطم عظامنا وتتمزق أوصالنا!!.

فالذكر لا ينفع إلا للمؤمنين الذين يطلبونه ليشعروا بالاطمئنان، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[4].

وأولئك هم المعنيون بصوت النذير الذي تولى رسالته الرسول الأعظم محمد

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

(٢) سورة عبس، الآية: ٤.

(٣) سورة الأعلى، الآيات: ٩-١٢.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

صلى الله عليه وآله، ولذلك اختصهم الله سبحانه ببشارة البشير عليه وآله الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾(١).

وما يريد الله سبحانه من الذكر من الناس سوى منفعتهم وخيرهم وهو الغني عن العالمين؟ فهو يبين لهم طريق نجاتهم في هذا الاختبار العظيم في حياتهم الدنيا الذي اختصهم به لعظيم ما أعدّ للفائزين به منهم من أجر وثواب، ولكن من شقي منهم لم يتبع سوى هوى نفسه الفاسد، فما يريدون؟ أن يكونوا هم الآلهة وعلى الله أن يتبع أهواءهم؟ ناهيك عن ابتعاد ذلك عن مقتضيات الجمال العقلي وأحكامه، فلا يليق بالعليم الحليم الحكيم أن يتبع الجاهل، فإنّ اتباع الحق لأهوائهم سيؤدي إلى فساد السماوات والأرض ومن فيهن، لفساد أهوائهم من الناحية الموضوعية، بغض النظر عما يليق أو لا يليق بالله رب السموات والأرض رب العالمين، وهذا سبب آخر للإعراض عن سبيل الغفلة وأهلها، قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾(٢).

وهكذا يجد الأشقى متوهما أن الذكرى مؤلمة له، فيهرب من ألمها المتوهَّم إلى وهم آخر يظنه لذة فيطلبه في الغفلة، في حين تنهانا الآيات البينات من الذكر الحكيم عن الغفلة وتبيّن لنا صفات الغافلين وما هم فيه من سوء الحال وضنك العيش في الحياة

---

(١) سورة يس، الآية: ١١.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

الدنيا، وسوء العاقبة في الحياة الآخرة، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[1].

ويعمد الشيطان إلى سحب الإنسان إلى منطقة الغفلة وجره إليها عبر تأثير السلوك الجمعي، واستحواذ زخم الجماعة عليه، فهو يحشد أولياءه ليستقطب الذاكر ويستحوذ عليه، ولكن الله سبحانه ينهانا عن ذلك، ويعلم أننا قد ننسى، فيأمرنا بمغادرة أهل الغفلة حال الذكرى مباشرة، لخطورة حال الغافلين وأثره على من كان ذاكرا ونلحظ كيف أنه سبحانه يصفهم بأنهم ظالمون، فقد ظلموا الله ربهم إذ لم يعرفوا قدره، وظلموا أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلكة، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وهل يقعد الشيطان للإنسان في طريق الهدى ليضله إلا بعد أن يأتيه الذكر؟ فالذكر خير قادم للإنسان، ولكن الشيطان عدوّه الأول والأكبر يحاول حجب هذا الخير عن الإنسان فلا يستطيع، لأنه خير قادم من الله بأمره، فيعمد الشيطان إلى حجب الإنسان عن الخير، وأيضا لا يستطيع هذه المرة إلا إذا مكنّه الإنسانُ من نفسه، وحين تقل ثقة الإنسان بربه وإيمانه بالغيب وتصديقه بوعد الله سبحانه، يَعِده الشيطان بأن يستنقذه مما هو فيه من ألم موهوم، فإذا صدّقه الإنسان فقد هلك لأنه عدوّ، والعدوّ من

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

طبعه أَن يعدَ عدوَّه ويمنّيه ليوقِعَه في الفخّ الذي نصبه له، فإذا أوقعه فيه خذله ولم يستنقذه منه، قال تعالى حكاية عن الإنسان: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾(١).

وحين يقترب الوعد الحق يعترف الغافلون بظلمهم، ويدعون على أنفسهم بالويل شاخصة أبصارهم، قال تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(٢).

فلم يكن عليهم سوى الذكر والابتعاد عن الغفلة وأهلها، ليعلموا الحق فيهتدوا ويسمعوا كلام الله فيعوا، ولكن غطاء الشيطان استحوذ عليهم بما مكنوه من أنفسهم، فحجبهم بغطائه عن الذكر، وفي ذلك قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾(٣).

ويظهر أَن غطاء الإنسان جزء منه طبيعي وجزء مكتسب، فالطبيعي الذي تفرضه خواص المادة، فالإنسان في ظاهره جسد من طين، وتواصله مع العالم الخارجي تواصل مادي بالدرجة الأولى البسيطة، وأما المكتسب فهو الغطاء الذي يكسبه إياه الشيطان بالغفلة، فيحجب سمعه وبصره، ولا يخرق هذا الغطاء بجزأيه

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠١.

الطبيعي والمكتسب إلا الذكر. فما أعظم الذكر؟! قال تعالى في معرض خطابه للإنسان بعد انتهاء مهلة الحياة الدنيا، وانقضاء فرصة العمل، وبدء موعد الحساب: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١).

حتى إذا وصل ذلك الأشقى إلى سوء مصيره المحتوم تذكر!! .. فعلم أن حياته الحقيقية هي التي وصل إليها الآن!! وأما تلك التي قضاها فكانت محض اختبار، وأنها زالت بكل بساطة! قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾(٢).

ونلحظ عظمة الباري سبحانه في مشهد مهيب مذهل، فجهنم التي أقسم الله أن يملأها من الكافرين من الجنة والناس أجمعين، والتي يقال لها هل امتلأت فتقول هل من مزيد! جهنم المحيطة بالكافرين، يعبر عنها التصوير القرآني بقول الله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾(٣)... يعني أن الله يجيء بجهنم للإنسان الشقي وليس يجيء به إلى جهنم!

فالإنسان هو محور الابتلاء، وهو موضوع الحياة والموت، وموضوع الحساب ومادته! ولابد له أن يشاهد عظمة الخالق الذي أنكره من قبل في حياته الدنيا.. فهو يجيء بجهنم! ونجد أن بناء الفعل للمجهول (جِيءَ) أشد بلاغة وتأثيرا في إيقاع المهابة والإجلال والتعظيم لله في قلب الإنسان، مع أن الله سبحانه يسّر لنا الذكر في الحياة الدنيا، وكرر لنا آية تيسير الذكر أربع مرات في سورة القمر، وهي الآيات (١٧

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الفجر، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٣.

و٢٢و٣٢و٤٠) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1].

ولم يجعل الذكر يسيرا في القرآن وحده، بل لقد جعل للذكر أهلا أمرنا بأن نسألهم لنتعلم منهم ما ينفعنا للهدى والنجاة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

وبذلك تصديق من الله لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، الذي قال فيما عرف بحديث الثقلين المروي بطرق عديدة باستفاضة: **«إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبدا، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»**.

فصدق الله ورسوله ونحن على ذلك من الشاهدين، وفي ذلك علاج ناجع من الغفلة وضررها، فالذكر بالقرآن تلاوة وحفظا وفهما وتفسيرا، وتسبيحا، حمدا وشكرا، صلاة ودعاء، كما علمنا الله سبحانه.

والذكر بأهل البيت عليهم السلام، اهتداء وتعلما وتدارسا وفهما واتباعا ومحبة كما علمونا فيما ورد من آثارهم، وقد أكثر عدد غير قليل من علمائنا الأعلام - رحم الله الماضين وحفظ الباقين - من مؤلفات الذكر وحقائقه وطرقه ومناهجه، أخذا من معين الثقلين الذين أُمرنا بالتمسك بهما، فما عذر من أصر على الغفلة مستكبرا؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣.

ومن الفائدة ذكر حديث لأمير المؤمنين عليه السلام فيه تحذير من الغفلة، فقد روي عنه عليه السلام قوله في الغافل:

«وهو في مهلة من الله يهوي مع الغافلين، ويغدو مع المذنبين، بلا سبيل قاصد، ولا إمام قائد، حتى إذا كشف لهم عن جزاء معصيتهم، واستخرجهم من جلابيب غفلتهم، استقبلوا مدبراً، واستدبروا مقبلاً.

فلم ينتفعوا بما أدركوا من طلبتهم، ولا بما قضوا من وطرهم، وإني أحذركم ونفسي هذه المنزلة، فلينتفع امرؤ بنفسه.

فإنما البصير من سمع فتفكر، ونظر فأبصر، وانتفع بالعبر، ثم سلك جدداً واضحاً يتجنب فيه الصرعة في المهاوي، والضلال في المغاوي، ولا يعين على نفسه الغواة بتعسف في حق، أو تحريف في نطق، أو تخوف من صدق.

فأفق أيها السامع من سكرتك، واستيقظ من غفلتك، واختصر من عجلتك، وأنعم الفكر فيما جاءك على لسان النبي الأمي صلى الله عليه وآله وسلم مما لا بد منه، ولا محيص عنه؛ وخالف من خالف ذلك إلى غيره، ودعه وما رضي لنفسه، وضع فخرك، واحطط كبرك، واذكر قبرك، فإن عليه ممرك.

وكما تدين تدان، وكما تزرع تحصد، وما قدمت اليوم تقدم عليه غداً، فامهد لقدمك، وقدم ليومك. فالحذر الحذر أيها المستمع! والجد الجد أيها الغافل، (ولا ينبئك مثل خبير)»[١].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٩: ١١٠.

٢. الوسواس

(الوَسْوَسَةُ والوَسواسُ: الصوت الخفي من الريح...، والوَسْوَسَةُ والوِسواسُ: حديث النفس...، والوَسْواسُ، بالفتح: هو الشيطان)(١)، ويعد الوسواس من المنافذ الخفية أيضا التي يمر عبرها الشيطان إلى القلب، فلا يمر بالعقل، وتغيب عنه الرقابة.

ويبدو أن هناك نوعين من الوسواس: الأول وهو المشار إليه لغةً بفتح الواو (الوَسْوَاس)، ويقصد به حديث الشيطان، والثاني المشار إليه بكسر الواو (الوِسْوَاس)، ويقصد به حديث النفس، فللشيطان من القدرة ما يجعله يلقي أحاديثه التي تضلل الإنسان في القلب مباشرة، فمن يستمع إليه يضلّه ويجرّه إلى حيث الهلكة، وفي ذلك ورد من الذكر الحكيم قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾(٢).

ونلحظ كيف أن تلك الوسوسة اعتمدت على الكذب والتضليل، وكان الغرض منها هو الإيقاع بآدم عليه السلام، الذي لم يكن يظن أن أحدا يجرؤ على افتراء الكذب على الله، فضلا عن القسم بالله كذبا!! قال تعالى في ذكر هذه القصة من سورة الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا

---

(١) لسان العرب لابن منظور: مادة (وسس).

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٠.

مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(١).

والملاحظات التي يمكن الحصول عليها عند التأمل في هذه الآيات الكريمة كثيرة، منها:

أ: أنَّ وسوسة الشيطان تعتمد على لحظة ضعف من الإنسان، إما لمعلومة يجهلها، أو حاجة يطلبها، ثم يثق بمن لا يستحق الثقة، فيقع في المحذور.

ب: أنَّ الشيطان يبتني وسوسته على جزء واقعي حقيقي، ثم ينسج معه أجزاء وهمية باطلة، ليشعر فريسته من بني الإنسان بأن قوله ثقة.

ج: أنَّ الشيطان يَعِدُ الإنسانَ بما يتمنى، فهو ينظر إلى ما يتمنى الإنسانُ تحقيقَه ويَصبو إليه فَيَعِدُه بِهِ ليزيد من اندفاعه نحو الفخاخ التي نصبها له.

د: أنَّ الشيطان لحظة الوسواس يقف بين الإنسان وربه، ليحجب عنه مصدر المعرفة الحقيقي، والنور الذي به تزال الشبهات وتكشف الظلمات، وهذا يعني أن ترك الذكر ولو لحظة، وعدم التوجه بالسؤال إلى أهل الذكر قد يمنح الشيطان هذه الفرصة.

هـ: لا يمنع الشيطان شيء من القسم بالله كذبا والافتراء عليه تعالى شأنه وسبحانه، لأنه في آخر الأمر سيد العاصين الكافرين المستكبرين، وسيد أهل جهنم الملعونين المطرودين من رحمة الله عزّ وجلّ.

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٩-٢٢.

و: الشيطان بكذبه وافترائه وتزيينه للسوء يدفع الإنسان ليسير معه نحو الانحطاط وتدني المنزلة والتسافل، على عكس ما يقتضيه التوحيد لله من تسليم وطاعة، حيث التكامل وارتفاع المنزلة وعلو الشأن.

ز: يجد الشيطان في هذا النوع من الوسواس فرصة للانفراد بالإنسان والهيمنة على صاحب القرار فيه وهو (القلب)، فإذا استطاع أن يجعله يتخذ القرار أسرع به إلى التنفيذ قبل أن يشعر العقل، أو تتضح الحقيقة، ولذلك فهو (أي الوسواس) خطير جدا من جهة أنه خفيّ وسريع المفعول وقوي التأثير.

وحين لا يجد الشيطان فرصة للوَسواس، وينظر إلى الإنسان يتنعم بنور الهدى إلى الله، فإنه يزيّن للنفس البشرية سوء العمل من بعيد ليوهمها بأنه خير ويسحبها بالاستدراج شيئا فشيئا إلى الوقوع في المحذور، فتعمد النفس التي تتحرك بدافع من شهوتها ورغبتها إلى تلك المغريات التي تم تزيينها وتغطية ما وراءها من منكر وسوء، وتحاول هذي النفس أن تقنع هي صاحبها بجدوى ذلك العمل القبيح، وتصور له ما توهمته من جماله، وزينته، كما استزلها الشيطان، فهي تقوم بدور الوسوسة بدلا عن الشيطان بعد أن دعاها فاستجابت له، وكأنها بعد أن وجدت في دعوة الشيطان ما يناسب هواها، صارت تدعو صاحبها إلى رغبتها هي، ويا ويله إن هو أطاعها في ذلك !، ولو أنها انتهت عن الهوى، لنجت هي وصاحبها ولكن هيهات! لا تنتهي النفس إلا أن تنهى، وهي دون ذلك مستمرة بالوسوسة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ

خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (١).

حتى قد يصل وِسواس النفس للإنسان حين تجد منه الطاعة لقولها إلى أنها قد تطوّع له قتل أخيه، قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢).

فإن لم تجد النفس من ذلك البشر طاعة لقولها، فإنها تحاول أن تريه الواقع على خلاف الحقيقة، الواقع كما تراه هي وفقا لرغباتها، بمادية بعيدة عن احتساب الفعل الإلهي مؤثرا في المعادلة الواقعية للأحداث، أو بعبارة أخرى، تظهر للإنسان ما ينسجم مع رغبتها وتخيل له واقعا آخر غير الحقيقة، وتجعله يحس في نفسه ذلك الواقع الوهمي أو التخييلي ،كما في الخوف مثلا عند الشدة بعيدا عن تصور قوة الغيب ونصر الله لمن ينصره.

وحين لا يجد الشيطان فرصة له للوَسواس، ولا لنفس الإنسان، فإنه يدفع بأوليائه ليقوموا بدوره، فيقوم أحد من أوليائه من الإنس أو الجن بهذا الدور الشيطاني، يوسوس للإنسان نيابة عن الشيطان، ليضله عن السبيل الأقوم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (٣).

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٣.

وليس مصدر المعرفة لأولياء الشيطان الذين يقومون مقامه في عملية الوسوسة سوى الظن، والوهم، والافتراء، لذلك فإن نتيجة اتباع وسوستهم وإطاعة قولهم حتما ستكون الضلالة، مع الأخذ بنظر الاعتبار كثرة هؤلاء المضلين أولياء الشيطان، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾[١].

والمؤلم حقا أن كثيرا من أولئك الذين اتخذوا الشياطين - شياطين الإنس والجن - أولياء يحسبون أنهم مهتدون! قال تعالى: ﴿ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءِ مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٢].

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى شأنه أن نقاتل أولياء الشيطان كما نقاتل الشيطان، فهم جميعا يمثلون عدوًّا واحداً يقاتلون في سبيل الطاغوت، والذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، وقد وعد الله الذين آمنوا النصر على عدوهم إن هم قاتلوه، لأن كيد الشيطان ضعيف وكيد الله متين، قال عزّ وجلّ: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.

ولذا فإن من يتخذ إبليس وذريته أولياء من دون الله فقد ظلم نفسه، لأنه فسق عن أمر ربه، في مسألة تتعلق بالإنسان نفسه، فسبب فسوقه لم يكن لأمر خارج عن قضية الإنسان وكرامته وفوزه ونجاته، بل لقد فسق إبليس عن أمر ربه بالسجود لآدم! وأنكر ارتفاع درجة بني البشر عليه! وجحد ولاية بني آدم عليه، وعمد إلى إخراج آدم من الجنة، واتخذه هو وبنيه أعداء، فكيف يأتي بنوه ليتخذوا عدوّهم ولياً بدلا من الله مولاهم الحق؟!! قال الله تعالى شأنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[1].

ولكن الشيطان لن يجد له أولياء من المؤمنين حتما. إنما أولياؤه الكفار والمنافقون ممن لم يؤمن، قال تعالى محذرا بني آدم من فتنة الشيطان ووسوسته ذاكرا إخراجه أبوي بني آدم من الجنة وقدرته على أن يرى بني آدم هو وقبيلُه من دون أن يروه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

عسى أن يهتدي الإنسان ولا تتكرر القصة ذاتها بأن يخرجه من الجنة، لأن هذه المرة ستكون الحجج البالغة قد تمت والمصير حتما إلى عذاب السعير، ولات حين مناص.

إن شدة خطر الوَسوَاس من الشيطان بأية وسيلة كان، هو الأمر الذي جعل

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

سورة كاملة من القرآن الكريم مختصة بالاستعاذة بالله من شر الوَسوَاس، وفيها من تعظيم الأمر والتحذير منه الكثير.

قال تعالى من سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾(١).

فقد أمرنا فيها الله بالاستعاذة به، عن طريق الاستعاذة بثلاثة من أسمائه (الرب، الملك، الإله) مضافة إلى الناس، فمقتضى الربوبية هو التربية والحنوّ والعطف والشفقة والرحمة والمداراة، ومقتضى الملك القوة والقدرة والسطوة والسلطان والحكم والعزة والمنعة، ومقتضى الإله حقيقة الوجود ومصدر الوجود وقيوميّة الموجودات التي من الإله تستمد وجوداتها وحيواتها فضلا عن قدراتها وفاعليتها وحركتها وقدرتها على صنع أفعالها. فاستعاذتنا بهذه الأسماء التي هذي مقتضياتها يشعرنا بخطر المستعاذ منه، لأنه لا يحجب منه ولا ينقذ منه إلا اجتماع تلك المقتضيات في ثلاثة من أسماء الله سبحانه، لا من حيث مقدار قدرة الله وفعل أسمائه وحاشاه من العجز وهو القادر على كل شيء قدير، بل من حيث قابلياتنا المتفاوتة، ومقدار احتياجنا للنصرة، فبقدر ما نحتاج يأتي المدد، لا بقدر ما يستطيع الله، فاستطاعته مطلقة، ولكن حاجتنا محدودة على درجات، سعة وضيقا، فهو إذن يأمرنا بالاستعاذة من خطر داهم كبير، نحتاج معه إلى مقتضيات تلك الأسماء العظيمة.

---

(١) سورة الناس، الآيات: ١ ـ٦.

فنحن إنما نسمح للوسواس أن يدخل صدورنا كلما غفلنا عن ذكر الله سبحانه، والغفلة تقصير منا، فكيف نطلب المساعدة ممن قصرنا في حقه؟ إن مقتضى العدل ينافي ذلك! نعم بسبب رحمته وفضله هو يعلمنا كيف نطلبها، نطلبها بسؤاله بحق عطفه وشفقته وحنوّه، بوصفه الربّ، ربنّا الذي بقولنا هذا الذي علمنا إياه سبحانه نقرّ له بالربوبية علينا، فيحقق لنا ما على الرب أن يفعله تجاه المربوبين له حين يستغيثونه، أو يستعيذون به من خطر محيق بهم، فسبحانه ما أرحمه وأعظم فضله! نغفل عن ذكره، فلا يكتفي بمسامحتنا، بل يعلمنا كيف نسأله الاستعاذة من وَسواس الشيطان الذي يأتينا بسبب الغفلة التي قد نهانا عنها في الأصل وحذرنا من نتائجها! ويعلمنا بفضله ورحمته كيف نطلب الاستعاذة منه بحق قدرته وقوّته وما له على الشيطان من حكم وسلطان، لأن استحواذ الشيطان على الإنسان حال غفلته كبير لا يقدر عليه سوى سلطان الله وحكمه، لضعف الإنسان وهوانه في مثل هذه الفتنة واستحواذها الذي لا تعيذ الإنسان منه سوى قوة الله وقدرته وحكمه النافذ وهو البالغ أمره سبحانه، وهذا مما يقتضيه اسمه الملك.

ثم يزيد من نعمه علينا بأن يعلمنا أن نطلب منه الاستعاذة باسمه الإله، لمّا أبانت حكمته سبحانه أن عجزا قد يلم بالإنسان، وقد يصحبه ضعف إيمان وقلة ثقة وضعف يقين، فهو يبصّره بأن من مقتضيات الإله أنه هو مصدر الوجود لكل ما هو دونه، وبه يقوم كل موجود، إذن بيده يكون سلب الوجود كما إثباته، فهي أسلحة من ثلاثة أسماء لله عظيمة يسلح بها الله سبحانه الإنسان، ويدعوه لحملها وطلب الاستعاذة بفعل قوتها من الله، لأن للوسواس شرا كبيرا وخطيرا يُخشى على الإنسان منه، فهو شرّ، وهو خفيّ غير ظاهر يصعب كشفه، وهو يصل مباشرة إلى صدور الناس من دون وقت

يصرفه، أو وساطة يستعملها، وهو يحدث من الشيطان وأوليائه من الجن ومن الإنس، وهم كثيرون جدا، وأساليبهم متعددة الألوان والأشكال ذات كيد ومكر وخداع.

فحق للإنسان أن يخاف من شر هذا الوَسواس، وأن يتسلح ضده بالاستعاذة كما علمه الله سبحانه، وأن يستعد لها ولشروطها وكيفية أدائها، معرفة، وإرادة وفعلا، قولا وعملا، ليضمن نجاح هذه الاستعاذة، الكبيرة بمضامينها، العظيمة بنتائجها، الكريمة بمعطياتها، ولتتم عملية سد هذا المنفذ الخفي الذي يستعمله الشيطان للوصول إلى القلب ليفسده، فلله الحمد على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم وعلّم.

٣. الأمنية

طلب حصول أمر يشتاق له هوى النفس غير حاصل في الواقع، وقد يرجى حصوله لقرب أسبابه واتصالها، أو لا يرجى حصوله لبعد أسبابه وانقطاعها، وفي الحالين يطلب حصوله الإنسان، لأنه يعيش حالا مؤلمة بالنسبة إليه، يعمل حصول ذلك الأمر المطلوب في ظنه على تغييرها نحو اللذة والراحة.

والأمنية مما يشغل فكر الإنسان وقلبه، فبعضها يكون سببا في نجاته كتمني الخير وفعله، وكثير منها يكون سببا في هلاك الإنسان حين تكون منفذا خفيا للشيطان يعبر من خلالها إلى القلب مباشرة، وإذا كان الشيطان يلقي وَسواسه في مصداق الأمنية القلبية للرسول والنبي، فما فعله في أمنية الإنسان الاعتيادي؟! هذا وقد قرر الباري سبحانه إبطال حكم ما يلقي الشيطان في أمنية الرسول والنبي، ومن كان في حكمهما بمقتضى العصمة، كالأوصياء والأولياء والأئمة عليهم السلام، ولكنه لم

يفعل ذلك مع أمنية الإنسان الاعتيادي، لأن الرسول والنبي ومن يخلفهما، يراد منه وظيفة التبليغ عن الله، فلابد أن يعصمه الله من كل قبيح وفاسد، حتى يبقى خط التبليغ نقيا سليما لإتمام الحجة على الناس، ولتوضيح السبيل الحق وبيان هداه، وهل يلقي الشيطان إلا ما هو قبيح وفاسد في الأماني؟ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

فالتمني القلبي الصادر من الرسول أو النبي المعصوم له مصداق خارجي هو حصول الأمنية لخير يرجوه للناس، ثم إنها أمنية نابعة من عالم غير جاهل، ومصدر معرفته الوحي عن الله المحيط بكل شيء علمه سبحانه، ولكن الشيطان اللعين يعمد إلى إفساد ذلك المصداق ليوقع الشك في قلوب الناس ويبعدهم عن الرسول أو النبي، ولكن الله يأبى إلا أن يحكم آياته فلا يخترقها كيد الشيطان.

وأما الإنسان الاعتيادي من لم يكن نبيا ولا رسولا، فحين يتمنى ويلقي الشيطان في أمنيته ما يفسد مصداقها الخارجي فإنه يوقع فيه اليأس والاحباط ليتمكن منه، فالأنفس تهوى ما تظنه في نفعها يصبّ، ولكنه يجلب إليها الشر ويركسها في الضلالة، مع أن الله قد جاء بالهدى، وليس للإنسان ما تمنى من أمانٍ يصوغها الهوى ويلقي فيها الشيطان بذرته، بل الأمر كله لله هو أعلم حيث يجعل رسالته، وله التقدير في الدنيا والآخرة وهو العليم الحكيم، قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥٢.

أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى ﴾[١].

فالأماني هي بمثابة قفز على الواقع لتغييره بمجرد أن تهوى النفوس من دون عمل يوجب التغيير باستحقاق عدل أو بمقتضى رحمة وفضل من الله، وهي ليست مدخلا للتغيير لأن سنة الله سبحانه تقوم على أن التغيير في النتائج يتطلب عملا تغييريا في المقدمات، لا بالأمنيات، فالأمنية لا تدل على الإيمان والاعتقاد.

فهذا يدل عليه العمل والسلوك، قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾[٢].

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: **«أَشْرَفُ الغِنَى تَرْكُ الْمُنَى»**[٣].

وهنا قد يسأل سائل: إذا تحركت فكرة في قلب إنسان مفادها طلب تغيير واقع مؤلم إلى آخر مبهج، فهل يصلح عليها تسمية الأمنية؟

ثم أليس تخيل الإنسان ما يطلب حصوله من تغيير الحال غير المرغوب فيها مثلا إلى حال مرغوب فيها، أليس ذلك من أبسط حقوقه؟

وعلى هذا نجيب: إن ما ورد حسب السؤال يعد من أبسط حقوق الإنسان فعلا، شرط أن لا يكون منبع طلب التغيير في الحال هو الهوى، فالفرق بين طلب حصول الأمر

---

(١) سورة النجم، الآيات: ٢٣ـ٢٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٣) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: ٤٤٦.

غير الواقع بعنوان الأمنية - وأؤكد هنا حين لا تكون أمنية خير للآخرين -، وطلب حصوله بعنوان آخر كالدعاء والرجاء والتشوق لما عند الله من خير، هو مصدر ذلك الطلب والباعث عليه، هل هو الهوى أم التقرب إلى الله؟ فإن هوى النفس لا يصلح ليكون مصدرا صالحا، لأنه مصدر غير موثوق للمعرفة، بل هو مصدر مضلل، لأنه مما يقع تحت يد الشيطان ومن الممكن له أن يلقي فيه ما يشاء من بذور الفتنة والضلالة، في حين أن تمني الخير والتسليم لله سبحانه يكون أشفى للصدور وآمن من الفتنة.

وقد أمرنا الله سبحانه بنهي النفس عن الهوى، خوف مقامه، ورجاء فضله لتكون الجنة هي المأوى الذي نلتجئ إليه من المخاوف، فمن خاف مقام ربه لا يخيفه شيء لأن الله سبحانه سيؤيه في جنته، التي هي كنفه الذي لا يرام ولا يضام، وحصنه المنيع، وحرزه الكافي، وركنه العزيز،قال سبحانه في محكم كتابه الكريم: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[١].

لأن شأن الهوى أنه يضل عن سبيل الله، فحين يكون مصدرا لطلب ما، ولو كان في ظاهره تغييرا لحال سيئة بأخرى حسنة، فإنه في حقيقته لابد أن يكون مضلاً مهلكا موقعا صاحبه في عذاب شديد، قال تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[٢].

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠-٤١.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.

على الإنسان أن يتخيّل ما يمكن أن يصير إليه الأمور نحو الأحسن من منطلق المعرفة بالله وما علّمه من صفات الخير والشر، بحيث يكون طلب حصول الشيء قربة طاعة لوجهه الكريم سبحانه، ومحبة في أمره الجميل، وبغضا لكل أمر خلافه، فإن ذلك يقع في ضمن الدعاء له سبحانه والرجاء منه والتوجه إليه بالمسألة، والتشوّق لما عنده من خير، وتحفيز النفس نحو كنوزه المدخرة لمن طلب وجهه وأراد طاعته له الحمد وله الشكر، ثم إن التمني يتطلب شرطين مهمين ليكون من فعل الخير:

الأول

أن يكون تمنيا لأمر فيه منفعة للنفس أو للآخرين، بمعنى حسن النية في التمني وعدم إضمار السوء للآخرين، وعدم اليأس المؤدي لتمني السوء للنفس.

الثاني

أن يكون صادرا عن علم قطعي بأن خصوص تلك الأمنية هي مما يقع في المنفعة وليس في الضرر، وهذا أمر يندر حصوله لغير الأنبياء والرسل والأوصياء والأولياء المرتبطين بالله الآخذين علمهم منه سبحانه، فهو وحده صاحب العلم القطعي، وما عند سواه علم ظني، ولذلك ورد في الدعاء المأثور عن أئمتنا عليهم الصلاة والسلام: **«اللهم افعل بي ما أنت أهله لا ما أنا أهله»**، وورد أيضا: **«ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضا ولي فيها صلاح إلا قضيتها يا أرحم الراحمين»**، وهذا يعني أن نوكل تفاصيل التغيير وطريقته وزمانه وشكله ومضمونه إلى الله عزّ وجلّ، لجهلنا بحقيقة ما ينفعنا لنتمناه، فكم تمنى الناس أُمنياتٍ كانت مما ضَرَّهم فَجَرَّت نَدَما وأَورثَتْ سَقَماً!!

وهكذا فإن هذه المنافذ للشيطان التي يمر عبرها إلى القلب هي خفية من دون رقابة أو متابعة، وقد يصل منها إلى مبتغاه بسرعة غير متوقعة، ويحدث أضرارا بالغة غير محسوبة، فلو جرى سدّها جيدا وإحكام السيطرة عليها، لمنعه ذلك من اتخاذها إلى القلب وسيلة، ولأمكن ضمان طهارة القلب من الخبائث ومن كل ما هو فاسد يلوثه، فتكون مسالكه من الحواس الظاهرة وتلك الباطنة ومنافذه الخفية قد أحكم إغلاقها عليه، وتحصين القلب من شروره البالغة إليه عبرها، وتكون بذلك المرحلة الأولى من عمليات تطهير القلب قد انجزت بحمد الله وعنايته.

المرحلة الثانية

وهي المرحلة التي تأتي بعد مرحلة سد المنافذ وحراستها، وتتضمن عملية التطهير الشاملة للقلب، فبعد أن سدّت مسالك الشيطان ومنافذه ما ظهر منها وما بطن وما خفي، أمكن لنا الآن التوجه إلى القلب نفسه لتخليصه مما علق به من عوالق الخبائث والنجاسات، بفعل ما سبق للشيطان فعله من تدخلات عبر الحواس الظاهرة والباطنة والمنافذ الخفية، ولم يكن لنا قبل سد تلك الثغرات أن نتوجه للقلب لتطهيره، فلابد قبل ذلك من منعه من مصدر الشر والفساد، فقديما قال الشاعر:

مَتَى يَبلُغُ البنيانُ يوماً تَمَامَه   إِذَا كُنتَ تَبنيهِ وَغَيرُكَ يَهدِمُ!

فلابد من منع الهدم وسد منافذ دخول الخبائث، ثم نبدأ بعملية التطهير والبناء.

وهنا نحتاج لوضع خطة محكمة لهذه المرحلة التي تبدو صعبة نوعا ما، فكيف لنا أن نرفع عن القلب ما علق به من نجاسات تحصلت عنده عبر جملة من الممارسات والافعال والأوهام والخيالات والأفكار؟

وكيف لنا أن نصنف تلك النجاسات لنسهل عملية رفعها؟ بحسب الحواس والمنافذ مثلا؟ أم أن علينا رفعها الواحدة تلو الأخرى وحسب؟ مع العلم أنها تمثل عوالق كثيرة قد لا نستطيع لها عداً ولا احصاءً، بل قد لا نتعرف على بعضها أصلا! فهي عوالق لخبائث وخطايا متعددة المناشئ، فمنها ما هو عن عمد، ومنها ما هو عن غفلة أو سهو، ومنها ما هو عن جهل، ومنها ما هو عن اضطرار، ومنها ما كان من فعل الشيطان مباشرة، ومنها ما كان بدعوة منه وباستجابة للنفس المطيعة للهوى، فكيف نصنع مع كل هذه العوالق من الخبائث الناتجة عن الخطايا التي هي عين النجاسة؟

أعتقد جازما أن المهمة تبدو صعبة للغاية وقد تبدو مستحيلة إن لم نجد حلا مناسبا وواضحا ويسيرا، فقد عودنا المشرع سبحانه على الحكمة واليسر في السبل التي يهدينا إليها لنجد الحلول لمشاكلنا، على النقيض من الحلول التي تنسب لبني الإنسان والتي يميزها التعقيد والصعوبة وكثيرا ما ترافقها تأثيرات جانبية غير مرغوب فيها، فالسماء مصدر الخير بما يتنزل علينا من رزقها، ومن ذلك هداية الله سبحانه لنا عبر أنبيائه ورسله وأوليائه أوصياء الأنبياء عليهم جميعا الصلاة والسلام، ولا أجد مثل هذا الحل الواضح واليسير والشامل لهذه المعضلة المستعصية إلا في الحديث الشريف المرويّ بطرق متعددة: **«حب الدنيا رأس كل خطيئة»**[1].

فمن الصعب - إذا لم يكم مستحيلا - على المرء التوجه لإحصاء العوالق من الخبائث المتولدة عن الخطايا والذنوب والمعاصي داخل القلب، ثم التخلص منها فرادى، في حين يمكن أن نقطع أسباب اتصالها بالقلب عبر تخليص القلب من حب الدنيا، فالشيطان عليه لعنة الله يدفع الإنسان إلى الخطأ، وموضوع شغله الشاغل هو قلب

---

(١) بحار الأنوار: ٥٥: ٤٩.

الإنسان، فلكي يدفعه إلى الخطيئة عليه أن يرمي قلبه بخبثه ليعلق منه بجزء، وهكذا تكثر العوالق من الخطايا، وكل خطيئة لها رأس، ولها ذنب سائب قد يمتد وقد يقصر، ولكنَّ رأسَ كل خطيئة يبدأ من القلب من حيث موضع حب الدنيا، فإذا أخرج المرء حبَّ الدنيا من قلبه يكون قد فصل حلقة الوصل بين تلك الخطايا والعوالق الخبيثة من جهة، والقلب من جهة أخرى، وجعله في حلٍّ منها، عندها فقط يمكن له أن يتطهر من الخبائث والخطايا ونجاساتها، ولا تعود آثار تلك الخطايا إليه، ويصبح القلب سليما معافى، حتى إذا جاء يوم القيامة أمكن للإنسان أن يفوز برضا الله سبحانه، فلا يناله الخزي في اليوم الآخر، قال تعالى في وصف المرء ذلك اليوم وما يطلب منه سبحانه، في محكم كتابه الكريم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[(١)]، فالذي يأتي بقلب سليم ينال الفوز والرضوان.

وحسبنا أن نعرف أن إبراهيم عليه السلام قد جاء بقلب سليم لنعرف مدى رفعة هذه المكانة للقلب حين يكون سليما، قال تعالى من سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[(٢)]، والقلب السليم هو الذي يجعله قلبا منيبا راجعا إلى الله في كل أموره، لخشيته من عدم مطابقة عمله لأوامر الله ونواهيه، قال تعالى من سورة ق: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[(٣)].

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٨٧_٨٩.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٨٣_٨٤.

(٣) سورة ق، الآيات: ٣١-٣٣.

وجاء في الأثر: (إلا من أتى الله بقلب سليم: من الشرك والشك...، وقيل: سليم من الفساد والمعاصي وإنما خص القلب بالسلامة لأنه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد من حيث إن الفساد بالجارحة لا يكون إلا عن قصد بالقلب الفاسد، وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: **«هو القلب الذي سلم من حب الدنيا»**، ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وآله: **«حب الدنيا رأس كل خطيئة»**)[١].

فالإنسان الذي يحب الدنيا يسعى للحصول على ما فيها من ملذات، وهو في سبيل ذلك يرتكب الخطايا والذنوب، ولكنه لو تعلق قلبه بالآخرة، وسعى لها سعيها وهو مؤمن لكانت حاله التقوى، وطهارة القلب، وحين ننظر في قول أمير المؤمنين عليه السلام: **«ما أَصِفُ من دارٍ، أَوَّلُها عناءٌ، وآخرها فناءٌ، في حلالها حِسابٌ، وفي حرامها عِقابٌ، مَن استَغنى فيها فُتِنَ، وَمَن افتَقَرَ فيها حزِنَ، ومَن ساعَاها فاتَتهُ، وَمَن قعَدَ عنها واتَتهُ، وَمَن أَبصَرَ بها بَصَّرَتهُ، وَمَن أَبصَرَ إِليها أَعْمَتْهُ»**[٢].

نجد جملة من الفوائد لمقام البحث حصرا، منها:

أ: أن الدنيا تتزين للإنسان لتغريه.

ب: أن في الدنيا حلالا وحراما، ففي حلالها المباح حساب، وفي حرامها عقاب.

ج: من طلب الغنى فيها وقع في الفتنة.

د: من ابتلي بالفقر فيها أصيب بالحزن.

هـ: من حاول اللحاق بها وتحصيل مساعيه منها فاتته ولم يدركها.

---

(١) م. ن.: ٦٧: ٢٤٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦: ٣٤٥.

و: من قعد عنها ولم يطلبها سعت إليه ووافته.

ز: من جعلها آلة وواسطة للبصر في حقائق الأمور بصّرته بما حملت من تجارب الآخرين ومصائرهم وأحوالهم، فصار بالنظر إلى غيره فيها بصيرا عارفا بالأمور.

ح: ومن جعل بصره إليها شاخصا وبها متعلقا أعمت بصره فلا يرى بعدها الحق ولا يشاهد الحقيقة، بل ينشغل بها وفتنتها وزينتها، فتكون سببا لعماه عن رؤية الحق.

ويمكن التوصل إلى محاور رئيسة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام تغني مقام البحث، ونجد لها بالضرورة ما يعززها في كتاب الله الكريم، إذ إنه من نافلة القول إن المبدأ الذي استند إليه البحث عامة، وهذا المطلب خاصة هو مبدأ عدم الافتراق بين القرآن والعترة الذي يؤكده حديث الثقلين، الأمر الذي يجعل من المفيد جدا الاستعانة بأحد الثقلين لفهم الآخر بالتدبّر، ومن ذلك التوسع في فهم الحديث آنف الذكر «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»، فلو فعلنا ذلك مع المحاور الرئيسة لكلام أمير المؤمنين عليه السلام بشأن حب الدنيا فسنجد:

١. «في حلالها حساب»

حلل الله سبحانه للإنسان كل ما هو طيّب، وحرّم عليه كل ما هو خبيث كما مرّ ذكره وإثباته، ولم يعفِ الحلال المباح الذي في الدنيا من الحساب، بل كل ما يفعله الإنسان من الحلال سيحاسب عليه ويسأل عنه ولابد أن تكون أوجه التصرف فيه خالصة لله تعالى، وهذا ما يميز الحلال المباح في الآخرة في جنة الخلد، فعطاء الله فيها بغير حساب، فسبحانه على ما ألهم وله الشكر على ما أنعم، ولذلك فإنه سبحانه رغّبنا

في الآخرة، وأعظمها في أعيننا، وصغّر شأن الدنيا، وحقّرها في أعيننا، فالشهوات التي زينت للناس على الرغم من إباحتها، إلا أنها مجرد متاع دنيوي زائل، ومن أراد التنزه عنها والرجوع إلى الله رجوعا حسنا، فإن عند الله جزاءه، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[١].

ومن طلب حلال الدنيا واكتفى بها عن الآخرة فهو لابد يطلب ذلك من الله سبحانه فهو المالك الحقيقي لكل شيء، فعلام يطلب الدنيا والله عنده ثواب الدنيا والآخرة! أليس الأولى طلب ثواب الآخرة أولا لأنه دائم وبغير حساب، وثواب هذه زائل وبحساب شديد من لدن أسرع الحاسبين السميع البصير الذي لا يفوت عدالته شيء؟! قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٢].

ولمن أراد أن يحكم عقله في الأمور ويتقي الخسران فإن الحياة الدنيا مع ما فيها من متع تبهر الإنسان ومع كونها حلالا فهي من دون القربى إلى الله لا تعدو كونها لعبا ولهوا، فما كان منها مقربا إلى الله تعالى موجبا للارتفاع في الدرجات، والزيادة في القربات، تسليما وطهارة وتوحيدا لله سبحانه وعبودية خالصة له، فهو مدّخر للإنسان عند الله سبحانه، وإلا فما لم يكن من حلالها كذلك فهو مجرد لهو ولعب.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٤.

وهذا هو سرّ الحساب الذي لابد منه في حلالها للجزاء على ما تم فعله قربة له سبحانه وما تم فعله لهوا ولعبا، ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

وهنا نكتة طريفة أحب أن ألفت إليها: فقد قصر سبحانه الحياة الدنيا على اللعب واللهو، نعَم الدارُ الآخرةُ خَير، ولكن لمَ الدنيا مقصورة على اللعب واللهو؟ وما كان فيها من حلال يقرب إلى الله سبحانه؟! أليس هو من العبادة؟ هنا يتضح أن ما يفعله المرء من حلال الدنيا لغرض التعبد لله عزّ وجلّ لا يعدّه القرآن من الدنيا بحال! بل يعدّه من الآخرة! لأن فيه القربى إلى الله تعالى، وأما سواه وهو الحلال في غير تعبّد فيكون في اللعب واللهو.

وقد أبدى النص القرآني أَنَّ الآخرةَ خيرٌ لشريحة محددة هي شريحة (المتقين)، وهم الذين يخشون ربهم بالغيب، ويريدون وجهه، فيعملون أوامره، وينتهون عن نواهيه، ويزيدون على ذلك بالتقرب إليه بما يحب وإن لم يوجبه عليهم، وترك ما يكره وإن لم يحرمه عليهم، وفي هذا إشارة لذوي العقول، فغير المتقين سواء عندهم من الحلال ما هو مقرب إليه سبحانه وما هو من اللعب واللهو بحجة أنه حلال، ولكنهم تناسوا أن هذا الحلال عليه (حساب)، وإلا فيم يكون الحساب إن لم يكن للمَيْز في الجزاء والعطاء بين متصرف بالحلال للتقرب إليه سبحانه وبين متصرف فيه للعب واللهو؟

ثم إن الذين يريدون الحلال للَعب واللهو فهم لم يدخروا لآخرتهم شيئا، بمعنى

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.

أنهم لم يتقربوا إلى الله سبحانه بشيء ليجازيهم به في الآخرة، فوجب بمقتضى رحمته أن يجازيهم، وبمقتضى عدالته أن يكون جزاؤهم في الدنيا دون الآخرة، على أن لا يبخسهم شيئا، كأن يحصلوا على الجاه وغنى المال مثلا، يقول سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾(١).

وقد اختص هو سبحانه بمسألة الرزق من حيث البسط أو التقدير بحسب مقتضى حكمته جل جلاله، ومع ذلك فكلامه العزيز يركز معناه على أن لا يفرح الإنسان بالحياة الدنيا، فما هي إلا متاع نسبة إلى الآخرة، قال تعالى: ﴿اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾(٢).

وإذا كان أكثر ما يحب الإنسان الحصول عليه في الدنيا وبه يتفاخر هو المال والبنون، الذي هو من زينة الدنيا، فهناك ما هو خير منه من حيث الثواب وخير منه من حيث الأمل بالفوز عند الله، وهي الباقيات الصالحات، الأعمال الحسنة الصالحة التي تبقى حتى بعد فعلها، بل حتى بعد موت الإنسان فإنها تبقى مخلدة عند الله يجازي بها المرء جزاء حسنا خالدا طيبا، فالزينة هي مما يضاف إلى الشيء استكمالا أو إضافة لعناصر جماله، ولكنها ليست الشيء الجميل نفسه!، بمعنى أنها عرض وليست جوهرا، وشتان بين طالب الجَوهر وطالب العَرَض، قال سبحانه وتعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ

(١) سورة هود، الآية: ١٥.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[١]، وإنَّ هذا التوجيه هو لما حصل عليه الإنسان من نعم وكان بين يديه.

وأما ما لم يحصل عليه، ورآه عند إنسان آخر فحدثته نفسه بالرغبة فيه وتمني الحصول عليه فقد صدر بحقه توجيه آخر، هو النهي عن مدّ النظر إلى ما عند الغير من متع وإن كانت زهرة الحياة الدنيا، لأن هذه الزهرة ما هي إلا فتنة، واختبار لذلك الإنسان، فمن تعلق قلبه بحب الدنيا وزهرتها، تعلق بالخطايا والخبائث، وكان منشغلا بها غافلا عن ذكر الله، وخير من ذلك وأبقى منه رزق الله تعالى في الآخرة، قال سبحانه: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[٢].

وهنا أتذكر مقولة (إن الفقراء أحباب الله) وأجدني أفهمها على أن الله سبحانه أحب الفقراء بدليل أنه حرمهم زهرة الحياة الدنيا وفتنتها، فلعلهم لا يقدرون على تجاوز هذه الفتنة بنجاح، فأحبهم وأظهر حبه لهم بأن سلبهم موضوع الفتنة والاختبار العظيم، فابتلاهم بما هو أقل منه خطرا وهو الفقر، الذي يعذر معه المرء، ولا عذر له مع الثراء وزهرة الحياة الدنيا!

ونجد في آيات أخر تأكيدات مهمة على أن ما يؤتى الإنسان في الدنيا وإن كان حلالا فإن ما عند الله خير منه، وهنا نفهم من مقولة (ما عند الله) أي التصرف بالحلال

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣١.

قربة إلى الله تعالى ورغبة فيما عنده، ولنضرب مثالا على ذلك: فالطعام الطيب حلال، ولكن الصائم يمتنع عنه رغبة فيما عند الله من جزاء للصائمين، والمال الطيب الطاهر حلال، ولكن المتصدق ينفقه على المحتاجين رغبة فيما عند الله، وهكذا يكون تعلق الإنسان بالدنيا رأس كل خطيئة، ونفوره منها رأس كل معروف وعمل يقرب الإنسان من الله سبحانه رغبة في جزيل ثوابه أو اتقاء لأليم عقابه، وفي هذا خطاب لأولي العقول، كما يرد في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

وللمؤمنين وللمتوكلين على الله، في قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

وللمتقين في قوله سبحانه: ﴿وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

وحسبنا بذلك أدلة على ضرورة الدقة في التعامل مع حلال الدنيا بعقل مميّز، وتقوى محصنة، وإيمانٍ كافٍ، وتوكلٍ منجٍ، عسى الله أن يرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء سبحانه إنه سميع مجيب.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٥.

٢. «في حرامها عقاب»

لم يحرم الله تعالى شأنه على الإنسان إلا ما هو خبيث في جوهره، لينزهه عن الخبائث ويكفل له الارتفاع في الدرجات في مسير التكامل، وليكون ذلك منجاة له من خط التسافل الذي يغويه عدوّه الشيطان للسير فيه.

والملاحظ أن عدو الله وعدو الإنسان هو واحد وهو الشيطان الرجيم، وهذا يعني أن الله سبحانه في صف الإنسان وهو المعين له والحافظ والرازق والغافر، بل إن أسماء الله سبحانه كلها عاملة فاعلة في حركة الإنسان كما هي عاملة فاعلة في حركة الموجودات، وللإنسان أن يفيد كل طاقته من أسماء الله سبحانه ويستمد منها القوة والقدرة.

وإذ حرّم الله سبحانه الخبائث على بني الإنسان فإنه يريد منهم طاعته لصلاح أمرهم، ولكن ليس لهم أن يعصوه، فلا مسوّغ لعصيانهم، فضلا عن أنه لا نفع لهم فيه، بل الضرر أوجب، لأنهم يخالفون مجرى الأمور ومقاديرها التي قدرها سبحانه، وهي قوانين ثابتة ماضية لأنها سنته التي ليس لها تبديل ولا تحويل، فنجد مثلا أن الإنسان يكيّف نفسه وفقا لقانون الجاذبية في تصرفاته وسلوكه اليومي وحياته عامة، فيتجنب السقوط على الأرض، ويحاول أن لا يسقط منه شيء يؤدي سقوطه إلى انكساره وتلفه، وهكذا يتعايش مع قوانين أخرى مثل قانون الحاجة إلى الماء للبقاء حيّا، وقوانين الحاجات الأخرى، وقوانين الطبيعة الأخرى.. كلها حين يتعرف الإنسان عليها جيدا فإنه يتعايش معها بسلاسة، ليجنب نفسه الضرر والأذى.

فعلام يسبب الإنسان لنفسه الضرر والأذى هذه المرة بالتصادم مع قانون هو أهم

القوانين على الإطلاق في حياته، وهو قانون عبادة الله سبحانه وطاعته والتسليم له؟! مع علم الإنسان بوساطة الرسل والأنبياء وكتب الله المنزلة - وآخرها القرآن الكريم - أنه قصر خلق الإنس والجن على عبادته سبحانه، وقد وعد المطيعين منهم أفضل الجزاء مثوبة، وأوعد العاصين منهم بأشد الوعيد جزاء عقوبة لهم على ما اقترفوا، فأي مسوغ لعصيانه؟! وأي مبرر لكفران نعمته وجحود ولايته والخروج عن ربقته؟! ثم هل بإمكان الإنسان ذلك مع علمه أن الله مالك كل شيء الملك الحقيقي؟ فهو الخالق والرازق والمحيي والمميت، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن!! بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه من في السموات والأرض وكل له محضرون داخرون! فبم يكون الاستكبار؟ بل علام الاستكبار؟!

الاستكبار الذي أدّى بإبليس عليه لعائن الله إلى خزي في الحياة الدنيا لأنه ملعون على ألسنة الرسل والأنبياء والأولياء والصالحين والمؤمنين وخيرة أهل العالمين، وإلى عذاب شديد في الحياة الآخرة لأنه استكبر على جبار السموات والأرض الذي كتب العذاب على من كفر واستكبر عن عبادته، ثم إن الشيطان أراد أن يغوي الإنسان بأن يستعبده ويجرّه معه إلى النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين، فهل يرضى الإنسان بكل بساطة بهذه النتيجة التي يقوده إبليس الملعون إليها؟! نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ونزغه، الذي يزين السوء للإنسان، ويدفعه لعصيان أوامر الله تعالى، بشتى الوسائل، فهو يظهر للناس من الكافرين هيبة وسطوة في القلوب ليرسخ الطاعة لهم، حتى يخشاهم الناس كخشية الله أو أشد خشية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ

مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾.

فهو من جهة يريهم العدوَّ جبارا ليخيفهم منه، ومن جهة أخرى يزين لهم الحياة ومتاعها ليرضوا بها ويتمسكوا فلا يطيعون الله في أمر الجهاد ودفع العدو عن أنفسهم مثلا، مع أن الله يخبرهم أن متاع الدنيا قليل وأن الآخرة خير لمن اتقى الله وخَشِيَه وأنهم مهما قدموا من عطاء وتضحية فلن يظلمون منه شيئا.

وعلى أية حال فلابد لهم من الموت الآن أو بعد قليل، ولكن موتا في مرضاة الله لا يشبه موتا في معصيته! ولذلك أوجب الله سبحانه العقاب على من اتبع طريق الحرام، وكان حب الدنيا متجذرا في قلبه، لا يهمه ما يعتدي وما يرتكب، بل كل همه عرض الحياة الدنيا الزائل، فالطريق متعب، والوسيلة خبيثة، والثمن محاربة الله والاستكبار عن إرادته، والغنيمة بعد ذلك خبيث زائل لا يبقى منه شيء، إن لم يكن زواله بعد انقضاء لذته، فبعد الموت الذي جعله الله حتما مقضيا! قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[(١)].

مع أن الله سبحانه حذرنا من عرض الدنيا وقدم لنا مغانم كثيرة دائمة، وهو

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

يضرب لنا بأنفسنا مثلا إذ منّ علينا بنور الإيمان بعد ظلمات الجهل، ثم هو يبين أن الحياة الدنيا مزيّنة للذين كفروا، فالتزيين الخارجي لما هو خبيث لا يقع حبه إلا في قلب الكافر، وأما المؤمن فلا يرى من الدنيا شيئا ذا زينة! وقد ذكرنا من قبل أن ما كان مقربا إلى الله تعالى من شؤون حياتنا فهو إلى الآخرة ينسب لعلوّ فضله، وأما وصف (الدنيا) فهو من الدنوّ بمعنى القرب للإدراك، والضعة والهوان، فلا يقصد منه إلا ما كان خبيثا، ويظن الكافرون أنهم بما يُمَتَّعون خير من المؤمنين الذين يرونهم ضعفاء بأعينهم ولكنهم عند الله ورسوله أفاضل أخيار، فيسخرون من المؤمنين، ولكن المتقين لهم درجات عالية فوقهم يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب، قال سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[(١)].

ونجد أن من الناس من ينفق ما عنده من قوة مال أو قوة بدن أو أية قوة أخرى في مشاريع يستثمر قوته فيها، ولكنها مشاريع تصب في مجرى الحياة الدنيا، فيأتي كلام الباري سبحانه ليصور لنا حرمة ذلك وما سيجره للإنسان من عقاب، في مَثل مصوَّر بالبلاغة القرآنية الرائعة حيث يقول عزّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[(٢)]، فالإنفاق في غير سبيل الله ولا قربة لوجهه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

الكريم يأتي على الإنسان فيهلك حرثه، وهو هنا قد ظلم نفسه بعناده واستكباره عن طاعة الله وامتثال أوامره، ولم يظلمه الله، بل أراد به خيرا فامتنع عنه واتبع سبيل الظلم والبغي والخسار.

ففي مقابل اتخاذ الإنسان دين الله مادة للعب واللهو - أي جعل الدين لغير وجهه سبحانه خالصا له بل وسيلة للتربّح من الدنيا بالرياء والسمعة والوجاهة وكسب الأموال والمتع الزائلة - فإنه يتخذ طريق الغرور بالحياة الدنيا، وقد تبرأ الله منه فلا وليّ له ولا شفيع، فقد كفر وعليه كفره، وله عقاب شديد على ما ارتكب من محرمات، فمن عقابه شراب من حميم وعذاب أليم، وهذا جزاء الكافرين، قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾(١).

ومع إن سبيل الله تتطلب بذل الجهد وتحمل المشقة ولكن ذلك من الضرورة بمكان ليكون العمل خالصا لوجهه سبحانه، فلو صدر أمر إلهي للقيام بمتعة ما فإن الإنسان سيسارع للتنفيذ، ولكن هل ستكون طاعته خالصة لله؟ أم أنها في جزء منها ومقدار لا يعلمه إلا الله ستكون طاعة من أجل التمتع أو العلوّ أو اتخاذ الزينة وتلبية الرغبة أو اتباعه الهوى والشهوة؟! فبذلك لا تكون طاعة الإنسان لله خالصة إلا إذا تم تحييد العامل الذاتي، بمعنى أن تكون الطاعة في أمر يكرهه الإنسان بطبيعته، ولو ترك مع

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

نفسه من دون أمر لما توجه إليه، لأنه فعل لا يسبب له إلا الضرر والأذى والمشقة، ولكنه يفعله فقط لأن الله سبحانه أمره به امتثالا له وطاعة وقربة، حينئذ يظهر الإخلاص في الطاعة، والفضل في الامتثال، فيعظم قبالة ذلك الجزاء ويحسن ويدوم، قال تعالى شأنه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[(١)].

ففي هذا المثل لا يجد الناس في القتال الشديد للأعداء رغبة ولكن الله سبحانه يحرم علينا أن نريد عرض الحياة الدنيا وهو السبب في تخاذلنا عن تنفيذ أوامره، ويأمرنا باتباع ما يريده من طريق الآخرة وهو ما يسهّل علينا تنفيذ أوامره، ثم إنه عزيز فلا يمكن لأحد أن يتمرد عليه أو أن يخالفه بحال، وإنه حكيم فلا يصدر منه إلا كل ما هو خير ونافع وطيب وجميل.

وقد ضرب الله لنا في القرآن الكريم من كل مثل سبحانه، وهذا مثل آخر للذين يستنجدون بالله لينقذهم وينجيهم من الأذى الذي لا قبل لهم به، فلما أنجاهم منه سرعان ما نسوا قدرته عليهم وعلى سائر من خلق وما خلق من خلقه الصامت والناطق، فيرجعون إلى سيرتهم الأولى في البغي والظلم والعدوان، ولكنه سبحانه يخبرهم أن هذا البغي الذي يصرّون عليه إنما هو على أنفسهم وليس على الآخرين في حقيقته، لأن ما يقع من بغيهم من أذى على الناس لا يدوم فهو منته بالموت، سواء أموت الظالم أم موت المظلوم، لا محالة، ثم إنه أذى قد يمكن احتماله لأنه من إنسان والإنسان مهما قوي فهو ضعيف، ولكن الله سبحانه أعد للباغين أذى شديدا وعذابا أليما في الآخرة،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

فهل يقاس أذى البغي الضعيف القليل الزائل بعذاب الله الشديد الأليم الدائم؟!

فشتان بينهما، وليس أذى البغي إلا مما يجد فيه الإنسان متاعا دنيويا زائلا، فلولا حب الدنيا لما عمد إلى البغي ظلما للآخرين، ولكن المرجع والمصير إلى الله وعنده نبأ كل عمل عمله الإنسان، وجزاؤه الذي لابد منه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾[2].

فهل يستحق أيما شيء في هذه الحياة الدنيا أن نتحمل لأجله العذاب الشديد الأليم الدائم الذي أعدّه جبار السموات والأرض لغضبه وسخطه على الظالمين الكافرين؟!

فكيف إن كان ذلك الشيء الذي طلبناه حرَّمه علينا فعصيناه واستوجبنا غضبه وسخطه لذلك؟! ثم كيف إن كان ذلك الشيء الذي طلبناه من المتاع الهيّن القليل الزائل؟ ثم كيف يكون الوصف المناسب لفعلنا إن كان ذلك الشيء الذي سعينا لطلبه فضلا عما سبق خبيثا في جوهره لا خير فيه ولا نفع؟! أفلا نكون مستحقين للعقاب الشديد على جرأتنا في ارتكاب الحرام؟!! هذا ما يجره حب الدنيا على الإنسان، اللهم أخرج حب الدنيا من قلبي إنك سميع مجيب.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧٠.

٣. «من أبصر بها بصّرته»

البصر بالشيء اتخاذه وساطة للإبصار، والبصر بالدنيا اتخاذها عبرة للتعرف على حقائق الأمور.

ولذا يريد أمير المؤمنين عليه السلام من قوله الآنف الذكر أن من جعل الدنيا عبرة له فإنه تريه حقيقة كونها زائلة ووجوب أن يترك ما فيها، ولا يتكلف مشقة إلا لما ينجيه من غرورها، وينمي عمله إلى خير الآخرة، فهي نفسها من يرشد الإنسان إلى نبذها بما تريه من زوال نعيمها وتقلب حالها، ونَصَب طالبها، وخسران مبتغيها، ولكن من لا يريد أن يبصر بها ولا يتخذ من حوادثها العبرة ليعتبر فقد عاند عن السبيل وامتنع عن رؤية ضوء النهار، فكما أن الموت حق ولابد منه، فإنّ له أَجَلاً، وهذا الأجل لا يعلمه إلا الله سبحانه، وحتى يأتي ذلك الأجل بإذن الله فإن للإنسان أن يريد ثواب الدنيا الذي يزول مع زواله عنها، وإن الله سبحانه بمقتضى رحمته يؤتي مريد الدنيا منها، أي بعضها، أو أن يريد ثواب الآخرة الذي يبقى مع بقائها، وإن الله سبحانه بمقتضى فضله يؤتي مريد الآخرة منها أي بعضها، ولكن عنده للشاكرين المزيد من الجزاء، زيادة على ما أعد لهم في الآخرة من خير، وفي ذلك عبرة وتبصرة لمن أراد الاعتبار والتبصّر بالدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[1].

وأما من كان في الحياة الدنيا من المحسنين بمعنى أنه لا يؤتي إلا الحَسَنَ من الأمور الخالص لوجه الله، ولا يصدر عنه إلا الجميل منها، فإن الله يحب المحسنين، وبسبب حبه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

لهم فإنه يؤتيهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[(١)].

وهكذا فعند الله سبحانه الدنيا والآخرة، ولكن من أراد الدنيا فإنها منقطعة بالموت زائلة، ومن أراد الآخرة فله الدنيا والآخرة، فضلا من الله تعالى على المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

ويستمر التحذير الإلهي من الركون إلى الدنيا، ووجوب نزع حبها من قلب المؤمن لأن متاعها متاع خداع وزيف وذلك هو الغرور، ولشدة ما يقاسيه محب الدنيا يوم القيامة فإنه يتمنى لو زحزح عن النار ولو قيد أنملة! والزحزحة انتقال لمسافة قصيرة جدا بصعوبة بالغة! وهذا ينبئ بشدة عذاب النار والعياذ بالله، وهذا المشهد الرهيب لابد منه لأنه مما يجده الإنسان بعد الموت، ولو لم يكن إلا الموت لكفى، فكيف وما بعد الموت أشد وأمرّ وأدهى! قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[(٣)].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

ويبدو أن أُمَّتي الإنس والجن معنيتان بالإنذار والوعيد وليس لهما أن يستكبرا عن عبادة الله ويركنا إلى الدنيا الفانية، وقد شهد معشر الجن والإنس على أنفسهم أن رسل الله وَصَلتهم بآياته ورسالاته وَأنذرَهم باليوم الآخر، وأن من غرته الحياة الدنيا فقد خسر نفسه، وقد شهد المغترّون بالدنيا على أنفسهم أنهم كافرون، قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾(١)، ولو نظرنا في الأمثلة الكثيرة التي ترد في آيات الله سبحانه لوجدنا أنها تصور لنا بأروع تصوير وأجمل هيأة وأبلغ عبرة حال الدنيا وطلابها ومحبيها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢)، فمثل الحياة الدنيا مرتبط بنزول أمر الله نحو الأرض على نحو يشبه نزول الماء من السماء، ولنذكر هنا نزول آدم عليه السلام من الجنة، ونزول الروح والملائكة، وحين نزل الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي اختلط مع نبات الأرض، نبات الأرض الذي تأكل منه الناس والأنعام.

فمبدأ الحياة منه سبحانه، ولكل بدء منتهى، فالبدء يعني الحدوث، ولابد لكل

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.

حادث من انقطاع وانتهاء، وحين تنمو الحياة من الماء في النبات، ثم تنمو من النبات في الناس والحيوانات، ثم تزهو وتتزين هذه الحياة نماء في عمرانها وانتشارها وقوتها، يظن أهل الدنيا الطالبون لودّها أنهم قادرون عليها وأنهم يسيطرون على الوضع تماما فيها، وأن كل شيء تحت تصرفهم، ولكن هيهات!! فلابد من أمر الله سبحانه الذي أذن لها بالبدء أن يأمرها بالانتهاء، من دون أن يعلم أحد موعد هذا الأمر لتسود حالة من القلق والرعب قلوب أهل الدنيا، ويبقون مترقبين لا يهنأ لهم بال في عيش، لأنهم آثروا الحياة الدنيا واطمأنوا لها وتركوا الآخرة والعمل لها، فإذا جاء أمر الله جعلها حصيدا، فإذ مثّل سبحانه بالزرع ونمائه حتى يصبح زاهيا عند بدء الحياة، فقد مثّل انتهاءها بمشهد ما بعد الحصاد، فالحصيد هو الزرع بعد حصاده، فلا ثمر ولا محصول باقٍ، ولا شجر ولا سيقان ولا أوراق، ولا أمل في شيء من ذلك الزرع! وكأنه لم يكن عامرا غنيا بالأمس!

وهذا التفصيل في ذكر المثل هو لتيسير الاعتبار لمن يتفكر في آيات الله سبحانه عسى أن يراجع نفسه ويعود ليقرر نبذ الحياة الدنيا ليطهّر قلبه من الخطايا التي يجره إليها الشيطان الرجيم بوساطة حركته الناجمة عن حب الدنيا ومتاعها الزائل واتباع الشهوات وما يتزين للإنسان من غرورها وخداعها، وهذا المثل في تصوير النبات مخضرا ثم مصفرّا حطاما يشمل الدنيا ومحبيها وما يتزين لهم منها فيعجبهم فيعملون للحصول عليه، فيفرطون بوسعهم من العمل وطاقتهم فلا يحصلون من الآخرة على شيء، فيجدون ما حصّلوا حطاما، لا يغني عنهم في شيء من بلاء الآخرة، قال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

ولا يكتفي سبحانه بإيراد الأمثلة مفصلة بل يوردها مجملة أيضا لاختلاف المخاطبين من حيث مستويات الإيمان والإنكار، والطاعة والعصيان، فأهل الإنكار يسوقهم للتفكر والتدبر والتعقل في آياته، وأهل الإيمان يدعوهم لمزيد من الطاعة لعظمته واقتداره، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾[2].

وتستمر الدعوة للتبصّر بالدنيا والاعتبار من حوادثها وما عوّدت أهلها عليه من الغرور والخذلان والخداع وسوء العاقبة، على خلاف بيّن من وعد الله الذي لابد منه، بأن من أطاعه وأراد الآخرة فإن الله سيجزيه حسنا وأن من عصاه وأراد الدنيا فما له في الآخرة إلا العذاب، قال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

(٣) سورة القصص، الآية: ٦١.

إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ ﴾[١].

فأي غرور وخداع أكثر من صرف العمل والطاقة والوسع في اللهو اللعب وترك الحياة الحقيقية الدائمة؟ قال تعالى: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

وأي وهم أكبر من متاع الدنيا التي يمر منها الناس مرورا فينخدعون بها ويظنون أنها باقية، فيصدهم الشيطان - وهو عدوّهم - بذلك عن دار قرارهم والاعداد لها؟! قال تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾[٣].

وما يمنع الناس أن يؤمنوا ويتقوا وقد وعدهم الله إن هم أرادوا الآخرة بأن يعطيهم الدنيا والآخرة معا ولا يسألهم شيئا مما أعطاهم من الأموال؟، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾[٤]، بل لقد وعد سبحانه بالمزيد من الأجر والثواب لمن أراد الآخرة، وليس لمن أراد الدنيا واكتفى بها في الآخرة من نصيب، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[٥].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٣) سورة غافر، الآية: ٣٩.

(٤) سورة محمد، الآية: ٣٦.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

وليس أعظم عبرة من التبصّر بالدنيا، فهي تقدم حقائق ما تكنّه للاجئين إليها ولا تخفي عن طلابها شيئا، فتحفظ ذاكرتُها خِداعَها، وتقدم أمثلتها من الأمم السالفة وقيعتها بهم وغدرها لمن اطمأنوا لها، وكل يوم يشاهد الإنسان مخدوعا بها مغترّا سلبته ما كان بين يديه من قوة، وأرغمت أنف جبروته في تراب القبر، عاريا من المال والأولاد الذين كان يفاخر بهم ويتقوى بهم على الناس، وتأخذه بهم عزة القوي فيتكبر على الله الذي أمره بالتواضع للمؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾[1].

ولكن من أين سيأتي ذلك المغتر بالله المتفاخر بأولاده وكثرتهم من أين سيأتي بالعزة ولله العزة جميعا؟! وماذا يغني عنه ماله وأولاده يوم لا ينفع مال ولا بنون؟ أليس الأجدر والأولى التصديق بوعد الله وعدم الاغترار بالدنيا والانخداع بخدع الشيطان عن طاعة الله سبحانه؟ أليس ما تحاول الدنيا إراءته لمن بَصُرَ بها وجعل حوادثها أمثلة اعتبار لنفسه، هو الحق؟ أليس ما يراه من حقّق النظر في ما آلت إليه مصائر أهل الدنيا هو خزيهم وافتضاحهم في الحياة الدنيا وعذابهم الأليم في الآخرة؟! أجارنا الله من سخطه وأغنانا عن سبل الغرور برحمته وفضله إنه سميع مجيب.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

٤. «من أبصر إليها أعمته»

من جعل بصره بالحياة الدنيا محدقا، وإليها مصوّبا، أعمته عن رؤية الحق، وحجبت عن بصيرته مقاصد نجاته وموارد فوزه، فهي تصلح ممرا لسواها ولا تصلح مقرا في ذاتها، وسيلة للنظر بها وليست للنظر إليها.

فمن أبصر بها اعتبر، ومن أبصر إليها اغترّ وغرته وتزينت له وأردته، والمبصر بها مُسائِلٌ حريٌّ بها أن تجيبه بما حوت من المثلات، والمبصر إليها مغرور بها ماكث عندها قاصر طرفه عليها، فحريٌّ بها أن تتزين لبصره، وتعمي قلبه، وتشغله عن ذكر الله سبحانه، فيكون انشغاله بالحياة الدنيا ملهاة له عن الآخرة، فليس له إلا العذاب بما انشغل من متاع الدنيا دون الالتزام بأوامر الله والانتهاء عن نواهيه، قال تعالى: ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[١].

ونجد أن المبصر إلى الدنيا معجبا طالبا لها ليس له في الآخرة من شيء، خلاف من يسأل الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وكل همه في أن ينقذه الله سبحانه من النار وعذابها الشديد، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ (٢٠٠) وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٦.

حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[(١)]. فأية غفلة يعيشها أولئك الذين لا يرجون في عملهم لقاء الله سبحانه وهو عنهم راضٍ؟! واطمأنوا بما حصلوا في الحياة الدنيا مع علمهم بزوال الدنيا وما فيها وخروجهم منها صفر اليدين؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[(٣)]، ونجد من تَحُولُ الدنيا وحُبُّها بين قلبه وبين مرضاة الله بطاعته وامتثال أوامره، فيصُدُّه طلبُ الدنيا عن طلب الآخرة، متثاقلا عن تنفيذ أوامر الله سبحانه، متعلقا قلبه بالدنيا ومتاعها القليل الزائل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[(٤)].

وأما من قَصر بصرَه على الحياة الدنيا فقد جعل همه في تحصيل متعها، مبتعدا عن التقرب إلى الله بالعمل الصالح، بل هو يجد في دين الله سببا للهو واللعب، وذلك أن يستعمل الدين في تحصيل جاه أو سمعة أو رياء أو تفاخر أو علوّ أو تكبر، ولا يحب الله سبحانه من التدين إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم، وما كان مخلوطا بمطلب دنيوي فإن

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٠-٢٠١.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧.

(٣) سورة الروم، الآية: ٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

أجره يكون في الدنيا، ونجد كثيرا من الناس يعملون عمل الآخرة ولكنهم يطلبون به الدنيا، فيؤتيهم الله الدنيا، وما لهم في الآخرة من شيء لأنهم اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ولم يتخذوه وسيلة للنجاة في الآخرة، بل لقد نسوا اليوم الآخر، وجحدوا بآيات الله لأنه لم يجعل آياته للعلوّ في الأرض ولا للتكبّر، بل للتواضع والتذلل لله، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[1]، هذا لمن كان متعبدا بدين الله ولكن لمطالب دنيوية.

وقد أمرنا الله سبحانه بالصبر مع الذين يريدون وجه الله بعبادة خالصة، ولزوم أمرهم، وعدم طاعة الغافلين عن ذكر الله سبحانه الذين اتبعوا أهواءهم وفرطوا في أمر آخرتهم، قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾[2].

وأما من لم يكن متدينا أصلا وطلب متع الدنيا مباشرة دون حريجة في دين الله أو تحسبا لحرامه وعقابه، مكتفيا بمتع الدنيا الزائلة عما أعده الله سبحانه للمؤمنين المتقين في الآخرة، راضيا مطمئنا بالحياة الدنيا قاليا للآخرة معرضا عنها، فأولئك قد أذهبوا طيباتهم حين استمتعوا في الدنيا وأعرضوا عن الآخرة، ولأنهم استكبروا بذلك

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

عن عبادة الله، فلابد أن جزاءهم عذاب الهون بما استكبروا، فقد (حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره» كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وأولئك اتبعوا الشهوات فأوردتهم النار، وأعرضوا عن المكاره مع علمهم برضا الله معها، وسخطه مع الشهوات، فكانوا بذلك فاسقين فحق عليهم العذاب المهين، قال تعالى:** ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[1]».

وأولئك هم الذين ابتعدوا في ضلالهم إلى أقصى حدّ، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فما الذي وجدوه في الدنيا ليعجبهم مع كل ما فيها من أدلة للعقلاء على تصرّمها وانقطاعها وزوالها وغرورها وخداعها وعاجل انقضاء متاعها؟

وهي التي أولها عناء وآخرها فناء كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام!، وليس لطالبها إلا الشقاء وسوء العاقبة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٧.

بل نجد أن من المبصرين إلى الدنيا المتحلقين حولها من يتخذون آيات الله وذكره الآخرة هزوا جهلا منهم وبغيا، اغترارا بغرور الحياة الدنيا وانخداعا بحبائل مكر الشيطان فيها، قال تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(١).

ونجد فئة أخرى بلغ بهم الضلال حدا أنهم التبس عندهم الحق بالباطل، فينادون على باطلهم بدعوة الحق، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، وكان سعيهم في ضلال وجدّهم في خسران، وليسوا على شيء من الحق، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾(٢).

وهناك فئة لم يطمئنوا للدنيا فحسب، بل اتخذوا من دون الله أوثانا، وأسسوا لأنفسهم نظاما دينا غير دين الله، فيه معايير خاصة، وقيما معينة، يتفاضلون بالأولاد والأموال، ويحتكمون إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا بها، ويعملون المنكر مجاهرين غير مبالين ولا نادمين.

وتلك الأوثان التي اتخذوها منها الجامد ومنها الناطق من إنسان أو جان أو حيوان، من أموال أو أنساب أو عصبيات جاهلية، هي عندهم أشد حريجة من دين الله الذي نبذوه وراء ظهورهم، فيتنادون بالنار ولا العار، لإنكارهم نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ولصغر سخطه - وهو جبار السموات والأرض - في أعينهم

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

لضلالتهم وكفرهم، ولإقرارهم حميّة المودة التي بينهم وعلاقتهم التي تعاهدوها فهي تقود مصائرهم بعصبية جاهلية من حميّة الشيطان الرجيم، وعظمة أثر تلك الحميّة في نفوسهم بغيا بينهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[1].

ولن يجدوا ناصرا ينصرهم من دون الله سبحانه يوم القيامة، وإنّ لهم أن يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا كما وعد الله سبحانه، وهو لا يخلف الميعاد.

وليس لمثل أولئك إلا الخزي والهوان في الدنيا والعذاب في الآخرة، فكلما مدّ الله لهم في الأموال والزينة في الحياة الدنيا طغوا عن أمر ربهم، وأضلوا من تبعهم من الناس، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[2].

فلا يصلح أمر أولئك إلا أن يطمس الله على أموالهم، ويشدد على قلوبهم ويسيقهم إلى العذاب الأليم، نعوذ بالله ونستجير به من سخطه، ونسأله رضاه والمكوث قرارا في عرصة نور عنايته، والبقاء في دائرة ضياء رعايته إنه سميع مجيب، ببركته وببركة الصلاة على محمد وآله الطاهرين.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٨.

وهكذا فإن حب الدنيا يستتبع علوق الخبائث بالقلب بسبب تعلق هذا الحب بالخطايا، وفي حديث مشهور لأمير المؤمنين عليه السلام مع أحد أصحابه يوضح له هوان الدنيا عند الله بأنه حرم منها أعظم رسله وأكرم أنبيائه وأحب خلقه وأقربهم منه محمدا صلى الله عليه وآله، ولو كان للدنيا شأن عنده سبحانه لقدمها له، ولكنه حرمه منها وادخر له خيرا منها الآخرة والمقام المحمود الذي وعده فيها، وإن تطهير القلب تطهيرا شاملا يعتمد على إخراج حب الدنيا منه الذي هو رأس كل خطيئة، مما يمكنه من الخلوص لله سبحانه، والإخلاص له في النية والإرادة، فيكون القلب سليما معافى بإذن الله تعالى، ولا يحتاج إلا إلى إدامة هذا التطهير والمحافظة عليه.

المرحلة الثالثة

وهي مرحلة إدامة التطهير والحفاظ عليه، وهي من أصعب المراحل.

ومنشأ صعوبة هذه المرحلة أن القلب ترد عليه خواطر الشيطان، وتعرض عليه نزغاته، فلابد للقلب من التحصّن في حصن منيع من مكائد الشيطان الرجيم هو وأولياؤه، وذلك بالعبودية لله سبحانه وتعالى، فإن كيد الشيطان كان ضعيفا، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾(1)، ولكنه ضعيف نسبة إلى كيد الله العزيز المقتدر، وإلا فإن كيد الشيطان الضعيف قد يوقع الإنسان في حبائله ويجره إلى النار، إلا إذا كان الإنسان ملتجئا إلى عزة الله بالعبودية الخالصة له، فعندئذ لا يستطيع أن يؤثر فيه كيد الشيطان الرجيم شيئا، قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾(2)، وقال سبحانه: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾(3).

---

(1) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(2) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.

(3) سورة القلم، الآية: ٤٥.

وليس من كافر إلا والله يوهن كيده أمام عبيد الله المخلصين له بالعبودية والطاعة والتسليم لأمره، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾(١)، بل إن من يكيدون للمؤمنين فإنهم في حقيقة الأمر يكيدون لأنفسهم وما يشعرون، لأنهم يعادون الله سبحانه، ويوالون الشيطان الرجيم عدو الله وعدوهم، وهو موردهم إلى النار فهي مثوى لهم، فكيدهم مردود في نحورهم، قال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾(٢).

وهنا أجدني محتاجا إلى ذكر ما ينبغي فعله ليكون ابن آدم مداوما على طهارة القلب، مستمرا في مسير تكامله إلى الله سبحانه، ولأوضح فكرتي بالشكل الآتي:

إذا سلّمنا بأن صلاح الإنسان وطهارة قلبه مرتبطان بمنزلته التي وصل إليها من مسيرته في التكامل، بما أن مسيرته التكاملية طويلة وشاقة وذات منازل، ولابد أن هناك منزلة معينة أو أكثر يمثل الوصول إليها والثبات عندها منطلقا لمنازل أكثر تقدما، وبما أن لكل منزلة درجات، إذن فلنتكلم على المنازل التي ينبغي على الإنسان السعي إليها، وبما أن لكل نتيجة مقدمة، فلنتكلم على المقدمات لتلك المنازل، بمعنى شروط الحد الأدنى الواجب توافرها للانطلاق نحو المنزلة المنشودة، وسأذكر هنا بعضا من تلك المقدمات والنتائج، مستويات الحد الأدنى للانطلاق، والمنازل المطلوب الوصول إليها:

١. الرجولة تعني مواصفات معينة من أهمها الصدق والثبات على الحق، ويبدو

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٨.

(٢) سورة الطور، الآية: ٤٢.

أن من المنازل المهمة في مسيرة التكامل والحفاظ على طهارة القلب منزلة تتمثل بذكر الله وعدم اللهو عنه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والخوف من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، إنها منزلة الذاكرين، ولكن الانطلاق إليها يتطلب تحقق الرجولة، أي الصدق والثبات على الحق، وهي منصة انطلاق متاحة ويسيرة، ومنها يمكن الوصول إلى منزلة الذاكرين، فكل ما عليك أن تكون رجلا، وهذا يكفي لتكون من الذاكرين! قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾[1].

وقاعدة الرجولة يمكن الانطلاق منها أيضا إلى منزلة المتطهرين، وهي منزلة تستوجب حب الله، لأنه يحب المتطهرين، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[2]، فبمعرفة أهمية الرجولة والاتصاف بها، ثم السعي إلى الذكر أو التطهر، يحقق الإنسان لنفسه منزلة مهمة تجعله في الاتجاه الصحيح نحو الغاية العظمى وهي الله سبحانه، وعلى الصراط المستقيم محافظا على التطهر القلبي.

٢. وهناك من المنازل ما هو أهم وأكثر رفعة في مسيرة التكامل، ولذا فإن مستوى

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١٠٧ـ١٠٨.

الحد الأدنى المطلوب لها أو ما أسميته (منصة الانطلاق) هو أن يكون المرء مؤمنا، فمن كان مؤمنا يمكن له أن ينطلق إلى عدد كبير من المنازل وكلها ترتكز ابتداء على تحقق الإيمان، فالإيمان منصة انطلاق واسعة الأفق، وترتبط رفعة وتكاملا بعدد كبير ومتنوع من المنازل.

فمنها منزلة القتال في سبيل الله التي توجب البشرى والفوز العظيم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1].

ومنها منزلة عظيمة يجعل الله سبحانه فيها رسوله الكريم الذي بلغ منزلة قاب قوسين أو أدنى يخفض جناحه للمؤمنين الذين اتبعوه، لمجرد أنهم مؤمنون! قال تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

وللمؤمن منزلة أن الله يغضب على من يقتله ويلعنه ويجعل جزاءه جهنم خالدا فيها وأعد له عذابا عظيما، فتصور أيها المؤمن حجم أهميتك عند الله تعالى وشدة دفاعه عنك! وانظر إلى ما أعده من عقوبته وغضبه على من يقتلك أو يؤذيك أو يفتنك! قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ

---

(1) سورة التوبة، الآية: 111.

(2) سورة الشعراء، الآية: 215.

وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾[٤].

ومنازل الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر المقيمين الصلاة المؤتين الزكاة المطيعين الله ورسوله كلها تتطلب الانطلاق من منصة الإيمان، وهي منازل تستحق من الله الرحمة، وهي بالتأكيد جائزة عظيمة، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٥]، ومن كان مؤمنا فقد حاز وعدا صادقا من الله سبحانه بجنة الخلد، ومساكن طيبة في جنات عدن، وأكبر من ذلك رضوان من الله!

فكم أنت محظوظ أيها المؤمن بما هو متاح لك من المنازل! قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٤) سورة البروج، الآية: ١٠.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٧١.

جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [١]، وحين يريد المرء التوبة وهو مؤمن يحق له ذلك وإن الله يتوب عليه لمجرد كونه مؤمنا، قال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [٢].

والمؤمن أيضا مشمول بدعاء الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله بالاستغفار، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [٣]، ومشمول أيضا بوعد الله سبحانه بدخول جنات الخلد وأن يكفر عنهم سيئاتهم، قال تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [٤].

وللمؤمنين جعل الله نورا يسعى بين أيديهم ولهم بشرى الخلود في الجنة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٥]، وهم

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٣.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٤) سورة الفتح، الآية: ٥.

(٥) سورة الحديد، الآية: ١٢.

مشمولون كذلك بدعاء نوح عليه السلام مستغفرا لهم، قال تعالى حكاية عن نبيه الكريم نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾[١]، وشملهم أيضا بدعاء نبيه ابراهيم عليه السلام، من الأمن ورزق الثمرات، قال تعالى حكاية على لسان ابراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٢].

ومعلوم أن دعاء الأنبياء مستجاب لكرامتهم على الله سبحانه، ولأنهم لا يسألونه شيئا إلا عن علم مما علمهم وحكمة، وقد سمح الله رب العزة سبحانه للمؤمنين بمخاطبته وهذا لوحده مقام عظيم، ثم سمح للمؤمنين بدعائه طالبين كشف العذاب عنهم لمجرد أنهم مؤمنون، قال تعالى حكاية على لسان المؤمنين: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[٣]، وهنا نتبين أن العذاب قد يشمل المؤمنين لفتنة أصابت قومهم وشملتهم كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٤]، أو لأي سبب آخر، فيمكن للمؤمنين أن يخاطبوا الله سبحانه ويطلبوا منه كشف العذاب عنهم، وهذه مجرد أمثلة ليست للحصر.

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٣) سورة الدخان، الآية: ١٢.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

وهكذا نجد أن منزلة المؤمن منزلة واسعة الأفق، يمكن له من خلالها الانطلاق إلى عدد كبير من المنازل بالسعي والاستقامة والثبات والعزم، ألسنا ندعو في كل دعاء للمؤمنين؟ فكل مؤمن إذن يدعو له الله من في مشارق الأرض ومغاربها من المؤمنين! وله أكثر من ذلك لولا أن المقام لا يتسع لهذا الموضوع الذي يحتاج بحثا منفصلا بنفسه، فلله الحمد والشكر قدر ما ينبغي له ويليق بكرمه وجوده ونعمه إنه هو العزيز الكريم.

٣. وحين تكون منصة الانطلاق مع الإيمان صفة الرجولة التي تضم الصدق والثبات، فإن الغاية ستكون الله حتما، والدرجة ستكون (وما بدلوا تبديلا)، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1]، أما إذا كانت منصة الانطلاق متشكلة من الإيمان وعمل الصالحات، فإن المحصلة ستكون (الدرجات العلى)، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾[2]، وتكون الدرجة (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١].

ووله جزاء الحسنى واليسر من الأمر، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾[٢]، وله جزاء الضعف والأمن في الغرفات من الجنة وهي درجة عظيمة، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾[٣]، فهنيئا للمؤمنين الذين يعملون الصالحات وهم مُغبطون على منزلتهم.

٤. وحين يقرن الإنسان توبته بالإيمان والعمل الصالح، فقد استحق دخول الجنة، قال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾[٤]، وأن يبدل الله سيئاته حسنات، بمعنى أنه تحسب له حسناته حسنات، وتحسب له سيئاته حسنات أيضا! وسبحان الكريم الحليم الذي قال: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾[٥]، وإن من كانت هذه درجته فإنه يرجى له أن يكون من المفلحين، قال

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٨.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٧.

(٤) سورة مريم، الآية: ٦٠.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾(١).

ومنزلة المفلحين عظيمة جدا، يبدو أنها يتم التوصل إليها بعدد من الوسائل منها أن ينطلق الإنسان من منصة ثلاثية تضم التوبة والإيمان والعمل الصالح، ولو أمعنا النظر في وصف القرآن الكريم للمفلحين فسنجد أنهم متقون مؤمنون بالغيب مقيمون للصلاة منفقون مما رزقهم الله موقنون على هدى من ربهم، وهذا يعني أن منزلة المفلحين تضم كل تلك المنازل وتربو عليها، بل تتحول تلك المنازل إلى درجات في ضمن منزلة المفلحين، ونجدها مفصلة مجموعة في قوله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٢).

ونجد أن من درجات منزلة المفلحين درجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٣)، وأن المفلحين قوم ثقلت موازينهم، قال تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٤)، وقال

---

(١) سورة القصص، الآية: ٦٧.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٢ـ٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٨.

تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١]، ويأتي التفصيل في درجة المنفقين مما رزقهم الله ضمن منزلة المفلحين في قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢]، وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

وإن من درجات المفلحين درجة السمع والطاعة لله ورسوله إذا دعاهم، وهي درجة عالية لمن وعى قيمتها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٥]، والمفلحون أيضا منهم من يحوز درجة المجاهدين، قال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٤) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٥) سورة النور، الآية: ٥١.

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١]. ومن منازل المفلحين أيضا أن يكون المفلح مُنْضَمًّا إلى حزب الله، وأن يجافي من حادّ الله ورسوله ولو كان من ذوي القربى، قال تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٢].

فأية منزلة عظيمة ورفيعة هي منزلة المفلحين؟، وكم هي درجاتها عالية ومقربة من الله ورسوله؟! وهي منزلة ترجى لمن تاب وآمن وعمل صالحا! سبحانك اللهم وبحمدك وفقنا لهذه المنزلة إنك ولي التوفيق.

٥. أما إذا كانت منصة الانطلاق رباعية تتضمن التوبة والإيمان والعمل الصالح ثم الهدى، فإن المنزلة القادمة ستكون منزلة الغفران، قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[٣]، وكذلك حين تكون منصة الانطلاق مؤلفة من العلم والإيمان والعمل الصالح والصبر فإن المحصلة ستكون ثواب الله غير المحدود، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٨.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٣) سورة طه، الآية: ٨٢.

يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾[١]، ربنا تباركت وتعاليت.

٦. وقد تكون منصة الانطلاق التقوى، وللمتقين آفاق أكبر وأرحب سعة، وجوائز لا يعلمها إلا هو سبحانه، فمنها أن من انطلق من منصة التقوى تكون له وراثة الجنة، والوراثة كما هو واضح هي انتقال الإرث من مالكه إلى الوارث من غير مشقة ولا كدّ، وبيسر وسهولة، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾[٢].

وللمتقين رزق من الله من حيث لا يحتسبون ولهم مخرج من كل ضيق جعله الله لهم خاصة، قال تعالى من سورة الطلاق: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لله ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾[٣].

وقدّر الله سبحانه إنَّ المتقين في جنات وعيون، وهو لم يقل أن هذه الحال هي مستقبلهم الآتي، بل لقد أكّد كونهم في تلك الجنات، على نحو التحقق الفعلي، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[٤]، وجعلهم سبحانه أيضا على نحو التحقق

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٠.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ٢-٣.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٥.

الفعلي غير المقترن بزمن معين بل ورد على إطلاقه في مقام أمين، وفصّل القول في ذكر حالهم تشويقا لمنزلة المتقين، وما أعد الله لهم جزاء وصولهم إلى منزلة المتقين من الفوز العظيم قال تعالى من سورة الدخان: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

ونجد أن الله سبحانه قد جعل منزلة المتقين متقدمة على منزلة سابقة هي منزلة المحسنين، فلابد لمن يريد أن يكون من المتقين، أن يكون قبل ذلك من المحسنين، قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾[2]، وقال تعالى في سورة الطور مبينا استحقاق المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[3]، وقال تعالى في سورة المرسلات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا

---

(١) سورة الدخان، الآيات: ٥١ـ٥٧.

(٢) سورة الذاريات، الآيتان: ١٥ـ١٦.

(٣) سورة الطور، الآيات: ١٧ـ٢٠.

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾(١)، وقال تعالى في سورة القمر: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾(٢).

وجعل سبحانه للمتقين البشرى من رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾(٣).

٧. ومنزلة المحسنين هي منزلة كريمة، تستتبع حب الله سبحانه، وهنيئا لمن أحبه الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٧).

---

(١) سورة المرسلات، الآيات: ٤١-٤٤.

(٢) سورة القمر، الآيات: ٥٤-٥٥.

(٣) سورة مريم، الآية ٩٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

(٧) سورة المائدة، الآية: ١٣.

ولا يضيع عند الله للمحسنين أجرهم، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١]، ويؤتي الله سبحانه المحسنين جزاء إحسانهم الحكم والعلم، وهو جزاء وفير، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٣]، والمحسنون يفوزون بمعية الله سبحانه فهو معهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤]، هذا غير أن منزلة المحسنين تمكن من السعي إلى منزلة المتقين، فهنيئا لمن كان من المحسنين، اللهم اجعلنا والمؤمنين ومن قرأ حديثنا هذا منهم يا رب العالمين.

٨. وأما منزلة الذاكرين الذين اختصوا بالحضور ولم ينلهم الغياب فإن الانطلاق إليها يمكن أن يتم من منصة يسيرة، وهي حضور القلب، أو الاستماع حال الشهادة والحضور، بمعنى التسليم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٥].

فلكل جعل الله قلبا، فلم جعل مقدمة الذكرى لمن كان له قلب؟ هل هي منزلة

---

(١) سورة هود، الآية: ١٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٢.

(٣) سورة القصص، الآية: ١٤.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٥) سورة ق، الآية: ٣٧.

عامة مفتوحة لكل من له قلب؟ طبعا المقصود هو من كان له قلب حاضر سليم، وإلا فمن كان قلبه أعمى أو عليه رين أو قفل، فلا يعد حاضرا، وليس له أن يطالب بمنزلة الذاكرين، ولن تنفعه الذكرى، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقال تعالى في سورة الأعلى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾[2].

فالذكرى تنفع المؤمنين فقط، ولا يتذكر إلا من يخشى، وأما الأشقى الذي مصيره النار فهو يتجنب الذكرى، فإذن تكون منزلة الذاكرين لمن كان له قلب، بمعنى القلب السليم الحاضر غير الغائب، وكذلك تكون هذه المنزلة لمن جعل سمعه مصغيا لقول الحق شهيدا على قومه المخالفين لأمر الله، وهذا يعني أنه هو نفسه أصبح جزءا من أمر الله سبحانه، بعد أن حضر وشهد ممتثلا لأمر الله، ليكون شهيدا على غيره، ولله الحمد من قبل ومن بعد.

هذه نماذج من المنازل والدرجات التي يمكن لمن أراد الوصول إليها، ومستلزمات الحد الأدنى للانطلاق إليها، قدمناها على عجالة في طيّ موضوعنا الأصلي وهو عن الحضور القلبي، وموضوع المنازل والدرجات ومنصات الانطلاق إليها يستحق أن يفرد له كتاب وحده، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله كما يقولون، ولله الشكر بقدر ما ينبغي لوجهه الكريم، والحمد عدد ما خلق وأنعم إنه حميد مجيد.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الأعلى، الآيات: ١٠-١٢.

المبحث الخامس

من أحوال القلب

وهنا نحاول استعراض الأحوال التي تعرض للقلب بعد التطهير، وكيف يمكن التعامل معها للحفاظ على طهارة القلب من نجاسات الخبائث المرتبطة بحب الدنيا والميل للشهوات واتباع الشيطان الرجيم، وما هي الأحوال الطيبة التي تقابلها:

حال الامتناع والتفريط وتقابلها

حال التقبل والوعي والحفظ

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوّاً للهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾[(١)].

وهنا كلامه العزيز سبحانه في معرض الرد على اليهود لأنهم رفضوا ما أنزل على الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، بادعاء أن السبب في امتناعهم القبول

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

بالقرآن الكريم وتفريطهم بالخير الذي فيه هو معاداتهم لجبريل عليه السلام، فيأتي كلام الله العزيز الحكيم (للدلالة على أن القرآن كما لا شأن في إنزاله لجبريل وإنما هو مأمور مطيع كذلك لا شأن في تلقيه وتبليغه لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أن قلبه وعاء للوحي لا يملك منه شيئا وهو مأمور بالتبليغ)[١].

فقد نزل به جبريل عليه السلام بأمر من الله سبحانه، وكان له قلب النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وعاءً حَفَظَه، فصار واسطة للفيض والرحمة إلى البشرية، بل إلى العالمين جميعا، (إن الله سبحانه يجيبهم في القرآن وفي جبريل معا في الآيتين وما ورد من شأن النزول يؤيد ذلك فأجاب عن قولهم: إنا لا نؤمن بالقرآن لعداوتنا لجبريل النازل به:

أولا: أن جبريل إنما نزل به على قلبك بإذن الله لا من عند نفسه فعداوتهم لجبريل لا ينبغي أن توجب إعراضهم عن كلام نازل بإذن الله.

ثانيا: أن القرآن مصدق لما في أيديهم من الكتاب الحق ولا معنى للإيمان بأمر والكفر بما يصدقه.

ثالثا: أن القرآن هدى للمؤمنين به، ورابعا أنه بشرى وكيف يصح لعاقل أن ينحرف عن الهداية ويغمض عن البشرى ولو كان الآتي بذلك عدوا له.

و أجاب عن قولهم: إنا عدوّ لجبريل أن جبريل ملك من الملائكة لا شأن له إلا امتثال ما أمره به الله سبحانه كميكال وسائر الملائكة وهم عباد مكرمون لا يعصون الله

(١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي: ١: ١٣١.

فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكذلك رسل الله لا شأن لهم إلا بالله ومن الله سبحانه فبغضهم واستعدائهم بغض واستعداء لله ومن كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ لهم، وإلى هذين الجوابين تشير الآيتان)[١].

فالحال التي مثلتها قلوب الكافرين هي حال الامتناع عن القبول بالقرآن الكريم، والتفريط بالخير الذي فيه، فهم الكافرون المعادون لله والعياذ به من هكذا حال، وقد بلغت قلوبهم حالة موغلة في الكفر، وتقابلها حال قلب الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله، حالة الوعاء للقرآن وما فيه من رحمة، وحفظه، وتقبله لنقله إلى العالمين، وشتان بين الحالين!

ونرى أنهما حالان يمثلان أنموذجين متباينين بدرجة (١٨٠)، أي أنهما على طرفي نقيض، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هما يمثلان أعلى قمتي الهرمين، هرم الكفر وهرم الإيمان، هرم التفريط والامتناع وهرم التقبل والحفظ والوعاء، إلى درجة أن الأنموذج القلبيّ الممتنع يعلن حربه على الله ورسوله وملائكته وكتابه جهراً!! والأنموذج القلبيّ المتقبّل الواعي الحافظ يشهد له الله سبحانه بأنه يمثله ولا يعمل إلا بأمره، فهذان القلبان على أشدهما تنافرا وتباعدا حتى الاقتتال!

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي: ١: ١٣١.

حال النفاق وتقابلها حال الإخلاص

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[1].

هذه الآيات المباركة تعرض لنا أنموذجين لحالين قلبيين، حال القلب المنافق وحال القلب المخلص، و(هذه الآيات تقسمهم من حيث النفاق والخلوص في الإيمان...، قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴾، أعجبه الشيء – أي راقه وسره، وقوله: في الحياة الدنيا، متعلق بقوله: يعجبك، أي إن الإعجاب في

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٠٤–٢٠٧.

الدنيا من جهة أن هذه الحياة نوع حياة لا تحكم إلا على الظاهر، وأما الباطن والسريرة فتحت الستر ووراء الحجاب، لا يشاهده الإنسان وهو متعلق الحياة بالدنيا إلا أن يستكشف شيئا من أمر الباطن من طريق الآثار ويناسبه ما يتلوه: من قوله تعالى: ﴿ ...وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ... ﴾، والمعنى أنه يتكلم بما يعجبك كلامه، من ما يشير به إلى رعاية جانب الحق، والعناية بصلاح الخلق، وتقدم الدين والأمة وهو أشد الخصماء للحق خصومة وقوله: ألدّ، أفعل التفضيل من لدّ لدُودا إذا اشتد خصومة، والخصام جمع خصم كصعب وصعاب وكعب وكعاب، وقيل: الخصام مصدر، ومعنى ألد الخصام أشد خصومة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا... ﴾، التولي هو تملك الولاية والسلطان، ويؤيده قوله تعالى في الآية التالية: أخذته العزة بالإثم، الدال على أن له عزة مكتسبة بالإثم الذي يأثم به قلبه غير الموافق للسانه، والسعي هو العمل والإسراع في المشي، فالمعنى وإذا تمكن هذا المنافق الشديد الخصومة من العمل وأوتي سلطانا وتولى أمر الناس سعى في الأرض ليفسد فيها، ويمكن أن يكون التولي بمعنى الإعراض عن المخاطبة والمواجهة، أي إذا خرج من عندك كانت غيبته مخالفة لحضوره، وتبدل ما كان يظهره من طلب الصلاح والخير إلى السعي في الأرض لأجل الفساد والإفساد.

قوله تعالى: ﴿ ... وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ... ﴾، ظاهره أنه بيان لقوله تعالى: ليفسد فيها أي يفسد فيها بإهلاك الحرث والنسل، ولما كان قوام النوع الإنساني من حيث الحياة والبقاء بالتغذي والتوليد فهما الركنان القويمان اللذان لا غناء عنهما للنوع

في حال: أما التوليد فظاهر، وأما التغذي فإنما يركن الإنسان فيه إلى الحيوان والنبات، والحيوان يركن إلى النبات، فالنبات هو الأصل ويستحفظ بالحرث وهو تربية النبات، فلذلك علق الفساد على الحرث والنسل فالمعنى أنه يفسد في الأرض بإفناء الإنسان وإبادة هذا النوع بإهلاك الحرث والنسل.

قوله تعالى: ﴿...وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾، المراد بالفساد ليس ما هو فساد في الكون والوجود الفساد التكويني فإن النشأة نشأة الكون والفساد، وعالم التنازع في البقاء ولا كون إلا بفساد، ولا حياة إلا بموت، وهما متعانقان في هذا الوجود الطبيعي في النشأة الطبيعية، وحاشا أن يبغض الله سبحانه ما هو مقدره وقاضيه. وإنما هو الفساد المتعلق بالتشريع فإن الله إنما شرع ما شرعه من الدين ليصلح به أعمال عباده فيصلح أخلاقهم وملكات نفوسهم فيعتدل بذلك حال الإنسانية والجامعة البشرية، وعند ذلك تسعد حياتهم في الدنيا وحياتهم في الآخرة)[1].

وهنا نجد أن المنافق يظن أنه مغالب بإظهاره الإيمان بلسانه وإضماره الكفر في قلبه، وأنه قادر على أن يخدع النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله، والمؤمنين بنفاقه! فيفضحه الله سبحانه ويكشف أمره، ويقدم لنا أنموذجا لقلب المخلص بالإيمان قبالة ذلك الأنموذج، (قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ...﴾، مقابلته مع قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...﴾، يفيد أن الوصف مقابل الوصف أي كما أن المراد من قوله: ومن الناس من يعجبك، بيان أن هناك رجلا معتزا

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢: ٥٤.

بإثمه معجبا بنفسه متظاهرا بالإصلاح مضمرا للنفاق لا يعود منه إلى حال الدين والإنسانية إلا الفساد والهلاك كذلك المراد من قوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ... ﴾، بيان أن هناك رجلا آخر باع نفسه من الله سبحانه لا يريد إلا ما أراده الله تعالى لا هوى له في نفسه ولا اعتزاز له إلا بربه ولا ابتغاء له إلا لمرضاة الله تعالى، فيصلح به أمر الدين والدنيا، ويحيي به الحق، ويطيب به عيش الإنسانية، ويدر به ضرع الإسلام، وبذلك يظهر ارتباط الذيل بالصدر أعني قوله تعالى: والله رؤوف بالعباد، بما قبله، فإن وجود إنسان هذه صفته من رأفة الله سبحانه بعباده إذ لو لا رجال هذه صفاتهم بين الناس في مقابل رجال آخرين صفتهم ما ذكر من النفاق والإفساد لانهدمت أركان الدين، ولم تستقر من بناء الصلاح والرشاد لبنة على لبنة، لكن الله سبحانه لا يزال يزهق ذاك الباطل بهذا الحق ويتدارك إفساد أعدائه بإصلاح أوليائه كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾[(٣)]، فالفساد الطارىء على الدين والدنيا من قبل عدة ممن لا هوى له إلا في نفسه لا يمكن سد ثلمته إلا بالصلاح الفائض من قبل آخرين ممن باع نفسه من الله سبحانه، ولا هوى له إلا في ربه، وإصلاح الأرض ومن عليها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.

وقد ذكر هذه المعاملة الرابحة عند الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾[١]، إلى غير ذلك من الآيات)[٢]، ويتضح لنا من السياق ما للقلب المنافق من فعل الهدم والإفساد في الأمة، وما للقلب المخلص بالإيمان من صلاح وإصلاح لحال الأمة وشدّ لبنيانها تماسكا وصلابة.

ويرد تقرير الفرق بين حال القلب المخلص والقلب المنافق في سياق قرآني آخر، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[٣].

ففي هذا السياق نجد (كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين في الاعتقاد فإن القلب الواحد أي النفس الواحدة لا يسع اعتقادين متنافيين ورأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين ويصدق بالمتناقضين وقوله: (في جوفه) يفيد زيادة التقرير كقوله:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢: ٥٦.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

﴿ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[1].

قيل: الجملة توطئة وتمهيد كالتعليل لما يتلوها من إلغاء أمر الظهار والتبني فإن في الظهار جعل الزوجة بمنزلة الأم وفي التبني والدعاء جعل ولد الغير ولدا لنفسه والجمع بين الزوجية والأمومة وكذا الجمع بين بنوة الغير وبنوة نفسه جمع بين المتنافيين ولا يجتمعان إلا في قلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

و لا يبعد أن تكون الجملة في مقام التعليل لقوله السابق: (لا تطع الكافرين والمنافقين)، (و اتبع ما يوحى إليك من ربك)، فإن طاعة الله وولايته وطاعة الكفار والمنافقين وولايتهم متنافيتان متباينتان كالتوحيد والشرك لا يجتمعان في القلب الواحد وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)[2].

وفي هذا الكلام العزيز نفي واضح لاجتماع نقيضين في قلب واحد، وكأن للمرء قلبين في جوفه وهذا من المحال، لأن كل قلب له حال معينة لا تجتمع مع نقيضتها، فعلى من طهّر قلبه أن يجعله خالصا لله سبحانه وحده لا شريك له، وأن لا يجمع مع طاعة الله وحبه طاعة أعدائه وحبهم، وسبحان الله العليم بذات الصدور.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٦: ١٤٤.

حال القلق وتقابلها حال الاطمئنان

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(1).

ترد على القلب المطهر حال من القلق، ربما ليست من الشك في شيء، ولكن المتذوق لحلاوة اليقين يسعى لطلب مزيد من الاطمئنان بدرجة يقين أعلى، وهنا في هذا النص القرآني المبارك عرض لحال إبراهيم نبي الله على رسولنا وآله وعليه الصلاة والسلام، وفيه لا يكتفي سيدنا ابراهيم سلام الله عليه باليقين الحاصل عنده من أمر الله بإحياء الموتى، ولكنه يسعى إلى درجة عين اليقين للوصول إلى الاطمئنان، بأن يحصل على فرصة رؤية عملية الإحياء، ولكن الله سبحانه لكرمه ولما خص خليله ابراهيم عليه السلام من منزلة لا يجيبه إلى ما يريد فقط بل يزيده فوق درجة عين اليقين ليصل

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

به إلى مرتبة حق اليقين، بأن لا يجعله يشاهد عملية الإحياء فحسب، بل يجعله جزءا فاعلا من عملية الإحياء نفسها، ولاحظ أن اليقين مرتبة عامة، وأما عين اليقين فهو تمثّله المتعين له، وأما حق اليقين فهو جوهره وأصله، فتكون الدرجات الثلاث كالآتي:

أ: **درجة اليقين:** ابراهيم عليه السلام مسلم لله مؤمن به مصدق لأمره كله، ومن ذلك يقينه بأن الله يحيي الموتى.

ب: **درجة عين اليقين:** ابراهيم عليه السلام يعاين كيفية إحياء الموتى، ويصبح عالما بهذه الكيفية، وهي درجة اليقين العالية التي طلبها من ربه.

ج: **درجة حق اليقين:** ابراهيم عليه السلام يتصل بجوهر اليقين وأصله، وهو هنا يقوم بإحياء الموتى بإذن الله سبحانه، فيكون جزءا فاعلا من عملية الإحياء، وهي درجة اليقين العليا التي أكرمه الله سبحانه بها.

وهنا نورد نصوصا مما أورده العلامة الطباطبائي أعلى الله مقامه في تفسيره الميزان لتفسير الآيات المتعلقة بتلك القصة الإبراهيمية الغنيّة بالعبر:

(وفي قوله: ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾، دلالة: أولا على أنه عليه السلام إنما سأل الرؤية دون البيان الاستدلالي، فإن الأنبياء وخاصة مثل النبي الجليل إبراهيم الخليل أرفع قدرا من أن يعتقد البعث ولا حجة له عليه، والاعتقاد النظري من غير حجة عليه إما اعتقاد تقليدي أو ناشئ عن اختلال فكري وشيء منهما لا ينطبق على إبراهيم عليه السلام، على أنه عليه السلام إنما سأل ما سأل بلفظ كيف، وإنما يستفهم بكيف عن خصوصية وجود الشيء لا عن أصل وجوده فإنك إذا قلت: أ رأيت زيدا كان معناه السؤال عن تحقق أصل الرؤية، وإذا قلت: كيف رأيت زيدا كان أصل

الرؤية مفروغا عنه وإنما السؤال عن خصوصيات الرؤية، فظهر أنه عليه السلام إنما سأل البيان بالإراءة والإشهاد لا بالاحتجاج والاستدلال.

وثانيا: على أن إبراهيم عليه السلام إنما سأل أن يشاهد كيفية الإحياء لا أصل الإحياء كما أنه ظاهر قوله: كيف تحيي الموتى، وهذا السؤال متصور على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون سؤالا عن كيفية قبول الأجزاء المادية الحياة، وتجمعها بعد التفرق والتبدد، وتصورها بصورة الحي، ويرجع محصله إلى تعلق القدرة بالإحياء بعد الموت والفناء.

الوجه الثاني: أن يكون عن كيفية إفاضة الله الحياة على الأموات وفعله بأجزائها الذي به تلبس الحياة، ويرجع محصله إلى السؤال عن السبب وكيفية تأثيره، وهذا بوجه هو الذي يسميه الله سبحانه بملكوت الأشياء في قوله عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(١)].

وإنما سأل إبراهيم عليه السلام عن الكيفية بالمعنى الثاني دون المعنى الأول: أما أولا: فلأنه قال: كيف تحيي الموتى، بضم التاء من الإحياء فسأل عن كيفية الإحياء الذي هو فعل ناعت لله تعالى وهو سبب حياة الحي بأمره، ولم يقل: كيف تحيى الموتى، بفتح التاء من الحياة حتى يكون سؤالا عن كيفية تجمع الأجزاء وعودها إلى صورها الأولى وقبولها الحياة، ولو كان السؤال عن الكيفية بالمعنى الثاني لكان من الواجب أن

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٣.

يرد على الصورة الثانية. وأما ثانيا: فلأنه لو كان سؤاله عن كيفية قبول الأجزاء للحياة لم يكن لإجراء الأمر بيد إبراهيم وجه، ولكفى في ذلك أن يريد الله إحياء شيء من الحيوان بعد موته.

وأما ثالثا: فلأنه كان اللازم على ذلك أن يختم الكلام بمثل أن يقال: وأعلم أن الله على كل شيء قدير لا بقوله: واعلم أن الله عزيز حكيم، على ما هو المعهود من دأب القرآن الكريم فإن المناسب للسؤال المذكور هو صفة القدرة دون صفتي العزة والحكمة فإن العزة والحكمة - وهما وجدان الذات كل ما تفقده وتستحقه الأشياء وإحكامه في أمره - إنما ترتبطان بإفاضة الحياة لا استفاضة المادة لها فافهم ذلك.

قوله تعالى: قال: أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، بلى كلمة يرد بها النفي ولذلك ينقلب بها النفي إثباتا كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[1]، ولو قالوا نعم لكان كفرا، والطمأنينة والاطمينان سكون النفس بعد انزعاجها واضطرابها، وهو مأخوذ من قولهم: اطمأنت الأرض وأرض مطمئنة إذا كانت فيها انخفاض يستقر فيها الماء إذا سال إليها والحجر إذا هبط إليها.

وقد قال تعالى: أولم تؤمن، ولم يقل: ألم تؤمن للإشعار بأن للسؤال والطلب محلا لكنه لا ينبغي أن يقارن عدم الإيمان بالإحياء: ولو قيل: ألم تؤمن دل على أن المتكلم تلقى السؤال منبعثا عن عدم الإيمان، فكان عتابا وردعا عن مثل هذا السؤال، وذلك أن الواو للجميع، فكان الاستفهام معه استفهاما عن أن هذا السؤال هل يقارنه عدم الإيمان، لا استفهاما عن وجه السؤال حتى ينتج عتابا وردعا.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

والإيمان مطلق في كلامه تعالى، وفيه دلالة على أن الإيمان بالله سبحانه لا يتحقق مع الشك في أمر الإحياء والبعث، ولا ينافي ذلك اختصاص المورد بالإحياء لأن المورد لا يوجب تخصيص عموم اللفظ ولا تقييد إطلاقه.

وكذا قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: ليطمئن قلبي، مطلق يدل على كون مطلوبه عليه السلام من هذا السؤال حصول الاطمينان المطلق وقطع منابت كل خطور قلبي وأعراقه، فإن الوهم في إدراكاتها الجزئية وأحكامها لما كانت معتكفة على باب الحس وكان جل أحكامها وتصديقاتها في المدركات التي تتلقاها من طريق الحواس فهي تنقبض عن مطاوعة ما صدقه العقل، وإن كانت النفس مؤمنة موقنة به، كما في الأحكام الكلية العقلية الحقة من الأمور الخارجة عن المادة الغائبة عن الحس فإنها تستنكف عن قبولها وإن سلمت مقدماتها المنتجة لها، فتخطر بالبال أحكاما مناقضة لها، ثم تثير الأحوال النفسانية المناسبة لاستنكافها فتقوى وتتأيد بذلك في تأثيرها المخالف، وإن كانت النفس من جهة عقلها موقنة بالحكم مؤمنة بالأمر فلا تضرها إلا أذى، كما أن من بات في دار مظلمة فيها جسد ميت فإنه يعلم: أن الميت جماد من غير شعور وإرادة فلا يضر شيئا، لكن الوهم تستنكف عن هذه النتيجة وتستدعي من المتخيلة أن تصور للنفس صورا هائلة موحشة من أمر الميت ثم تهيج صفة الخوف فتتسلط على النفس، وربما بلغ إلى حيث يزول العقل أو تفارق النفس.

فقد ظهر: أن وجود الخطورات المنافية للعقائد اليقينية لا ينافي الإيمان والتصديق دائما، غير أنها تؤذي النفس، وتسلب السكون والقرار منها، ولا يزول وجود هذه الخواطر إلا بالحس أو المشاهدة، ولذلك قيل: إن للمعاينة أثرا لا يوجد مع العلم، وقد

أخبر الله تعالى موسى في الميقات بضلال قومه بعبادة العجل فلم يوجب ذلك ظهور غضبه حتى إذا جاءهم وشاهدهم وعاين أمرهم غضب وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه.

وقد ظهر من هنا ومما مر سابقا أن إبراهيم عليه السلام ما كان يسأل المشاهدة بالحس الذي يتعلق بقبول أجزاء الموتى الحياة بعد فقدها، بل إنما كان يسأل مشاهدة فعل الله سبحانه وأمره في إحياء الموتى، وليس ذلك بمحسوس وإن كان لا ينفك عن الأمر المحسوس الذي هو قبول الأجزاء المادية للحياة بالاجتماع والتصور بصورة الحي، فهو عليه السلام إنما كان يسأل حق اليقين.

قوله تعالى: قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا.

صرهن بضم الصاد على إحدى القراءتين من صار يصور إذا قطع أو أمال، أو بكسر الصاد على القراءة الأخرى من صار يصير بأحد المعنيين، وقرائن الكلام يدل على إرادة معنى القطع، وتعديته بإلى تدل على تضمين معنى الإمالة)[1].

إن في تفسير السيد الطباطبائي رحمه الله كفايةً لبيان مقصد هذا البحث، الذي يعتمد عليه كثيرا في أكثر من مطلب من مطالبه كما ورد وسيرد لاحقا، لغنى الحديث وإفاضته بالعمق المناسب للمقام، فجزى الله العلامة السيد عن المستنيرين بعلومه خيرا.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢: ٢١١ ـ ٢١٤.

حـال الإثم وتـقابـلهـا حـال البرّ

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[١].

يقع الإثم في قلب الإنسان في موارد عديدة، وإنما حدد أصلها القلب لأن النية تنعقد فيه على قصد العمل، وإلا فإن الإثم صفة للعمل بالدرجة الأولى، فمن أحوال القلب حال الإثم وتقابلها حال البرّ، وفي هذه الآية المباركة يعرض لنا القرآن الكريم عددا من الموارد التي تتضمن أفعال الإثم وقد انعقدت النية عليه في القلب فصار القلب بذلك في حال الإثم، مثل خيانة الأمانة، وشهادة الزور وكتمان الشهادة وعدم تأدية الحقوق المادية والمعنوية لأصحابها.

فمما نجد في قوله تعالى آنف الذكر: ((فليؤد الذي اؤتمن) أي الذي عليه الحق

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.

(أمانته) بأن لا يجحد حقه ولا يبخس منه شيئا ويؤديه إليه وافيا وقت محله من غير مَطل ولا تسويف وأراد بقوله (أمانته) أي ما اوتمن فيه فهو مصدر بمعنى المفعول (و ليتق الله ربه) معناه وليتق الذي عليه الحق عقوبة الله ربه فيما اؤتمن عليه بجحوده أو النقصان منه (و لا تكتموا الشهادة) يعني بعد تحملها وهو خطاب للشهود ونهي لهم عن كتمان الشهادة إذا دعوا إليها (و من يكتمها) أي ومن يكتم الشهادة مع علمه بالمشهود به وعدم ارتيابه فيه وتمكنه من أدائها من غير ضرر بعد ما دعي إلى إقامتها (فإنه آثم قلبه) أضاف الإثم إلى القلب وإن كان الآثم هو الجملة لأن اكتساب الإثم بكتمان الشهادة يقع بالقلب لأن العزم على الكتمان إنما يقع بالقلب ولأن إضافة الإثم إلى القلب أبلغ في الذم كما أن إضافة الإيمان إلى القلب أبلغ في المدح قال تعالى أولئك كتب في قلوبهم الإيمان (والله بما تعملون) أي ما تسرونه وتكتمونه (عليم).

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) أنه قال: **«لا ينقضي كلام شاهد زور من بين يدي الحاكم حتى يتبوأ مقعده من النار»**، وكذلك من كتم الشهادة، وفي قوله تعالى (فإن أمن بعضكم بعضا) دلالة على أن الإشهاد والكتابة في المداينة ليسا بواجبين وإنما هو على سبيل الاحتياط وتضمنت هذه الآية وما قبلها من بدائع لطف الله تعالى)[١].

وكم هي عظيمة بدائعه سبحانه، ولكن لو ركزنا على مطلب البحث هنا من حال الإثم التي تعتري القلب فسنجد أن انعقاد النية على العمل يقع في القلب، وهذا مرتبط من جهة أخرى بالدوافع التي دفعت القلب إلى قبول تلك الأعمال، وهي دوافع مادية زائلة المنافع.

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢: ١٩٩.

نستدل على ذلك من مجمل الآيات التي صرحت بأعمال الإثم من مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[(٣)]، المائدة٢، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢.

يَعْمَلُونَ ﴾ [(١)]، وقوله تعالى: ﴿ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [(٢)].

على أن من دوافع الإثم أخرى معنوية ولكنها باطلة كما يؤكد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [(٣)]، فهنا دافع الإثم دافع معنوي وهو الاعتداد بالرأي، ولكنه يقع في مقابل جبار السموات والأرض العزيز الحكيم !! فكيف للإنسان أن يتكبر على الله ويعتد برأيه قبالة حكم الله النافذ الكامل التام العزيز الحكيم الجميل النافع وكله خير؟!! فليس سوى أن الإنسان يتعزز معتدا برأيه وإن كان آثما لأنه يصعب عليه الاعتراف بالخطأ، ويصعب عليه الاعتذار عما بدا منه ويتلخص حاله بالاستكبار على الله سبحانه!! ولكن كان عليه قبل ذلك أن يشعر بصعوبة عذاب الله الشديد الذي أعده للمستكبر.

وللإثم الذي يصيب القلب ظاهر وباطن، قال تعالى: ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ [(٤)]، وفي هذا تحذير شديد من الغفلة لئلا يدخل القلب إثم باطن لا يمكن كشفه لمن كان غافلا، بل يتطلب قلبا ذاكرا ليتمكن من كشف الإثم الباطن الخفي، والإثم منه الكبير ومنه الصغير، قال

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٠.

تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾(٢).

وللأعمال الآثمة آثار سلبية في القلب، توهمه بالمنفعة وتوقع فيه الضرر، وتسلب منه النقاء والصفاء، وتوقعه في الهَمّ والحَزَن والانشغال عن الذكر لغفلة تعتريه، وأغلفة تحيط بقلبه تمنع عنه النور، وأقفال تمنع عنه التدبّر والفهم، وهنا تكمن خطورة الإثم، وخطورة وقوع القلب في حال الإثم، في حين أن الضفة الأخرى تتضمن عقد النية على فعل البرّ، وممارسة عمل البر فعلا تتيح للقلب أن يعشوشبَ رحمةً ونقاءً وخيراً ومحبةً وصفاءً، القلب العامر بذكر الله قلب ملازم للمعروف بارّ اتجاه بارئه بالودّ والمحبة لأوليائه، والبغض لأعدائه، والعمل بأوامره والانتهاء عن نواهيه، وأعمال البرّ هي وآثارها تقابل أعمال الإثم هي وآثارها.

ومن أعمال البر ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٧.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.

وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[١]، على أن الإنسان مأمور أن يعمل البر وليس أن يأمر به فقط، فعلى الواعظ لكي يؤثر في المتلقين أن يكون متعظا بنفسه في المقام الأول، قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[٢]، ومأمور لكي ينال البرّ بأن ينفق في سبيل الله مما يحب لنفسه، قال تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[٣]، والإنفاق هنا غير محدد بما هو مادي، بل على الإنسان أن ينفق في سبيل رضا الله مما مكنه سبحانه منه من النعم المعنوية والمادية، مما يحب لنفسه بمعنى أن يقدم للآخرين أفضل ما يستطيع أن يقدمه لنفسه، سواء من أمور مادية كالمال أو الممتلكات والحاجيات، أو الأمور المعنوية، كالمواساة والرفقة والرحمة وسوى ذلك.

إن القلب الذي يعاني من حال الإثم وتبعاتها، يقابله القلب الذي ينعم بحال البرّ ومصاحباتها، وهذا مما ينبه إلى ضرورة تحرك الإنسان لتغيير حال قلبه من حالة الفساد بالإثم إلى التطهر بالبرّ، والله ولي السداد.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

حال الفظاظة والغلظة وتقابلها حال الرحمة واللين

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1].

من الأحوال القلبية الأخرى حال الغلظة، وهي حال تنبئ بخشونة الطباع، وهي منفّرة للأصحاب، وهي مما لا يليق بخلق الأنبياء والأولياء لعظمة ما بعاتقهم من رسالة، وما عليهم من عمل مضنٍ متعلق باستعطاف قلوب القوم لكسب ودهم من أجل الفيض عليهم بالرحمة، وهل يمنع اتصال الناس بالرحمة سوى أنفسهم الجاهلة المعاندة المحجوبة بما قدموا من آثام؟!! و((الفظ الغليظ) الجافي القاسي القلب يقال منه فظظت تفظ فظاظة وأنت فظ على وزن فعل إلا أنه أدغم كصب والفظاظة خشونة الكلام والافتظاظ شرب ماء الكرش لجفائه على الطبائع فإن أصل الفظاظة الجفوة

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

والفظ ماء الكرش والفض بالضاد تفريق الشيء والانفضاض التفرق...، بين سبحانه أن مساهلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) إياهم ومجاوزته عنهم من رحمته تعالى حيث جعله لين العطف حسن الخلق (فبما رحمة) أي فبرحمة (من الله لنت لهم) معناه أن لينك لهم مما يوجب دخولهم في الدين لأنك تأتيهم مع سماحة أخلاقك وكرم سجيتك بالحجج والبراهين (ولو كنت) يا محمد (فظا) أي جافيا سيء الخلق (غليظ القلب) أي قاسي الفؤاد غير ذي رحمة ولا رأفة (لانفضوا من حولك) أي لتفرق أصحابك عنك ونفروا منك، وقيل إنما جمع بين الفظاظة والغلظة وإن كانتا متقاربتين لأن الفظاظة في الكلام فنفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه (فاعف عنهم) ما بينك وبينهم (واستغفر لهم) ما بينهم وبيني)[1]، وتكون الغلظة في القلب نتيجة نقص في الرحمة لأنها هي التي تسبب اللين والرفق، وهذه الرحمة كما تصرح الآية الكريمة تأتي من الله سبحانه، فهو الذي يلقيها في قلب عبده ليمكنه من تحمل المشقة والقساوة الصادرة عن قلوب الناس، والرحمة لهم والرفق بهم والليونة معهم رغم ذلك! وهي من الأدوات الضرورية لممارسة عمل النبوة وتبليغ الرسالة للناس.

وهنا ألفت إلى حوار نبي الله موسى على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، الذي جرى بينه وبين رب العزّة حين كلّفه بالنبوة وبعثه إلى فرعون الذي طغى، وأراد منه أن يقول له قولا لينا رغم كونه طاغية قاسي القلب! فقبل أن يقوم موسى عليه السلام بذلك ماذا طلب من رب العزة سبحانه؟ قدم قائمة من الطلبات التي وجد بعلمه وحكمته أنه محتاج إليها ممن أرسله، فمنها ضرورة شرح الصدر، وضرورة تولي الله سبحانه تيسير الأمر، وضرورة تعدد أوجه طلاقة اللسان ليفقه الناس القول، وضرورة

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢: ٣٨١ - ٣٨٢.

الوزارة واقترانها بأقرب المقربين، ليكون به شد الأزر مشتركا في الأمر، قال سبحانه مخاطبا نبيه موسى في سورة طه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[١]. لقد كان أول طلب لموسى عليه السلام هو شرح الصدر، وهو ما يهمنا في هذا المقام، وهذا ينبهنا لأهمية سعة الصدر للقيادة والرياسة، وقد ورد في ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: **«آلة الرياسة سعة الصدر»**[٢].

ولذلك كانت أول طلب لنبي الله من مستلزمات قيامه بالأمر، لأن سعة الصدر تعني تحمل أعباء الآخرين وتحمل مكابدة دعوهم ونفورهم أو اعراضهم وإساءهم، كل ذلك مع وفور الرحمة واللين، وهذا يحتاج أيضا إلى تيسير من الله عزّ وجلّ، وهذا ما طلبه موسى عليه السلام من ربه، ثم لابد من بسط الكلام في أكثر من وجه وبأكثر من طريقة ليتمكن الناس من أن يفقهوا القول ويعوا البلاغ، وهذا ما طلبه موسى عليه السلام من ربه أيضا، وكل ذلك يندرج تحت وسائل اللين والرحمة والعطف والمداراة مع القوم، طمعا في اقبالهم على الله سبحانه، ورغبة في إتمام البلاغ، على أنه من المعروف ما للمداراة من كسب لقلوب الرجال التي سريعا ما تدبر مع الفظاظة والغلظة، ومن الصعب إقبالها إلا بالمودة والرحمة واللين.

---

(١) سورة طه، الآية: ٢٤-٣٢.

(٢) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: ٤٦٨.

حال التقلب وتقابلها حال الثبات

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله في تعليم أصحابه الدعاء الذي نذكر أوله كما ورد في مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمّي رحمه الله: «**ما يمنعكم أن تقولوا في كل صباح أو مساء ثلاث مرات: اللّهمَّ مقلّبَ القلوبِ والأبصارِ ثَبِّتْ قَلبي على دِينِك، ولا تُزِغْ قَلبي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَني...**»[1].

وهذا ينذرنا بخطورة حال تقلب القلوب، وضرورة التوسل لله سبحانه ليثبّت قلوبنا على دينه، ونجد أن القرآن الكريم يصرّح لنا بحال من تتقلب قلوبهم، قال تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2]، ويوحي (ظاهر السياق أن

---

(١) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، دار الأضواء، ط٢، بيروت، ٢٠٠١م: ٨٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

الجملة عطف على قوله: (لا يؤمنون) وهي بمنزلة التفسير لعدم إيمانهم، والمراد بقوله: (أول مرة) الدعوة الأولى قبل نزول الآيات قبال ما يتصور له من المرة الثانية التي هي الدعوة مع نزول الآيات.

والمعنى أنهم لا يؤمنون لو نزلت عليهم الآيات، وذلك أنا نقلب أفئدتهم فلا يعقلون بها كما ينبغي أن يعقلوه، وأبصارهم فلا يبصرون بها ما من حقهم أن يبصروه فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة من الدعوة قبل نزول هذه الآيات المفروضة ونذرهم في طغيانهم يترددون ويتحيرون)[1].

وفي مناسبة نزول النص ورد في تفسير مجمع البيان للعلامة الطبرسي: (قالت قريش يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا بآية من الآيات حتى نصدقك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أي شيء تحبون أن آتيكم به قالوا اجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فإن فعلت بعض ما تقولون أتصدقونني قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يدعو أن يجعل الصفا ذهبا فجاءه جبرائيل عليه السلام فقال له إن شئت أصبح الصفا ذهبا ولكن إن لم يصدقوا عذبتهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧: ١٧٨.

صلى الله عليه وآله وسلّم بل يتوب تائبهم فأنزل الله تعالى هذه الآية. عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي.

ثم بين سبحانه حال الكفار الذين سألوه الآيات فقال (و أقسموا) أي حلفوا (بالله جهد أيمانهم) أي مجدين مجتهدين مظهرين الوفاء به (لئن جاءتهم آية) مما سألوه (ليؤمنن بها) قل يا محمد (إنما الآيات) أي الأعلام والمعجزات (عند الله) والله تعالى مالكها والقادر عليها فلو علم صلاحكم في إنزالها لأنزلها (و ما يشعركم) الخطاب متوجه إلى المشركين عن مجاهد وابن زيد وقيل هو متوجه إلى المؤمنين عن الفراء وغيره لأنهم ظنوا أنهم لو أجيبوا إلى الآيات لآمنوا (أنها إذا جاءت لا يؤمنون) قد مر معناه (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) أخبر سبحانه أنه يقلب أفئدة هؤلاء الكفار وأبصارهم عقوبة لهم وفي كيفية تقليبهما قولان:

(أحدهما) أنه يقلبهما في جهنم على لهب النار وحر الجمر (كما لم يؤمنوا به أول مرة) في الدنيا عن الجبائي قال وجمع بين صفتهم في الدنيا وصفتهم في الآخرة كما قال وجوه يومئذ خاشعة يعني في الآخرة عاملة ناصبة يعني في الدنيا.

(والآخر) أن المعنى نقلب أفئدتهم وأبصارهم بالحيرة التي تغم وتزعج النفس وقوله (كما لم يؤمنوا به أول مرة) قيل إنه متصل بما قبله وتقديره وأقسموا بالله ليؤمنن بالآيات والله تعالى قد قلب قلوبهم وأبصارهم وعلم أن فيها خلاف ما يقولون يقال فلان قد قلب هذه المسألة وقلب هذا الأمر إذا عرف حقيقته ووقف عليه وما يدريكم (أنها إذا جاءت لا يؤمنون) كما لم يؤمنوا بما أنزل الله من الآيات أول مرة عن ابن عباس ومجاهد وقيل معناه لو أعيدوا إلى الدنيا ثانية لم يؤمنوا به كما لم يؤمنوا به أول مرة في الدنيا كما قال ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه عن ابن عباس في رواية أخرى وقيل

معناه يجازيهم في الآخرة كما لم يؤمنوا به في الدنيا عن الجبائي والهاء في به يحتمل أن يكون عائدة على القرآن وما أنزل من الآيات ويحتمل أن تكون عائدة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم).

وقوله تعالى: (ونذرهم في طغيانهم) أي نخليهم وما اختاروه من الطغيان فلا نحول بينه وبينهم (يعمهون) يترددون في الحيرة قال الحسين بن علي المغربي قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) حشو بين الجملتين ومعناه أنا نحيط علما بذات الصدور وخائنة الأعين أي نختبر قلوبهم فنجد باطنها بخلاف ظاهرها)[1].

فحال التقلّب للقلب ينبئ إذن بوجود دافع ومانع: فالدافع: - هو اختيار الإنسان المعصية، وهذا ما يجعل قلبه مدفوعا للتقلب بمعنى الحيرة والضلالة عن الصراط المستقيم، لأنه وجد سلوة في المعصية ولذة في الطغيان، فلا تترجح عنده الطاعة ولا يحصل بها الاطمئنان مادام مائلا قلبيا نحو المعصية مشغوفا بها.

والمانع: هو الله الذي يحول بين المرء وقلبه، وهنا برحمة منه يحول مانعا بين القلب وحال التقلّب، ولكنه سبحانه لا يحول بين مريد للمعصية مصرّ عليها وبين حال التقلّب، ففي ذلك مطلبه ومقصده، لذا فحين يكبر الدافع ولا يحول المانع يدخل القلب حال التقلب فيكون في حيرة من أمره غير مستقر على شيء، ولابد للمؤمنين من الاستعداد ليوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤: ١٢١ ـ ١٢٢.

وَالأَبْصَارُ﴾[١]، (إن توصيف اليوم بقوله: (تتقلب فيه القلوب والأبصار) لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب والأبصار، وإنما يخافون هذا التقلب لما في أحد شقيه من الحرمان من نور الله والنظر إلى كرامته وهو الشقاء الدائم والعذاب الخالد وفي الحقيقة يخافون أنفسهم)[٢].

وأما ذلك اليوم فقد (أراد يوم القيامة تتقلب فيه أحوال القلوب والأبصار وتنتقل من حال إلى حال فتلفحها النار ثم تنضجها ثم تحرقها عن الجبائي وقيل تتقلب فيه القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك وتتقلب الأبصار يمنة ويسرة من أين تؤتى كتبهم وأين يؤخذ بهم أم من قبل اليمين أم من قبل الشمال وقيل تتقلب القلوب ببلوغها الحناجر والأبصار بالعمى بعد البصر وقيل معناه تنتقل القلوب عن الشك إلى اليقين والإيمان والأبصار عما كانت تراه غيا فتراه رشدا فمن كان شاكا في دنياه أبصر في آخرته، ومن كان عالما ازداد بصيرة وعلما، فهو مثل قوله تعالى فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)[٣]، فمن كان في شك من أمر ربه في الحياة الدنيا يكون قلبه في حال التقلّب، بظاهر الحيرة والاضطراب والتردد.

وأما يوم القيامة فيكون التقلب أشد وطأة، ولذلك فإن المؤمنين يخافون من ذلك اليوم فيستعدون له في الحياة الدنيا قبل بلوغه، ليصدق على نفوسهم قوله تعالى من سورة الفجر ما خصه سبحانه لعباده المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧)

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٥: ٦٦.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧: ٢٢٧.

ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[١]، فإنهم يجدون بسبب إيمانهم وعبادتهم وذكرهم لله سبحانه في الحياة الدنيا وتخوفهم من ذلك اليوم من الاطمئنان والرضا والإرضاء وبشرى الدخول في الجنة مع العباد الصالحين ما يسرّ قلوبهم ويزيد في شوقهم للقائه سبحانه، ويحثهم على ذكره وعبادته.

وقد يرد من وجه التقلب في الدنيا ما ليس من الحيرة بسبب ترك الذكر والاصرار على المعصية، بل إن القلب ليستفرغ وسعه من طاقته، فيميل للتقلب لولا رحمة الله وحكمته التي تقتضي إعانة ذلك القلب المؤمن الذي يعاني من شدة لا يستطيع لها احتمالا، كما في حال قلب أم موسى عليهما السلام، التي أفرغ الحزن قلبها من الصبر لولا أن ربط الله على قلبها بالصبر واليقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢]، أي (أنها كادت تبدي بالوحي (لو لا أن ربطنا على قلبها) بالصبر واليقين، وقيل معناه لو لا أن قوينا قلبها بالعصمة والوحي وجواب لو لا محذوف والتقدير لو لا أن ربطنا على قلبها لأظهرته (لتكون من المؤمنين) أي فعلنا ذلك لتكون من جملة المصدقين بوعدنا الواثقين بوحينا وقولنا (إنا رادوه إليك))[٣].

إذن فحال التقلب لها وجه في الدنيا من الشك والحيرة والتردد، ولها وجه في

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ـ٣٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٠.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧: ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

الآخرة، من الفزع والخوف والدهشة والاضطراب، نعوذ بالله من فزع ذلك اليوم ونسأله العافية عافية الدين والدنيا والآخرة، ونسأل الله مقلب القلوب أن يثبت قلوبنا على دينه ويحشرنا مع محمد وآله الطاهرين إنه سميع مجيب.

حال الانفصال وتقابلها حال الاتصال

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1].

أي أن الله سبحانه بمقتضى حكمته (يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بالموت فلا يمكنه استدراك ما فات فبادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة ودعوا التسويف عن الجبائي قال وفيه حث على الطاعة قبل حلول المانع وقيل معناه أنه سبحانه أقرب إليه من قلبه وهو نظير قوله ونحن أقرب إليه من حبل الوريد فإن الحائل بين الشيء وغيره أقرب إلى ذلك الشيء من ذلك الغير عن الحسن وقتادة قالا وفيه تحذير شديد وقيل معناه أنه سبحانه يملك تقليب القلوب من حال إلى حال كما جاء في الدعاء يا مقلب القلوب والأبصار فكأنهم خافوا من القتال فأعلمهم سبحانه أنه يبدل خوفهم أمنا بأن يحول بينهم وبين ما يتفكرون فيه من أسباب الخوف.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

وروى يونس بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«أنه يحول بين المرء وقلبه معناه لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبدا ولا يستيقن القلب أن الباطل حق أبدا»**، وروى هشام بن سالم عنه (صلى الله عليه وآله وسلّم) قال: **«معناه يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق»**، أوردهما العياشي في تفسيره وقال محمد بن إسحاق: معناه لا يستطيع القلب أن يكتم الله شيئا)[1]، فالقلب المتصل بالله سبحانه بنور منه ينتفع به المرء ويقوده إلى رضا الله والجنة وذلك هو الفوز المبين.

وأما القلب المنفصل عن صاحبه فإنه انفصل عنه بعد أن حال الله بينهما لإصرار المرء على المعاصي، وتركه لما في قلبه من نور الفطرة، وعدم تصديقه لما وقر في قلبه بالعمل الصالح والسلوك الحسن المؤيد لما في القلب ليتم الإيمان، فالإيمان كما جاء عن الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله هو **«ما وَقَرَ في القلب وصدّقه العمل»**.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضا: **«لا تجعلوا علمكم جهلا، ويقينكم شكا، إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فأقدموا»**[2].

فحين لا يخرج العلم إلى العمل واليقين إلى الإقدام، يتحول العلم إلى جهل سواء بسواء! واليقين إلى شك كذلك! فما في القلب من علم ويقين لا ينفع حينئذ بسبب ترك المرء لهما وعدم ظهورهما في عمله عامدا إلى ذلك غير مضطر، فعندئذ يحول الله بين المرء وقلبه، نعوذ بالله من ذلك ونسأله أن ينفعنا بما عَلِمنا واستيقَنَتْهُ قلوبُنا عاملين مقدامين بفضله وبفضل الصلاة على محمد وآل محمد.

---

(١) م. ن.: ٤: ٤٠١.

(٢) م. ن.: ٤٨٦.

حال الكفر وتقابلها حال الإيمان

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

ترد على القلب حال الاطمئنان بالإيمان والثبات عليه، وترد حال الكفر بإرادة تامة دون إكراه، وهذه الآية تذكرنا بحادثة وقعت زمن خاتم النبيين عليه وآله الصلاة والسلام، في قصة عمار بن ياسر رضوان الله تعالى عنه الذي أكره بما لا يطيق على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾، فقد استثناه رب العزة من غضبه وعذابه العظيم لأنه أظهر الكفر بعد الإيمان مكرها رحمة منه واشفاقا لحال أبويه بعد أن عذبهما المشركون ليردّوه في دينهم، فنطق لسانه الكفر ولكن قلبه كان عامرا مطمئنا بالإيمان، ولذلك فقد أردف القرآن الكريم قوله «**وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً**» بمعنى أن الكفر

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

دخل قلبه في حال الانشراح بمنتهى الإرادة دون اكراه، بل بمبادرة ذاتية وباندفاع ورغبة تسبب انشراح الصدر لصاحبها!

وقد ورد عن أمير المؤمنين قوله عليه السلام: **«الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»**[1].

ففي حال عمار بن ياسر رضوان الله تعالى عنه استثناه سبحانه من حكم المرتدين لثبات قلبه مطمئنا بالإيمان وإن كان قد أظهر حال الكفر على لسانه، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله أنه **«ملئ إيمانا من رأسه حتى أخمص قدميه»**، وقال له **«يا عمار تقتلك الفئة الباغية»**، فقتل شهيدا مع أمير المؤمنين عليه السلام في صفين بسيوف أتباع معاوية الطلقاء الأدعياء، فعلى عمار والشهداء معه رحمة الله ورضوانه.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل عن الإيمان فقال: **«الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد؛ والصبر منها على أربع شعب، على الشوق، والشفق، والزهد، والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات.**

واليقين منها على أربع شعب، على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين، فمن تبصر في الفطنة، تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة، عرف العبرة، ومن عرف العبرة، فكأنما كان في الأولين، والعدل منها على أربع شعب:

---

(١) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: ٤٧٤.

على غائص الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحلم، فمن فهم علم غور العلم، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحلم، ومن حلم لم يفرط في أمره، وعاش في الناس حميداً.

والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه ومن شنىء الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة.

والكفر على أربع دعائم: على التعمق، والتنازع، والزيغ، والشقاق، فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق، ومن زاغ ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة، وسكر سكر الضلالة، ومن شاقّ وعرت عليه طرقه، وأعضل عليه أمره، وضاق عليه مخرجه.

والشك على أربع شعب: على التمادي، والهول، والتردد، والاستسلام، فمن جعل المراء ديدناً لم يصبح ليله، ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه، ومن تردد في الريب، وطئته سنابك الشياطين، ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما»[1].

فسلام على من بيده التبيان وملكة البيان، وسبحان الله الذي هو أعلم حيث يجعل رسالته، ففي ما بيّنه سلام الله عليه من حقائق الإيمان وأركانه والكفر ودعائمه لكفاية لمن طلب العلم والمعرفة.

---

(١) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبدة: ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

حال الغفلة وتقابلها حال الإنابة بالذكر

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (١).

قد تقع الغفلة من الإنسان سهوا، بأن يشغله الشيطان الرجيم بشيء من حوائجه، أو بشيء من اللهو عن ذكر الله عز وجل، وذلك ليستغل الشيطان الملعون وقت الغفلة من الإنسان ليملي له ويزين له سوء عمل ما فيوقعه في حبائله ويصطاده في مصائده راجيا أن يطمس عليه بصائر قلبه فلا يرجع إلى الذكر أبدا والعياذ بالله، ولذلك علمنا الهداة المهديون أئمتنا بالحق من سبل الذكر ما يسد على الشيطان منافذه ويقطع عليه طرقه ويمنعه من تحصيل مراده في ضلالة بني البشر.

ولكنَّ هناك حالا من الغفلة تعرض لقلب الإنسان حين يلجُّ في عناده لقول

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

الحق، ويحيد عن جادة الصواب مستكبرا معاندا، ونجد في الآية الكريمة السابقة بيانا لأسباب تسليط الله سبحانه للغفلة على قلوب المعاندين المستكبرين المصرّين على الضلالة عقوبة لهم على استكبارهم وبغيهم بغير الحق، ففي هذه الآية الكريمة (المراد بإغفال قلبه تسليط الغفلة عليه وإنساؤه ذكر الله سبحانه على سبيل المجازاة، حيث إنهم عاندوا الحق فأضلهم الله بإغفالهم عن ذكره...، فلا مساغ لقول من قال: إن الآية من أدلة جبره تعالى على الكفر والمعصية وذلك لأن الإلجاء مجازاةً، لا ينافي الاختيار، والذي ينافيه هو الإلجاء ابتداء ومورد الآية من القبيل الأول.

ولا حاجة إلى تكلف التأويل كقول من قال إن المراد بقوله: (أغفلنا قلبه) عرضناه للغفلة أو أن المعنى صادفناه غافلا أو أريد به نسبناه إلى الغفلة أو أن الإغفال بمعنى جعله غفلا لا سمة له ولا علامة والمراد جعلنا قلبه غفلا لم نسمه بسمة قلوب المؤمنين ولم نعلم فيه علامة المؤمنين لتعرفه الملائكة بتلك السمة...، وقوله تعالى: (واتبع هواه وكان أمره فرطا) قال في المجمع: الفرط التجاوز للحق والخروج عنه من قولهم: أفرط إفراطا إذا أسرف انتهى، واتباع الهوى والإفراط من آثار غفلة القلب، ولذلك كان عطف الجملتين على قوله: (أغفلنا) بمنزلة عطف التفسير....، أخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: في قوله: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) قال: نزلت في أمية بن خلف وذلك أنه دعا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فأنزل الله: (ولا تطع من أغفلنا قلبه) يعني من ختمنا على قلبه (عن ذكرنا) يعني التوحيد (و اتبع

هواه) يعني الشرك (و كان أمره فرطا) يعني فرطا في أمر الله وجهالة بالله)[١].

وهذه الحادثة وإن كانت تمثل مناسبة نزول النص إلا أنه غير مقيّد بها، رغم أنها تعد مثالا لحالة استكبار الإنسان وجزاء الاستكبار عليه، فإن الله سبحانه بعدما بدر من عبده العناد والاستكبار والطغيان جازاه بأن أثبته في عداد الغافلين إذ ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٢]، وشتان بين المعاند المستكبر وبين الأوّاب المنيب، قال تعالى في سورة ق: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٣].

فالذي يكثر من العود إلى الله تعالى والرجوع إليه حفيظا للعهد الذي قطعه لله وهو الإخلاص للربوبية، فقد وعده الله سبحانه بالجنة يدخلها بسلام خالدا فيها، وله فيها ما يشاء، وعند الله له المزيد، فالقلب المنيب قلب مردّه إلى الله تعالى لا طاقة به على فراقه في الدنيا، فكان ذلك له ذخرا في الآخرة، جعلنا الله وقارئ هذه السطور من الداخلين إلى الجنة بسلام يوم الخلود إنه سميع مجيب دعوة من دعاه، وهو الكريم الوهاب.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٣ : ١٦٠.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٣) سورة ق، الآيات: ٣١-٣٥.

حال المرض وتقابلها حال السلامة

حين يكون القلب مصابا بمرض ما فذلك يعني أنَّ فيه نقصا وعيبا متمثلا بخلل ما في وظيفته، وبما أن وظيفة القلب هي البصائر، فإذن يقع القلب في العمى، فيظن أن له خيرا في أمر هو الشر بعينه! والمرض العلة تصيب البدن، والقلب المريض هو الذي فيه علة تصيبه بالسقم وتمنعه من ممارسة وظيفته.

وبما أن المقصود بالقلب ليس تلك المضخة الصنوبرية بمعناها المادي الذي يقصد منه العضلة التي تضخ الدم، بل آلة البصيرة التي هي أكبر مستودع للمعرفة وأوسع مستقر للنور، بل إن الله سبحانه لم تسعه أرضه ولا سماواته ووسعه قلب عبده المؤمن، وهذا الذي ورد في حديث قدسي يدلل على أهمية القلب للمعرفة وخطره بالنسبة إلى البصائر، فحين يكون هذا القلب مريضا فإن تخبطا كبيرا يحصل في السير، بسببه ينحرف مسير الإنسان عن الصراط المستقيم ويندفع بقلب مصاب بالضلال إلى مهلكه!

فعمى الأبصار ليس هو العمى الحقيقي لأن الإنسان يستطيع مع عمى الأبصار أن يسير على السراط المستقيم، ولكن العمى الحقيقي هو ذلك الذي يصيب القلوب،

وهذا من أشد أمراض القلب فتكا بالإنسان وعاقبته، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(١).

ومن طريف الأمور أن هناك أبحاثا وتقارير علمية نشرت مؤخرا تثبت أن معظم خلايا القلب هي خلايا دماغية، بما يمكن للقلب أن يتدبر أمره بالعمل على وظيفته من دون الرجوع إلى الدماغ، وفيه ثلاث عقد عصبية تخزن البيانات والأوامر! فالقلب إذن يتألف معظمه من خلايا دماغية! فهو أهل للتدبر، حتى أن من يتم استبدال قلبه بقلب شخص آخر فإن فعالياته وسلوكه يتغيران بشكل ملحوظ! وهذا ما اكتشفه العلم المعاصر بعد أكثر من ألف وأربعمئة عام على نزول القرآن الكريم!

ونجد أن معظم الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن الذين في قلوبهم مرض تقرن ذكرهم بالمنافقين، لأن من آثار مرض القلب الواضحة هو النفاق، فالذي في قلبه مرض تجد أن قلبه يضمر خلاف ما يعلن، فهو يميل قلبيا إلى الباطل مع أنه يبدي رغبته في الحق، قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾(٢)، (وهذه حال المنافق، يظهر الإيمان فيستفيد بعض فوائد الدين باشتراكه مع المؤمنين في

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٨ـ١٠.

مواريثهم ومناكحهم وغيرهما حتى إذا حان حين الموت وهو الحين الذي فيه تمام الاستفادة من الإيمان ذهب الله بنوره وأبطل ما عمله وتركه في ظلمة لا يدرك فيها شيئا ويقع بين الظلمة الأصلية وما أوجده من الظلمة بفعاله)[١].

ويشترك الذي في قلبه مرض مع المنافق أيضا في اتهام المؤمنين الراسخين بالغرور بمعنى الانخداع في الدين! وهذا لشدة انحراف مرضى القلوب والمنافقين عن الحق وامتناع قلوبهم عن الإبصار، فلا يجدون ما يسوغ ثبات المؤمنين وقوة إيمانهم برأيهم سوى أنهم مخدوعون! فلا يستوعب الذي في قلبه مرض سر هذه القوة في الإيمان لضعفه ومرضه وعلته، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[٣].

ويشترك الذين في قلوبهم مرض مع المنافقين في صفة أخرى يصحبهم فيها المرجفون، وهي لجاجتهم في الانصراف عن الذكر، وعدم التوبة، وإضمار العداء لله ورسوله والمؤمنين، وإظهاره بمجرد أن ينفردوا ببعضهم، وليس لهم ما يجعلهم ينتهون عن فعلهم هذا سوى ردع الله لهم بفضحهم في الحياة الدنيا بآياته البينات، أو بتعذيبهم بالإبادة في حياتهم الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى، قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ

---

(١) (١) الميزان في تفسير القرآن: ١: ٢٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾(٢).

وهنا نتوقف عند صفة الخصام التي تشترك أيضا بين الذين في قلوبهم مرض والمنافقين، فكلاهما لا ينتهون عن بث الشائعات وهي جزء من الحرب النفسية ضد المؤمنين بوصفها شكلا من أشكال الخصام، وفي ذلك نجد قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾(٣)، فإظهار القول الحسن المعجب وإضمار الخصام والعداء في القلب هو من النفاق، وهنا تشترك قضية الخصومة والتخاصم والخصام وكلها ألفاظ تشير إلى بغض وعداء يكنّه الذي في قلبه مرض والمنافق للمؤمنين.

ويشترك الذين في قلوبهم مرض مع الكافرين بصفة الضلال، فكلاهما متحير متخبط غير مدرك للحقيقة، لا لخفائها وهي البينة الجلية، بل لعدم مطاوعة القلب لما تبينه الحقائق، إما لمرض في القلب فلا تجده يستسيغ الحقيقة، وإما للكفر الصريح بها، والنتيجة واحدة وهي الخسران المبين، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٤.

وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾[(١)].

ونجد أن الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيما يضرهم ولا ينفعهم، ولكن مصيرهم الندم على ما أضمروا في أنفسهم وما خبأته قلوبهم، وتحبط أعمالهم ويكونوا من الخاسرين، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ﴾[(٢)].

ولا يمكن لمن في قلبه مرض أن ينتفع بشيء من الحكمة ومما ينزل الله من الخير الكثير رحمة منه، فالعلة التي في القلب تتسبب في رفض العطاء الإلهي مما يوجب على صاحب القلب المريض أن يزداد رجسا، وحين يصل إلى الموت يموت وهو كافر، ورغم

---

(١) سورة المدّثر، الآية: ٣١.

(٢) سورة المائدة، الآيات: ٥١ـ٥٣.

تكرار الاختبار له من الله إلا أنه لا يرجع إلى الله ولا يتوب إليه، ولا يذكره !، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[1].

ويبدو أن انصراف الذين في قلوبهم مرض عن آيات الله وهي الحق هو من آثار مرض القلب الذي لا يتقبل ذلك الحق لعلته التي أصيب بها في البصيرة، وليس ذلك فحسب، بل إن مرض القلب يجعل منه بيئة مناسبة للشيطان ليلقي من الخبائث في ذلك القلب المريض ما يكون فتنة لصاحبه فيكون من المجادلين المحاججين لأهل الحقائق لا بدليل أو حجة معه، بل لمجرد أوهام يتوهمها ألقاها الشيطان في قلبه ليس لها من الواقع والحقيقة أي نصيب! بل هي فتنة يتلقفها الذي في قلبه مرض، فمثلا حين يتمنى النبي أو الرسول خيرا للناس يجهد الشيطان في جعلهم ينصرفون عن تحقيق تلك الأمنية، فيقع الإنسان ذو القلب المريض بذلك في الظلم لنفسه، وهو بهذه الصفة يشترك مع القاسية قلوبهم الذين لا يعرفون اللين لذكر الله والانكسار في حضرته استكبارا منهم، قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ١٢٤ ـ ١٢٧.

(٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾(١).

ومن صفات الذين في قلوبهم مرض التي تشترك بينهم وبين المرتابين الشاكّين في الله وعدالته تعالى عن ذلك سبحانه علوا كبيرا، هي صفة الاعراض عن أمر الله لعدم الإيمان، قال تعالى من سورة النور: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(٢).

ومن آثار مرض القلب أيضا الطمع فيما لا ينبغي له بتاتا، وليس للطامع فيه حق إلا بغيا، وفي ذلك تتحدث الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾(٣)، وفي هذه الآية يخاطب الله سبحانه نساء النبي عليه وآله صلوات الله وسلامه، (بعد ما بين علو منزلتهن ورفعة قدرهن لمكانهن من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشرط في ذلك التقوى فبين أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبي (صلى الله

(١) سورة الحج، الآيتان: ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) سورة النور، الآيات: ٤٧ ـ ٥٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

عليه وآله وسلم) نهاهن عن الخضوع في القول وهو ترقيق الكلام وتليينه مع الرجال بحيث يدعو إلى الريبة وتثير الشهوة فيطمع الذي في قلبه مرض وهو فقدان قوة الإيمان التي تردعه عن الميل إلى الفحشاء)[1].

وهذا الخلل القلبي الذي يقع من القلب في وظيفة البصيرة يجعله يميل إلى الباطل ظانا أنه الحق، وإنه ليرجو لنفسه السلامة في عدم الدخول في أمر الله عز وجل لعدم الإيمان باليوم الآخر، وإلا لم الخوف من مواجهة أعداء الله تعالى؟ ولم الإعراض عن القتال في سبيله بعدما وعد المجاهدين ما وعدهم من الخير العظيم؟! قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾[2].

وهذا كله يظهر آثار مرض القلب وهي آثار غاية في الخسران وليس لمن يحملها سوى النار مثوى ومأوى والعياذ بالله، وفي تبيانها معرفة بنقيضها وهو القلب السليم الذي عافاه الله سبحانه من كل تلك المساوئ والآثار المترتبة على مرض القلب.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٦: ١٦٣.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٠.

حال التكبر وتقابلها حال التواضع والتذلل

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1].

التكبر هو الاستعلاء على الله تعالى شأنه، والامتناع عن طاعته للشعور بالكبر والزهو، وهي حالة شعورية تري صاحبها نفسه أعلى وأكبر من أن ينصاع لأمر الله.

لأنه يجد نفسه أكبر، وخطره أعظم، ومنزلته أعلى من أن يذل لرب العالمين! ومن ذلك نرى المتكبر يجادل في آيات الله بغير علم لا لشيء سوى أنه يريد صرف الأوامر التي في الآيات وما يترتب عليها عن نفسه، وكأنه فوق قانون الله ولا تجري عليه سنن الله لأنه أكبر ! مع أن الله هو الأكبر ولا أكبر منه شيء! وهو المتكبر وحده لا يشاركه في صفته هذه أحد إلا أذله صاغرا، سبحانه عما يشركون.

قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ

---

(١) سورة غافر، الآية: ٣٥.

﴿الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١].

وليست الكبرياء إلا له وحده سبحانه لا يشاركه فيها أحد، ولا يدعيها مدعٍ إلا أخزاه، قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢]، ولقد بيّن الله سبحانه مصير المتكبرين لعظيم هذا الذنب وسوء عاقبته، بقوله سبحانه: ﴿فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٥].

فمن التكبر أن يعمد المكلّف بالعبادة إلى الكذب على الله تعالى ليسوّغ امتناعه عن طاعة الله سبحانه، فيجعل تمرده عن الطاعة شرعيا بأن يكذب على الله سبحانه وينسب إليه زورا أمر ما يعمله من عمل سيئ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٦].

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٣٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ٢٩.
(٤) سور الزمر، الآية: ٧٢.
(٥) سورة غافر، الآية: ٧٦.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٦٠.

ومن التكبر أيضا عدم الإيمان بيوم الحساب مما يستتبع عدم الاستعداد له، ومن لا يؤمن به يفعل في هذه الحياة الدنيا ما يحلو له من أفعال فيكون الظلم لنفسه وللآخرين من شيمته وخلقه لإرادته الاستئثار والبغي على الآخرين من دون رادع، فيطغى المخلوق بما له من قوة منحها الله سبحانه إليه ليعبده، ولكنه استكبر عن عبادته واستعمل قوته التي هي من الله عز وجل، في معصية الله !، وهذا من آثار عدم الإيمان بيوم الحساب الذي هو من التكبر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾(١).

ومن التكبر أيضا الامتناع عن الإذعان للرسول الأعظم والنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، وإتيانه لطلب الاستغفار منه إلى الله تعالى، وعجبا لقوم يمنعون المسلمين من زيارة قبر الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله للاستغفار وطلب الشفاعة والله يقول في كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾(٢)، فمن يمتنع عن المجيء إلى الرسول للاستغفار ويصد الناس عن هذا العمل العبادي الذي يأمر به الله تعالى سوى المستكبرين المتبعين لسنة إبليس اللعين؟!

والعجب أنهم لا يستمعون لمن يقرأ عليهم آيات الله المباركة البيّنة المُبيّنة، مصداقا لقول سيدنا نوح على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام فيما ذكره القرآن الحكيم بقوله

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٧.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٥.

تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾[١].

والتكبر حال مقيتة تجعل من صاحبها عرضة للطرد من رحمة الله والعياذ بالله، والتكبر سنة استنها إبليس عليه لعنه الله ،قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٢]، فإبليس إمام المستكبرين وكل من يتكبر على الله سبحانه فإنه من متبعي إبليس اللعين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[٣]، فالمستكبر هو من يتكلف التكبر بتكذيب الرسل وقتلهم، لأنهم جاؤوا بما لا تهوى نفسه! ولكن الله لابد أن يحشر المستكبرين إليه، فماذا سيفعلون عندها؟ وبماذا سيجيبون عن سبب استكبارهم؟ بل ماذا نفعهم استكبارهم سوى أنه أوردهم النار؟! قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً﴾[٤].

وعند جمعهم بين يدي الله عزّ وجل فمن استنكف واستكبر عن عبادة الله

(١) سورة نوح، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

وإطاعة أمره فليس له سوى العذاب الأليم، وسيجد نفسه وحيدا لا وليّ له ينصره من الله وما كان منتصرا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.

(٥) سورة غافر، الآية: ٦٠.

فالمتكبر ينكر أمر الله تعالى في قلبه، وهو مستوجب بذلك لغضب العزيز الجبار، قال تعالى من سورة النحل: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[(١)].

فالتكبر هي الحال التي أخرجت إبليس عليه اللعنة من الجنة وتسببت له بالطرد من رحمة الله سبحانه بعد أن قضى ستة آلاف سنة من العبادة لا يعلم أمن سني السماء أم من سني الأرض، قال تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[(٢)].

وقد وقع الطرد لإبليس لمجرد تكبر ساعة حين أمره الله تعالى والملائكة بالسجود لآدم فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى وكان من المستكبرين! وما كان الله سبحانه ليرضى عن متكبر أبدا فسنته جارية وحكمه نافذ على حد سواء في الأرض وفي السماء، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له تعرف بـ(القاصعة)وهي في ذم التكبر، ولعظيم فائدتها في تفصيل حال التكبر وأهله، والتواضع وأهله، أنقلها عن نهج البلاغة كاملة:

«الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمىً وحرماً على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ٢٢-٢٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣.

عباده. ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين، ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه، وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ﴾[1]، اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدوّ الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادَّرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل.

ألا يرون كيف صغره الله بتكبره، ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعد له في الآخرة سعيراً، ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهر العقول رواؤه، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه، لفعل، ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوى فيه على الملائكة، ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختبار لهم، ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم، فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة، لا يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته!. كلا ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً، إن حكمه في أهل السماء والأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرمه على العالمين.

فاحذروا عباد الله عدو الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بخيله ورجله،

---

(١) سورة ص، الآيات: ٧١ـ٧٤.

فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب، فقال: ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١)، قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظن غير مصيب، صدقه به أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطماعية منه فيكم، فنجمت فيه الحال من السرّ الخفي إلى الأمرّ الجلي، استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطؤوكم إثخان الجراحة، طعناً في عيونكم، وحزاً في حلوقكم، ودقاً لمناخركم، وقصداً لمقاتلكم، وسوقاً بخزائم القهر، إلى النار المعدة لكم، فأصبح أعظم في دينكم حرجاً، وأورى في دنياكم قدحاً، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألبين.

فاجعلوا عليه حدكم وله جدكم. فلعمر الله لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم، وقصد برجله سبيلكم. يقتنصونكم بكل مكان، ويضربون منكم كل بنان، لا تمتنعون بحيلة، ولا تدفعون بعزيمة، في حومة ذل، وحلقة ضيق، وعرصة موت، وجولة بلاء.

فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته، ونزعاته ونفثاته. واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحةً بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده، فإن له من كل أمة جنوداً وأعواناً، ورجلاً وفرساناً، ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضل جعله الله

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٩.

فيه، سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسب، وقدحت الحمية في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر، الذي أعقبه الله به الندامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة.

ألا وقد أمعنتم في البغي، وأفسدتم في الأرض، مصارحة لله بالمناصبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة. فالله الله في كبر الحمية، وفخر الجاهلية! فإنه ملاقح الشنآن، ومنافخ الشيطان، التي خدع بها الأمم الماضية، والقرون الخالية، حتى أعنقوا في حنادس جهالته، ومهاوي ضلالته، ذللاً عن سياقه، سلساً في قياده، أمراً تشابهت القلوب فيه، وتتابعت القرون عليه، وكبراً تضايقت الصدور به.

ألا فالحذر الحذر من ساداتكم وكبرائكم! الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربهم، وجاحدوا الله على ما صنع بهم!، مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهلية. فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً، ولا لفضله عندكم حساداً، ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم آساس الفسوق، وأحلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ضلال، وجنداً بهم يصول على الناس، وتراجمةً ينطق على ألسنتهم، استراقاً لعقولكم، ودخولاً في عيونكم، ونفثاً في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، وموطيء قدمه، ومأخذ يده.

فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته، ووقائعه ومثلاته، واتعظوا بمثاوي خدودهم، ومصارع جنوبهم، واستعيذوا بالله من لواقح

الكبر، كما تستعيذونه من طوارق الدهر. فلو رخص الله في الكبر لأحد من عباده لرخص فيه لخاصة أنبيائه، ولكنه سبحانه كره إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وكانوا قوماً مستضعفين، قد أختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة، وامتحنهم بالمخاوف، ومحصهم بالمكاره.

فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد، جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الغنى والإقتار، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[(١)]، فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم، بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون – صلى الله عليهما – على فرعون وعليهما مدارع الصوف، وبأيديهما العصي، فشرطا له – إن أسلم – بقاء ملكه، ودوام عزه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز، وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذل! فهلا ألقي عليهما أساورة من ذهب، إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه!

ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء، ووحوش الأرضين، لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحلت الأنباء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء معانيها، ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم، وضعفةً فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥ـ٥٦.

قناعة تملأ القلوب والعيون غنىً، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً.

ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام، وعزة لا تضام، وملك تمد نحوه أعناق الرجال، وتشد إليه عقد الرجال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم من الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة، والحسنات مقتسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والاستكانة لأمره، والاستسلام لطاعته، أموراً له خاصة، لا يشوبها من غيرها شائبة. وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل، ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله الله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً.

بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف، ولا حافر ولا ظلف، ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوي إليه ثمار الأفئدة، من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللاً، يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم، شعثاً غبراً له، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً لرحمته، ووصلةً إلى جنته.

ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنات وأنهار،

وسهل وقرار، جم الأشجار، داني الثمار، ملتف البنى، متصل القرى، بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، وزروع ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء، على حسب ضعف البلاء. ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، من زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس. ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه.

فالله الله في عاجل البغي، وآجل وخامة الظلم، وسوء عاقبة الكبر، فإنها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة، فما تكدي أبداً، ولا تشوي أحداً، لا عالماً لعلمه، ولا مقلاً في طمره. وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعاً لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم، ولما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً، والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً، ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللاً، مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض، وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر. انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمع نواجم الفخر، وقلع طوالع الكبر!

ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة. أما إبليس فتعصب على آدم لأصله، وطعن عليه في

خلقته، فقال: أنا ناري وأنت طيني، وأما الأغنياء من مترفة الأمم فتعصبوا لآثار مواقع النعم، فقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين.

فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور، التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب، ويعاسيب القبائل، بالأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة، والآثار المحمودة. فتعصبوا لخلال الحمد، من الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض.

واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال، وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم، فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم، فالزموا كل أمر لزمت العزة به حالهم، وزاحت الأعداء له عنهم، ومدت العافية به عليهم، وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم، من الاجتناب للفرقة، واللزوم للألفة، والتحاض عليها، والتواصي بها. واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم، وأوهن متنهم، من تضاغن القلوب، وتشاحن الصدور، وتدابر النفوس، وتخاذل الأيدي.

وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم، كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء! ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً، وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً! اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب، وجرعوهم جرع المرار، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة، لا يجدون حيلةً في امتناع، ولا سبيلاً إلى دفاع، حتى إذا

رأى الله سبحانه جد الصبر منهم على الأذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً، فأبدلهم العز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً، وأئمةً أعلاماً، وقد بلغت الكرامة من الله لهم، ما لم تذهب الآمال إليه بهم. فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعةً، والأهواء مؤتلفةً، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفةً، والسيوف متناصرةً، والبصائر نافذةً، والعزائم واحدةً. ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين!

فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، تشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين منكم.

فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السلام، فما أشد اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال!. تأملوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرقهم، ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم، يحتازونهم عن ريف الآفاق، وبحر العراق، وخضرة الدنيا، إلى منابت الشيح، ومهافي الريح، ونكد المعاش، فتركوهم عالة مساكين، إخوان دبر ووبر.

أذل الأمم داراً، وأجدبهم قراراً، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها، فالأحوال مضطربة والأيدي مختلفة، والكثرة متفرقة، في بلاء أزل، وأطباق جهل، من بنات موءودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة.

فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاً، فعقد بملته طاعتهم، وجمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، وأسالت لهم جداول نعيمها، والتفت الملة بهم في عوائد بركتها، فأصبحوا في نعمتها غرقين، وفي خضرة عيشها فاكهين، قد تربعت الأمور بهم، في ظل سلطان قاهر، وآوتهم الحال إلى كنف عز غالب، وتعطفت الأمور عليهم في ذرى فلك ثابت، فهم حكام على العالمين، وملوك في أطراف الأرضين، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم، لا تغمز لهم قناة، ولا تقرع لهم صفاة.

ألا وإنكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، وثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية، فإن الله سبحانه قد امتن على جماعة هذه الأمة، فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي يتقلبون في ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمةً، لأنها أرجح من كل ثمن، وأجل من كل خطر، واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلقون من الإسلام إلا باسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه، تقولون: النار ولا العار! كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه انتهاكاً لحريمه، ونقضاً لميثاقه الذي وضعه الله لكم حرماً في أرضه، وأمناً بين خلقه، وإنكم إن لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر، ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل، ولا مهاجرين ولا أنصار ينصرونكم، إلا المقارعة بالسيف حتى يحكم الله بينكم.

وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه، وأيامه ووقائعه، فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه، وتهاوناً ببطشه، ويأساً من بأسه، فإن الله سبحانه لم يلعن القرون الماضية بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعن الله

السفهاء لركوب المعاصي، والحلماء لترك التناهي، ألا وقد قطعتم قيد الإسلام، وعطلتم حدوده، وأمتم أحكامه.

ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الأرض، فأما الناكثون فقد قاتلت، وأما القاسطون فقد جاهدت، وأما المارقة فقد دوخت، وأما شيطان الردهة فقد كفيته بصعقة سمعت لها وجبة قلبه، ورجة صدره، وبقيت بقية من أهل البغـي، ولئن أذن الله في الكرة عليهم، لأديلن منهم إلا ما يتشذر في أطراف البلاد تشذراً. أنا وضعت بكلاكل العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر.

وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبةً في قول، ولا خطلةً في فعل.

ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لـدن أن كـان فطيمـاً أعظـم ملـك مـن ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعـه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه، ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان، قد أيس من عبادته، إنك تسـمع مـا أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير، وإنك لعلى خير.

ولقد كنت معه صلى الله عليه وآله، لما أتاه الملأ من قريش، فقالوا له: يا محمد، إنك قد ادعيت عظيماً لم يدعه آباؤك، ولا أحد من بيتك، ونحن نسألك أمراً إن أنت أجبتنا إليه وأريتناه، علمنا أنك نبي ورسول، وإن لم تفعل علمنا أنك ساحر كذاب، فقال صلى الله عليه وآله: وما تسألون؟ قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة، حتى تنقلع، بعروقها، وتقف بين يديك. فقال صلى الله عليه وآله: إن الله على كل شيء قدير، فإن فعل الله لكم ذلك، أتؤمنون وتشهدون بالحق! قالوا: نعم، قال: فإني سأريكم ما تطلبون، وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير، وأن فيكم من يطرح في القليب، ومن يحزب الأحزاب.

ثم قال صلى الله عليه وآله: يا أيتها الشجرة، إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين أني رسول الله، فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي بإذن الله، والذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها، وجاءت ولها دوي شديد، وقصف كقصف أجنحة الطير، حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله مرفرفة، وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وببعض أغصانها على منكبي، وكنت عن يمينه صلى الله عليه وآله، فلما نظر القوم إلى ذلك، قالوا علوا واستكبارا، فمرها فليأتك نصفها، ويبقى نصفها، فأمرها فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشده دوياً، فكادت تلتف برسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا كفراً وعتواً: فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره صلى الله عليه وآله فرجع، فقلت أنا: لا إله إلا الله، إني أول مؤمن بك يا رسول الله، وأول من أقر بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوتك، وإجلالاً لكلمتك.

فقال القوم كلهم: بل ساحر كذاب، عجيب السحر خفيف فيه؟ وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا! - يعنونني - وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيما الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار، عمار الليل، ومنار النهار، متمسكون بحبل القرآن، يحيون سنن الله وسنن رسوله، لا يستكبرون ولا يعلون، ولا يغلون ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل»[١].

ولم أجد بسطا في القول لمعنى التكبر وأصله وفرعه وآثاره وخواصه خيرا من هذا الذي قدمه إمام البلغاء باب مدينة الحكمة النبوية الإمام علي بن أبي طالب على أخيه وعليه الصلاة والسلام، فطوبى لمن طوعت لهم الألباب دخول الباب والوصول إلى هذا اللباب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٣ : ٨٨ وما بعدها.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

حال الختم وتقابلها حال الشرح

قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[1].

القلب المختوم قلب افترى على الله كذبا فجزاؤه أن يختم عليه فلا يجد للهدى سبيلا لأنه لا يستحقه، ولأنه سيصرفه - أي الهدى - في غير موضعه، ويحوله للانتفاع الدنيوي، وهذا منزه عنه الرسول الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه وآله، وإن كان الخطاب موجها له عليه وآله الصلاة والسلام، (و قوله: «**فإن يشإ الله يختم على قلبك**» معناه على ما يعطيه السياق أنك لست مفتريا على الله كذبا فإنه ليس لك من الأمر شيء حتى تشاء الفرية فتأتي بها وإنما هو وحي من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع والأمر إلى مشيته تعالى فإن يشأ يختم على قلبك وسد باب الوحي إليك، لكنه شاء أن يوحي إليك ويبين الحق، وقد جرت سنته أن يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته،

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٤.

فقوله: (فإن يشإ الله يختم على قلبك) كناية عن إرجاع الأمر إلى مشية الله وتنزيه لساحة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يأتي بشيء من عنده.

وهذا المعنى... أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقربى قرابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والتوبيخ متوجها إلى المنافقين ومرضى القلوب)[1].

الذين اتهموه بالافتراء على الله كذبا لأنه سألهم مودة أهل بيته عليهم السلام أجرا على تبليغهم رسالة السماء، ويظهر لك أيها المطلع أن مودة أهل بيته إنما هي سبب لجلب الناس إليهم لأنهم هم موضع تمام النعمة وإكمال الدين، وعلم الرسول صلى الله عليه وآله عندهم، وهذا يشمل علوم الشريعة وأحكامها، وعلوم القرآن وتفسيره وتأويله، بل كل علم يحتاجه ابن آدم إلى يوم القيامة، مما يحقق قوله صلى الله عليه وآله فيما عرف بحديث الثقلين: **«ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي»**، أي أن مودتهم ستكون سببا لانتفاع الناس بهم والاهتداء بهداهم، والأمان من الضلالة.

وهنا ألفت نظرك إلى أن الاستثناء في الآية منقطع، بمعنى أن المودة في القربى وهي المستثنى ليست من جنس الأجر وهو المستثنى منه، فانتبه لهذه الحكمة! فأجر محمد صلى الله عليه وآله على الله، ولكن المودة لازمة لاتباع الأوصياء وطاعتهم، فهو صلى الله عليه وآله يوصي بهم بالمودة لذلك، فسؤاله المودة من قبيل الوصية وليس من قبيل الأجر، لأن الاستثناء هنا منقطع كما نبهنا. وليس له صلى الله عليه وآله وسلم أن يأمر بمودة أحد من الناس من تلقاء نفسه دون أمر الله تعالى، ولكن حكمة الباري سبحانه جرت في أن تتعلق مصلحة الدين وانتشاره والحكمة وبلوغها بمودتهم عليهم الصلاة

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٨ : ٢٥.

والسلام لأنهم مواضع أسرار علمه وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

وحال الختم على القلب مرهون باستكبار المرء عن عبادة الله سبحانه، ودليل الاستكبار أنه يأبى طاعة الله مع علمه بوجوبها والحجة عليها، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١)، و(ظاهر السياق أن قوله: (أفرأيت) مسوق للتعجيب أي ألا تعجب ممن حاله هذا الحال؟ والمراد بقوله: (اتخذ إلهه هواه) حيث قدم (إلهه) على (هواه) إنه يعلم أن له إلها يجب أن يعبده - وهو الله سبحانه - لكنه يبدله من هواه ويجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه، ولذلك عقبه بقوله: (وأضله الله على علم) أي أنه ضال عن السبيل وهو يعلم.

ومعنى اتخاذ الإله العبادة والمراد بها الإطاعة فإن الله سبحانه عدّ الطاعة عبادة كما في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾(٢)، وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(٤)، والاعتبار يوافقه إذ ليست العبادة إلا إظهار الخضوع وتمثيل أن العابد عبد لا يريد ولا يفعل إلا ما أراده ورضيه

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) سورة يس، الآيتان: ٦٠-٦١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

معبوده فمن أطاع شيئا فقد اتخذه إلها وعبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ولا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته.

فقوله: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) أي ألا تعجب ممن يعبد هواه بإطاعته واتباعه وهو يعلم أن له إلها غيره يجب أن يعبده ويطيعه لكنه يجعل معبوده ومطاعه هو هواه، وقوله: (وأضله الله على علم) أي هو ضال بإضلال منه تعالى يضله به مجازاة لاتباعه الهوى حال كون إضلاله مستقرا على علم هذا الضال، ولا ضير في اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل ومعرفته كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾(١).

وذلك أن العلم لا يلازم الهدى ولا الضلال يلازم الجهل بل الذي يلازم الهدى هو العلم مع التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقبه الاهتداء وأما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لاتباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال وإن كان معه علم.

وقوله: (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) كالعطف التفسيري لقوله: (وأضله الله على علم) والختم على السمع والقلب هو أن لا يسمع الحق ولا يعقله، وجعل الغشاوة على البصر هو أن لا يبصر الحق من آيات الله ومحصل الجميع: أن لا يترتب على السمع والقلب والبصر أثرها وهو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحق إذا أدركه لاستكبار من نفسه واتباع للهوى، وقد عرفت أن الضلال عن السبيل لا ينافي العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه.

وقوله: (فمن يهديه من بعد الله) الضمير لمن اتخذ إلهه هواه والتفريع على ما تحصل من حاله أي إذا كان حاله هذا الحال وقد أضله الله على علم إلخ، فمن يهديه

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

من بعد الله سبحانه فلا هادي دونه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾[(١)]، وقال: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿أفلا تذكرون﴾، أي أفلا تتفكرون في حاله فتتذكروا أن هؤلاء لا سبيل لهم إلى الهدى مع اتباع الهوى فتتعظوا)[(٣)]. ونجد أن حال الختم على القلب هو جزاء من الله تعالى لمن استكبر عن عبادته وكان من المعاندين مع علمهم بوجوب طاعته سبحانه، ومن الكافرين الذين لا يؤمنون بالله على أية حال، قال تعالى من سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[(٤)].

وليس من سبيل إلى الهدى ثم ما يستتبعه من سعادة أبدية سوى القلب، فإن ختم الله عليه فمن يهديهم ومن يجزيهم الحسنى؟ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[(٥)]، ويبدو أن حال الختم على القلب في الحياة الدنيا يتبعه ختم من نوع آخر في الحياة الآخرة وهو الختم على الأفواه لتشهد على الذين

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة المؤمن، الآية: ٣٣.
(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٨ : ٩٢.
(٤) سورة البقرة، الآيتان: ٦ـ٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٤٦.

كفروا بارتكابهم المعاصي أيديهم وأرجلهم، ولا يخفى ما في هذه الآية من بيان لقدرة الله سبحانه، وطاعة الجسد طاعة تكوينية لسلطانه العظيم وإن كان الإنسان قد عصاه واستكبر عن طاعته التشريعية، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

ويقابل حال الختم حال الشرح، فالقلب الذي يؤمن بالله يشرحه سبحانه للهدى جزاء لطاعته، وأول المؤمنين من مخلوقاته هو أتمهم عقلا وأفضلهم تقوى وأقربهم منزلة، وهو السيد الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه أنزل الاله تعالى قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(٢).

وهنا ألفت إلى أن سيدنا موسى على نبينا الأكرم وآله وعليه الصلاة والسلام قد سأل الله سبحانه قائلا ربِّ اشرح لي صدري، ولكن الله تعالى هو الذي ابتداء شرح صدر نبيه الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لكرامته وقرب منزلته صلوات ربي وسلامه عليه، وهنا (المراد بشرح صدره (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية جعله بحيث يسع ما يلقى إليه من الحقائق ولا يضيق بما ينزل عليه من المعارف وما يصيبه من أذى الناس في تبليغها)(٣).

ومن ذلك فكل من يطيع الله تعالى ويجد سبحانه في قلبه حبا للهدى فإنه يهديه بأن يشرح صدره للإسلام، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الشرح، الآية: ١.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ : ١٧٦.

صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[١]، ويستطيع المرء الوصول بقلبه إلى منزلة من حال الشرح بذكر الله سبحانه، فالقلب الذاكر لله مطمئن به، مطواع لأوامره، محب للقرب منه سبحانه، وهذا ما يجزي الله به شرحا للصدر ليتسع للإسلام وهو التسليم لله، على العكس من القلب القاسي المتحجر الذي لا يلين لطاعة الله سبحانه، فهو قلب بعيد عن الذكر، وضلاله أوضح من أن يحتاج إلى بينة، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾[٢].

ومن شرح الله صدره للإسلام يكون على نور من ربه، وحسبك بذلك كرامة وسعادة وراحة بال واطمئنان، فلا نور لغير المؤمنين، لأن المؤمنين الله هو وليهم، قال تعالى: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[٤]، وشتان بين من كان له

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٢) سور الزمر، الآية: ٢٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٤) سورة النور، الآية: ٤٠.

نور ومن يتخبط في دياجي الظلمات، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1]، صدق الله العلي العظيم وصدق رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

حال الضلال وتقابلها حال الهدى

والضلال هو الزيغ والشطط، والبعد عن الصراط المستقيم، ويقابله الهدى الذي هو اتباع الحق والسير على الصراط المستقيم.

وأجد أنه من المناسب - هنا - من توضيح الفرق بين حالتين من الضلالة، فالأولى تقع للذين يضلهم الله سبحانه، والثانية تقع للذين يضلهم الشيطان وجنوده، ففي الحالة الأولى تكون الضلالة واقعة من الله سبحانه للمعاندين، المصرّين على كفرهم جزاء من الله سبحانه لاستكبارهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ

---

(١) سورة محمد، الآية: ١.

(٢) سورة محمد، الآية: ٨.

أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[2].

فالكافرون والصادّون والمشاقّون والظالمون المتبعون أهواءهم والمنافقون، كل أولئك حقّ عليهم الضلالة لموالاتهم الشيطان اللعين، قال تعالى: ﴿ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[3]، ولأنهم كذبوا رسل الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[4]، ولا يغير حال الضلالة إلا الله سبحانه، ولا يستطيع ذلك سواه، قال تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾[5]، فقد تجد قوما حاول الشيطان ضلالتهم هو وجنوده، ولكنهم أرادوا وجه الله فهداهم الله إليه، ولكن من استعذبوا طعم المعصية والتذوا بالضلالة وأبوا الهدى جعل الله سبحانه حالهم الدائمة هي الضلالة، فتكون حال

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٠.

(٤) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٥) سورة النساء، الآية: ٨٨.

الضلالة من الله سبحانه حالا ثابتة.

وأما الذين أضلهم الشيطان وجنوده فهي حال متغيرة إن لم تقترن برضا وقبول الضالين بحالهم، فإن أرادوا تغيير ما في أنفسهم من ضلالة وسعوا إلى الهدى فإن الله يغير أحوالهم ويهديهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[(١)]، كما أنه سبحانه لا يغير حال الهدى التي هم فيها حتى يغيروا ما في أنفسهم، فالهدى نعمة كبيرة من الله عزّ وجلّ، وسنته أن لا يغير النعمة إلا لسبب موجب، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(٢)]، والسبب الموجب هو اتباع الناس الشيطان دون الله مولاهم الحق، فالشيطان يصرح بأنه سيضل بني آدم ويمنيهم ويأمرهم بالمنكر، ولكن الله سبحانه يقرر أن الخسران المبين لمن يتخذ الشيطان وليا من دون الله سبحانه، وليس من الخسران أشد من الضلالة، قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾[(٣)].

ويستطيع الناس أن ينجوا من الضلالة إن هم اتبعوا سبيل المؤمنين وأطاعوا الله ورسوله مهما كانت حالهم، وأن لا يتبعوا الشيطان وجنوده من أهل الضلالة، قال

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٩.

تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾(١)، فمن أتباع الشيطان المضلين فرعون الذي قال عنه الله سبحانه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾(٢)، ولكن قومه كانوا يستطيعون أن يهتدوا لو أرادوا كما فعل السحرة الذين آمنوا بالله، فضلالة الشيطان وجنوده ليست ثابتة ماضية، بل هي قابلة للتغيير إن أراد ابن آدم ذلك، قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾(٣).

فترك ذكر الله والتمتع بالحياة الدنيا والاتصاف بالقوم البور الذين لا تنبت في أرضهم الهداية مهما أصر الأنبياء والمرسلون على غرسها، كلها أسباب موجبة لتثبيت حال الضلالة، ولا يكون الهدى إلا لمن استحقه. ولا تكون الضلالة إلا للقوم الفاسقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة المائدة، الآية ٧٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٩.

(٣) سورة الفرقان، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

أما حال الهدى للقلب فهي مرتبطة بالمؤمنين الذين وإن حاول الشيطان وجنوده ضلالتهم، ولكن إيمانهم بالله جعلهم من المهتدين، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١)، التغابن١١، فالمؤمنون الذين يؤمنون بالله يهدي قلوبهم إليه، فتجدهم يسلمون أمورهم إليه غير معترضين، بل غير منكرين ولا معترضين على حكمه وبلائه، إذ "إن لله سبحانه في الحوادث التي تسوء الإنسان علما ومشية فليست تصيبه مصيبة إلا بعد علمه تعالى ومشيته فليس لسبب من الأسباب الكونية أن يستقل بنفسه فيما يؤثره فإنما هو نظام الخلقة لا رب يملكه إلا خالقه فلا تحدث حادثة ولا تقع واقعة إلا بعلم منه ومشيئة فلم يكن ليخطئه ما أصابه ولم يكن ليصيبه ما أخطأه، وهذه هي الحقيقة التي بينها بلسان آخر في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾(٢).

فالله سبحانه رب العالمين ولازم ربوبيته العامة أنه وحده يملك كل شيء لا مالك بالحقيقة سواه، والنظام الجاري في الوجود مجموع من أنحاء تصرفاته في خلقه فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا عن إذن منه، ولا يفعل فاعل ولا يقبل قابل إلا عن علم سابق منه ومشية لا يخطىء علمه ومشيته ولا يرد قضاؤه، فالإذعان بكونه تعالى هو الله يستعقب اهتداء النفس إلى هذه الحقائق واطمئنان القلب وسكونه وعدم اضطرابه وقلقه

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

من جهة تعلقه بالأسباب الظاهرية، وإسناده المصائب والنوائب المرة إليها دون الله سبحانه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[١]، و قيل: معنى الجملة: ومن يؤمن بتوحيد الله ويصبر لأمر الله يهد قلبه للاسترجاع حتى يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفيه إدخال الصبر في معنى الإيمان، وقيل: المعنى: ومن يؤمن بالله يهد قلبه إلى ما عليه أن يفعل فإن ابتُلي صَبر وإن أُعطِي شَكر وإن ظُلم غَفر)[٢].

إن الهدى مرتبط بالله سبحانه وهو وحده من يملك أسبابه وحق إعطائه أو سلبه، لعلمه بما تخفي السرائر ولحكمته البالغة، ورحمته وعدله، وحتى أقرب عباده إليه منزلة وأشرفهم مكانة وهو رسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وآله ليس مكلفا بالهدى على نحو التحقيق والنتيجة النهائية، بل هو يدعوهم إلى الهدى ويبشرهم بما يترتب عليه من جوائز ثمينة، ويحذرهم من العمى والضلال وينذرهم إلى ما يترتب عليه من عذاب وخسران مبين، قال تعالى لرسوله الكريم: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[٣]، وقال له: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[٤]، وقال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٩ : ١٦٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٤) سورة النحل، الآية: ٣٧.

(٥) سورة القصص، الآية: ٥٦.

ومهما اختلفت حال الذين آمنوا فإن الهدى من الله هو جائزتهم على إيمانهم، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١)، وسنة الله في الهدى أنه لا يشمل القوم الظالمين، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣). ولا يشمل القوم الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٣٧.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

ولا يشمل الهدى القوم الفاسقين، قال تعالى: ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1]، المائدة١٠٨، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

والهدى لا يشمل المشركين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3]، والهدى لا يشمل الخائنين الكائدين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[4]، والهدى لا يشمل المنكرين لآيات الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5]، والهدى لا يشمل الكاذب الكفار، قال تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[6].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٨.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٥٢.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٠٤.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٣.

ولا يشمل من هو مسرف كذاب، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(١)، ولا يشمل من اتخذ إلهه هواه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٢)، ولا يشمل الهدى الزائغين عن الحق الفاسقين عن أمر ربهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٣).

وأحيانا قد يأتي الهدى من الله للناس ولكنه لا يستقر عندهم بسبب ميلهم إلى الباطل وحبهم للضلالة، فالهدى لا يستقر عند المشاقين الذين يتبعون غير سبيل المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(٤)، و(المشاقّة من الشق وهو القطعة المبانة من الشيء فالمشاقة والشقاق كونك في شق غير شق صاحبك، وهو كناية

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الصف، الآية: ٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ١١٥.

عن المخالفة، فالمراد بمشاقة الرسول بعد تبين الهدى مخالفته وعدم إطاعته، وعلى هذا فقوله {ويتبع غير سبيل المؤمنين} بيان آخر لمشاقة الرسول، والمراد بسبيل المؤمنين إطاعة الرسول فإن طاعته طاعة الله قال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾[(١)].

فسبيل المؤمنين بما هم مجتمعون على الإيمان هو الاجتماع على طاعة الله ورسوله - وإن شئت فقل على طاعة رسوله - فإن ذلك هو الحافظ لوحدة سبيلهم كما قال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[(٣)]، وإذا كان سبيله سبيل التقوى، والمؤمنون هم المدعوون إليه فسبيلهم مجتمعين سبيل التعاون على التقوى كما قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[(٤)].

والآية - كما ترى - تنهى عن معصية الله وشق عصا الاجتماع الإسلامي، وهو ما ذكرناه من معنى سبيل المؤمنين...، وقوله {نوله ما تولى}، أي نجره على ما جرى

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٠١-١٠٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٢.

عليه، ونساعده على ما تلبس به من اتباع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[1]، وقوله ﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[2]، عطفه بالواو يدل على أن الجميع أي توليته ما تولى وإصلاءه جهنم أمر واحد إلهي، بعض أجزائه دنيوي وهو توليته ما تولى، وبعضها أخروي وهو إصلاؤه جهنم وساءت مصيرا)[3].

والهدى لا يستقر عند الذين استهوتهم الشياطين، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[4]، والهدى لا يستقر عند المعترضين على أن الله بعث بشرا رسولا، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾[5]، والهدى لا يستقر عند المكذبين للرسل جريا على سنة الأولين، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٥: ٤٦ ـ ٤٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾[1].

كذلك فإن دعوة الهدى لا تجد لها مكانا عند الظالمين الذين أعرضوا عن آيات الله وقد ذُكّروا بها، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾[2]، ولا يستقر الهدى عند الجاهلين الذين يجادلون بغير علم ويصرون على جهلهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[3]، ولا يستقر الهدى عند المجرمين، قال تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾[4]، ولا يستقر عند من استحبوا العمى، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[5]، ولا يستقر الهدى عند من سول لهم الشيطان فأجابوه وارتدوا على

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٧.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٧.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٣٢.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٧.

أدبارهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾(١)، فكل أولئك جاءهم من الله الهدى، وبلغتهم دعوته، ولكنهم أبوا أن يستجيبوا له، فلم يجد الهدى مستقره عندهم، فغادرهم غير عائد، وتركهم عميا في ضلالتهم يتخبطون.

ولكن الهدى يشمل الذين آمنوا بالله واعتصموا به، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾(٢)، ويشمل الهدى كذلك من اتبع رضوانه تعالى شأنه، قال سبحانه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣)، ويشمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾(٥).

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٥.

(٣) سورةالمائدة، الآية: ١٦.

(٤) سورة يونس، الآية: ٩.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٩.

ويشمل الهدى من الله المنيبين إليه، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2].

ويشمل الهدى من الله الذاكرين له، قال تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾[3]، وشتان بين من أحبوا الهدى وبين من اشتروا الضلالة، قال تعالى: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾[5]، وهكذا يمكن لنا أن نعرف حال القلب المهتدي من حال القلب الضال، نسأل الله الهدى والثبات عليه حتى نلقاه ونحن مهتدون إنه هو السميع المجيب.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٧٥.

حال الغياب وتقابلها حال الحضور أو الشهادة

القلب الحاضر الشاهد هو القلب المستعد تمام الاستعداد لتقبل الهدى من الله سبحانه، والقلب الغائب هو القلب الغافل عن ذكر الله التارك لسبيل المؤمنين، سبيل أهل البيت وسيدهم أمير المؤمنين عليهم الصلاة والسلام.

وبما أن الهدى من الله مرتبط برسوله الكريم، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[3]، وبما أن رسوله

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الصف، الآية: ٩.

الأعظم صلواته عليه وآله وسلامه قد ترك في أمته الثقلين كتاب الله وعترته أهل بيته عليهم السلام، وأخبر أنهما لن يفترقا حتى يردا على الرسول الحوض، وأن من تمسك بهما فلن يضلّ، فإن القلب الحاضر سيكون من نصيب المؤمن المتقي العالم العامل المنتظر للإمام صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه وسهل مخرجه عليه السلام.

لقد بث الله سبحانه وتعالى آياته ليدلنا بها عليه ويرشدنا إليه بوساطة واسطة فيضه رسوله الأكرم ونبيه الأعظم الخاتم سيد الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فاحتجنا مع هذه الآيات إلى قلب حاضر شاهد للانتفاع بها، فلا فائدة مع الغفلة والإعراض، فقد قدم لنا الله سبحانه آياته الكونية ودعانا للتفكر فيها، تنزيها له سبحانه من العبث والباطل والنقص في الخلق والتدبير، ولنكتشف عظيم صنعه وحسن تدبيره وتمام خلقه وإرادته الحق وحكمته في الخلق، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣.

الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٥).

وأشار سبحانه إلى آياته السننية في خلقه ودعانا لتعقّلها، وادراكها وفهمها، والإقرار بمواطن إعجازه، والتعرف على مواضع إبداعه، وعظيم أسرار صنعه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٥) سورة الحشر، الآية: ٢١.

فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[5]، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢.

(٤) سورة النحل، الآية: ٦٧.

(٥) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٦) سورة العنكبوت، الآيتان: ٣٤-٣٥.

بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٢]، وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾[٣].

ودل سبحانه وتعالى على آياته القرآنية التي أودعها الكتاب المبين ودعانا للتدبّر فيها، والإجابة على جميع أسئلتنا المتعلقة بالنجاة والفوز بعد هذا الاختبار الكبير في الحياة الدنيا، نتدبّر الآيات القرآنية من أجل معرفة الحكمة وبلوغ خيرها، ومعرفة الهدى واتباع سبيله، والانتفاع برسالته لتكون الثمرة النجاة من عذابه والسعادة الأبدية بنيل رضاه والجنة السرمدية، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الجاثية، الآيات: ٣-٦.

كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[(٣)].

ولكنه سبحانه وتعالى ربط بين القرآن الكريم وهو حبل الله الممدود المتين المتصل بين السماء والأرض، وبين عترة الرسول الأكرم عليهم جميعا صلاة الله وسلامه، فلابد من الحضور بين يدي الحاضر في غيبته عليه السلام وعجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه لتتم الفائدة من هدى القرآن الكريم، والتذكر بما فيه من ذكرى، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[(٤)].

وهنا (القلب ما يعقل به الإنسان فيميز الحق من الباطل والخير من الشر والنافع من الضار، فإذا لم يعقل ولم يميز فوجوده بمنزلة عدمه إذ ما لا أثر له فوجوده وعدمه سواء، وإلقاء السمع هو الاستماع كأن السمع شيء يلقى إلى المسموع فيناله ويدركه والشهيد الحاضر المشاهد. والمعنى: أن فيما أخبرنا به من الحقائق وأشرنا إليه من قصص الأمم الهالكة لذكرى يتذكر بها من كان يتعقل فيدرك الحق ويختار ما فيه خيره ونفعه أو استمع إلى حق القول ولم يشتغل عنه بغيره والحال أنه شاهد حاضر يعي ما يسمعه،

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٤) سورة ق، الآيتان: ٣٦-٣٧.

والترديد بين من كان له قلب ومن استمع شهيدا لمكان أن المؤمن بالحق أحد رجلين إما رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحق فيتفكر فيه ويرى ما هو الحق فيذعن به، وإما رجل لا يقوى على التفكر حتى يميز الحق والخير والنافع فعليه أن يستمع القول فيتبعه، وأما من لا قلب له يعقل به ولا يسمع شهيدا على ما يقال له ويلقى إليه من الرسالة والإنذار فجاهل متعنت لا قلب له ولا سمع، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1])[2]، وهكذا نجد أن حال حضور القلب تتحقق بالاعتماد على:

أولاً: قوى التفكر والتعقل والتدبر التي منحها الله سبحانه للإنسان.

ثانياً: وقدرة ذلك الإنسان على الانتفاع بتلك القوى.

ثالثاً: ورغبة ذلك الإنسان وإرادته وسعيه لتحقيق ذلك الانتفاع.

ويكون القلب غائبا حين لا يفعّل تلك القوى ويجعلها عاملة للانتفاع بالهدى الذي يقدمه القرآن الكريم والعترة الطاهرة، فنجد في قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٨ : ١٨٨.

وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

أن الحضور بين يدي القرآن كان سببا في هداية أولئك النفر من الجن، ثم انصرافهم إلى دعوة قومهم وإنذارهم من خطر عدم استجابة داعي الله سبحانه، وفي هذه القصة التي ذكرها القرآن الكريم تقريع للقوم حيث كفروا به (صلى الله عليه وآله وسلم) وبكتابه النازل على لغتهم وهم يعلمون أنها آية معجزة وهم مع ذلك يماثلونه في النوعية البشرية وقد آمن الجن بالقرآن إذ استمعوا إليه ورجعوا إلى قومهم منذرين.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... ﴾ إلى آخر الآية فالصرف رد الشيء من حالة إلى حالة أو من مكان إلى مكان، والنفر - على ما ذكره الراغب - عدة من الرجال يمكنهم النفر وهو اسم جمع يطلق على ما فوق الثلاثة من الرجال والنساء والإنسان وعلى الجن كما في الآية و﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ صفة نفر، والمعنى: واذكر إذ وجهنا إليك عدة من الجن يستمعون القرآن، وقوله: ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾، فضمير (حضروه) للقرآن بما يلمح إليه من المعنى الحدثي والإنصات السكوت للاستماع أي فلما حضروا قراءة القرآن وتلاوته قالوا أي بعضهم لبعض: اسكتوا حتى نستمع حق الاستماع.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾، فضمير (قضى) للقرآن باعتبار

---

(١) سورة الأحقاف، الآيات: ٢٩-٣٢.

قراءته وتلاوته، والتولية الانصراف و(منذرين) حال من ضمير الجمع في (ولوا) أي فلما أتمت القراءة وفرغ منها انصرفوا إلى قومهم حال كونهم منذرين مخوفين لهم من عذاب الله، وقوله تعالى: (قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه) إلخ، حكاية دعوتهم قومهم وإنذارهم لهم، والمراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن، وفي الكلام إشعار بل دلالة على كونهم مؤمنين بموسى عليه السلام وكتابه، والمراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراة أو جميع الكتب السماوية السابقة.

وقوله: (يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) أي يهدي من اتبعه إلى صراط الحق وإلى طريق مستقيم لا يضل سالكوه عن الحق في الاعتقاد والعمل، وقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ المراد بداعي الله هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم)[1]، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾[2].

فقد وصف الله سبحانه أولئك النفر من الجن بأنهم حضروا القرآن، حين استمعوا له وأنصتوا، فأعملوا كل قواهم وفعّلوها باتجاه الانتفاع من القرآن الذي يتلوه داعي الله، وهو هنا الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وآله، وفي زماننا الحاضر فإن داعي الله هو الإمام الحجة ابن الحسن صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين.

---

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٨: ١١٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

فيكون القلب في حال الحضور إن هو التزم بالشروط الثلاثة المذكورة من حضور قوى التفكر والتعقل والتدبر، وتفعيل قدرة العمل بها، وتحقق الرغبة والإرادة والسعي للوصول إلى الغاية العظمى من الهدى وهي رب العالمين الله العظيم سبحانه ونيل رضاه.

هذه جملة من أحوال القلب عرضناها لإتمام الكلام في هذا المقام، ولله الحمد والشكر من قبل ومن بعد إنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

المبحث السادس

النصرة وأبعادها

التسليم مقترنا بالرضا والطاعة

الولاية

البراءة

لا تقوم الحجة على الإمام ليقوم بالأمر إلا بوجود الناصر، ولكنّ لهذه النصرة أبعادا ولوازم وشروطا إن هي توافرت أغنت وإلا فهي ليست بالنصرة المرجوة للقيام، ويريد الله سبحانه من نصرة المؤمنين لرسله وأنبيائه وأوليائه ليميزهم بالجزاء على إيمانهم ونصرتهم للحق وأهله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

وقد قرن هنا عملية الجهاد والنصرة بالغرض الرئيس من إنزاله الحديد من خزائن ملكوته إلى الأرض، وعبر عنه بأنه ((فيه بأس شديد ومنافع للناس))، البأس هو الشدة في التأثير ويغلب استعماله في الشدة في الدفاع والقتال، ولا تزال الحروب والمقاتلات وأنواع الدفاع ذات حاجة شديدة إلى الحديد وأقسام الأسلحة المعمولة منه منذ تنبه

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

البشر له واستخرجه، وأما ما فيه من المنافع للناس فلا يحتاج إلى البيان فله دخل في جميع شعب الحياة وما يرتبط بها من الصنائع.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ غاية معطوفة على محذوف والتقدير وأنزلنا الحديد لكذا وليعلم الله من ينصره إلخ، والمراد بنصره ورسله الجهاد في سبيله دفاعا عن مجتمع الدين وبسطا لكلمة الحق، وكون النصر بالغيب كونه في حال غيبته منهم أو غيبتهم منه، والمراد بعلمه بمن ينصره ورسله تميزهم ممن لا ينصر.

وختم الآية بقوله: (إن الله قوي عزيز) وكان وجه الإشارة إلى أن أمره تعالى لهم بالجهاد إنما هو ليتميز الممتثل منهم من غيره لا لحاجة منه تعالى إلى ناصر ينصره أنه تعالى قوي لا سبيل للضعف إليه عزيز لا سبيل للذلة إليه)[(١)].

وقال تعالى في نصرة المؤمنين لأوليائه، من سورة محمد صلى الله عليه وآله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[(٢)].

وفي قوله هذا عز وجل أمر مباشر للمؤمنين، وفيه (تحضيض لهم على الجهاد ووعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى فالمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييدا لدينه وإعلاء لكلمة الحق لا ليستعلوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمة أو ليظهروا نجده وشجاعة، والمراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضية

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٩: ٩٤.

(٢) سورة محمد، الآيات: ٧-٩.

لظهورهم وغلبتهم على عدوهم كإلقاء الرعب في قلوب الكفار وإدارة الدوائر للمؤمنين عليهم وربط جاش المؤمنين وتشجيعهم.

وعلى هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام وتخصيص تثبيت الأقدام، وهو كناية عن التشجيع وتقوية القلوب، لكونه من أظهر أفراد النصر...، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين لله لقياس حالهم من حالهم، والتعس هو سقوط الإنسان على وجهه وبقاؤه عليه ويقابله الانتعاش وهو القيام عن السقوط على الوجه فقوله: (تعسا لهم) أي تعسوا تعسا وهو ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[(١)]، ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[(٢)]، ويمكن أن يكون إخبارا عن تعسهم وبطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطا على وجهه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ المراد بما أنزل الله هو القرآن والشرائع والأحكام التي أنزلها الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأمر بإطاعتها والانقياد لها فكرهوها واستكبروا عن اتباعها، والآية تعليل مضمون الآية السابقة والمعنى ظاهر)[(٣)].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة عبس، الآية: ١٧.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٨ : ١٢٠.

ونجد أن مما تعنيه النصرة: المدافعة، وهي أعم من القتال وأوسع، ونجد بيان ذلك في الآيات من سورة الحج، في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[(١)].

فنجد أن هذه الآيات (وإن وقعت موقع التعليل بالنسبة إلى تشريع القتال والجهاد، ومحصلها أن تشريع القتال إنما هو لحفظ المجتمع الديني من شر أعداء الدين المهتمين بإطفاء نور الله فلو لا ذلك لانهدمت المعابد الدينية والمشاعر الإلهية ونسخت العبادات والمناسك، لكن المراد بدفع الله الناس بعضهم ببعض أعم من القتال فإن دفع بعض الناس بعضا ذبا عن منافع الحياة وحفظا لاستقامة حال العيش سنة فطرية جارية بين الناس والسنن الفطرية منتهية إليه تعالى ويشهد به تجهيز الإنسان كسائر الموجودات بأدوات وقوى تسهل له البطش ثم بالفكر الذي يهديه إلى اتخاذ وسائل الدفع والدفاع عن نفسه أو أي شأن من شئون نفسه مما تتم به حياته وتتوقف عليه سعادته.

والدفع بالقتال آخر ما يتوسل إليه من الدفع إذا لم ينجع غيره من قبيل آخر الدواء الكي ففيه إقدام على فناء البعض لبقاء البعض وتحمل لمشقة في سبيل راحة سنة

---

(١) سورة الحج، الآيات: ٣٩ـ٤١.

جارية في المجتمع الإنساني بل في جميع الموجودات التي لها نفسية ما واستقلال ما، ففي الآية إشارة إلى أن القتال في الإسلام من فروع هذه السنة الفطرية الجارية وهي دفع الناس بعضهم بعضا عن شئون حياتهم، وإذا نسب إلى الله سبحانه كل ذلك دفعه الناس بعضهم ببعض حفظا لدينه عن الضيعة، وإنما اختص انهدام المعابد بالذكر مع أن من المعلوم أنه لو لا هذا الدفع لم يقم أصل الدين على ساقه وانمحت جميع آثاره لأن هذه المعابد والمعاهد هي الشعائر والأعلام الدالة على الدين المذكرة له الحافظة لصورته في الأذهان.

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قسم مع تأكيد بالغ على نصره تعالى من ينصره بالقتال ذبا عن الدين الإلهي ولقد صدق الله وعده فنصر المسلمين في حروبهم ومغازيهم فأيدهم على أعدائه ورفع ذكره ما كانوا ينصرونه.

والمعنى أقسم لينصرن الله من ينصره بالدفاع عن دينه إن الله لقوي لا يضعفه أحد ولا يمنعه شيء عما أراد عزيز منيع الجانب لا يتعدى إلى ساحة عزته ولا يعادله شيء في سلطنته وملكه، ويظهر من الآية أنه كان في الشرائع السابقة حكم دفاعي في الجملة وإن لم يبين كيفيته. ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ إلخ توصيف آخر للذين آمنوا المذكورين في أول الآيات، وهو توصيف المجموع من حيث هو مجموع من غير نظر إلى الأشخاص والمراد من تمكينهم في الأرض إقدارهم على اختيار ما يريدونه من نحو الحياة من غير مانع يمنعهم أو مزاحم يزاحمهم.

يقول تعالى: إن من صفتهم أنهم إن تمكنوا في الأرض وأعطوا الحرية في اختيار ما يستحبونه من نحو الحياة عقدوا مجتمعا صالحا تقام فيه الصلاة وتؤتى فيه الزكاة ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر وتخصيص الصلاة من بين الجهات العبادية والزكاة من بين الجهات المالية بالذكر لكون كل منهما عمدة في بابها)[١].

وهذه المنافع التي تؤمن الحياة الكريمة العادلة السعيدة في جريانها، وفي خاتمتها ومصيرها كذلك، هي المحصلة النهائية لعملية النصرة والمدافعة عن مركز ثقل الإيمان الذي هو ولي الله في الأرض، فمهمته تقضي بإقامة العدل ولكنها مهمة يلزم لإتمامها وجود الناصر الذي به تقوم الحجة فيكون القيام لزاما على الإمام عليه السلام، بحسب الظاهر من قانون القيام الذي سبق ذكره من حديث أمير المؤمنين عليه السلام في ذيل خطبته المعروفة بالشقشقية: «(فلولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر...)»، وسبق أن حضور الحاضر أمر مهم ولكنه وحده لا يشكل حجة للقيام بالأمر، إلا إذا استتبع وجود الناصر، كما أن وجود الناصر من دون أن يكون حضوره تاما لا يجعل من الحضور فاعلا ولا من النصرة تامة، فكلاهما ضروريان الحضور الفاعل والنصرة التامة لقيام الحجة على الإمام فيقوم بالأمر ظاهرا غير غائب، معلنا غير مسرّ ولا مستتر، وسبحان القائل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[٢].

إن النصرة التامة إذن تشمل:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٤: ٢٠٥.

(٢) سورة النصر، الآيات: ١-٣.

التسليم مقترنا بالرضا والطاعة

التسليم هو تفويض الأمر كله لله سبحانه وتعالى، وللرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وللإمام المعصوم مفترض الطاعة حجة الله على خلقه وإمام زمانه، ولكن لا بد من تبيان بعض الأمور المتعلقة بمعنى التسليم وخصائصه:

فالتسليم لا يعني الكسل، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (**«احذر كل الحذر أن يخدعك الشيطان فيمثل لك التواني في صورة التوكل، ويورثك الهوينى بالإحالة على القدر، فإن الله أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل، وبالتسليم للقضاء بعد الإعذار، فقال: ﴿خذوا حذركم﴾، ﴿لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: اعقلها وتوكل»**)[1]، وتتلبس المرء الحَيرة وتدفعه إلى عدم معرفة ما يصلح به أمره لالتباس الحقائق وتصدّر الشبهات، وعندها يسلّم المرء أمره إلى الله سبحانه، وإلا فعند المعرفة الحقة لابد من العمل، ولكن العمل بموجب ما قضى الله

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٠: ٤٣٤.

ورسولُه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة المباركة (يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني فقضاء الله تعالى حكمه التشريعي في شيء مما يرجع إلى أعمال العباد أو تصرفه في شأن من شئونهم بواسطة رسول من رسله، وقضاء رسوله هو الثاني من القسمين وهو التصرف في شأن من شئون الناس بالولاية التي جعلها الله تعالى له بمثل قوله: {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم}[2]الأحزاب: ٦، فقضاؤه (صلى الله عليه وآله وسلم) قضاء منه بولايته وقضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره، ويشهد سياق قوله: {إذا قضى الله ورسوله أمرا}، حيث جعل الأمر الواحد متعلقا لقضاء الله ورسوله معا، على أن المراد بالقضاء التصرف في شئون الناس دون الجعل التشريعي المختص بالله. وقوله: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة}، أي ما صح ولا يحق لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما شاءوا وقوله: {إذا قضى الله ورسوله أمرا}، ظرف لنفي الاختيار، وضميرا الجمع في قوله: (لهم الخيرة من أمرهم) للمؤمن والمؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين والمؤمنات لوقوعهما في حيز النفي ووضع الظاهر موضع المضمر حيث قيل: (من أمرهم)، ولم يقل: أن يكون لهم الخيرة فيه للدلالة على منشأ توهم الخيرة وهو انتساب الأمر إليهم.

والمعنى: ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى الله ورسوله بالتصرف في

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

أمر من أمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه إليهم وكونه أمرا من أمورهم فيختاروا منه غير ما قضى الله ورسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله ورسوله)(١).

ويتخذ التسليم أشكالا متعددة، فمنه التسليم بالقضاء عند الخصومة، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾(٢)، فقد أطلقت الآية المباركة حكمها لعموم الشجار من دون تخصيص، وأوجبت التسليم مع عدم وجود حرج في النفس وهو مما لا يعلمه المتشاجرون عن بعضهم ولكن الله المطلع على السرائر يعلمه، وهو مما يلزم التسليم مع الرضا لقضاء الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، وتعدّ آية الصلاة على النبي أيضا من موجبات التسليم له، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(٣).

وقد وعد الله المسلمين أمرهم المتوجهين لله بإحسان بالأجر والأمان من الخوف والحزن، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤)، وتتوالى الآيات التي تثبت وجوب التسليم لله ولرسوله ولأولي الأمر الذين فرض الله علينا طاعتهم، ومن يتولى ويعرض فإن له عذابا شديدا

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٦ : ١٧٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢.

بكفره النعمة وردّه على الله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[3]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

(٥) سورة الحج، الآية: ٣٤.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٥٤.

لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(١).

ويؤكد سبحانه أن الدين عنده على نحو الإطلاق في كلمة دين، هو الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(٢)، وتؤكد ذلك آيات عديدة في القرآن الكريم، وهي تتحدث عن الأنبياء والمرسلين السابقين على رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وليس عن الإنس فقط، بل عن أقوام من الجن أيضا، وتقر بأنهم مسلمون، قال تعالى حكاية عن الجن: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً ﴾(٣).

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٣) سورة الجن، الآية: ١٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

وقال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام والحواريين رضوان الله تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3]، وقال تعالى بشأن إبراهيم عليه السلام مخاطبا اليهود والنصارى الذين أكثروا من القول إنه على ملة كل منهم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].

وبيّن سبحانه أن دين الإسلام هو الدين الجامع لكل الديانات السابقة والمهيمن عليها، وهو عنوانها الأشمل، ومضمونها الأتم، وكمالها الأعلى، قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[١]، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام مخاطبا قومه: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[٢]، وقال سبحانه حكاية عن فرعون حين أعلن إسلامه مضطرا: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[٣]، وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[٤].

بل حتى الذين كفروا ربما يودون أن يكونوا مسلمين لأن فطرة الله التي فطر الخلق عليها هي الإسلام، ومن يشذ عن الفطرة يواجه نصبا وشدة وعسرا، فالراحة هي في اتباع الفطرة التي هي الإسلام، قال تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[٥]، فالإسلام كما يقول أمير المؤمنين هو التسليم، وهذا جوهره، فقد ورد في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٤.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٠.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٢.

نهج البلاغة قوله عليه السلام: **«لأنسبن الإسلام نسبةً لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»**(١).

والتسليم هو ما يربط بين الأديان السماوية المنزلة جميعا، فالغرض الحقيقي من الأديان هو أن يسلم الخلق أمورهم لله الواحد القهار ويؤمنوا به ويتبعوا قوله ويطيعوا أمره، ويذكر سبحانه تسمية المسلمين مرتبطة بإبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٢).

لذا فإن من أَسلمَ سَلِم ومَن لم يُسلّم هلك، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾(٣)، فهنا يجعل المقابل الموضوعي للمسلمين هم المجرمين! فمن ترك الإسلام فهو مجرم! وهذا طبيعي بعدما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٧: ١٩٥٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٣) سورة القلم، الآية: ٣٥.

بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[١]، وبعد قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٢]، وبعد قوله تعالى شأنه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٣].

وشتان بين الهدى والضلالة، قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[٤]، وشتان بين من كان على نور من ربه وبين من كان في ضلال مبين، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾[٥]، وشتان بين المسلم وبين الظالم لنفسه المعاند الذي يسوغ لنفسه الكفر بأكاذيب يفتريها على الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّا كبيرا، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٣) سورة الصف، الآية: ٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[١].

وماذا كَرِهَ الظالمون من الإسلام الذي مبتدؤه واسطة فيض الوجودات، وسيد السادات، وفخر الرسل والرسالات، وأصل النبوة والنبوات، الرحمة المهداة، وكنز الأنوار المزجاة، أبو القاسم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله النبي الأمي القرشي المكي المدني العربي؟.. وماذا نقموا في الإسلام الذي كمال دينه وتمام نعمته ومرتضى كنهه أمير المؤمنين وسيد الوصيين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين أبو الحسن والحسين علي بن أبي طالب عليه السلام، سيّد العرب الذي في توليته أنزل الباري سبحانه قوله: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢]، ولكنّه الحقُّ أَبى عليه قومٌ فشحّوا على أَنفسِهم ومَن تَبِعَهم. ونجد أن التسليم يقع على ثلاثة أصناف:

أولاً: التسليم رهبة

وهو تسليم المرء أمره لله خوفاً منه وفَرَقاً، ومعروف أن الخوف يمثل دافعا مهما للعمل، ولكنه بالتأكيد لا يكون منتجا نوعيا للعمل، بمعنى أن ما ينتج عن العمل بسبب الخوف لا يكون متقنا، ولا يكون ذا نوعية جيدة، لأنه مقترن بحالة نفسية صعبة من القلق والذعر والارتباك.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

ثانياً: التسليم رغبة

وهو تسليم المرء أمره لله طواعية، وهو بدوره يقسم على اثنين:

التسليم اضطرارا، والتسليم بدارا، فالمضطر لا يجد بدا ولا حيلة دون التسليم، فيعمد إليه وفي نفسه شيء منه، ولو وجد غيره اختيارا لذهب إليه، وأما المبادر فقد اختار التسليم ولا يبالي لو وجد غيره اختيارا، ولما حاد عن التسليم على أية حال، فكل رغبته وهمه وشوقه منصبٌّ في التسليم عشقا لله، وهكذا تكون أصناف التسليم ثلاثة.

ولعل الأول أقرب إلى ما أسماه أمير المؤمنين عبادة العبيد، والثاني إلى ما أسماه عبادة التجار، والثالث إلى عبادة الأحرار، في توصيفه المشهور: **«إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»**[1].

ونعم التسليم الذي يكون ابتدارا من العبد لله سبحانه، ولا يكون إلا لذي حظ عظيم.

والتسليم التام شرط أول للنصرة، فكيف ينصر إمامه من لم يسلم أمره كله لله؟ ليكون بتصرف إمامه ورهن إشارته بأمر أو نهي، ولا يأمر الإمام عليه السلام إلا بأمر الله ولا ينهى إلا بنهيه، فإذا وجد الإمام عليه السلام العدد المطلوب من الأنصار والحال المطلوبة للنصرة بحسب المهمة الموكلة إليه قامت الحجة عليه بوجود الناصر، وليس بناصر من احتفظ لنفسه بجزء من نفسه!

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:

بل الناصر من أسلم نفسه لله خالصا بإمرة إمامه مفترض الطاعة، وجعل كل ما خوله الله سبحانه بخدمة إمامه الذي هو نفسه عليه السلام بخدمة قضية الحق المهمة التي أوكلها الله إليه، وهي إقامة دولة العدل الإلهي هذا المشروع العالمي الضخم والعمل الكوني العظيم جعلنا الله وإياكم من أهل نصرته وكتبنا في أعوانه ومقوية سلطانه إنه سميع مجيب.

الولاية

والشرط الثاني للنصرة التامة هو الولاية، وتستلزم التولّي وهو العهد والميثاق، يبرم بين اثنين، يكون الثاني (المُتولّي) بموجبه ناصرا لإرادة الأول (المُتَولّى) أو (الوليّ)، فهو تابع له في اتخاذ القرارات المصيرية وما تستلزمه من اجزاء وتفاصيل، سلم لمن سالمه وحرب لمن حاربه، ونصرته بذلك تكون جاهزة معدّة.

وقد قسم الله سبحانه عباده إلى مؤمنين ومنافقين وكفار، وقد جمع بين الصنفين الأخيرين في موضع عصيانه، فهم أعداء له، وجعل المؤمنين أولياء له، وبذلك هو الذي يتولى اخراجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1].

وقد حرم الله سبحانه على المؤمنين اتخاذ الكافرين أولياء، قال تعالى: ﴿ لاَّ يَتَّخِذِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾[١].

وبعد أن نسب تسمية الإسلام إلى خليله ابراهيم عليه السلام، جعل النبي صلى الله عليه وآله ومن آمن معه أولى بابراهيم، ثم كان هو سبحانه وليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وحين تحدث عن الشيطان ذكر كيف أنه يخوّف أولياءه من مشقة الإسلام ومن ذلك الجهاد المقدس وما يستلزم من تعريض النفس للقتل، وبيّن سبحانه للإنسان أن عليه أن يخشى ربه وإلهه ويطيع أمره بدلا من أن يطيع عدوه وهو الشيطان الذي ليس له طاعة إلا في أوليائه، وأما أولياء الله سبحانه فهم بأن يخافوه ويطيعوه أجدر إن كانوا به مؤمنين، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٣].

ثم جعل الحد الفاصل بين من تولى الله سبحانه ومن تولى الشيطان الرجيم هو القتال تصريحا بالقضاء المادي والمعنوي على حزب الشيطان ومن دخل في ولايته، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ٧٦.

وقد حكم سبحانه بعلمه وحكمته وعدله أن الخسران المبين الذي لا ريب فيه هو مع تولي الشيطان، بعد أن بين على لسان الرجيم بعض أوامره لاتباعه وهي من المعاصي الظاهرة لله سبحانه، ولا يخفى أنه من الكفر بأنعمه استعمال تلك النعم في معصيته جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً﴾[1].

وقد بين سبحانه ما في صدور الكافرين من رغبة في أن يكفر المؤمنون ليكونوا سواء معهم، فهم يعلمون أنهم الآن متباينو الدرجات، فأمر سبحانه بقتلهم، وهذا أقصى ما تصل إليه المزايلة من حد، وهذا ما يحقق التنافر بين الطرفين تماما فلا يستطيع الإنسان العودة إلى الخط العقائدي لمن وقع بينه وبينهم السيف، قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾[2]. ثم يطرح الله سبحانه بعض المقاصد الكبيرة التي تقتضي الحكمة التحرك نحوها وبذل الجهد والتضحية لما تمثله من أهمية للإنسان، مثل ابتغاء العزة، وبين كيف أن من يريد العزة فلن يجدها إلا بتولّي الله سبحانه ومن أمر بتوليته، وبذلك أبطل مثل

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٩.

هذا القصد لمن يخرج عن ولايته، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾[١]، ومن ذلك أن يقي الإنسان نفسه من عذاب سيده إن هو عصاه، ولاشك في معصية من تولى غير الله وحزبه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾[٢].

وبيّن سبحانه أيضا كيف أن اليهود والنصارى وهم من أهل الكتاب لا تجوز التولية معهم، فهم أولياء بعض لاتفاقهم على مخالفة من أسلم لله تعالى، ومن يتولهم من المؤمنين فقد خرج من الإيمان وصار منهم ظالما لنفسه فلم يعد من أهل الهداية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٣].

وقد جمع نمطا من أهل الكتاب مع الكفار في حكم واحد وهو تحريم تولي المؤمنين لهم وجعل ذلك مما ينافي الإيمان بالله وبالنبيّ عليه وآله الصلاة والسلام، وبذلك هو عمل يعني الفسق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللهَ إِن كُنتُم

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.

مُؤْمِنِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[2].

وقد جعل سبحانه ولايته لرسوله الأكرم صلوات الله عليه وآله ثم لوصيّه عليه السلام من بعده، وجعلهم أولياء للمؤمنين ولهذا الأمر الذي هو الإسلام، وأمر المؤمنين به بطاعتهم وعدم مخالفتهم، لاسيما حين يقع التنازع جهلا، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[3]، ويضرب الله سبحانه الأمثال لما قد يتصرف به بعض المؤمنين من تلقاء أنفسهم وفي ذلك التصرف خروج عن الولاية لله ورسوله والمؤمنين، وهذا الخروج محرّم على المؤمنين، لأن من شروط التولية هو الالتزام التام بإرادة المتولّى، لما تقتضيه الحكمة من خير، ولوجود ضرر في الخروج عن ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٣.

وحتى لا يقع التنازع في المُتَوَلّى نفسه، من يكون وكيف يمكن التعرف عليه، فقد حصر سبحانه الوليّ في كلامه العزيز وهو القرآن الكريم بأداة الحصر (إنما) وجعلها لنفسه سبحانه ولرسوله الخاتم صلوات الله عليه ولعلي بن أبي طالب عليه السلام من بعده، وقد كنّى عنه بالتصدق بالخاتم حال الركوع كما في القصة المشهورة المروية عند أهل الإسلام جميعا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[١]، وقد أتبع ذلك أمْره لرسوله الكريم بأن يبلغ وصيته في حجة الوداع بخلافة أمير المؤمنين عليه السلام من بعده صلى الله عليه وآله، وذلك ما ورد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٢]، فجعل تبليغ الرسول صلى الله عليه وآله لأمر خلافة علي عليه السلام وولايته على المسلمين من الله أمرا يعدل في أهميته تبليغ رسالة الإسلام بحيث إن لم يبلغ الوصية لم يبلغ الرسالة!

وقد أمرنا سبحانه في كتابه من قبل ذلك محذرا بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[٣]، فلابد من طاعة الله وطاعة الرسول الذي ما عليه إلا البلاغ، وهو الذي أمره الله سبحانه بتبليغ الوصية

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٩٢.

ففعل، وعلينا إطاعة أمره، ومن لم يكن الله وليه فوليه الشيطان، ولا ينفعهم أنهم يحسبون أنهم مهتدون، قال تعالى: ﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1]، وقد جعل سبحانه ما له ولرسوله من ولاية لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام، كما ورد في قوله سبحانه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾[2].

إن تولّي المؤمنين لله ورسوله وأمير المؤمنين وصي رسوله يجعلهم داخلين في ولاية الله سبحانه، بمعنى أنه يتولى جميع شؤونهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[3]، وقد جعل سبحانه للمؤمنين بعضهم على بعض ولاية أيضا بقدر معين بيّنه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4]، وقد وعدهم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٦.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧١.

سبحانه بأنهم معه لا يخافون ولا يحزنون، قال تعالى: ﴿ألا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

وقد أخرج من هذه الولاية للمؤمنين قوما آمنوا ولم يهاجروا، فلا ينبغي لهم على المؤمنين رياسة أو ولاية، ومنهم بنو العباس الذين حكموا مئات من السنين بغير حق كونهم ينتسبون إلى من لم يهاجر، فلا ولاية لهم بمقتضى هذه الآية كما لا ولاية للطلقاء بني أمية على المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢).

وقد أخرج من ولايته أيضا من يتولى الكافرين ولو كانوا ذوي قربى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٣).

وأخرج من يركن إلى الظالمين أيضا: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾(٤)، وكل من يتخذ أولياء من

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٣.

(٤) سورة هود، الآية: ١١٣.

دون الله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾[2].

وليس هناك من هدى إلا هدى الله، ومن لا يهتدي بهداه فقد ضل، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾[3]، ومن لا يتولى الله فإن وليه هو الشيطان: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾[4]، وليس في الولاية من دون الله عزٌّ ولا رفعة بل هي ولاية واهنة، كما ضرب الله لنا مثلا بقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٧.

(٤) سورة مريم، الآية: ٤٥.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

وكل من يدعي غير ولاية الله فهو كاذب كفار: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(١)، وقد وعد الله سبحانه أولياءه الذين يتولونه هو ورسوله والإمام أمير المؤمنين والأئمة من ولده عليهم السلام أن ولايته عليهم مستمرة دائمة، فكما هو وليهم في الحياة الدنيا، هو وليهم في الآخرة أيضا، قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾(٢).

ولذا فإنه سبحانه لا يتولى الظالمين لأنهم مستحقو العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾(٣)، بل لقد سماهم الله سبحانه بأنهم أعداء له ولنا بوصفنا اتخذناه وليا، ونهانا الله سبحانه عن موالاتهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾(٤).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣١.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٩.

(٤) سورة الممتحنة، الآية: ١.

إن تتبع كلام الله سبحانه بشأن الولاية وانحصارها في أهلها المعلومين المبينين، وعملية التولي وما يترتب عليها في الدنيا والاخرة، وولاية المؤمنين بعضهم على بعض وشروطها وخصائصها وحدودها، وارتباطها باتخاذ غير الموالين أعداء، وشروط ذلك، كلها آيات عظيمة يشعرنا التدبر فيها أن التولي هو حركة باتجاهين:

الأولى: من المتولي إلى الوليّ

وهي حركة مطلوبة من المؤمن الموالي تبدأ بالإيمان والتسليم والإخلاص ثم ترتفع شيئا فشيئا في اتجاه رضا الله سبحانه، وهي حركة تستلزم التسليم والتصديق والاتباع التام للوليّ حتى يكون حقيقة كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة الوداع بأنه أولى من المؤمنين بأنفسهم.

الثانية: من الوليّ إلى المتولي

وهي الحركة المقابلة المترتبة على حركة العبد الموالي، وهي من الوليّ عزّ وجلّ، فكل ما وعد الله سبحانه أولياءه في الدنيا والآخرة يكون لهم بناء على حركتهم في التولي نحوه ونحو رسوله وأوصيائه الأئمة عليه الصلاة والسلام، ومن شروط ذلك أن لا يتولى غير من أمره به الله ونصّ عليه الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه، بل إن التبرؤ ممن خالف ولايتهم هو الثابت كما سيأتي، ولا تولّي حقيقي لله ورسوله والمؤمنين من دون البراءة من أعدائهم ومخالفيهم.

البراءة

والشرط الثالث للنصرة التامة هو البراءة، وتستلزم التبرؤ علنا أو تقية من الظالمين أعداء الله والمخالفين لسنة نبيه ووصيه الولي الأمام المنصب والأئمة من ذريته عليهم جميعا صلاة الله وسلامه.

والبراءة متلازمة مع الولاية، وكما أن الولاية عهد وعصمة وميثاق، فإن البراءة قطع للعصمة والعهد والميثاق[١].

فمن نبتت الولاية في قلبه لإمام لابد له البراءة من أعدائه، فلا تجتمع محبة محمد وآل محمد صلوات ربي وسلامه عليهم في قلب إنسان مع محبة أعدائهم كما ورد في الأثر، فلابد لمن يواليهم أن يتبرأ من أعدائهم، ولمن يحبهم أن يبغض أعداءهم، وذلك مبدأ عقلي واضح للعيان، فمن غير المقبول عقلا نصرة القاتل والمقتول، والظالم والمظلوم معا! بل يجب الاختيار لأن القلب محل لواحد من النقيضين اللذين من غير الممكن اجتماعهما في موضع واحد فضلا عن كون ذلك الموضع القلب، ونجد في

(١) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥ : ٤.

تفرغ القلب لأمر واحد من هذين مصداقا لقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[١].

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطر البراءة وعظيم شأنها ونهيه أن يتبرأ المؤمنون منه ومن ولايته لأن في ذلك خروجهم من ملة الفطرة والإيمان والهجرة التي لا تكون الإمامة إلا لمن سبق في خصالها هذه، قوله الذي يذكر فيه صفة من يأتي بعده - ونجد أنه يذكر صفات اللعين معاوية - وأمره بسب أمير المؤمنين والبراءة منه، وقد كان كما أخبر عليه السلام من بعده، يقول كما ورد في نهج البلاغة: «**أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد فاقتلوه، ولن تقتلوه، ألا وإنه سيأمركم بسبّي والبراءة مني، فأما السبّ فسبّوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة وأما البراءة فلا تتبرؤوا مني فإني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة**»[٢].

ونجد أن البراءة تأخذ مجالها الواسع في التشريع كما يذكر القرآن الكريم، فقد نزلت سورة كاملة خالية من البسملة لأن البسملة ابتداء رحمة، سميت سورة التوبة أو سورة براءة أخذا من أول كلمة فيها، والبراءة سورة فيها بيان الغضب والنقمة من الله سبحانه نزلت بحق المشركين الذين سبقت لهم المعاهدة ونقضوا عهدهم وتسببوا في الأذى للمؤمنين، قال

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

(٢) نهج البلاغة: :.

تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وقد أورد العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان بحثا روائيا لمناسبة نزول هذا النص قال فيه: (في تفسير القمي: في قوله تعالى: {براءة من الله ورسوله}: حدثني أبي عن محمد بن الفضل عن ابن أبي عمير عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«نزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة»**؛ قال: **«وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة لم يمنع المشركين الحج في تلك السنة، وكان سنة من العرب في الحج أنه من دخل مكة وطاف البيت في ثيابه لم يحل له إمساكها، وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف فكان من وافى مكة يستعير ثوبا ويطوف فيه ثم يرده، ومن لم يجده عارية ولا كرى ولم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عريانا، فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت ثوبا عارية أو كرى فلم تجده فقالوا لها: إن طفت في ثيابك احتجت أن تتصدقي بها فقالت: كيف أتصدق وليس لي غيرها؟ فطافت بالبيت عريانة وأشرف لها الناس فوضعت إحدى يديها على قبلها والأخرى على دبرها فلما فرغت من الطواف خطبها جماعة فقالت: إن لي زوجا، وكانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول سورة براءة أن لا يقاتل إلا من قاتله ولا يحارب إلا من حاربه وأراده، وقد كان أنزل عليه في ذلك ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[2]، فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله**

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٠.

وسلم) لا يقاتل أحدا قد تنحى عنه واعتزله حتى نزلت عليه سورة براءة وأمره بقتل المشركين من اعتزله ومن لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة إلى مدة: منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو فقال الله عز وجل: {براءة من الله ورسوله - إلى الذين عاهدتم من المشركين - فسيحوا في الأرض أربعة أشهر} ثم يقتلون حيثما وجدوا بعد؛ هذه أشهر السياحة: عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرا من ربيع الآخر.

فلما نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد لا يؤدي عنك إلا رجل منك، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمير المؤمنين عليه السلام في طلب أبي بكر فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات فرجع أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، أنزل الله في شيئا؟ فقال: لا إن الله أمرني أن لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني»).

وفي تفسير العياشي، عن حرير عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن رسول الله بعث أبا بكر مع براءة إلى الموسم ليقرأها على الناس فنزل جبرئيل فقال: لا يبلغ عنك إلا علي فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا وأمر أن يركب ناقته العضباء، وأمره أن يلحق أبا بكر فيأخذ منه براءة ويقرأها على الناس بمكة فقال أبو بكر: أسخط؟ فقال: لا إلا أنه أنزل عليه أنه لا يبلغ إلا رجل منك، فلما قدم على مكة وكان يوم النحر بعد الظهر وهو يوم الحج الأكبر قام ثم قال: إني رسول رسول الله

إليكم فقرأها عليهم: {براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين - فسيحوا في الأرض أربعة أشهر} عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرا من شهر ربيع الآخر، وقال: لا يطوف بالبيت عريان ولا عريانة ولا مشرك بعد هذا العام، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمدته إلى هذه الأربعة أشهر».

أقول - القول للعلامة الطباطبائي -: المراد تعيين المدة للعهود التي لا مدة لها بقرينة ما سيأتي من الرواية، وأما العهود التي لها مدة فاعتبارها إلى مدتها مدلول لنفس الآيات الكريمة.

وفي تفسيري العياشي، والمجمع، عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: **«خطب علي عليه السلام بالناس واخترط سيفه وقال: لا يطوفن بالبيت عريان، ولا يحجن بالبيت مشرك، ومن كانت له مدة فهو إلى مدته، ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر، وكان خطب يوم النحر، وكانت عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر، وقال: يوم النحر يوم الحج الأكبر»**[1].

وقد حضرت البراءة بوصفها شعيرة مهمة من شعائر الحج الأكبر قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، والأذان الإعلام يقال أذنته بكذا

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٩: ٩٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣.

فأذن أي أعلمته فعلم وقيل إن أصله من النداء الذي يسمع بالأذن ومعناه أوقعه في أذنه، وهذا أمر صريح بإعلان البراءة من المشركين في الحج الأكبر[١]، وهي براءة إجمالية من المشركين والظالمين.

ثم إن هذا لم يمنع أن يصرح الله سبحانه بالبراءة على تفصيل في كتابه الكريم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهِ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٢]، وفي هذه الآية إعلان البراءة مما يشرك الناس مع الله من آلهة، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾[٣]، براءة مما يعبد أولئك الكفرة من دون الله الذي لا تنبغي العبادة لغيره سبحانه عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

وفي هذه الآية تأكيد براءة الطرفين من المؤمنين والكافرين من عمل كلٍّ، وهو دلالة على انقطاع العهد والميثاق والعصمة والمنعة، مما يبيح المواجهة بالقتال بين الطرفين، بين المؤمنين من جهة وهم مطيعون لله محسنون في عملهم، والكافرين من

(١) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥: ٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٢٦.

(٤) سورة يونس، الآية: ٤١.

جهة وهم عصاة له ظالمون لأنفسهم، ونجد ذلك أيضا في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[١].

ثم تأتي البراءة في موضعين على لسان الشيطان الرجيم، وهي تحمل من الغرابة لتباين القول عن الفعل، بل تباين القول في موضعين قريبين من بعضهما، وهو ما يدلل على مَكر الشيطانِ وخِداعه وكذبِهِ وتضليله، ثم نَكثِه للعَهدِ الذي يقطعه لأوليائهِ ،فهو يزين لهم سوء العمل ويعدهم النصر والغلبة، وأنه هو الحامي لجوارهم، فلما يقع السيف بينهم وبين المؤمنين، تراجع ناكصا على عقبيه كما يعبر القرآن الكريم، معلنا براءته من أوليائه! قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢]، الأنفال٤٨، وهو لعنة الله عليه يدعو الإنسان بكل ما له من طاقة ليكفر بالله، حتى إذا استجاب له الإنسان وكفر، أعلن اللعين براءته من الكافر!، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[(١)].

فالبراءة هي قطع عصمة المتبرأ منه من الأذى، وقطع لغطاء العهد والميثاق عنه، وتركه مكشوفا للأذى، فمن كانت له مدة فينظر للرجوع حتى انقضائها، ومن لم تكن له مدة فمدته حسب السنة الشريفة أربعة أشهر، وبعد ذلك فإن الأمر جار بقتاله أينما وجد في بلاد المسلمين، فإن لم يكن في بلاد المسلمين فحين يقع منه الأذى عليهم، فإن سالمهم فله سلمه، وبذلك يتضح خط التباين بين حزب الله وأحزاب الشيطان، وينعزل المجتمع المسلم ويعزل مجتمع الكفر والشرك فلا يجعل له من الحقوق والواجبات ما جعل الله له ميزا للطيب عن الخبيث، فالحمد لله الذي طيّبنا بشهادة أن لا إله إلا الله سبحانه وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن عليا ولي الله وأول الأوصياء الهادين المهديين، وأن آخرهم القائم الحجة المنتظر الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، والذي نسأل الله سبحانه أن يصلي على محمد وآله وأن يجعلنا من أنصاره وأعوانه ومقوية سلطانه والمستشهدين بين يديه، سلام الله عليه وعجل الله فرجنا بفرجه الشريف.

لقد ركبتُ مركبا صعبا لولا رعاية الباري وتوفيقه في هذا البحث مقارنا بين مدتي غيبتي الإمامين الأول والآخر أمير المؤمنين والقائم الحجة المنتظر سلام الله عليهما عن الحكم الظاهر، ومحاولة التوصل إلى أسباب القيام عند الأول عسى أن تكون هي نفسها عند الآخر، وهي أسباب متعلقة بحركة المجتمع، وحاولت تفصيل القول في هذه الحركة

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٦.

لتكون برنامجا للعمل ومنهجا لحركة الانتظار الفاعل بالحضور التام والنصرة المؤكدة، وأحمد الله على ما أنعم وأشكره على ما ألهم.

وإني أحببت أن أختم البحث بحديث يكون جامعا لمعنى إمامة هذين الإمامين الهمامين وأعني أمير المؤمنين والحجة القائم عليهما السلام، وارتباط كل منهما بالآخر، وفضل ذلك وخطره عند الله سبحانه وعند رسوله الكريم صلوات الله عليه وآله، فلم أجد حديثا أجمل بيانا ولا أوعى دراية في إمامتهما عليهما السلام، والولاية لهما والأئمة بينهما، والبراءة ممن خالفهما وخالف الأئمة جميعا، تفصيلا لما في ذلك من خصائص ومزايا وشروط وأحكام، من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المعروف بحديث الغدير، فقد روي أنه: (حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة العاشرة من الهجرة حجة الوداع وخرج معه خلق كثير من المدينة وممن توافد على المدينة ليخرجوا مع رسول الله للحج في تلك السنة، ويتراوح تقدير أصحاب السير لمن خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ للحج بين تسعين ألفا ومئة وأربعة وعشرين ألفا، عدا من حج مع رسول الله في تلك السنة من مكة المكرمة وممن التحق برسول الله في مكة من اليمن ومن العشائر الذين توافدوا إلى مكة للحج.

وفي عودته صلى الله عليه وآله وسلم من الحج في طريقه إلى المدينة نزل رسول الله بغدير خم في يوم صائف شديد الحر في الثامن عشر من ذي الحجة، فأذن مؤذن رسول الله بردّ من تقدم من الناس وحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، فصلى بالناس الظهر، وكان يوما هاجرا، يضع الرجل بعض ردائه على رأسه، وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء، وظلل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثوب على شجرة سمرة من الشمس فلما انصرف رسول الله من صلاته قام خطيبا، فحمد الله

وأثنى عليه، ثم أخذ بيد عليّ عليه السلام فرفعها حتى رؤي بياض آباطهما وعرفه القوم جميعا، فقال: «**أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟**»، قالوا بلى. فقال: «**من كنت مولاه فهذا علي مولاه**»، - يقولها أربع مرات كما يروي أحمد بن حنبل - ثم قال: «**اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب**».

فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأقتاب التي صفت له أخذ الناس يهنئون عليا عليه السلام يومئذ بالولاية، وممن هنأه يومئذ بالولاية أبو بكر وعمر، قالا له: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة. هذا مجمل حديث الغدير.

ورغم الظروف السياسية القاسية التي جرت على المسلمين في الصدر الأول من الإسلام في عصر بني أمية، واهتمام الحكام يومئذ بالتعتيم والتكتم على فضائل الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فقد شاء الله تعالى أن ينشر حديث الغدير، ويتولى الصحابة والتابعون لهم بإحسان وطبقات المحدثين والعلماء بعدهم رواية هذا الحديث حتى استفاض نقله وشاع مما لا يدع مجالا لإشكال أو تشكيك)[١].

ولو نظرنا في بعض خصائص هذا الحديث السياقية، لوجدنا من الأهمية والخطورة العجب لما انفرد به دون غيره من الأحاديث النبوية الشريفة، فأما سياقاته الـ(خارج نصّية)، فمن حيث الزمان: تزامنه مع حجة الوداع بعد انقضائها، وهي آخر عهد

---

(١) مدخل إلى دراسة نص الغدير، الشيخ محمد مهدي الآصفي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط١، ١٩٩٨م: ١٠٥ـ ١٠٦.

الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله بأمته قبل التحاقه بالرفيق الأعلى، وأما من حيث المكان فهو مفترق طرق الحجيج إلى ثلاثة اتجاهات رئيسة مختلفة، فهو مكان يتوجه إليه الحجيج ليتفرقوا منه كل إلى بلده، أي هو منطقة تجمع وانطلاق، وأما من حيث ظروف البيئة والأجواء فقد استرسل الصحابة والتابعون والمحدثون والمؤرخون في وصف شدة الحر في ذلك اليوم، الأمر الذي لا يمكن احتماله لمن أتم الحجّ وهمّ بالمغادرة متعبا منهكا متشوقا إلى أهله وبلده! إلا إذا كان الأمر الذي يبقون لأجله على غاية من الخطورة والأهمية، وأما من السياقات النصية التي جاءت مقدمة لحديث الغدير فهو نزول القرآن مصرحا بخطورة مضمون الحديث الذي وصفه القرآن العظيم بالتبليغ، وقرن أهميته بأهمية تبليغ الرسالة الإسلامية كلها، التي هي وظيفة الرسول صلى الله عليه وآله، فإن لم يبلّغ مضمون الحديث فما بلغ رسالة الله!

وهكذا تتواصل التصريحات النصّية بخطورة وأهمية مضمون التبليغ الذي يحمله نص الحديث الذي عرف بحديث الغدير نسبة إلى موضع غدير خم الذي شهد فيه الناس تبليغه، وبلغ هذا الحدث المهم من الخطورة - أعني حديث الغدير ومضمونه - أنه ليس يعرف في الإسلام حدث تواترت فيه الروايات وأخذ من اهتمام علماء المسلمين في كل العصور مثل هذا الحدث العظيم(١).

وها أنذا أنقل نصه من كتاب الاحتجاج إتماما للفائدة، ولنصغ مستمعين متدبرين لقول خير البرية جمعا، سيد الأنبياء والمرسلين، واسطة فيض الوجودات، وصاحب مقام قاب قوسين أو أدنى، النبي الأمي العربي الأفصح الأصبح صلوات الله وسلامه عليه وآله كما روي عنه القول:

---

(١) ينظر: المصدر السابق: ١٠٧.

عن أبي جعفر محمد ابن علي عليه السلام أنه قال: «حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة وقد بلغ جميع الشرايع قومه غير الحج والولاية، فأتاه جبرئيل عليه السلام فقال له: يا محمد إن الله جل اسمه يقرئك السلام ويقول لك: إني لم أقبض نبيا من أنبيائي ولا رسولا من رسلي إلا بعد إكمال ديني وتأكيد حجتي، وقد بقي عليك من ذاك فريضتان مما تحتاج أن تبلغهما قومك: فريضة الحج، وفريضة الولاية والخلافة من بعدك، فإني لم أخل أرضي من حجة ولن أخليها أبدا، فإن الله جل ثناؤه يأمرك أن تبلغ قومك الحج وتحج ويحج معك من استطاع إليه سبيلا من أهل الحضر والأطراف والأعراب وتعلمهم من معالم حجهم مثل ما علمتهم من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وتوقفهم من ذلك علي مثال الذي أوقفتهم عليه من جميع ما بلغتهم من الشرائع فنادي منادي رسول الله صلى الله عليه وآله في الناس: ألا إن رسول الله يريد الحج وأن يعلمكم من ذلك مثل الذي علمكم من شرائع دينكم ويوقفكم من ذاك على ما أوقفكم عليه من غيره.

فخرج صلى الله عليه وآله وخرج معه الناس واصغوا إليه لينظروا ما يصنع فيصنعوا مثله، فحج بهم وبلغ من حج مع رسول الله من أهل المدينة وأهل الأطراف والأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى السبعين ألف الذين أخذ عليهم بيعة هارون فنكثوا واتبعوا العجل والسامري، وكذلك أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله البيعة لعلي بالخلافة على عدد أصحاب موسى فنكثوا البيعة واتبعوا العجل والسامري سنة بسنة ومثلا بمثل، واتصلت التلبية ما بين مكة والمدينة، فلما وقف بالموقف أتاه جبرئيل عليه السلام عن الله عز وجل فقال: يا محمد إن الله عز

وجل يقرئك السلام ويقول لك : إنه قد دنى أجلك ومدتك وأنا مستقدمك على ما لا بد منه ولا عنه محيص، فاعهد عهدك وقدم وصيتك واعمد إلى ما عندك من العلم وميراث علوم الأنبياء من قبلك والسلاح والتابوت وجميع ما عندك من آيات الأنبياء، فسلمه إلى وصيك وخليفتك من بعدك حجتي البالغة على خلقي علي بن أبي طالب عليه السلام، فأقمه للناس علما وجدد عهده وميثاقه وبيعته، وذكرهم ما أخذت عليهم من بيعتي وميثاقي الذي واثقتهم وعهدي الذي عهدت إليهم من ولاية وليي ومولاهم ومولى كل مؤمن ومؤمنة علي بن أبي طالب عليه السلام، فإني لم أقبض نبيا من الأنبياء إلا من بعد إكمال ديني وحجتي وإتمام نعمتي بولاية أوليائي ومعاداة أعدائي، وذلك كمال توحيدي وديني وإتمام نعمتي على خلقي باتباع وليي وطاعته، وذلك أني لا أترك أرضي بغير ولي ولا قيم ليكون حجة لي على خلقي، فاليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا بولاية وليي ومولى كل مؤمن ومؤمنة علي عبدي ووصي نبي والخليفة من بعده وحجتي البالغة على خلقي، مقرون طاعته بطاعة محمد نبيي ومقرون طاعته مع طاعة محمد بطاعتي، من أطاعه فقد أطاعني ومن عصاه فقد عصاني، جعلته علما بيني وبين خلقي، من عرفه كان مؤمنا ومن أنكره كان كافرا ومن أشرك بيعته كان مشركا ومن لقيني بولايته دخل الجنة، ومن لقيني بعداوته دخل النار، فأقم يا محمد عليا علما وخذ عليهم البيعة وجدد عهدي وميثاقي لهم الذي واثقتهم عليه، فإني قابضك إلي ومستقدمك علي.

فخشى رسول الله صلى الله عليه وآله من قومه وأهل النفاق والشقاق أن يتفرقوا ويرجعوا إلى جاهلية لما عرف من عداوتهم ولما ينطوي عليه أنفسهم لعلي من العداوة والبغضاء سأل جبرئيل أن يسأل ربه العصمة من الناس وانتظر أن يأتيه جبرئيل

بالعصمة من الناس عن الله جل اسمه، فأخر ذلك إلى أن بلغ مسجد الخيف، فأتاه جبرئيل عليه السلام في مسجد الخيف فأمره بأن يعهد عهده ويقيم عليا علما للناس يهتدون به، ولم يأته بالعصمة من الله جل جلاله بالذي أراد حتى بلغ كراع الغميم بين مكة والمدينة، فأتاه جبرئيل وأمره بالذي أتاه فيه من قبل الله ولم يأته بالعصمة، فقال: جبرئيل إني أخشى قومي أن يكذبوني ولا يقبلوا قولي في علي عليه السلام [فسأل جبرئيل كما سأل بنزول آية العصمة فأخره ذلك] فرحل فلما بلغ غدير خم قبل الجحفة بثلاثة أميال أتاه جبرئيل عليه السلام على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهار والعصمة من الناس فقال: يا محمد إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في علي ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وكان أوائلهم قريب من الجحفة، فأمر بأن يرد من تقدم منهم ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان ليقيم عليا علماء للناس ويبلغهم ما أنزل الله تعالى في علي وأخبره بأن الله عز وجل قد عصمه من الناس، فأمر رسول الله عندما جاءته العصمة مناديا ينادي في الناس بالصلاة جامعة ويرد من تقدم منهم ويحبس من تأخر وتنحى عن يمين الطريق إلى جنب مسجد الغدير أمره بذلك جبرئيل عن الله عز وجل، وكان في الموضع سلمات فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقمّ ما تحتهن وينصب له حجارة كهيئة المنبر ليشرف على الناس، فتراجع الناس واحتبس أواخرهم في ذلك المكان لا يزالون، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله فوق تلك الأحجار ثم حمد الله تعالى وأثنى عليه فقال:

الحمد لله الذي علا في توحده، ودنا في تفرده، وجل في سلطانه، وعظم في أركانه، وأحاط بكل شئ علما وهو في مكانه، وقهر جميع الخلق بقدرته وبرهانه مجيدا لم يزل محمودا لا يزال، بارئ المسموكات وداحي المدحوات وجبار الأرضين والسماوات، قدوس سبوح رب الملائكة والروح، متفضل على جميع من برأه متطول على جميع من أنشأه، يلحظ كل عين والعيون لا تراه، كريم حليم ذو أناة، قد وسع كل شئ رحمته ومن عليهم بنعمته، لا يعجل بانتقامه ولا يبادر إليهم بما استحقوا من عذابه، قد فهم السرائر وعلم الضمائر، ولم تخف عليه المكنونات، ولا اشتبهت عليه الخفيات، له الإحاطة بكل شئ والغلبة على كل شئ والقوة في كل شيء والقدرة على كل شيء وليس مثله شئ، وهو منشئ الشئ حين لا شئ، دائم قائم بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، جل عن أن تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، لا يلحق أحد وصفه من معاينة، ولا يجد أحد كيف هو من سر وعلانية إلا بما دل عز وجل على نفسه.

وأشهد أنه الله الذي ملأ الدهر قدسه، والذي يغشى الأبد نوره، والذي ينفذ أمره بلا مشاورة مشير ولا معه شريك في تقدير ولا تفاوت في تدبير، صور ما أبدع على غير مثال وخلق ما خلق بلا معونة من أحد ولا تكلف ولا احتيال، أنشأها فكانت وبرأها فبانت، فهو الله الذي لا إله إلا هو المتقن الصنعة الحسن الصنيعة العدل الذي لا يجور والإكرم الذي ترجع إليه الأمور وأشهد أنه الذي تواضع كل شئ لقدرته وخضع كل شئ لهيبته ملك الأملاك ومفلك الأفلاك ومسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل يطلبه حثيثا، قاسم كل جبار عنيد ومهلك كل شيطان مريد، لم يكن معه ضد ولا ند، أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم

يكن له كفوا أحد، إله واحد ورب ماجد يشاء فيمضي ويريد فيقضي ويعلم فيحصي ويميت ويحيي ويفقر ويغني ويضحك ويبكي ويمنع ويعطي، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شئ قدير، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل لا إله إلا هو العزيز الغفار، مجيب الدعاء ومجزل العطاء، محصي الأنفاس ورب الجنة والناس، لا يشكل عليه شئ ولا يضجره صراخ المستصرخين ولا يبرمه إلحاح الملحين، العاصم للصالحين والموفق للمفلحين ومولى العالمين، الذي استحق من كل من خلق أن يشكره ويحمده. أحمده على السراء والضراء والشدة والرخاء، وأؤمن به وبملائكته وكتبه ورسله، أسمع أمره وأطيع وأبادر إلى كل ما يرضاه واستسلم لقضائه رغبة في طاعته وخوفا من عقوبته، لأنه الله الذي لا يؤمن مكره ولا يخاف جوره، وأقر له على نفسي بالعبودية وأشهد له بالربوبية وأؤدي ما أوحي إلى حذرا من أن لا أفعل فتحل بي منه قارعة لا يدفعها عني أحد وإن عظمت حيلته لا إله إلا هو، لأنه قد أعلمني أني إن لم أبلغ ما أنزل إلي فما بلغت رسالته وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة، وهو الله الكافي الكريم، فأوحي إلي: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في علي [يعني في الخلافة لعلي بن أبي طالب عليه السلام] ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

(معاشر الناس) ما قصرت في تبليغ ما أنزل الله تعالى إلى، وأنا مبين لكم سبب نزول هذه الآية: إن جبرئيل عليه السلام هبط إلي مرارا ثلاثا يأمرني عن السلام ربي وهو السلام أن أقوم في هذا المشهد فأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب عليه

السلام أخي ووصيي وخليفتي والإمام من بعدي، الذي محله مني محل هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي وهو وليكم من بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله تبارك وتعالى على بذلك آية من كتابه ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ وعلي بن أبي طالب عليه السلام أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع يريد الله عز وجل في كل حال. وسألت جبرئيل أن يستعفي لي عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس لعلمي بقلة المتقين وكثرة المنافقين وإدغال الآثمين وختل المستهزئين بالإسلام الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، وكثرة إذا هم لي في غير مرة حتى سموني أُذُنا، وزعموا أني كذلك لكثرة ملازمته إياي وإقبالي عليه، حتى أنزل الله عز وجل في ذلك قرآنا ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ ﴾ على الذين يزعمون أنه أذن ﴿ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية، ولو شئت أن أسمي بأسمائهم لسميت وأن أومئ إليهم بأعيانهم لأومأت وأن أدل عليهم لدللت، ولكني والله في أمورهم قد تكرمت، وكل ذلك لا يرضى الله مني إلا أن أبلغ ما أنزل إلي.

ثم تلى صلى الله عليه وآله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ في على ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾، فاعلموا معاشر الناس أن الله قد نصبه لكم وليا وإماما مفترضا طاعته على المهاجرين والأنصار وعلى التابعين لهم بإحسان، وعلى البادي والحاضر وعلى الأعجمي والعربي والحر والمملوك والصغير والكبير وعلى الأبيض والأسود وعلى كل موحد ماض حكمه جائز قوله نافذ

أمره، ملعون من خالفه مرحوم من تبعه مؤمن من صدقه، فقد غفر الله له ولمن سمع منه وأطاع له.

(معاشر الناس) إنه آخر مقام أقومه في هذا المشهد فاسمعوا وأطيعوا وانقادوا لأمر ربكم، فإن الله عز وجل هو مولاكم وإلهكم ثم من دونه محمد صلى الله عليه وآله وليكم القائم المخاطب لكم، ثم من بعدي علي وليكم وإمامكم بأمر ربكم، ثم الإمامة في ذريتي من ولده إلى يوم تلقون الله ورسوله، لا حلال إلا ما أحله الله ولا حرام إلا ما حرمه الله، عرفني الحلال والحرام وأنا أفضيت بما علمني ربي من كتابه وحلاله وحرامه إليه.

(معاشر الناس) ما من علم إلا وقد أحصاه الله في، وكل علم علمت فقد أحصيته في إمام المتقين، وما من علم إلا علمته عليا، وهو الإمام المبين.

(معاشر الناس) لا تضلوا عنه ولا تنفروا منه ولا تستكبروا [ولا تستنكفوا خ ل] من ولايته، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به ويزهق الباطل وينهى عنه ولا تأخذه في الله لومة لائم، ثم إنه أول من آمن بالله ورسوله، وهو الذي فدى رسوله بنفسه وهو الذي كان مع رسول الله ولا أحد يعبد الله مع رسوله من الرجال غيره.

(معاشر الناس) فضلوه فقد فضله الله، واقبلوه فقد نصبه الله.

(معاشر الناس) إنه إمام من الله ولن يتوب الله على أحد أنكر ولايته، ولن يغفر الله له، حتما على الله أن يفعل ذلك بمن خالف أمره فيه وأن يعذبه عذابا شديدا نكرا أبد الآباد ودهر الدهور، فاحذروا أن تخالفوه فتصلوا نارا وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين.

(أيها الناس) بي والله بشر الأولون من النبيين والمرسلين، وأنا خاتم الأنبياء والمرسلين والحجة على جميع المخلوقين من أهل السماوات والأرضين، فمن شك في ذلك فهو كافر كفر الجاهلية الأولى، ومن شك في شئ من قولي هذا فقد شك في الكل منه، والشاك في ذلك فله النار.

(معاشر الناس) حباني الله بهذه الفضيلة منا منه علي وإحسانا منه إلي، ولا إله إلا هو، له الحمد مني أبد الآبدين ودهر الداهرين على كل حال. (معاشر الناس) فضلوا عليا فإنه أفضل الناس بعدي من ذكر وأنثى، بنا أنزل الله الرزق وبقي الخلق، ملعون ملعون مغضوب مغضوب من رد على قولي هذا ولم يوافقه، ألا إن جبرئيل خبرني عن الله تعالى بذلك ويقول: {من عادى عليا ولم يتوله فعليه لعنتي وغضبي} فلتنظر نفس ما قدمت لغد، واتقوا الله أن تخالفوه فتزل قدم بعد ثبوتها إن الله خبير بما تعملون.

(معاشر الناس) إنه جنب الله الذي ذكر في كتابه فقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾.

(معاشر الناس) تدبروا القرآن وافهموا آياته وانظروا إلى محكماته ولا تتبعوا متشابهه، فوالله لن يبين لكم زواجره ولا يوضح لكم تفسيره إلا الذي أنا آخذ بيده ومصعده إلي - وشائل بعضده - ومعلمكم إن من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام أخي ووصيي، وموالاته من الله عز وجل أنزلها علي.

(معاشر الناس) إن عليا والطيبين من ولدي هم الثقل الأصغر، والقرآن الثقل الأكبر، فكل واحد منبئ عن صاحبه وموافق له لن يفترقا حتى يردا على الحوض، هم

أمناء الله في خلقه وحكماؤه في أرضه، ألا وقد أديت، ألا وقد بلغت ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت، ألا وإن الله عز وجل قال وأنا قلت عن الله عز وجل، ألا إنه ليس أمير المؤمنين غير أخي هذا ولا تحل إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره.

ثم ضرب بيده إلى عضده فرفعه، وكان منذ أول ما صعد رسول الله صلى الله عليه وآله شال عليا حتى صارت رجله مع ركبة رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: (معاشر الناس) هذا علي أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على أمتي وعلى تفسير كتاب الله عز وجل والداعي إليه والعامل بما يرضاه والمحارب لأعدائه والموالي على طاعته والناهي عن معصيته خليفة رسول الله وأمير المؤمنين والإمام الهادي وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بأمر الله، أقول ما يبدل القول لدي بأمر ربي، أقول: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه والعن من أنكره واغضب على من جحد حقه، اللهم إنك أنزلت علي أن الإمامة بعدي لعلي وليك عند تبياني ذلك ونصبي أيام بما أكملت لعبادك من دينهم وأتممت عليهم بنعمتك ورضيت لهم الإسلام دينا، فقلت: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيدا أني قد بلغت.

(معاشر الناس) إنما أكمل الله عز وجل دينكم بإمامته، فمن لم يأتم به وبمن يقوم مقامه من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة والعرض على الله عز وجل فأولئك الذين حبطت أعمالهم وفي النار فيها خالدون، لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون.

(معاشر الناس) هذا علي أنصركم لي وأحقكم بي وأقربكم إلي وأعزكم علي، والله عز وجل وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضى إلا فيه، وما خاطب الله الذين

آمنوا إلا بدأ به، ولا نزلت آية مدح في القرآن إلا فيه، ولا شهد بالجنة في هل أتى على الإنسان إلا له، ولا أنزلها في سواه، ولا مدح بها غيره.

(معاشر الناس) هو ناصر دين الله والمجادل عن رسول الله، وهو التقي النقي الهادي المهدي، نبيكم خير نبي ووصيكم خير وصي وبنوه خير الأوصياء.

(معاشر الناس) ذرية كل نبي من صلبه وذريتي من صلب علي.

(معاشر الناس) إن إبليس أخرج آدم من الجنة بالحسد، فلا تحسدوه فتحبط أعمالكم وتزل أقدامكم، فإن آدم أهبط إلى الأرض بخطيئة واحدة وهو صفوة الله عز وجل وكيف بكم وأنتم أنتم ومنكم أعداء الله، ألا إنه لا يبغض عليا إلا شقي ولا يتوالى عليا إلا تقي ولا يؤمن به إلا مؤمن مخلص، وفي علي والله نزلت سورة العصر بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

(معاشر الناس) قد استشهدت الله وبلغتكم رسالتي، وما على الرسول إلا البلاغ المبين. (معاشر الناس) اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

(معاشر الناس) آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل معه من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها.

(معاشر الناس) النور من الله عز وجل في مسلوك ثم في على ثم في النسل منه إلى القائم المهدي الذي يأخذ بحق الله وبكل حق هو لنا، لأن الله عز وجل قد جعلنا حجة على المقصرين والمعاندين والمخالفين والخائنين والآثمين والظالمين من جميع العالمين.

(معاشر الناس) أنذركم أني رسول الله قد خلت من قبلي الرسل أفإن مت أو قتلت انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين، ألا وإن عليا هو الموصوف بالصبر والشكر ثم من بعده ولدي من صلبه.

(معاشر الناس) لا تمنوا على الله إسلامكم فيسخط عليكم ويصيبكم بعذاب من عنده إنه لبالمرصاد.

(معاشر الناس) إنه سيكون من بعدي أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون. (معاشر الناس) إن الله وأنا بريئان منهم.

(معاشر الناس) إنهم وأنصارهم وأتباعهم وأشياعهم في الدرك الأسفل من النار ولبئس مثوى المتكبرين، ألا إنهم أصحاب الصحيفة فلينظر أحدكم في صحيفته.

قال: فذهب على الناس إلا شرذمة منهم أمر الصحيفة.

(معاشر الناس) إني أدعها إمامة ووراثة في عقبي إلى يوم القيامة، وقد بلغت ما أمرت بتبليغه حجة على كل حاضر وغائب وعلى كل أحد ممن شهد أو لم يشهد ولد أو لم يولد، فليبلغ الحاضر الغائب والوالد الولد إلى يوم القيامة، وسيجعلونها ملكا واغتصابا، ألا لعن الله الغاصبين والمغتصبين، وعندها سنفرغ لكم أيها الثقلان فيرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران.

(معاشر الناس) إن الله عز وجل لم يكن يذركم على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب.

(معاشر الناس) إنه ما من قرية إلا والله مهلكها بتكذيبها، وكذلك يهلك القرى

وهي ظالمة كما ذكر الله تعالى، وهذا علي إمامكم ووليكم وهو مواعيد الله والله يصدق ما وعده.

(معاشر الناس) قد ضل قبلكم أكثر الأولين، والله لقد أهلك الأولين وهو مهلك الآخرين، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(معاشر الناس) إن الله قد أمرني ونهاني، وقد أمرت عليا ونهيته، فعلم الأمر والنهي من ربه عز وجل، فاسمعوا لأمره تسلموا، وأطيعوه تهتدوا، وانتهوا لنهيه ترشدوا، وصيروا إلى مراده ولا تتفرق بكم السبل عن سبيله.

(معاشر الناس) أنا صراط الله المستقيم الذي أمركم باتباعه ثم علي من بعدي ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون إلى الحق وبه يعدلون، ثم قرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وقال: فيّ نزلت وفيهم نزلت ولهم عمّت وإياهم خصت، أولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ألا إن حزب الله هم الغالبون، ألا إن أعداء عليّ هم أهل الشقاق والنفاق والحادّون وهم العادون وإخوان الشياطين الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، ألا إن أولياءهم الذين ذكرهم الله في كتابه فقال عز وجل ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية، ألا إن

أولياءهم الذين وصفهم الله عز وجل فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ألا إن أولياءهم الذين وصفهم الله عز وجل فقال: {الذين يدخلون الجنة آمنين تتلقاهم الملائكة بالتسليم إن طبتم فادخلوها خالدين}، ألا إن أولياءهم الذين قال لهم الله عز وجل: {يدخلون الجنة بغير حساب}، ألا إن أعداءهم يصلون سعيرا، ألا إن أعداءهم الذين يسمعون لجهنم شهيقا وهي تفور ولها زفير، ألا إن أعداءهم الذين قال الله فيهم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الآية، ألا إن أعداءهم الذين قال الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ ألا إن أولياءهم الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير.

(معاشر الناس) شتان ما بين السعير والجنة، عدونا من ذمه الله ولعنه وولينا من مدحه الله وأحبه.

(معاشر الناس) ألا وإني منذرٌ وعليٌّ هادٍ.

(معاشر الناس) إني نبيٌّ وعليٌّ وصيٌّ، ألا إن خاتم الأئمة منا القائم المهديّ ألا إنه الظاهر على الدين، ألا إنه المنتقم من الظالمين، ألا إنه فاتح الحصون وهادمها ألا إنه قاتل كل قبيلة من أهل الشرك، ألا إنه مدرك بكل ثأر لأولياء الله، ألا إنه الناصر لدين الله، ألا إنه الغراف في بحر عميق، ألا إنه يسم كل ذي فضل بفضله وكل ذي جهل

بجهله، ألا إنه خيرة الله ومختاره، ألا إنه وارث كل علم والمحيط به، ألا إنه المخبر عن ربه عز وجل والمنبه بأمر إيمانه، ألا إنه الرشيد السديد، ألا إنه المفوض إليه، ألا إنه قد بشر من سلف بين يديه، ألا إنه الباقي حجة ولا حجة بعده ولاحق إلا معه ولا نور إلا عنده، ألا إنه لا غالب له ولا منصور عليه، ألا وإنه ولي الله في أرضه وحكمه في خلقه وأمينه في سره وعلانيته (معاشر الناس) قد بينت لكم وأفهمتكم، وهذا علي يفهمكم بعدي، ألا وإني عند انقضاء خطبتي أدعوكم إلى مصافقتي على بيعته والإقرار به ثم مصافقته بعدي، ألا وإني قد بايعت الله وعلي قد بايعني وأنا آخذكم بالبيعة له عن الله عز وجل ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الآية.

(معاشر الناس) إن الحج والصفا والمروة والعمرة من شعائر الله ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ الآية. (معاشر الناس) حجوا البيت، فما ورده أهل بيت لا استغنوا، ولا تخلفوا عنه إلا افتقروا. (معاشر الناس) ما وقف بالموقف مؤمن إلا غفر الله له ما سلف من ذنبه إلى وقته ذلك فإذا انقضت حجته استؤنف عمله.

(معاشر الناس) الحجاج معانون ونفقاتهم مخلفة، والله لا يضيع أجر المحسنين.

(معاشر الناس) حجوا البيت بكمال الدين والتفقه، ولا تنصرفوا عن المشاهد إلا بتوبة وإقلاع.

(معاشر الناس) أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة كما أمركم الله عز وجل، لئن طال

عليكم الأمد فقصرتم أو نسيتم فعليٌّ وليُّكم ومُبينٌ لكم الذي نصبه الله عزّ وجلّ بعدي، ومن خلفه الله مني وأنا منه يخبركم بما تسألون عنه ويبين لكم ما لا تعلمون، ألا إن الحلال والحرام أكثر من أن أحصيهما وأعرفهما، فآمر بالحلال وأنهى عن الحرام في مقام واحد، فأمرت أن آخذ البيعة منكم والصفقة لكم بقبول ما جئت به عن الله عز وجل في علي أمير المؤمنين والأئمة من بعده الذين هم مني ومنه، أئمة قائمة منهم المهدي إلى يوم القيامة الذي يقضي بالحق.

(معاشر الناس) وكل حلال دللتكم عليه أو حرام نهيتكم عنه فإني لم أرجع عن ذلك ولم أبدل، ألا فاذكروا ذلك واحفظوه وتواصوا به ولا تبدلوه ولا تغيروه، ألا وإني أجدد القول: ألا فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، ألا وإن رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تنتهوا إلى قولي وتبلغوه من لم يحضر وتأمروه بقبوله وتنهوه عن مخالفته، فإنه أمر من الله عز وجل ومني، ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر إلا مع إمام معصوم.

(معاشر الناس) القرآن يعرّفكم أن الأئمة من بعده ولده، وعرفتكم أنه مني وأنا منه، حيث يقول الله في كتابه ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ وقلت: لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما.

(معاشر الناس) التقوى التقوى، احذروا الساعة كما قال الله عز وجل ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ اذكروا الممات والحساب والموازين والمحاسبة بين يدي رب العالمين والثواب والعقاب، فمن جاء بالحسنة أثيب عليها ومن جاء بالسيئة فليس له في

الجنان نصيب.

(معاشر الناس) إنكم أكثر من أن تصافقوني بكف واحدة، وقد أمرني الله عز وجل أن آخذ من ألسنتكم الإقرار بما عقدت لعلي من إمرة المؤمنين ومن جاء بعده من الأئمة مني ومنه على ما أعلمتكم أن ذريتي من صلبه، فقولوا بأجمعكم: إنا سامعون مطيعون راضون منقادون لما بلغت عن ربنا وربك في أمر علي وأمر ولده من صلبه من الأئمة، نبايعك على ذلك بقلوبنا وأنفسنا وألسنتنا وأيدينا على ذلك نحيي ونموت ونبعث ولا نغير ولا نبدل ولا نشك ولا نرتاب ولا نرجع عن عهد ولا ننقض الميثاق نطيع الله ونطيعك وعليا أمير المؤمنين وولده الأئمة الذين ذكرهم من ذريتك من صلبه بعد الحسن والحسين الذين قد عرفتكم مكانهما مني ومحلهما عندي ومنزلتهما من ربي عز وجل، فقد أديت ذلك إليكم وأنهما سيدا شباب أهل الجنة، وأنهما الإمامان بعد أبيهما علي وأنا أبوهما قبله، وقولوا أطعنا الله بذلك وإياك وعليا والحسن والحسين والأئمة الذين ذكرت عهدا وميثاقا مأخوذا لأمير المؤمنين من قلوبنا وأنفسنا وألسنتنا ومصافقة أيدينا من أدركهما بيده وأقر بهما بلسانه ولا نبتغي بذلك بدلا ولا نرى من أنفسنا عنه حولا أبدا، أشهدنا الله وكفى بالله شهيدا وأنت علينا به شهيد، وكل من أطاع ممن ظهر واستتر وملائكة الله وجنوده وعبيده والله أكبر من كل شهيد.

(معاشر الناس) ما تقولون فإن الله يعلم كل صوت وخافية كل نفس، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ومن بايع فإنما يبايع الله يد الله فوق أيديهم.

(معاشر الناس) فاتقوا الله وبايعوا عليا أمير المؤمنين والحسن والحسين والأئمة كلمة طيبة باقية، يهلك الله من غدر ويرحم الله من وفى، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه الآية.

(معاشر الناس) قولوا الذي قلت لكم وسلموا على علي بإمرة المؤمنين، وقولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، وقولوا ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ الآية.

(معاشر الناس) إن فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام عند الله عز وجل، وقد أنزلها في القرآن أكثر من أن أحصيها في مقام واحد، فمن أنبأكم بها وعرفها فصدقوه. (معاشر الناس) من يطع الله ورسوله وعليا والأئمة الذين ذكرتهم فقد فاز فوزا عظيما. (معاشر الناس) السابقون السابقون إلى مبايعته وموالاته والتسليم عليه بإمرة المؤمنين، أولئك هم الفائزون في جنات النعيم.

(معاشر الناس) قولوا ما يرضى الله به عنكم من القول، فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فلن يضر الله شيئا، اللهم اغفر للمؤمنين واغضب على الكافرين والحمد لله رب العالمين.

فناداه القوم: سمعنا وأطعنا على أمر الله وأمر رسوله بقلوبنا وألسنتنا وأيدينا وتداكوا على رسول الله وعلى عليّ عليه السلام فصافقوا بأيديهم، فكان أول من صافق رسول الله صلى الله عليه وآله الأول والثاني والثالث والرابع والخامس وباقي المهاجرين والأنصار وباقي الناس على طبقاتهم وقدر منازلهم، إلى أن صليت المغرب والعتمة في وقت واحد، ووصلوا البيعة والمصافقة ثلاثا ورسول الله يقول كلما بايع قوم: الحمد لله الذي فضلنا على جميع العالمين.

وصارت المصافقة سنة ورسما، وربما يستعملها من ليس له حق فيها».

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: **«لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من هذه الخطبة رأى الناس رجلا جميلا طيب الريح فقال: تالله ما رأيت محمدا كاليوم قط، ما أشد ما يؤكد لابن عمه وأنه يعقد عقدا لا يحله إلا كافر بالله العظيم وبرسوله، ويل طويل لمن حل عقده، قال: والتفت إليه عمر بن الخطاب حين سمع كلامه فأعجبته هيئته ثم التفت إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال: أما سمعت ما قال هذا الرجل، قال كذا وكذا؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا عمر أتدري من ذاك الرجل؟ قال: لا، قال: ذلك الروح الأمين جبرئيل، فإياك أن تحله، فإنك إن فعلت فالله ورسوله وملائكته والمؤمنين منك براء»**[1].

أقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق، وصدق الله ورسوله، ونحن على ذلك من الشاهدين، ونشهد الله على موالاتنا لمن والى الله ورسوله وبيعتنا لمن أمرنا ببيعته، والبراءة ممن خالفهم ونصب لهم العداوة والحرب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والعاقبة للمتقين، إن الله بالغ أمره، إن الله حميد مجيد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله في كربلاء المقدسة يوم العاشر من رجب الأصب ببركة مولد الإمام الجواد عليه السلام من عام ١٤٣٦هـ، الموافق ٢٩ / ٤ / ٢٠١٥م، وتمت مراجعته وألحاق ما سقط من هوامشه في الثامن والعشرين من شهر رمضان الرحمة، الموافق للسادس عشر من تموز ٢٠١٥م.

---

(١) الاحتجاج: ١: ٦٦ ـ ٨٥.

المصادر

و

المراجع

القرآن الكريم.

١. آداب عصر الغيبة، الشيخ حسين كوراني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٠م.

٢. الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي ع، د. رحيم محمد سالم، مركز الشهيدين الصدرين، ط١، بغداد، ٢٠٠٧م .

٣. إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، محمد بن الحسن بن علي بن الحسين الحر العاملي، تقديم: السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٤م.

٤. الاحتجاج، الطبرسي، مؤسسة الصفاء للمطبوعات، ط١، بيروت، د.ت.

٥. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، تحقيق وتعليق: محمد باقر الخرسان، مركز الأبحاث العقائدية، النجف الأشرف، ١٩٦٦م.

٦. إدارة الأفراد، د. مهدي حسن زويلف، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، ٢٠١٠م.

٧. الارشاد، الشيخ لمفيد، تحقيق: مؤسسة أهل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، ط٢، قم، ١٩٩٣م.

٨. الاستيعاب، ابن عبد البر، تحقيق: محمد علي البيجاوي، دار لبنان- الجيل، بيروت.

٩. الأسفار العقلية الأربعة، صدر الدين الشيرازي، مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية، قم، ١٩٦٨م.

١٠. الأصول من الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، تعليق: علي أكبر الغفاري، تصحيح: محمد الأخوندي، دار الكتب الإسلامية - مطبعة الحيدري، ط٥، طهران، د.ت.

١١. إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق: مؤسسة أهل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، ١٩٩٤م.

١٢. إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب، الشيخ علي اليزدي الحائري، قم .د.ت.

١٣. الأنا والهو، سيجموند فرويد، ترجمة: د. محمد عثمان نجاتي، ط٤، بيروت، ١٩٨٢م.

١٤. الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ، هاشم معروف الحسني، دار التعارف للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٩٩٠م .

١٥. بحار الأنوار بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الاطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، ط٢، بيروت، ١٩٨٣ م.

١٦. البحث حول المهدي "عج"، السيد الشهيد محمد باقر الصدر، تحقيق: د. عبد الجبار شرارة، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط١، ١٩٩٦م.

١٧. البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير، تحقيق: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٨م.

١٨. تاريخ الصحابة الذين روي عنهم الأخبار، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، تحقيق: بوران الضناوي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٨م.

١٩.

٢٠. تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، السيد شرف الدين علي الحسيني الاسترابادي النجفي، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عج، قم، ١٩٨٦م.

٢١. تفسير القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم القمي، تحقيق: السيد طيب الموسوي الجزائري، النجف الأشرف، ١٩٦٦م.

٢٢. التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ٢٠٠٩م.

٢٣. حياة الإمام الحسن العسكري، باقر شريف القرشي، مركز الأمير لإحياء التراث الإسلامي، ط١، النجف الأشرف، ٢٠٠٧م.

٢٤. دراسات في علم النفس الإسلامي، د. محمود البستاني، دار البلاغة، ط٣، بيروت، ٢٠٠٠م .

٢٥. دراسة في علم النفس الإسلامي، د. أبو القاسم الحسيني، ترجمة: ناصر النجفي، مجمع البحوث الإسلامية، ط١، مشهد، ٢٠٠٦ م .

٢٦. السوسيولوجيا العابرة، نظرية معرفة تاريخ، أ.د. متعب مناف جاسم، المركز العلمي العراقي، بغداد، ط١، ٢٠١٠م .

٢٧. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، مؤسسة الصفاء للمطبوعات، ٢٠١٢م.

٢٨. صحيح ابن حبّان، محمد بن حبّان بن أحمد بن حبان التميمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢م.

٢٩. صحيح البخاري، البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١م.

٣٠. الصورة الفنية معيارًا نقديًا، د.عبد الاله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ١٩٨٧ م.

٣١. طرائق تدريس الدراسات الاجتماعية، د.فخري رشيد خضر، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط١، عمّان، ٢٠٠٦م.

٣٢. عصر الظهور، الشيخ علي الكوراني العاملي، مكتب الاعلام الإسلامي، ط١، ١٩٨٩.

٣٣. عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، صححه وقدم له وعلق عليه: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، ط١، بيروت، ١٩٨٤م.

٣٤. الغيبة، الشيخ الطوسي، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني، والشيخ علي أحمد ناصح، مؤسسة المعارف الإسلامية، ط١، قم، ١٩٩٠م.

٣٥. الغيبة الصغرى والسفراء الأربعة، الشيخ فاضل المالكي، مركز الابحاث العقائدية، ط١، قم، ٢٠٠٠م.

٣٦. الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، السيد محمد تقي المدرسي، كربلاء المقدسة، ٢٠٠٧م.

٣٧. فلسفة إدارة الجودة في التربية والتعليم العالي - الأساليب والممارسات - د. هناء محمود القيسي، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، ٢٠١١م.

٣٨. فلسفة التحليل النفسي، محمد عنداني، دار القلم العربي، ط١، حلب، ٢٠٠٣م.

٣٩. القرآن وعلم النفس الإدراك الإنساني، د. عبد العليّ الجسماني، الدار العربية للعلوم، ط١، بيروت، ١٩٩٧ م.

٤٠. قضاء أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، محمد تقي التستري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٢م.

٤١. الكافي، يعقوب بن محمد الكليني، تحقيق: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، ط٣، قم، د. ت.

٤٢. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بـ(ابن الأثير الجزري)، راجعه وصححه: د. محمد

يوسف الدقاق، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٤، ٢٠٠٣م.

٤٣. كتاب سليم بن قيس، تحقيق: محمد باقر الأنصاري الزنجاني، ط١، قم، د.ت.

٤٤. كتاب الغيبة، محمد بن ابراهيم النعماني، تحقيق: فارس حسون كريم، ط١،قم، ١٩٩٩م.

٤٥. كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، صححه وقدم له وعلق عليه: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، ط١، بيروت، ١٩٩١م.

٤٦. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين بن حسام الدين، ضبطه وفسر غريبه: الشيخ بكري حياني، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان ١٩٨٩م .

٤٧. لسان العرب، ابن منظور، طبعة دار المعارف، بيروت، د. ت.

٤٨. مبادئ علم النفس، د.محمد بني يونس، دار الشرق للتوزيع والنشر، ط١، عمان، ٢٠٠٤م .

٤٩. المجازات النبوية، الشريف الرضي، تحقيق: طه محمد زويني، قم، د.ت.

٥٠. المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، محمد باقر الحكيم، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، ط٢، النجف الأشرف، ٢٠٠٦م .

٥١. المجتمع الديني عند العلامة الطباطبائي، محمود نعمة الجياشي، مركز دراسات فلسفة الدين، ط١، بغداد، ٢٠١٠م .

٥٢. مجتمعنا، محمد باقر الصدر، إعداد: محمد علي أمين، دار المرتضى، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م .

٥٣. المجتمع والتاريخ، الشهيد مرتضى مطهري، دار الزهراء، قم، ٢٠٠٥م .

٥٤. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار الأعلمي، ط١، بيروت، ١٩٩٤م.

٥٥. المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، محسن الفيض الكاشاني، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٢، بيروت، ١٩٨٣م.

٥٦. مراحل الطاغوت، حاتم الحسني، مجلة سبيل: عدد ٩، ٢٠٠٨ م .

٥٧. المسائل العشر في الغيبة، الشيخ المفيد، تحقيق: فارس الحسون، مركز الابحاث العقائدية، قم، ١٩٩٣م.

٥٨. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، ط١، ١٩٩٨م.

٥٩. مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي، تحقيق وتعليق: إرشاد الحق الأثري، دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة ،مؤسسة علوم القرآن- بيروت، ط١، ٨٩٨٩م.

٦٠. مسند أحمد، الامام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت، د. ت.

٦١. المصنف في الأحاديث والأخبار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة، جدة، ط١، ٢٠٠٦م.

٦٢. معاوية، عبدالباقي قرنة الجزائري، دار التفسير، ط٢، قم، ٢٠٠٦م.

٦٣. المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، علي الكوراني العاملي، ط١، قم، ٢٠٠٦م.

٦٤. مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، دار الأضواء، ط٢، بيروت، ٢٠٠١م.

٦٥. مقدمة في النقد الأدبي، د.علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٨٣م.

٦٦. الملاحم والفتن (التشريف بالمنن في التعريف بالفتن)، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس (السيد ابن طاووس)، مؤسسة صاحب الأمر عج، ط١، أصفهان، ١٩٩٥م.

٦٧. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٩٩٢م.

٦٨. من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ط٢، قم المقدسة،١٩٧٢م.

٦٩. مهارات الاتصال، المهندسان علاء محمد القاضي وبكر محمد حمدان، دار الاعصار العلمي للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠١٠م.

٧٠. موسوعة علم النفس والتحليل النفسي - إنجليزي - عربي، د. عبد المنعم

الحفني، نشر مكتبة مدبولي، دار العودة، ط١، بيروت، ١٩٧٨م .

٧١. موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب، العلامة الشيخ عبد الحسين احمد الأميني النجفي (ت١٣٢٠ـ١٣٩٠هـ)، تحقيق: مركز الغدير للدراسات الإسلامية، بإشراف: آية الله السيد محمود الهاشمي الشاهرودي، الناشر: مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي،إيران، قم، ط٢، ٢٠٠٤م.

٧٢. الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطائي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د.ت.

٧٣. النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تقي الدين أحمد المقريزي، تحقيق: صالح الورداني، الهدف للإعلام والنشر، ط١، ٢٠٠٢م.

٧٤. النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، إيان كريب، ترجمة: د.محمد حسين غلوم، عالم المعرفة ٢٤٤، الكويت، ١٩٩٩م .

٧٥. نظرية تراسل الحواس، الأصول - الأنماط - الإجراء، د. أمجد الفاضل، المركز العلمي العراقي، ط١، ٢٠١٠م .

٧٦. نهج البلاغة بشرح محمد عبده، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ٢٠٠٨م.

٧٧. وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ١٩٨٧م.

المحتويات

الإهداء.. ٧
المقدمة ١١

الباب الأول: جدلية الحضور والغياب

المبحث الأول: دواعي الحضور.................................٢١
أوّلاً : تصديق النصّ ٢٦
ثانياً: ضرورة إقامة العدل ٤٤
ثالثاً: ضرورة الهداية لإتمام الحجة على الناس ٤٧
المبحث الثاني: أسباب الغياب...................................٥١
أوّلاً : غلبة أهل الباطل...٥٥
ثانياً: مضلات الفتن ٦٢
المبحث الثالث ٦٩
مظاهر الحضور في الغياب...٦٩
أولاً : الهداية وإسداء النصيحة ٧٤
ثانياً: قضاء حوائج الناس وحفظ حقوقهم..................................٨٠
ثالثاً: تربية الناس ودفعهم نحو التكامل ٨٤
المبحث الرابع : الحركة الإيجابية.......................................٨٩
أولاً : التزيُّل ٩٣
ثانياً: الشوق ١٠٢
ثالثاً: الاستعداد..١٠٦
رابعاً: الصبر..١١١

خامساً: التمحيص بالانتظار ١١٥
سادساً: رحمة من ضاق وسعهم ١١٧
سابعاً: التربية ١٢١
المبحث الخامس ١٢٧
أولا: التفرّق ١٢٨
الطائفة الأولى: طائفة الطبقة الحاكمة ١٣٠
الطائفة الثانية: طائفة الأتباع ١٣١
الطائفة الثالثة: طائفة الأعوان ١٣١
الطائفة الرابعة: طائفة الهمج الرعاع ١٣٢
الطائفة الخامسة: طائفة المستضعفين ١٣٣
الطائفة السادسة: طائفة الانعزاليين ١٣٤
الطائفة السابعة: طائفة المظلومين الرافضين ١٣٤
ثانياً: الانكماش ١٤٤
ثالثاً: الشك ١٥٦
رابعاً: الازدواجية ١٦٥
خامساً: اليأس من الفرج ١٧٣
المستوى الأول ١٧٦
المستوى الثاني ١٧٦
المستوى الثالث ١٧٦
المبحث السادس: الانتظار والمبادرة ١٨١
أولاً: الانتظار الإيجابي ومبادراته ١٨٥
ثانياً: الانتظار السلبي وحركاته ٢٠٥

ألف : حركات التحرر المزعوم ٢٠٥

باء : حركات الإفساد.............................. ٢١٠

جيم : حركات التغافل ٢١٢

الباب الثاني: لوازم القيام

المبحث الأول: الحاجة الواعية ٢٢١

أولاً : الإحساس بالمشكلة والتنبه إلى الخطر.................. ٢٢٧

ثانياً : معرفة الحل والتوجه لطلبه ٢٤٣

ثالثاً: الحضور الفاعل ٢٦٢

المبحث الثاني.. ٢٦٧

الحضور النفسي ٢٦٧

أولا : النفس النامية النباتية............................ ٢٧٠

ثانيا : النفس الحسية الحيوانية ٢٧٠

ثالثا : النفس الناطقة القدسية............................ ٢٧٠

رابعا : النفس الكلية الإلهية.............................. ٢٧٠

المبحث الثالث : الحضور العقلي ٢٩٥

أ : ملازمة الوحي والتسليم له............................... ٣٠٤

ب : التعقل والتدبر والتفكر في آيات الله سبحانه ٣٠٤

ج : التحقق من الحق والميز بينه وبين الباطل الذي قد يلتبس ٣٠٦

د : حسن التدبير في كيفية ملازمة الوحي حين تضيق المسالك...... ٣٠٧

المبحث الرابع : الحضور القلبي............................ ٣٠٩

المرحلة الأولى ٣١٧

أ: الحواس الخمس الظاهرة.................. ٣١٧
ب: الحواس الباطنة وهي عديدة ٣٢٠
ج: المنافذ الخفية ٣٢٩
١. الغفلة.................. ٣٣٠
٢. الوسواس ٣٣٩
٣. الأمنية ٣٤٧
الأول ٣٥١
الثاني.................. ٣٥١
المرحلة الثانية.................. ٣٥٣
١. «في حلالها حساب» ٣٥٧
٢. «في حرامها عقاب» ٣٦٣
٣. «من أبصر بها بصّرته» ٣٧٠
٤. «من أبصر إليها أعمته» ٣٧٧
المرحلة الثالثة.................. ٣٨٤
المبحث الخامس: من أحوال القلب ٤٠١
حال الامتناع والتفريط وتقابلها ٤٠٢
حال التقبل والوعي والحفظ ٤٠٢
حال النفاق وتقابلها حال الإخلاص ٤٠٥
حال القلق وتقابلها حال الاطمئنان.................. ٤١١
حال الإثم وتقابلها حال البرّ.................. ٤١٧
حال الفظاظة والغلظة وتقابلها حال الرحمة واللين ٤٢٣

حال التقلب وتقابلها حال الثبات ٤٢٦
حال الانفصال وتقابلها حال الاتصال ٤٣٣
حال الكفر وتقابلها حال الإيمان........................ ٤٣٥
حال الغفلة وتقابلها حال الإنابة بالذكر ٤٣٨
حال المرض وتقابلها حال السلامة ٤٤١
حال التكبر وتقابلها حال التواضع والتذلل ٤٤٩
حال الختم وتقابلها حال الشرح ٤٦٧
حال الضلال وتقابلها حال الهدى ٤٧٥
حال الغياب وتقابلها حال الحضور أوالشهادة........................ ٤٨٩
المبحث السادس: النصرة وأبعادها........................ ٤٩٩
التسليم مقترنا بالرضا والطاعة ٥٠٧
أولاً: التسليم رهبة........................ ٥١٦
ثانياً: التسليم رغبة........................ ٥١٧
الولاية........................ ٥١٩
الأولى: من المتولي إلى الوليّ........................ ٥٢٩
الثانية: من الوليّ إلى المتولي ٥٢٩
البراءة ٥٣٠
المصادر والمراجع........................ ٥٥٩
المحتويات ٥٧١